

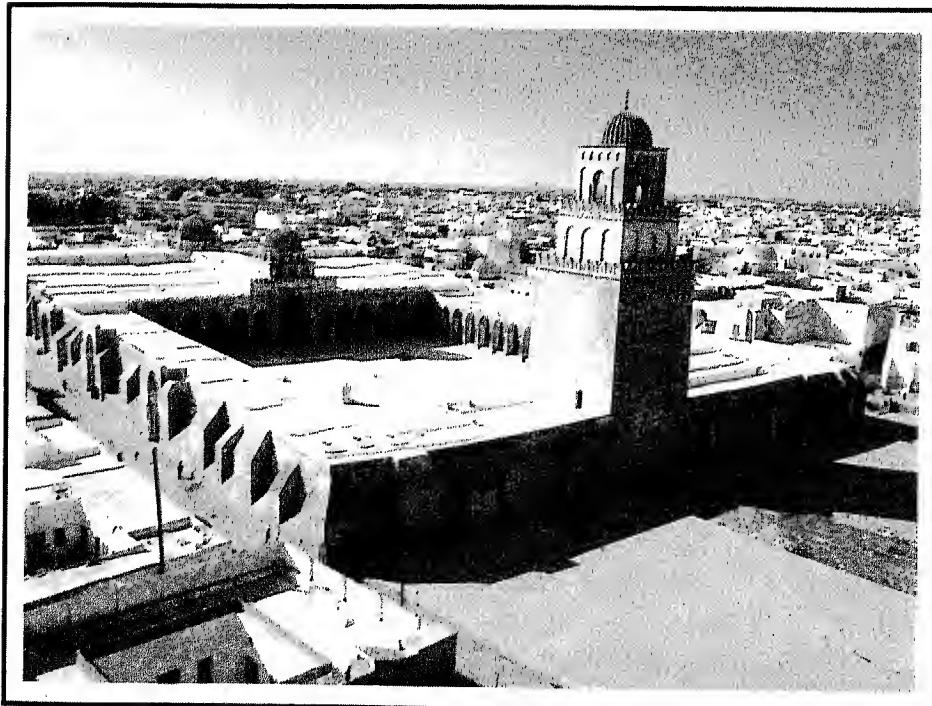
مُوَرِّيسْ لُومْبَارْ

# الاسلام في مهد الادول

من الفرن 2 إلى الفرن 5 هـ (11-8 م)

ترجمة وتعليق

إسماعيل العربي



منشورات دار الأفاق الجديدة  
المغرب

## اهداءات ٢٠٠٣

د/ رشديي أبو العزايشه عبد المرسول  
كلية الهندسة - جامعة الإسكندرية

NC  
297.09

لعمد  
١٤

مُوَرِّيسْ لُومِبَارْ

١١٦

# الاسلام في مهد الادول

من الفرن 2 إلى الفرن 5 هـ (8-11 م)

ترجمة وتعليق

إسماعيل العربي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية



مشرفات دار الأفاق الجديدة  
المغرب

١٧٠٤

Pr. Maurice LOMBARD

# **l'Islam dans sa première grandeur**

© FLAMMARION - PARIS

الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ — ١٩٩٠ م  
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

## مقدمة الطبعة الثالثة

أصبح كتاب «الاسلام في مجده الأول» عملاً كلاسيكياً يتمتع بالشهرة التي يستحقها عمل جادٌ به قريحة أستاذى المرحوم، موريس لومبار الحالد الراحل، ولم تلبث الطبعة الأولى أن نفدت وتركت فراغاً في السوق مما حدا بالناثر إلى إعادة طبعه، وهذه الطبعة الثانية نفذت بدورها منذ عدة سنوات فلم تسمح الظروف الصعبة التي يمر بها الناشر بإصدار طبعة ثالثة تستجيب للطلب الملحق بين جمهور القراء من الجامعيين وغيرهم، وهذا الاعتبار هو الذي دفعنى لأن أعهد به إلى دار مهمة للنشر سبق أن نشرت لي أربعة أو خمسة كتب في بيروت وتقوم الآن بنشر كتاب آخر في الدار البيضاء.

إنني لسعيد حقاً أن أقدم الطبعة الثالثة من كتاب «الاسلام في مجده الأول» للقراء وأن أغتنم هذه الفرصة لأثنى على عميد «دار الآفاق الجديدة» لما أبداه بشأن هذا الكتاب وغيره من رحابة الصدر وإدراك اكتسبه من خبرته الطويلة في عالم النشر للقيم الثقافية.

أعتقد أن مقدمة الطبعة الأولى التي شرحت فيها خلفية اتصالي بالمؤلف الراحل وظروف ترجمة الكتاب لا تزال صالحة للطبعة الثالثة.

قلت الطبعة الثالثة ولكنه كان الأولى أن أتحدث عن الطبعة الرابعة لو اعتبرت الطبعة غير الشرعية التي صدرت للكتاب في بيروت، ولكن موضوع هذه الطبعة المسروقة لا يزال، على الرغم من مضي السنين يثير في نفسي الحزن والألم.

عقب انتهاءي من ترجمة الكتاب مباشرة عرضته على الرئيس والمدير العام، السيد امازوز، للشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، وبعدما اطلع عليه ترائي له أن لا يودعه ضمن عشرات الكتب التي كانت مركونة في خزائن الشركة بسبب ضياعها وسائل الطبع التي كانت تحت تصرفها، فاتخذ قرارا بشأن الكتاب وعهد به إلى شخص كان يعمل في إحدى دور النشر في لبنان ويعمل في نفس الوقت وكيلاً للشركة الجزائرية، ليعهد به إلى إحدى المطابع في بيروت لطبعه لحساب الشركة، وبسرعة.

وكذلك سلم المخطوطة إلى السيد ع.ن. وطلب منه الارسال في طبع الكتاب. ولما عاد هذا الشخص إلى الجزائر بعد وقت سأله الرئيس أمامي عن تقدم العمل في الطبع وكم كانت دهشتنا قوله حينما أجاب بأنه لايزال يبحث عن طابع يسرع في العمل فيه، ومرت الشهور ولم يصلنا خبر عن طبع الكتاب ثم عاد السيد ع.ن بالمخطوطة كما هي معتقداً بأنه لم يعثر في بيروت عن طابع سريع؟

ولكن الحقيقة هي أنه عثر فعلاً عن طابع وطبعه بسرعة فائقة ولكن ليس لحساب الناشر الجزائري، بل لحساب ناشر مزور في بيروت.

وكذلك ظهر الكتاب في بيروت قبل أن يسلمونا السيد ع.ن. المخطوطة وبعنوان «الإسلام في عظمته الأولى»، ولما حصلت على نسخة من هذا الكتاب المزور لم يقتض الأمر سوى تقليل صفحاته لأدرك بسرعة أن الترجمة هي ترجمتي، بعد حذف المقدمة والهوامش وبعد حذف اسم المترجم، لكي يضمن الناشر أصالة التزييف. كيف تفاهم ع.ن. مع الناشر المزيف؟ وماذا كانت عمولته أو مكافأته؟ لا نعرف شيئاً عن ذلك، ولكنه عندما رفع الرئيس والمدير العام بعد اكتناعه بالتزوير الأمر إلى وزير الثقافة أصدر الأخير تعليماته بإلغاء توكييل ع.ن. وبعدم الالتجاء إلى خدماته بعد ذلك للوساطة لشراء الكتاب التي كانت الجزائر تستوردها من لبنان.

وبعد ذلك أعطت الشركة أولوية في برنامجها لطبع الكتاب فصدرت الطبعة الأولى في وقت قصير نسبياً. تلك صفحة محنة من تاريخ الترجمة العربية لهذا الكتاب ولكنه كان لابد من سردها للأمانة.

## مقدمة المترجم

تربطني بهذا الكتاب الذي حرصت على ان يشاركتني القارئ العربي متعنتي به واستفادتي منه ، أكثر من وشبيحة واحدة . ففي المكان الاول ، يدخل الموضوع الذي يعالجه ضمن الموضوعات التي تهمني وأبحث بعض جوانبها . والكتاب من وضع أستاذى الراحل ، موريس لومبار الذى ادين له بالتجيئ والارشاد والذى فتح أمامي آفاق البحث والمعرفة الحديثة وقد خطاها المتربدة في صبر وعطف في منعرجان التاريختين الاسلامي ، وكشف لي عن بعض أسرار هذه الحضارة الاسلامية التي ننتمي إليها ونفتز بها جميعا . ولكن الرابطة الكبرى بيني وبين هذا الكتاب ، هي انه كان جزءا من محسولي العلمي ، حيث أن الاستاذ كان قد القى علينا خلاصته في قاعات الدرس بجامعة السربون ، في شكل محاضرات . والقاريء يستطيع أن يتصور دهشتي حينما تصفحت هذا الكتاب لأول مرة واكتشفت أنه سبق لي أن قرأته ! نعم ، فقد رسمت في ذاكرتي الخطوط الرئيسية لما يحتوي عليه من النظريات والأفكار ، كما نقشت فيها تلك المخططات والخرائط التي طسما رايتها ترسم بالطباسير على السبورة ، والتي لا تزال كراسى المدرسة التي اصررت لون ورقها ، تحمل كثيرا منها ..

و قبل هنا وبعد ذلك كله ، تربطني بالكتاب تلك الروح التي كتب بها والتي سيلمسها القاريء منذ الصفحات الأولى : روح العالم المتضلع والذي يملك أدوات للبحث لم يتح لي أن اعرف احدا يملك مثلها ( كان الاستاذ لومبار يستعمل ثلاث عشرة لغة للبحث ) ، وذلك مع توافع وزاهة في البحث ، وتعاطف مع الاسلام ، بلغ به حدا يتحدث معه عن القرآن الكريم بأنه « الكتاب الذي اوحى به الى محمد » نعم ، فان نظره لومبار تخرج به عن دائرة أولئك المستشرقين الذين سخروا أنفسهم بطريقه مباشرة او غير مباشرة لمساعدة الاستعمار على فهم عقليات المسلمين و « (الأهالي) » ، بقدر ما كان بعيدا عن أولئك الذين ينظاهرون بالليل الى السلفية ، او باعتناق الصوفية ، وعقيدتهم المسيحية اشد ما تكون صلابة ! فان الاستاذ لومبار الذي تعمق في تاريخ الاسلام والشرق ، لم يعرف هذه المنطقة الا عن طريق الأرشيفات والحفريات وآثارها

الحضارية . وأما السياسة الشرقية ، فلم يكن يتسع لها وقته ولا يميل إليها طبعه ..

كان الاستاذ لومبار هو المشرف على رسالتي ، وبعد انقضاء مرحلة الدراسة اتصلت العلاقة بيننا وشمني بعطفه وتساءلنا عددا من الرسائل تلقيت بعضها أثناء اقامتي في بنغازي (ليبيا) وتلقيت آخرها مع النص الفرنسي لرسالتي عن جرافية ابن سعيد المغربي ، أثناء اقامتي في لندن في اوائل الستينات . وفي رسالته ، مثل ما كان الحال في محادثاته ، كان يختني على مواصلة البحث والدرس (وبفضل ارشاده اتجهت للدرس دولةبني حمد ) ، وقد كان يرى ان العمل في مجال التعليم يساعد الباحث على مواصلة الدرس . ولكن ما الحيلة ! فحتى الشخص الذي لا يؤمن بالجبر والقضاء والقدر ، لا يستطيع ان ينكر أن يدا خفية (ولنسهمها العناية الالهية ) تمسك بخيوط غير مرئية متصلا بمقاديرنا ! فان السنوات التي قضيتها في ادارة التعليم العربي على رأس لجنة التعليم العليا في نطاق جمعية العلماء ، والتحارب المتواضعة التي اكتسبتها في هذا المجال ، قدر لها ان تذهب ادراج الرياح ، حيث تلقيتني مهنة الاعلام في المرحلة الاولى ، والديساو ما سمية في مرحلة تالية . ان فكرة التجاوح والفشل فكرة نسية بدون شك ، ولكنه اذا كنت قد حققت تجاوها مهنيا ما ، فهو ، بالتأكيد ، ليس هو النجاح الذي تمناه لي الاستاذ لومبار ، حينما علم اتنى أشتغل في مكتب رئيس وزراء ليبيا .

والهم ان هذا الكتاب الذي وجدت نفسي مدفوعا الى ترجمته يرتبط بحياتي العلمية ارتباطا وثيقا ، الامر الذي حملني على بذل اقصى الجهد حتى لا تفقده الترجمة شيئا من اصالته وعمقه . ولذلك قبل ان امضي في عرض الملاحظات التي تعنى لترجم كتاب ، عادة ، يجب ان استارع لآخر القارئ بان الكتاب الذي بين ايدينا نشر (في سنة 1971 ) بعد وفاة موريس لومبار ، وبالتالي ، فهو لم يتخذ الشكل الذي كان يود المؤلف ان يضعه فيه . ومضمونه كما سبق ان اشرنا ، يمثل الماده التي القاهما لومبار في شكل محاضرات في مدرسة الدراسات العليا (السريون ) وفي مدرسة المعلمين العليا ، خلال الفترة 1957 - 1960 . وقد قام جماعة من زملائه ، وعلى راسهم المؤرخ بروديل والاستاذ انسري ميجويسيل ، الاستاذ بالكوليج دوفرن ، باعداد هذا النص للطبع . وهذا الاخير هو الذي تولى وضع علامات الكتابة والنطق على احرف الكلمات العربية بالطريقة التقنية المعروفة بين المستشرقين .

والطريقة التي اعتمدتتها للترجمة تقوم على اسس الترجمة («الشاملة») ، اي عدم اهمال اي معنى من معاني النص الاصلي . ونظرا («المجالطي») السابقة لهذا النص ، فاني لم اواجه اية صعوبة في الترجمة ، وذلك فيما عدا التعرف على الاماكن والأشخاص التاريخية وابعادها بالاسماء

التي ترد بها في الكتب العربية . وهذه ، كما يعرف كل باحث ، مهمة شاقة للغاية ، ولم يكن من الممكن التغلب عليها لولا المساعدة القيمة التي قدمها لي من قبل مورييس لومبار نفسه . فان هذه الصعوبة هي نفسها التي واجهتها حينما قمت بترجمة « كتاب الجغرافيا » لابن سعيد إلى الفرنسية ، ولكن في صورة عكسية ، أي ، التعرف على الأماكن والأشخاص العربة وكتابتها كما تسمى بالفرنسية أو اللاتينية . وانا اعترف أن يد لومبار طويلة وفضله كبير في إنجاز تلك الترجمة التي ستنظهر قريبا ان شاء الله .

والشكلة الأخرى التي واجهتها منذ البداية ، هي حجم الهوامش ومداها . فان مما لا ريب فيه أن المادة الفنية التي يحتوي عليها الكتاب لتغري الباحث ببذل مجهد للإضافة والزيادة بالتعليق والخواشي ، ولكنه نظرا لأن العمل لم يظهر في شكله الكامل بسبب التزوف المسؤولية التي أشرت إليها ، فقد رأيت الا تتجاوز هوامش المترجم الإطار الفعلي الذي ظهر فيه النص . وكذلك تجنبت التعليق عن صميم الموضوع بقدر الامكان واكتفيت ببعض الشروح التي تتناول ، خصوصا سير الأعيان ، والتي من شأنها أن تلقي ضوءا عاما على الموضوع . ولنفس الأسباب أحجمت عن الإجالة الى مراجع المؤلف . فلو عاش لومبار وقدر لهذا العمل أن يخرج كهلا ، لكان من المرجح أن تتجاوز مراجع الكتاب الف مرجع . ونحن نذكر في هذا السياق أن كتاب المؤلف المعروف « التقدمة من الاسكندر الى محمد » يحتوي على 730 مرجعا - بالإضافة الى ببليوغرافيا عامة - مع أن النص لا يتتجاوز 200 صفحة » . والتعليقات التي وضعتها تتحدى شكل ادراج ضمن قوسين في النص متى كان التعليق صغيرا ، ولا يتتجاوز كلمة أو كلمتين ، ولكنه متى كان طويلا ، اتخذ شكل تخرير بالأرقام العربية ووضع في أسفل الصفحة .

وفي الجملة ، اشعر بالرضا للطريقة التي قامت بها الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بنشر هذا النص ، ولا سيما ما يتصل من ذلك بالخطط والخرائط التي بذل العاملون في قسم النشر مجهودا فنيا يستحق التنويه لا خراجها على الصورة التي هي عليها . والشيء الوحيد الذي يقلل من غبطيتي ، هو أن يظهر كتاب « الاسلام في مجده الاول » وصاحبته قد غادر هذا العالم ، لأنني اعرف أنه لو وصل هنا العمل الى المسلمين في اللغة العربية في حياته ، لكان ذلك مبعثا لسرور لا حد له في نفسه . ولكن الأشخاص يذهبون ، والخلود لأعمالهم ، متى كانت تستحق الخلود .

اسماعيل العربي

الجزائر في 20 يونيو 1978



## تمهيد

تعتبر العصور الوسطى العليا — ابتداء من بناء القسطنطينية في القرن الرابع حتى اتساع نطاق الحروب الصليبية ، منذ القرن الحادى عشر الميلادى — تعتبر هذه العصور فترة شرقية فى التاريخ .

وهذه الملاحظة تصدق، خصوصاً، على القرون الثلاثة التي تمتد من منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن الحادى عشر ، والتي تمثل قمة ما حققه العالم الاسلامي . فان المراكز الموجهة للحياة الاقتصادية والثقافية في العالم في تلك الفترة كانت كلها تقع في الشرق الاسلامي . وأما الغرب المسيحي؛ فلم يكن يمثل سوى فراغاً ، حيث كان النشاط الاقتصادي والثقافي قد انحصر عنه منذ الانحطاط والتدحر الذي أصاب الامبراطورية الرومانية، وغزو البرابر (1) لأرضه .

ولكن فهم اقتصاد العالم الاسلامي بعد ما بلغ أوج نشاطه يتطلب نظرية الى الوراء ، وبخصوصاً ، الى عهد الفتوحات الاسلامية « الفترة التي تمت بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن الميلادي » ، فان هذه هي الفترة التي تشكلت فيها معالم العالم الاسلامي الأساسية .

---

1 - نطق كلمة « البرابرة » في هذا الكتاب على العصابات المسلحة « القوط والوندال والبورجند والسويف والأفار الخ » التي قامت بغزو الامبراطورية الرومانية خلال الفترة التي تمت بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادي ، واستقروا اباطرة الغرب وشكلوا دولات هنا وهناك ، وبذلك نيز بين هؤلاء الأقوام وبين السربس سكان افريقيبة الشمالية ، وذلك على الرغم من أن هذه التفرقة لا يوجد ما يبررها من حيث الاشتراك ، حيث ان اليونان الدين وضموا كلمة البربر كانوا يطلقونها على جميع الشعوب غير اليونان « بما في ذلك الرومان » ، وفي عهد متأخر تبنى الرومان هذه الكلمة ووضموا انفسهم مكان اليونان وكانتا يسمون « البربر » جميع الشعوب التي لا تنتمي الى الحضارة الرومانية — المترجم .

## عهد الفتوحات :

قام بالفتحات الإسلامية الأولى عرب الجزيرة من البدو الرحل وغيرهم ، فكانت هذه هي القوة العسكرية الأولى للإسلام . بقيادة قريش مكة الذين هم من الحضر . ي Sarasون التجارة ويجهزون القوافل . وفيما عدا الصحراء ومناطق الرعي في شبه الجزيرة العربية . اتجه الفتح العربي منذ البداية إلى بلاد الهلال الخصيب . بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر .

ولكنه إلى جانب هذا العنصر العربي (الأصلي) . ففتح جيش الإسلام صفوه للمجندين من أبناء البلاد المفتوحة . وهذه العناصر المحلية ستتوسع نطاق حركة الفتح الأصلية . وكذلك اتجه الإيرانيون إلى فتح آسيا الوسطى ، بينما اتجهت العناصر السورية المصرية إلى فتح إفريقيا الشمالية ، ليقوم البربر بدورهم (في مرحلة تالية) بفتح الأندلس وجزيرة صقلية .  
وهؤلاء الفاتحون العرب ، أو غير العرب . سوف لا يشكلون إلا أقلية في البلدان التي أحضوها . وقد كان دورهم التاريخي هو تكوين منطقة دينية سياسية واسعة وتوحيد بلاد وشعوب مختلفة في مملكة كبيرة ليتصهروا بعد ذلك في الشعوب القديمة التي أحضوها . وبذلك استرثت الجماعات والشعوب الشرقية القديمة في نشاطها التقليدي بدون انقطاع في ظل الإسلام وتحت لواء الخليفة . وأما العرب الذين خرجوا من الصحراء ، فيسيطرون في العراق وايران وفي مصر . وهي بلاد ذات واحات ومدن كبيرة عرف سكانها بـ تقاليد تاريخية قديمة . وتستمد جذور الحضارة فيها إلى أعماق التاريخ . فـان بلاد الشرق قد أنتجت حضارة من أقدم حضارات العالم .

والعنصر العربي (الأصلي) الذي يشكل المرجة الأولى للفاتحـين . إنما خـرج من الصحراء ، وذلك على عـكس العـناصر التي خـرجـت من المناطق الخلـفـية ذات الغـابـات والـأراضـي الزـراعـية (أوروبا الوـسطـيـة) :

أو ذات الملاعي (آسيا) من كانوا يشكلون الاحتياطي البشري للبرابرة الغزاة الذين استقروا في أمواج متعاقبة في أرياف الغرب ذي الغابات الواسعة والضعف السكان . وفي هذه الحالة (حالة العرب) ، كان الفاتحون لا ينصلرون بسرعة في جموع سكان الحواضر ذوي الحضارة المتفوقة . وكذلك كان العرب ينزلون في المدن ، أو في ضواحي المدن التي سرعان ما تشكل نواة مدن أخرى ، مثل الكوفة والفسطاط والقيروان . وهذه الظاهرة تفسرها ضرورة المحافظة على نمط الحياة العربية بميل سكان الحواضر العرب إلى التجارة ، وما يشعر به البدوي من أغراء المدينة، وكل ذلك مع الكره الشديد للأعمال الزراعية وللاستقرار في المناطق الريفية . فان جميع عناصر العرب الفاتحين كانت توافق الى الاستمتاع بما توفره حياة المدن من المرات . ولكن العناصر التي لم تكن قابلة للانصهار ، سرعان ما تدفع نحو الصحراء ومناطق الرعي ، وأحسن مثال لهذه العناصر ، هم بنو هلال الذين سيسحلون من صحراء الجزيرة العربية الى سيناء في المرحلة الاولى ، ثم من سيناء الى برقة وبقية بلدان المغرب في المرحلة التالية .

لقد احتفظت شعوب الشرق القديمة : الأرمن والفرس والمصريون ، بكيانها تحت الفتح الإسلامي . فماذا كان دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ، يا ترى ؟

من الناحية السياسية كانت نتيجة الفتح ، قيام دولة إسلامية في رقعة فسيحة من الأرض كان الخليفة رمزا لها . ومن الناحية الدينية كان من تائج الفتح ، نشر الإسلام ، ذلك الدين الذي يقوم على القرآن الذي أوحى به الى محمد . ومن الناحية اللغوية ، أدى الفتح الى اتساع انتشار اللغة العربية . وأخيرا ، فقد نجم عن الفتح الإسلامي ، من الناحية الاقتصادية اتحاد أراضي مختلفة في تكتل اقتصادي كبير . على أن انتهاء الفتوحات كان ايذانا بتقلص العنصر العربي واندماجه في

الشعوب القديمة : الايرانيين والساميين والمصريين والبربر والأندلسيين . وهذه أيضا هي الحالة في المرحلة الثانية ( من الفتح ) . وقد لاحظ المؤرخون خصوصا ضآلة القوات التي ساهمت بها سورية وضعف العنصر البربرى بين سكان الأندلس في القرن العاشر الميلادي (2) .

كيف نعمل تلك السهولة والسرعة التي تست بها الفتوحات الإسلامية الأولى على يد عدد صغير من الفاتحين ؟

لقد كانت لدى العرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسن استقبال الشعوب القديمة السامية والسورية وما بين النهرين ومصر واعتبارهم محررين لهذه البلاد . فعلى جانب العلاقات الاتنوغرافية واللغوية التي تربطها بالعرب ، كانت هذه الشعوب قد خضعت عهودا طويلة لحكم روما ثم لحكم بيزنطة في الغرب ، ولامبراطورية الساسانيين الفرس في الشرق . وكذلك كانت هذه الشعوب في حالة ثورة دائمة ضد ادارة القسطنطينية واكتزيفون (3) وكانت ثورتهم ، كما هي حالة الثورات في الشرق دائما ، ذات طابع ديني في الظاهر ، ولكنها ثورات اجتماعية في الصميم . وقد اهتز عرش بيزنطة بالبدع ومخالفة المأثور ، وبنظرية النساطرة والمذهب الذي لا يعترف الا بطبيعة واحدة للمسيح ، وهي كلها نظريات تتعارض مع المذهب الرسمي الذي تدين به الكنيسة الشرقية . وفي مملكة الساسانيين ، كانت المانوية والديانة اليهودية والمسيحية وغيرها من المذاهب تنتشر معارضة للمزدكية ، الديانة الرسمية .

وفي مقابل كل ذلك ، نجد أن اتجاه الرسالة الإسلامية نحو الديمقراطية والمساواة ، وابتعادها عن النظرة الوطنية الضيقة ، كان

2 - راجع : LEVI-PROVINCIAL — *L'Espagne musulmane au X<sup>e</sup> siècle : Institution et vie sociale*, Paris, 1932, pp. 8 et suiv. ....

3 - Ctésiphon مدينة اشورية تقع على دجلة وكانت مقرا في الشتاء للملك البرت Parthes ثم للملوك الساسانيين من بعدهم . «المترجم»

يستجيب للحركات الثورية الاجتماعية والدينية في البلاد المفتوحة . وهذا الاعتبار ، هو الذي سهل ، على الأقل جزئيا ، الفتوحات الإسلامية . ومن جهة أخرى ، فإن الرغبة في استباب الأمن واستقرار السلام تدفع بسكان المدن إلى الانضواء تحت لواء الفاتحين الذين يتظرون منهم الحماية من الفوضى وعبيث البدو . والمقاومة المتصلبة الوحيدة التي واجهها الفتح الإسلامي في نهاية الأمر ، هي تلك التي أبدأها البربر ، الذين قاوموا قرطاجنة وروما قبل العرب ، وقاوموا الترك بعدهم . وكذلك ظل البربر تحت الحكم الإسلامي في حالة مقاومة صريحة أو مكتومة .

وعلى كل حال ، فإن عدم تشدد الفاتحين ، وفتورهم ، بل وتشككهم في الأمور الدينية ، قد سهل قيام علاقات مرضية بينهم وبين الشعوب المغلوبة على أمرها . وكذلك نجد أن الفاتحين لم يمارسوا الاضطهاد أو القهر لحمل هذه الشعوب على اعتناق الدين الإسلامي . والشرط الوحيد الذي فرضه العرب ذو طابع ضريبي . فإن معاهدة الصلح التي يوقعونها طبقاً للإجراءات المعمول بها آنذاك مع السلطات الدينية المحلية ، تضمن ، في مقابل ضريبة (الجزية) يقوم أعيان مختلف الجماعات بجمعها ، حرية العقيدة الدينية واستمرار النشاط الاقتصادي .

وقد تمت الفتوحات الإسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع في مجرى الحياة العامة . بل إن الحالة السابقة للفتح قد استمرت كما كانت في جميع المجالات : المؤسسات والأجهزة الإدارية والموظفين والإجراءات وأعمال المكاتب وجمع الفرائب ، وأخيراً العملة المتداولة . فإن الدرهم الساساني المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطي المضروب من الذهب . سيستمر تداولهما في البلاد المفتوحة حتى القرن الثامن الميلادي . وعلى الصعيد الاقتصادي . استمرت المدن وشبكات الاتصالات التجارية ( وهي هيأكل حيوية ) بدون تغيير يذكر . فإن

ضريبة القمح التي تجبي على الفلة السنوية في مصر والتي كانت توجه إلى روما في البداية ، ثم إلى القسطنطينية لدى تحول السلطة الإمبراطورية إلى هذه المدينة ، لم تلغها السلطات الإسلامية بعد فتح مصر ، وإنما اكتفت بتحويلها ، عن طريق البحر الأحمر ، إلى عواصم الجزيرة العربية ، ثم إلى دمشق ، عاصمة الخلفاء الأمويين . وكذلك احتفظ المسلمين بجباية الضرائب ، ولكن لصالحة الجماعة الإسلامية وحدها . وقد كان فرض الضرائب على غير المسلمين مظهرا من مظاهر الفتح الاقتصادي ، حتى شعر الخليفة بالتهديد بفقد الدخل من الضرائب بصورة متزايدة ، نتيجة للاقبال على اعتناق الإسلام ، ففرض ضريبة عقارية شملت المسلمين وغير المسلمين على السواء .

والملاحظ أيضا أن الفتوحات الإسلامية لم ينجم عنها شيء من التغريب والتدمير . فإن الفاتحين المسلمين لا يحرقون ولا ينهبون المدن المفتوحة . والحالة الاستثنائية الوحيدة التي تستحق الذكر ، هي حالة قصور السياسيين التي كانت تحتوي على كنوز من الذهب . وبالتالي . فإن الفتوحات الإسلامية لم يرافقها اضطراب في الحياة المدنية . وقد كانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الإطارات الإدارية والطاقات الذهنية . وكذلك لعب المسيحيون واليهود والفرس الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، أو الموالي ، كما كانوا يسمون ، دورا حاسما في إقامة دعائم هذه الحضارة التركيبة ، الحضارة الإسلامية . وحتى الموضوعات اللغوية ، مثل تنظيم قواعد النحو (العربي) وبعض المسائل التي تتصل بتثبيت نص القرآن بصفة نهائية ، ستكون مجالا لتدخل غير العرب من أبناء الشعوب الشرقية القديمة الذين كانوا يتمتعون بتدريب تقني ذهني فائق .

وهكذا كان الشرق الإسلامي ، أي أراضي السياسيين قدما (العراق وأيران) وأراضي بيزنطية (سوريا ومصر) ، بمثابة بوتقة

اصهر مختلف عناصر حضارة تركية ستنتشر فيما بعد في جميع أنحاء العالم الإسلامي . شرقا نحو آسيا الوسطى . وغربا نحو إفريقيا (تونس وشرق الجزائر) والمغرب الأقصى وأسبانيا وصقلية .

ومن هذا الامتداد الحضاري ؛ نشأت في القسم الشرقي في ممتلكات الساسانيين والبيزنطيين القديمة ، حركة استمرار تعززت وأصبحت قاعدة الانطلاق ، وفي القسم الغربي قامت نهضة وتجدد حقيقي .

وعلى عكس نظرية بيرين الشهورة (4) ، فنحن نعتقد أن الغرب إنما يمكن من الاتصال بالحضارات الشرقية ، وعن طريقها بالحركات التجارية والثقافية العالمية ، بفضل الفتوحات الإسلامية . فيبينا نلاحظ أن الغزوات الكبرى التي قام بها البربرة في القرنين الرابع والخامس الميلادي قد نجم عنها تدهور اقتصادي في الغرب الميروفانجي ثم الكرولانجي (نسبة إلى شرمان) ، نجد أن قيام الإمبراطورية الإسلامية قد كان من تداعيه نمو مدهش لهذا الغرب المسيحي نفسه . فإذا كان الغزو الجرمانى قد أسرع بتدحر الغرب ، فإن الفتوحات الإسلامية قد تسببت في انبعاث حضارته . وباختصار ، فإن المشكلة التي قامت في الغرب بشأن غزو البربرة وبشأن الاستمرار أو التدهور ، يجب حسمها ، في حالة الفتوحات العربية في جميع أنحاء المملكة الإسلامية ، بالتأكيد بعدم وجود انقطاع . بل ، زيادة على ذلك ، فإن هذه الفتوحات كانت نقطة انطلاق عظيم في طريق النمو والتقدم والازدهار .

4 - راجع : H. Perenne, *Mohamed et Charlemagne*, 4<sup>e</sup> éd., Paris-Bruxelles, 1937.

والمقالات المجمعـة والـتي نـشرـها تحت عنـوان : P.E. Hubinger  
*Bedeutung und rolle des islam Beim Übergang vom Altertum Zum Mitteralter*  
(wege der Forschung, 202) Darmstadt, 1968.

## انتشار الاسلام واللغة العربية والعنصر السامي :

يجب أن نطرح ثلاث مشاكل ، كلا على انفراد وبوضوح ، وهي :  
نشر الاسلام ، وتعريف البلدان المفتوحة ، وتأثير العنصر السامي فيها .

فاتشوار الاسلام ، معناه اعتناق سكان البلدان المفتوحة للدين الجديد . وقد ساعد على انتشار الاسلام الامتيازات الفريبية التي كان يتمتع بها من يعتنقون الاسلام وينضوون تحت لوائه . وبعبارة أخرى ، الماء الجزيء التي يدفعها غير المسلمين .

وأما التعريف ، فيجب أن نفهمه بمعناه اللغوي فقط ، وأما الدم والعرق العربي ، فهو لا يكاد يكون ملحوظا فيه (5) .

وأما التقاليد العربية الحقيقية ، فإنها لم يتنقل منها الى البلدان المفتوحة الا الشيء اليسير . وأما الشيء الذي يسمى في كثير من الأحيان ، غلطا ، بالتعريف ، فهو انما يعني في الحقيقة اعتماد مجموعة من التقاليد والنظريات السامية والشرقية ، وتقبل بعض الأفكار الأخلاقية والمحظورات المقدسة ، والروايات التي تتعلق بخلق الكون ، واطارات التفكير والتطبيق ، مما هو شائع بين الشعوب السامية (أو بعبارة أدق التي أصبحت سامية ) من السورين وسكان ما بين النهرين ، وخصوصا طبقات السكان التي هي بمثابة المحرك للنشاط : سكان المدن الذين تجمعت فيهم روابط الحضارات القديمة - تلك الحضارات التي علمتهم الدقة والسلوك المذهب والفنون الثقافية والتجارية ، وال الحاجة الى نظام اجتماعي ثابت

5 - ينبغي الا يغيب عن اذعاناً ان المؤلف يتحدث عن التراثات الاسلامية الاولى وعن الفترة الزمنية التي حددها لنمله هذا ( بين القرن الثامن والقرن العادي عشر الميلادي ) . وبالتالي ، فهو لا يأخذ الى الاعتبار هنا تلك النتائج الا ثمغرالية الهمة لبعض حركات المجرة العربية ، مثل التي وقعت أثناء غزوبني ملال لشمال افريقيا . « المترجم »

الدعائم ، كما جردهم أيضا من « الفضائل الحرية » — وهي خصائص شائعة بين شعوب العصور القديمة — مما احتاج الامر معه الى الاتجاه الى الجنود المرتزقة . والفتحات الاسلامية ، هي أولاً وقبل كل شيء عبارة عن معارك اتصر فيها العرب البدو الذين خرجوا من الصحراء سالكين طرقا واضحة المعالم لينقضوا على مدن عامرة تحيط بها أرياف وفلاحون يمدونها بما تحتاج اليه من المنتجات .

والفتحات الاسلامية بعد ذلك ، هي من عمل البربر وصنهاجة (الرجل) وسكان الجبال من قبيلة كتامة . وفي مرحلة تالية ، أصبحت من عمل الأتراك والأكراد والدilemيين . فمن هذا الاحتياطي من المحاربين المرتزقة ، جند الاسلام قوته العسكرية .

واما تأثير العنصر السامي ، فهو شيء آخر ، انه عبارة عن حضارة مدن الشرق القديمة ، وهي تتركب من عناصر فارسية وهلينية ، انتشرت خارج الاراضي السامية بواسطة عدد من الطرق والوسائل . فقد انتشرت هذه الحضارة في المكان الاول عن طريق اللغة العربية التي هي لغة القرآن ، ولغة الحكومة ، ولغة المكاتب ، ولغة التبادل التجاري بين البلدان المتبااعدة ، ولغة الحضارة الأدبية والعلمية . فان تفكير اليونان والايريانيين والهنود والصينيين انما وصل اليانا معظمه عن طريق الترجمة باللغة العربية ، أي بواسطة أداة سامية . وكذلك سلك التأثير السامي الطرق التجارية التي استخدمتها المشارقة ، وهجرة جماعات صغيرة وتكوين مجتمعات دينية في نقاط استراتيجية في التجارة العالمية . وهذه الجماعات من الرواد ستقوى وتتعزز بفضل مهاجرين جدد . وفي نفس الوقت اتسع نشاط هذه الجماعات التيكثر عددها وراحت تستكشف مناطق جديدة وتقسم المزيد من المراكز ، بينما تحتفظ بمؤخرة مواقعها لتراجع اليها عند الحاجة ، وبوسائل تقطع أحيانا ، بسبب الخلافات ، وتقوى أحيانا أخرى وتشتد ، باعادة التكتل والتجمع . وكذلك تولدت الجماعات اليهودية التي

تكتب باللغة العربية أو الآرامية وتتحدث باللغة العربية ، والجماعات النسطورية التي تكتب اللغة السريانية وتتحدث باللغة العربية .

ونلاحظ أخيراً أن العمليات الثلاث التي حللناها باختصار : انتشار الاسلام واللغة العربية والتأثير السامي ( عن طريق الحضارة ) ، كانت المدن مسرحها ، في بداية الأمر . فان مناخ المدن كان ملائماً لها ، نتيجة لنوع من الانسجام الذي كان موجوداً من قبل . ومن المدن ، امتدت هذه العمليات الى البيئة الريفية . ونحن نعرف أن العالم الاسلامي كان خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر ، مركزاً لحركة عظيمة لعمان المدن . والمناطق التي قوي فيها عمران المدن ، كانت هي المناطق الاولى والتي تتأثر أكثر من غيرها بهذه العمليات . وأما المناطق الأخرى ، فستظل وقتاً طويلاً تعيش على هامش هذه الحركة . بل ان بعض المناطق ستفلت الى الابد من هذا التأثير . وكذلك نرى معارضة تقوم في افريقيا الشمالية بين المدن الواقعة تحت التأثير العربي والتأثير الشرقي ، وبين جبال البربر التي لا يكاد التأثير الاسلامي يمس في سكانها الا قشرة سطحية .

### فضاء الفتوحات : العالم الاسلامي

يشمل الامتداد الجغرافي للفتحات الاسلامية ما بين آسيا الوسطى وأسبانيا – في داخل هذه الحدود أو في المناطق الخاصة لنفوذ الاسلام الاراضي التي تقع في قلب العالم القديم . وقد كانت هذه الاراضي في ذلك العهد ، أهم مناطق العالم من الناحية الاقتصادية ، باتجاهها الزراعي والصناعي والمعدني ، وخصوصاً بتنظيمها التجاري : تجهيز الموانيء ، وشبكة طرق القوافل ، وأخيراً بنشاط سكانها . وقد أصبحت موارد تلك الاراضي منذ الآن تتمتع بقنوات واسعة للتسويق كما كانت موضوعاً لنشاط اقتصادي فسيح الرقة .

كانت الاراضي ذات التربة الخصبة هي : الاراضي الواقعة بين دجلة والفرات ومصر ، وهي بلدان قديمة ذات واحات وامكانيات للري ، وكذلك تشمل هذه الاراضي سهول افريقيا الشمالية الخصبة التي تنتج القمح والزيت كما تشمل الاندلس .

وأما الاراضي التي تنطوي أحشاؤها على المعادن ، فهي تشمل القوقاز وببلاد الأرمن وافريقيا الشمالية واسبانيا .

ولكنه الى جانب هذا الانتاج المعدني المباشر ، كان العالم الاسلامي يسيطر على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية في العالم : افريقيا الجنوبيّة الشرقية والسودان وآسيا الوسطى .

وأما المراكز الصناعية التي سجلت تقدماً كبيراً ، فهي تقع في ايران وببلاد ما بين النهرين وسوريا والدلتان المصرية .

وقد كان لدى العالم الاسلامي موانئ كبيرة تستقبل سفنه وتشتمل على أحواض لبناء وتصليح السفن ، وتقديم البحريين المدرسين على شؤون الملاحة . وفي هذا المجال كان لدى العالم الاسلامي ثلاث مجمعات فسيحة : موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر التي يسير منها البحريون العرب والفرس سفناً في اتجاه المحيط الهندي . ويكملا هذه المجموعة نظام الملاحة النهرية في دجلة والفرات . وتأتي بعد ذلك موانئ سوريا ومصر ، وفي مقدمتها ميناء الاسكندرية الذي تكمله الملاحة في نهر النيل . وأخيراً ، موانئ مضيق صقلية ومضيق جبل طارق . وتلحق بها الملاحة في نهر اشبيلية وقرطبة ( الوادي الكبير = Guadlquivir ) .

وكذلك كان لدى العالم الاسلامي عدد من المدن التي كانت مراكز تجارة القوافل وتتمتع بتنظيم محكم للنقل وتشرف على طرق التجارة التي تنطلق من بلاد ما بين النهرين ( نحو سوريا غرباً والى ايران

وآسيا الوسطى شرقاً) ومن الجزيرة العربية، وطرق التجارة التي تسر عبر الصحراء. وهذا النظام الذي يقوم على شبكة من طرق المواصلات. يتطلب توفير حيوانات النقل الضرورية (الجمال والخيول والبغال والحسير) وموظفين وعمالاً ومرشدين أكفاء وتجاراً ومبرهرين للقوافل يهدونها بالزاد والعتاد. وقد كان سكان الشرق الذين يطلق عليهم اسم «السوريين» أو «المغارقة» والذين كانوا يسكنون بزمام التجارة العالمية، خير خلف للفنيقيين في هذا المجال.

ومن جهة أخرى، فقد كان رصيد الذهب الآتي من قصور الساسانيين ومن الكنائس البيزنطية، مورداً يعزز قوة العالم الإسلامي الاقتصادية، تلك القوة التي تقوم، خصوصاً، على الدور الذي كان العالم الإسلامي يلعبه بوصفه محتكراً لتجارة المرور (الترانزيت) بين الشرق الأقصى والمحيط الهندي والغرب من جهة، وافريقياً الوسطى والبحر الأبيض المتوسط، من جهة أخرى.

وكذلك كان الإسلام يحتل موقعاً حيوياً عند مفترق الطرق التجارية الكبرى في ذلك العصر، ولم يكن يفلت من سيطرته سوى طريق تجارية واحدة: تلك الطريق التي كانت تربط الشرق الأقصى ومنغولياً وأسيا الوسطى متوجهة إلى السهول المجرية. إنها طريق الرحل؛ تلك التي تستد في شمال الحضارات الآسيوية القديمة وحضارات البحر الأبيض المتوسط. طريق ثانوية عريضة. وكذلك كان يفلت من سيطرة العالم الإسلامي مركز تجاري واحد، وهو بيزنطة.

وهكذا تتضح لنا قيمة موقع العالم الإسلامي في قلب العالم القديم. فالإسلام ليس بحضارة هبطت إلى الأرض من كوكب آخر فجأة، وبدون مقدمات. ولكنه يتصل اتصالاً وثيقاً بالبيئة والمناخ التاريخي الذي يحيط بمهده وبالرقة الجغرافية التي انتشر فيها.

وفيما يتعلق بالمناطق التي يقطنها السود ، من شواطئ افريقيا الغربية حتى شواطئ افريقيا الشرقية ، فقد كان مجيء الاسلام اليها حدثا تاريخيا عظيما ويشكل أساسا لتاريخ افريقيا الحديثة .

ومن جهة المحيط الهندي ، سينتشر الاسلام في تلك الأصقاع حتى يشمل أندونوسيا .

وفي آسيا الوسطى ، سيتعرض العالم التركي والصين معا ، لنفس التأثير . فان الفتوحات الاسلامية الاولى ، سيكون من تائجها اعتناق الترك للدين الاسلامي . وهؤلاء الترك سيقومون بدورهم بنشر الاسلام في الصين .

وأخيرا ، فقد سلك الاسلام ، من جهة بيزنطة والغرب المسيحي ، الطرق المؤدية من البحر الابيض المتوسط الى أروبا الوسطى وحتى البلاد الواقعة على بحر البلطيق . وقد كان انتشار الاسلام في هذا الاتجاه مصدر التقاء للتنيارات ومثار تدخل ، اذا تذكرنا مطامح اسكندنافيا للتوسيع ، من جهتها ، في اتجاه البحر الأسود وبحر قزوين .

وجميع هذه المناطق والبلدان ، كانت تشكل آفاقا اقتصادية واسعة لنشاط المسلمين الاستكشافي . وقد ترك الاسلام في كل منها آثارا لا تمحى من الناحية الدينية بانتشار هذا الدين بين السكان ، ومن الناحية التجارية ، كما تشهد بذلك قطع النقد الاسلامية التي اكتشفت في هذه الأصقاع . ومن جميع هذه البلدان كان التجار المسلمين ينقلون سلعا متعددة يتذمرون منها أساسا لتيارات قوية للتبادل التجاري .

واما مركز العالم الاسلامي ، فهو يقع في المناطق التي تمتد بين الخليج العربي والبحر الاحمر ، والبحر الابيض المتوسط ، والبحر الأسود ، وبحر قزوين . وكذلك نجد أن العالم الاسلامي تلتقي في أحضانه منطقتان

اقتصادياتان كبيرتان : المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط . فان هاتين المنطقتين اللتين اجتمعا في العصر الهليني ، ثم افترقا لتشكلان عالمين متنافسين ، الروماني - البيزنطي ، والبرتني - الساساني ، سلتا حماهما وتشكلان وحدة اقتصادية من جديد ، بفضل الفتوحات الاسلامية .

وهذه الوحدة تقوم على أساس علاقات تجارية واسعة بطرق القوافل وبالطرق البحرية ، والعملة الشائعة التداول ، الدينار الاسلامي ، واللغة التجارية الدولية حينئذ ، اللغة العربية . وقد سهل قيام هذه العلاقات ، تفتح العالم الجديد وتقبله للفنون والتكنولوجيا وتشجيعه لنشر طرق الاتصال في جميع البلدان الاسلامية والتآلف بين طرق الاتصال البيزنطية والشرقية .

وأخيرا ، كان من أهم العوامل التي سهلت الوحدة الاقتصادية المذكورة عودة ظهور أسواق الاستهلاك الكبرى للتجارة العالمية في المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، في شكل مدن جديدة (القيروان وتونس وفاس) واتعاش بعض الأسواق القديمة (مثل اشبيلية وقرطبة وبورج ) .

فإن هذه المراكز الجديدة الواقعة في غرب العالم الاسلامي سترتبط ارتباطا وثيقا بالمراكم الشرقية القديمة المقابلة لها والتي من بينها مراكز أنشأها الهلينيون ، مثل الاسكندرية وانطاكيه ، وأخرى بناها العرب ، مثل القاهرة وبغداد .

وهذه الحقيقة الأخيرة جوهرية . فان قيام شبكة جديدة من المدن واتعاش مدن قديمة ، نسيم العالم الاسلامي الجديد باطار اقتصادي واجتماعي وثقافي . وكذلك ارتبطت كل مدينة بأخرى بشبكة من العلاقات التي كانت مهمة ، لأن المدن كانت نقط الارتكاز والمراكم الحركة للحياة الاقتصادية في العالم الاسلامي ونحن نلاحظ أن سيطرة المدن

وتنوّقها كان من الأمور الرئيسية الثابتة خلال الفترة التي ندرسها ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى . فمن سيرفند الى قربة . كانت الحضارة الاسلامية ترتكز على المدن التي يتربّد عليها الرجال وتستقبل السلم والأفكار الآتية من كل صوب . وهذه الحضارة الموحدة ، حضارة تركيبة تقوم على أساس حضارات أقليمية ريفية أو بدوية قديمة .

وكذلك تصور العالم الاسلامي . وكمّه سلسلة من الجزر ، التي هي المدن ، ترتبط فيها بينها بالطرق التجارية .

وهذا التنظيم الذي يقوم على أساس أهمية المدن ، سيتعرض لضربات قاضية نتيجة للأزمات والاضطرابات والغزوّات التي وقعت في الصّف الثاني من القرن الحادى عشر . فان هذه الأحداث سيكون من تأثيرها قطع التّيارات الكبّرى للتّبادل التجارى . وبالتالي خنق المدن وتدّورها .

وفي المرحلة التاريخية التالية ، سيفقد العالم الاسلامي . وحدته ويعاني من تناقض انسامه . وسيكتسي الاسلام طابعاً وطنياً فيكون هناك اسلام تركي واسلام فارسي واسلام سوري واسلام مصرى واسلام مغربي . وبذلك نشاهد انقطاعاً في الحضارة الاسلامية وظهور العناصر المميزة للأقاليم والتي تركبت منها الحضارة الاسلامية بوضوح .

واعتباراً لما تقدم ، فسننعد الى درس العالم الاسلامي في الصفحات التالية ، ( بلداً بلداً ) . وسنبحث حالة كل بلد من الناحية الجغرافية : الظروف الطبيعية والاطار الفيزيقي والبشري ، ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية : تركيبة الحضارات القديمة السابقة وامتدادها في الأرض التي نمت فيها ، وعناصر السكان ، والتقنية التي نمتها ، والاطارات الذهنية والمعتقدات التي دخلت فيها - مع اعتبار التغيرات التي طرأة

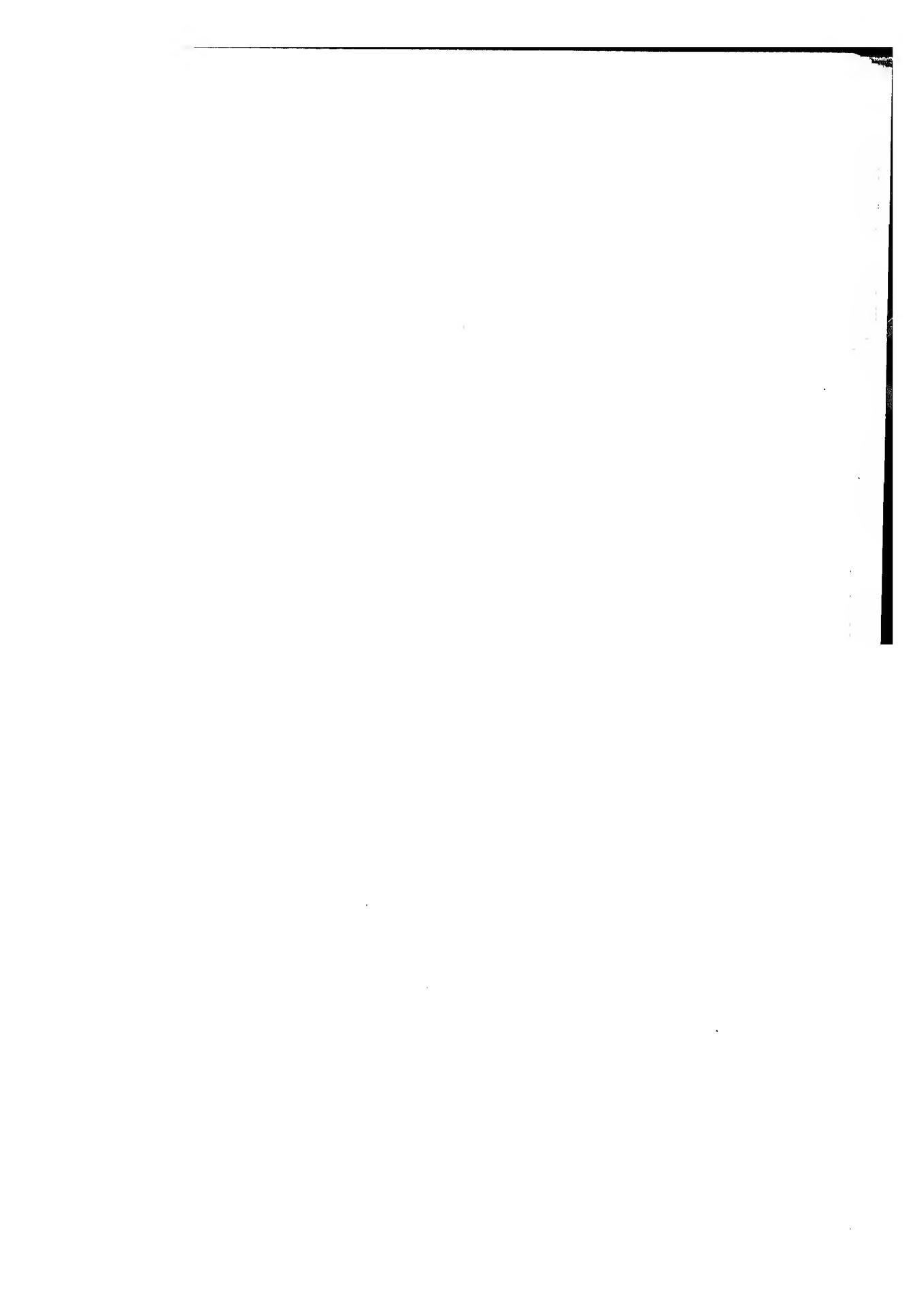
عليها تحت تأثير عوامل جديدة ، وبعد فترة وحدة الخلافة ، خلافة بني أمية ، التي انتهت في منتصف القرن الثامن ،أخذت الخصائص الاقليمية تظهر وتبلور في اطار الدول والممالك التي يسكننا أن نسميتها «قومية» الى حد ما ، بشرط الا نضمن هذه اللفظة مدلولاً حديثاً جداً : الأمويون في الأندلس ، والطولانيون والفاطميون في مصر ، والطاهريون والسامانيون في ايران الشرقية<sup>(6)</sup> فهذه الحركة المتميزة والمتعددة والتي يسميها البعض — غلطًا في رأينا — «قطعـيع أوصال الخلافة العباسية» ، فقترح تسميتها باعادة بناء العالم الاسلامي على أساس «بلاد الاسلام» .

\* \* \*

6 - يمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة صنهاجة في المغرب . «المترجم» .

القسم الأول

أراضي الإسلام الفضاء والشبكات



# الفصل الأول

## منطقة البرازخ

ستكون جزيرة العرب هي البلد الاول الذي نعالجها ، وهو البلد الصحراوي الذي خرج منه الاسلام . وبعد ذلك تأتي المناطق التي فتحها المسلمون في المرحلة الاولى : مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين .

### دور الجزيرة العربية :

لكي نفهم الدور الایيجابي ، والسلبي في نفس الوقت ، الذي لعبته الجزيرة العربية في العالم الاسلامي ؛ يجب أن تتعرض للعناصر البشرية التي كانت تميز الجزيرة في العصر الجاهلي ، ونعيده ترتيبها في الإطار الجغرافي الذي يتكون من الواحات والصحراء التي تستعمل بصفة عامة للرعي . ففي الواحات الشمالية الغربية ، مثل يرب (المدينة المنورة) يعيش مزارعون مقيمون ، وجد من بينهم محمد (صلى الله عليه وسلم) أنصاره الأوفياء ، الأنصار الذين سيتكون منهم جيشه في المرحلة الاولى .

وبعد هؤلاء يأتي سكان مدن مكة والطائف وجدة، والقريشيون الذين يشتغلون بأعمال المصارف ويمسكون بأعنة تجارة القوافل ، والتجار الذين يبيعون ويشترون عن طريق موانئ الجنوب – موانئ اليمن وعمان . وأخيراً يأتي دور البدو الذين يعيشون في القسم المعسور من

الصحراء الوسطى . وهم يستغلون بتربية الحيوانات والنقل ويرافقون القوافل ، ويتمتعون بخصائص حرية ممتازة .

فاما الأنصار ، فسرعان ما أبعدتهم البورجوازية الملكية ، حينما أدركت أهمية الدين الجديد لتجارتها وأنضوت تحت لواء الاسلام ، وقد اعتمد حزب الأمويين في الغزو على قوة البدو الحرية ، أولئك البدو الذين سيتركون لهم الأسلاب والغنائم والذين سيضمنون نفوذهم السياسي حتى يستقر لهم الامر في دمشق ، من حيث أنهم سيسيطرون على طرق التجارة . وبذلك فقد قلب الجزيرة العربية (الحجاز ونجد ) كثيرا من سكانه ومن قوته الاقتصادية . وكذلك انصر البدو تدريجيا في حضارات مدن الشرق القديمة حيث ستستمر العناصر المحلية في ملء الدواعين والكتابة باللغة الفهلوية أو اليونانية وتلعب دورا سياسيا في غاية الأهمية .

على أن الحركة كانت لا تزال مستمرة في عهد الأمويين بين شبه الجزيرة العربية والبلدان المفتوحة ، وكثيرا ما دفعت السلطات بالبدو العصاة إلى الصحراء . وكذلك قام الخليفة عبد الملك في أوائل القرن الثامن الميلادي بابعاد قبائلبني هلال وبني سليم إلى منطقة قناة السويس (سيناء) حيث كانوا يرافقون القوافل ويعيشون حياة البدو على السلب والنهب . وأحفاد هؤلاء القوم هم الذين سيطّلّقهم الفاطميون في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي لتخريب افريقية . ومع ذلك ، فإن خلفاءبني أمية حافظوا على صلات عاطفية بالصحراء العربية عن طريق حاشيّتهم والمقربين إليهم ، وبسبب تأثيرهم بالشعر الجاهلي الذي يصف حياة الصحراء . وكذلك كان للخلفاء قصور مبنية بالحجر ، ولكنه كانت لديهم أيضا خيم يضربونها في صحراء سوريا ، وبادية الشام . على أن هذه الصلة بالصحراء والبادية ستنتقطع حينما تولى الحكم العباسيون وأعواذه من بني خراسان الذين جاءوا من شرق ايران .

وابتداء من القرن الثامن ، سيدهر المركز السياسي لشبه الجزيرة العربية التي أهملتها الدولة الجديدة . وهذا ما وقع بصفة خاصة لمركز شبه الجزيرة التجاري : فان مكنة والمدينة قد كفت كلتاهما عن القيام بدور المركز الرئيسي لتجارة القوافل . ونظرا لتحول طرق القوافل البيزنطية والائرانية الى سورية والعراق نتيجة للفتوحات ، فقد فقدت هذه المنطقة دور الوسيط ومركزها التوجيهي القديم . ولما تمت للخلفاء السيطرة على الطريق التي تسر بالبحر الاحمر والطريق التي تمر بالخليج العربي ، ابتداء من القرن الثامن ، أهملوا الطريق البرية التي تسر بوسط الجزيرة العربية . فقد كانت السفن في عهد الامويين لا تزال تفرغ شحنات القمح المصري في ميناء جدة . ولكن شبه الجزيرة العربية أخذت تعاني من الشلل الاقتصادي تدريجيا ، حتى أصبحت في عزلة في العهد العباسي . وكذلك نجد أن شحنات القمح المصري لم تعد تتجه الى مكة والمدينة ، كما كانت الحال من قبل ، بل حولت الى ما بين النهرين والى بغداد . وقد كان ينقل بواسطة السفن التي تبحر البحر الاحمر والخليج العربي ، حتى ميناء مدينة البصرة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه النتيجة السلبية فقد استمر نشاط جانبي في الطرق الكبرى في الجزيرة .

ولكن مجالا معينا ستحتفظ فيه شبه الجزيرة العربية بدور ايجابي ، حيث ستبقى محور الحياة الدينية الاسلامية ، بمكة والكببة ، والمدينة ، وقبور الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وبالطرق التي تلتقي عند مكة آتية من مصر ، وسورية ، والعراق ، والمحيط الهندي ، والحبشة ، استقبل قلب الجزيرة العربية تيارات متضاربة من الأفكار والمذاهب والديانات ، مثل المزدكية واليهودية ، واليسوعية الشرقية ، والبوذية ، والعقائد السحرية الآتية من بلاد الزنوج ، وكلها نجد لها ردود فعل في القرآن . وهذه الطرق

نفسها هي التي سلكها النحون . وهي الآن طرق يسلكها الحجاج . فالحجاج المغاربة يسلكون الطريق التي تمر بالقاهرة وبرزخ السويس . والحجاج الإيرانيون يأخذون الطريق التي تمر ببغداد والكوفة .

وحركة الحج الواسعة النطاق نجم عنها افتتاح شبكة جديدة من الطرق وتيارات اقتصادية من نوع خاص : التجارة التي تتصل بالحج لتزويد الحجاج بالمواد الغذائية والنقل والأردية والأشياء التذكارية . ولكن الحجاج أنفسهم يستغلون موسم الحج ليقوموا ببعض العمليات التجارية . والحكومة تعين من كل ذلك رسوماً وضرائب . وموسم الحج يستغله البدو أيضاً اقتصادياً لفائدةتهم الخاصة .

وعلى كل حال ، فإن بقاء شبه الجزيرة العربية محوراً للحياة الدينية ، قد أتاحت لهذه المنطقة دوراً ايجابياً كان بعيداً عن الاستغلال السياسي . حيث أن السلطة الدينية – الخليفة – إنما كان مقرها دمشق أو بغداد أو القاهرة . وأما المدن الحجازية الرئيسية فهي لا تعد كونها أماكن مقدسة .

والدور الآخر الایجابي لشبه الجزيرة العربية ، هو أهميتها في تجارة العبيد الذين يستجلبون من الجبنة والصومال وبلاد الرنج . فأن استيراد العبيد إلى الموانئ العربية – تلك التجارة التي بدأت قبل الإسلام – قد استمر واتسع بحيث أنشئ في مدينة زيد سوق خاص للعبيد السود ، في القرن التاسع الميلادي . وكذلك أصبحت المدينة مركزاً لتعليم العبيد الذين يباعون بسعر مرتفع ، فنون الغناء والموسيقى والرقص ، وقد برز بعضهم فنالوا شهرة واسعة . بل إن بعض العبيد الصقالبة والهنود كانوا يرسلون أيضاً إلى هذه المدرسة ليتعلموا فن الغناء المدني الذي كانت له حظوة خاصة عند الخلفاء العباسيين . وهذا الغناء يرافقه نوع من الموسيقى انتشر في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ثم ذاع في البلدان الغربية (الأروبية) أيضاً .

وأخيراً ، فإن أول ظهور الحصان العربي المولد من الحصان البربرى والمحصان الايراني ، إنما وقع في مرتفعات نجد حيث وجد المناخ الملائم .

وكذلك نجد أن دور شبه الجزيرة العربية في العصر الاسلامي يتلخص فيما يلي :

ان شبه الجزيرة العربية لم تعد طريقاً لتجارة المرور ( الترانزيت ) ، فهي لا تساهم في تيار التبادل التجاري الدولي الا بالطرق الجانبيه . وقد كانت لشبه الجزيرة تياراتها التجارية الخاصة والتي تسلك طرق الحجاج الذين يقصدون الأماكن المقدسة . وفي نفس الوقت كانت هذه المنطقة مركزاً لتوزيع الرقيق وتربية العبيد وتعليمهم . وهي مركز لتربيه الخيول العربية ذات الأنسب المحفوظة لخمسة أجيال .

#### دور مصر :

يقال عن مصر أنها « هبة النيل » . وقد يكون من الملائم أن نضيف أنها من صنع الله . ففي هذا البلد يبدو الإطار الجغرافي ذو أهمية خاصة .

فقد شهد وادي النيل قرونًا متعاقبة عمل الفلاحين الذي لا يفتر ، وهم يشيدون ويقومون بصيانة نظام واسع للري يستلزم عبودية وسخرة جماعية وقواعد محكمة لتوزيع الماء وتجنيداً مستمراً لليد العاملة . ونظام التسخير بدأ في العهد البيزنطي واستمر العمل به في العهد الاسلامي . وبعض أوراق البردي تشتمل على عدد كبير من الرسائل التي تتعلق بالسخرة ومصادرة اليد العاملة ، من الفلاحين الذين كانوا دائماً على استعداد للتجنيد والاستخدام .

والمحصولان الرئيسيان في مصر هما ، القمح والكتان . وفي العهد الاسلامي ، كانت مصر ، وهي احدى أبار العالم القديم ، تبعث بشحنات قمحها إلى مكة والمدينة في المرحلة الأولى ، ثم إلى بغداد فيما بعد .

وأما الكتان المصري الذي أثني عليه بلين (1) في عهد الرومان ، فقد ظل يحتفظ بسمعته في العهد الإسلامي . ونحن نلاحظ أن القطن الذي كان يزرع في سوريا ، لم تبدأ مصر في زراعته إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، أي بعد بدء زراعة قصب السكر في وادي النيل بوقت طويل .

وقد امتازت مصر في العصور الوسطى العليا ( كما هي الحال الآن ) بكثافة السكان في المناطق الواقعة على ضفاف نهر النيل . وقد وصف أحد الكتاب الذين استلقيت نظرهم هذه الظاهرة ، الشريط ( الأخضر ) الذي يمتد على جنبات النهر ، بأنه يشبه شارعا في أحدي المدن . فالى جانب المدن القديمة الموجودة في هذه المنطقة بنيت مدن جديدة . وموقع القاهرة وحده يشتمل على عدد من المدن التي من أهمها : الفسطاط ( القرن السابع م . ) العسكر ( القرن الثامن م . ) القطائع ( القرن التاسع م . ) ، القاهرة ( القرن العاشر م . ) . وقد بلغت القاهرة أوج عظمتها في القرن العاشر حينما بلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة .

وكذلك توجد تجمعات سكنية مهمة على طول النهر ، من أهمها قوص وأسوان « حوالي مائة ألف نسمة » الواقعة عند الشلال الأول .

ونهر النيل طريق مهم للمواصلات ، والارض على جنباته ترتفع باستمرار من الدلتا حتى أسوان ، وتمر فيها طرق للنقل على ظهر الجمال والحمير . ولكن النهر نفسه كان يمتاز بنشاط ملاحي نادر ، حتى قيل أنه كان يوجد فيه من السفن عدد يماثل ما كان يوجد في بغداد والبصرة مجتمعين . والسفن التي كانت تجري في النيل هي ، أما من السفن القديمة ذات

1 - كتابا في العلوم الطبيعية يعتبر موسوعة في علوم العصور القديمة ، وقد هلك أثناء نور البركان فيروق في سنة 79 م - تلك الثورة التي دفنت فيها مدينة هرقلية دوميس . (المترجم) Pline Come

الأشرعة المربعة ، أو من السفن الحديثة ذات الأشرعة المثلثة الأضلاع التي تسمى «اللاتينية» : والتي بدأ استعمالها في القرن التاسع الميلادي. وهذا النوع الأخير من السفن يسمح بالتقاط الرياح من قريب ، وهو عامل مهم في الملاحة النهرية .

والسفن التي تستعمل للسلاحة في نهر النيل ، مثل السفن الإسلامية في البحر المتوسط وفي البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي : يتطلب بناؤها كسيات كبيرة من الخشب وقد كان لدى مصر في العصر البيزنطي داران لصناعة السفن ، أحدهما في الإسكندرية ، لصنع قطع أسطول البحر الأبيض ، والآخر في قليزيمة ، لصنع السفن التي تسير في البحر الأحمر .

وأما في العصر الإسلامي ، فقد كان لدى مصر ثمان دور لصناعة السفن . فالى جانب الدارين السابقتين . كانت توجد ثلاث دور في الفسطاط «جزيرة الروضة ، والفسطاط والمكس في الشمال» ، ودار في دمياط ، ودار في الرشيد وأخرى في الصالحية على الذراع الشرقي لنهر النيل . وقد كانت الحاجة كبيرة الى الخشب لبناء السفن وللبناء والتشييد في المدن وللاستهلاك الصناعي ، في صناعة الزجاج والخزف وخصوصاً لمراجل غلي عصير قصب السكر - وعملية تنقية السكر كانت تجري في مصر ، البلد المشهور بنشاط الكيمياء في العصر الهليني .

ونظراً للحاجة المتزايدة الى الخشب . فقد كانت مصر عاجزة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي . وجسيع الأشجار في مصر ، بما في ذلك أشجار النخيل كانت مسجلة . وقد خصص احتكار الدولة لبناء السفن كل جذع شجرة أو قطعة من الخشب تصلح لهذه الغاية . ومع ذلك ، فإن البلد كان في حاجة الى استيراد الخشب من الخارج . فاما الساج ، فقد كان يستورد من

الهند عن طريق نشاط التهريب الذي كان يقوم به تجار البندقية من شواطئ بحر الأدرياتيك البعيدة .

والحضارة المصرية التي لا تملك ما يفي بحاجتها من الخشب كان يعوزها الحديد أيضاً . ولسد حاجتها إلى الأسلحة ، كانت مصر تستورد السيوف الهندية والسيوف الفرنكية التي تسمى « الفرنجية » . ونظراً لاعتبار مصر على الاتصالات مع البلدان الأخرى ، فقد كانت حضارتها مرهونة بالظروف . ولو لا موارد مصر من الذهب لما عمرت حضارتها . وذالك لأن الخشب والحديد كلاهما جوهرى لكل حضارة تعتمد على المدن .

وأما سكان مصر ، فقد كان معظمهم من القبط ( وهي تسمية أغريقية تعني مصري ) . ولكن اسم البلد القديم هو « مصر » وبالعبرية « مصريم » . وفي العصور الوسطى كان يطلق اسم « بلاد مصر » على البلد كله ، و « مصر » على العاصمة أيضاً .

والنماذج الفيزيقية لسكان مصر ثابتة ولا تقاد تغير . ونحن لكي تتأكد من ذلك ، يكفي أن نقارن الأنواع الموجودة حالياً بالجثث المحنطة منذ عهد الفراعنة . ولغة مصر ، هي اللغة الهيروغليفية التي تطورت حتى أصبحت اللغة القبطية . وأما الحروف المهجائية ، فهي الحروف اليونانية التي حررت أشكالها باضافة بعض الرموز . وسكان مصر يشكلون كتلة واحدة . والعنصر الأغريقي فيها كان يقيم خصوصاً في الإسكندرية ، وهي مدينة خارجية تبدو وكأنها أصلقت الصاقا بالأراضي المصرية . ولما استولى العرب على الإسكندرية في سنة 643 م ، هربت منها حاميتها ومعظم الأسر الأغريقية ، وبذلك اختفى هذا العنصر « اليوفاني » الأضافي . ولكنه ، في مقابل ذلك بقيت مستعمرات يهودية مهمة لم تندمج في السكان ، ولم تكن تختلط بالأقباط ، في مدينة الإسكندرية ، وفي بلبيس التي تقع على الذراع الشرقي للدلتا ، وهي منتهى الطريق الآتية من سوريا ، وفي

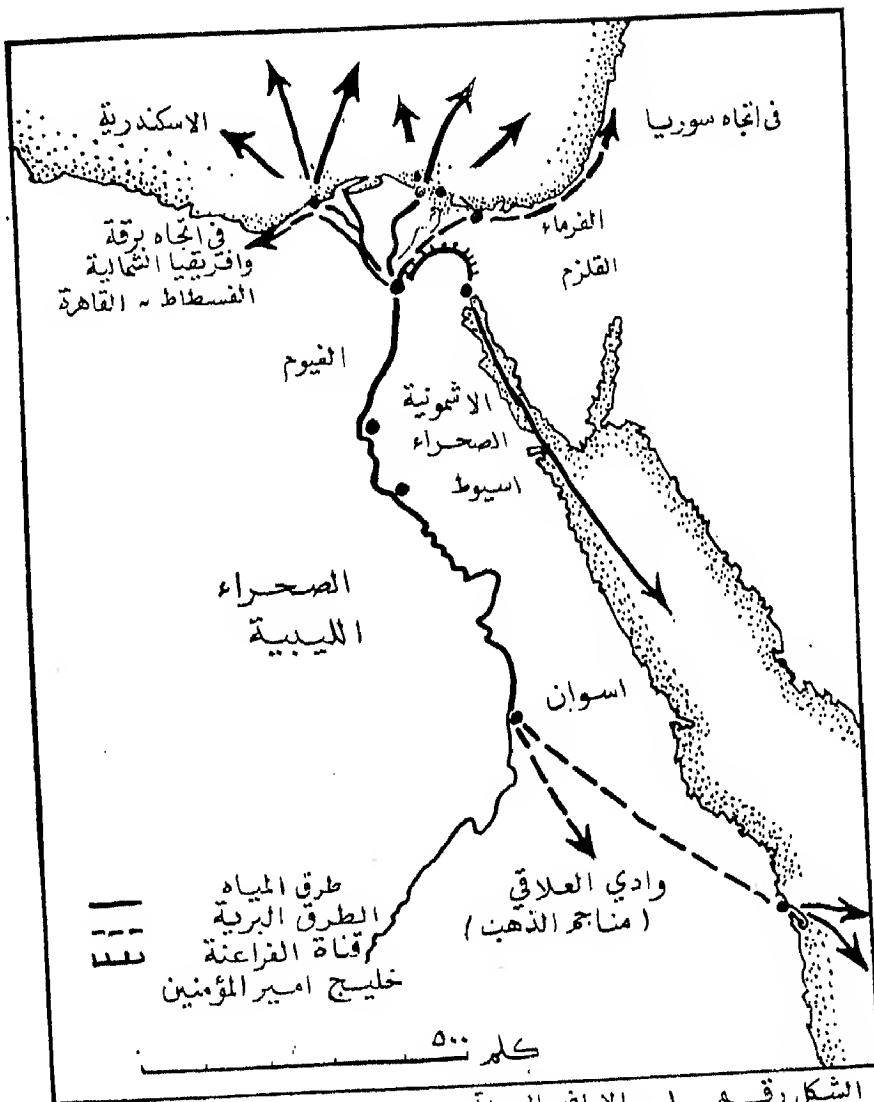
أسوان ، وفي جزيرة في النيل تقع مقابل أسوان ، وهي المنطقة التي تسافر منها القواقل في اتجاه بلاد التوبة والجشة والبحر الأحمر وفي اتجاه الفسطاط أيضاً .

وكما حدث في البلدان الأخرى المفتوحة ، لم يقع أي انقطاع في نشاط سكان مصر الاقتصادي . وكذلك عرفت الحياة الدينية استمراً ، لأن كثيراً من الفئات التي تعتنق الإسلام ، إنما تقوم بذلك تهرباً من دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين ومع ذلك فان دخل الدولة من الجزية في النصف الثاني من القرن السابع (في عهد معاوية) ، لم يكن يقل عن خمسة ملايين دينار . وهذا الرقم هبط في عهد هارون الرشيد ، في أوائل القرن التاسع الميلادي ، إلى أربعة ملايين دينار ، ليهبط من جديد بعد ذلك بقليل إلى حوالي ثلاثة ملايين دينار فقط .

وكذلك ستتحول مصر في غير عسر من المذهب السنوي إلى الشيعة ، في عهد الفاطميين .

والعنصر القبطي لم يكدر يتأثر بالفتح العربي الذي قام به عدد صغير من الغزاة الذين أحسن السكان استقبالهم واعتبرهم ، كما كانت الحالة في الشرق ، محررين للبلد وباعثين لنهضته .

كانت الشعوب الخاضعة لبيزنطة ثائرة ضد حكم القسطنطينية . وقد اتخذت هذه الثورة في مصر ، مثلما كانت الحالة في سوريا صبغة دينية : كانت هرطقة المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح تتعارض مع المباديء الأرثوذكسية التي تقوم عليها الكنيسة البيزنطية الرسمية ، وكانت عوائق أنصار هذا المذهب وطنية ، وتعتبرها بيزنطة سلبية . كتب ميشال دو سميريان في هذا السياق يقول : « لم تكون فائدة صغيرة بالنسبة إلينا أن نتخلص من قسوة الرومان وفظاظتهم ، ومن غضبهم وغيرتهم الوحشية »



الشكل رقم ١ - الاراضي المصرية

علينا ، لكنه نعم بالهدوء . والتحق أنه لم تقع أية مقاومة « وطنية » في مصر للخليفة . وأما ثورة الأقباط في سنة 829 - 830 ميلادية ضد المؤمنون ، فقد كان سببها أمور تتعلق بالضرائب . ومن ثم ، فهي تعتبر من ضمن الحركات الاجتماعية الهامة التي تسببت عن الظروف الاقتصادية الجديدة والتي شهدتها العالم الإسلامي في ذلك العصر .

وكذلك دخلت مصر ، وهي بلد ذو حضارة قديمة لم يكدر يعترى العنصر البشري فيها أي تغيير ، تحت الحكم الإسلامي . وهي تعاني من النقص في الخشب والحديد .

ولكن انتاجها الزراعي ذو أهمية عالمية ، ولا سيما من القمح وورق البردي والكتان . وقد حصلت مصر إلى العالم الإسلامي خصوصا تقنية النسيج وصناعة السجاد وصناعة ورق البردي الذي كان لا يزال مستعملا حتى تعليم استعمال الورق في القرن التاسع الميلادي وأخيرا قدمت مصر إلى العالم الإسلامي كنيات كبيرة من الذهب الذي كان مخبأ في قبور الفراعنة — ذلك الذهب الذي استخلص وأدخل في دائرة التداول ، وسيضرب منه الدينار المصري الجميل الذي تساوي ثلاثة دنانير منه ، حسب ما يروي ناصر خسرو ، ثلاثة دنانير ونصف من دنانير نيسبور (2) .

#### بلاد ما بين النهرين وسورية :

إن المنطقة التي تمتد في شكل قوس في شمال الصحراء العربية والتي تشمل سوريا وما بين النهرين ، هي التي تسمى « الهلال الخصيب ». وهذه المنطقة لا تكون من أرض متجانسة ، بل هي عبارة عن مجموعة من الواحات التي تفصل بينها هضاب مهضومة وسهوب جافة كثيرة ما تحول إلى صحراء قاحلة بين حافة هضاب وجبال الأناضول (سلسلة

2 - راجع :

NASIR, KHOSRAW, SAFERNAME, TRAD, SCHEFER, SAFER NAMEH. — Relation de voyage de Nasir Khosraw en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, pendant les années hégire, 437-444 (1035-1042), Paris 1888, p. 152.

الجبال التركية المشرفة على البحر الابيض ، وكتلة الجبال التي تمتد في شرق تركيا ) ، وحافة الهضاب والجبال الايرانية ( زغروس ولورستان ) والبحر الابيض ( من جهة سوريا وفلسطين ) . وأما الواحات ، فهي في معظمها متوسطة الاتساع ولكنها خصبة الارض بفضل امكانيات الري المتوفرة فيها ، وهي تستلزم عملاً كثيراً . ومتى انعدمت صيانة التربة فيها ، تحولت الارض بسرعة الى سهوب صحراوية ( وهو ما يحدث في اوقات اضطراب الامن ) ، وحينئذ تصبح مسرحاً ومرتعاً للبدو الرحيل .

وفي غضون الفترة التي ندرسها ، كانت المنطقة السفلية الواقعة بين الاهرين كثيرة الخصب ، بفضل الاعمال الزراعية التي أنجزت قبل عهد الساسانيين . وقد اتسعت مساحة الاراضي الزراعية فيها بفضل المناطق التي وفرت لها وسائل الري والتجميف حديثاً ، ولا سيما الاراضي الواقعة على جوانب البطائح ، حيث ينصب نهر الفرات ، وفي جنوب الكوفة – تلك الاراضي التي يكثر فيها القصب حالياً ، فالى هذه الاراضي والمستنقعات أبعدت قبائل الزط ( الفجر ) بحيواناتها ، التي تتكون خصوصاً من الجاموس ، من ضفاف نهر السند ( Indus ) وهناك أقاموا بعض الوقت حتى ثاروا على الحكم ونقلوا الى ثغور الأنضول السورية « القرن الثامن الميلادي » . والى هذه المنطقة أيضاً التجأ الزنج الذين قاموا بشورة وقاوموا السلطة في مراكب مسطحة وفي أكواخ مخفية وسط غابة من القصب ( 3 ) .

٤ - بدأت ثورة الزنج التي استغرقت نحو خمسة عشر عاماً ، بقيادة رجل ظاهر بالدعوة الى آل البيت ( احمد بن محمد بن عبد الرحيم ) في سنة 255 هـ . - وتدفع بمحنة هذا الغراساني في كسب ثقة المبدد زيد الزنج الدين التفوا حوله واحتاروا مدينة البصرة مركزاً لحركتهم بعد أن طاردوا واليها وأحرقوها واعملوا السيف في أهلها . وكذلك العباسية من الصمود في وجه طائفة الزنج الا سنة 267 هـ ، ولم يتمكن جيوش الدولة ابوالعباس الموقر الهزيمة الاولى . واخيراً تمكن المونق من القضاء على ثورة الزنج في سنة 270 هـ . ( راجع : الكامل لابن الأثير ، ج 70 ص 159 ) . ( المترجم ) .

وقد اعتمدت الحكومة في الدولة العباسية سياسة للأعمال والتنمية الزراعية ، تقوم على نظرية أبي يوسف يعقوب ، أحد علماء الفقه والاصول في العصر العباسي (4) . وهذه النظرية تمنح حق الملكية والاعفاء من الضرائب لكل رائد يستوطن الارض الموات ويحييها ؛ الامر الذي نجم عنه اتساع الاراضي المروية والمستصلحة ، ولا سيما في سواد العراق . وقد أخصبت هذه الارض ذات التربة السوداء والتي كانت تستغل لاتخ الموارد الغذائية لسكان المدن ، بواسطة الطمي الذي يحمله النهر .

وكذلك عرفت المناطق السفلية الواقعة بين النهرين . والتي كانت مركز الخلافة العباسية ، ازدهاراً مدنياً عظيماً . وقد كانت بغداد والبصرة والكوفة وواسط وسامراء (5) ، التي كان سكانها يعانون بسات الآلاف ، من أهم كبريات مدن هذه المنطقة . وكانت أرض سواد العراق ، بخصبها الطبيعي . تشبه الارض المصرية ؛ وبفضل عمل الفلاحين والمزارعين وعمال الري المستمر فيها ، تمد هذه المدن جيعاً بما تحتاج إليه من الموارد الغذائية ، ولا سيما من التمر والقمح والشعير ، بل وأيضاً بالأرز الذي كان يزرع في المنطقة منذ عهد الساسانيين والذي ستدخل زراعته إلى حوض البحر الايبيز المتوسط في العصر الاسلامي . ولكن هذه المنطقة ، على الرغم من خصوبتها ووفرة انتاجها ، كانت تستورد القمح من مصر ، والدقيق من سوريا .

وكما ذكرنا ، فإن الواحة الواقعة بين النهرين لا تشكل وحدة ، وإنما هي تنقسم إلى عدة مناطق ذات خصائص مختلفة . أولاً توجد خوزستان

4 - هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الانصاري الكوفي ، أبو يوسف 113-182 هـ . صاحب الامام أبي حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبـه . كان فقيها من حفاظ الحديث وأول من وضع الكتاب في الأصول . وقد ولـي القضاء أيام المهدـي والصادـي والرشـيد ومات في خلافته ببغداد . ومن اهم كتبـه : « الخراج » و « الآثار » وهو مستند أبي حنيفة ، و « الرد على مالـك بن أنس » . « المترجم »

5 - تقع سامراء التي تسمى أيضاً « سر من رأى » على الضفة اليمنى لنهر دجلة على بعد 100 كيلومتر شمالي بغداد . وكان المقصـم العـبـاسـي هو الذي شـيـدـها وانـحـدـها عـاصـمة لـلـكـهـ . وأـهـمـ آثارـهاـ الـيـوـمـ ، قـصـرـ المـوـكـلـ . « المـترجمـ »

التي تقع في الجنوب الشرقي لما بين النهرين والتي تشمل حوض فارون . حيث كان الساسانيون قد قاموا بتنفيذ أعمال مهمة مثل حفر السدود وقوات للري تصلح للملاحة أيضا . ومنذ نهاية عهد الساسانيين كانت هذه المنطقة تتسع كميات كبيرة من قصب السكر . تلك النبتة التي استجلبت من الهند والتي ستتوغل في الاتجاه الغربي في العصر الاسلامي . وقد كانت منطقة خوزستان أكبر مورد السكر الى جميع بلدان المشرق الاسلامي . وكان هذا السكر يشمل مختلف الانواع . ومنها البني . والسكر المشوب الذي نعرفه حاليا . والسكر الشفاف الذي أمكن انتاجه بفضل التقدم التقني الذي حققته مصر . وأما اليد العاملة في مزارع قصب السكر . فقد كانت تتألف من العبيد الزنوج ، الذين يستجلبون من شواطئ افريقيا الشرقية وينقلون عن طريق جنوب شبه الجزيرة وعمان والشواطئ الإيرانية ، مكران - كيرمان : ليصلوا الى خوزستان .

ويأتي بعد ذلك سواد العراق الذي يمتد بين البطائحة وخط ينطلق من تكريت الى هيت . وهذه المنطقة عبارة عن حقول على مد البصر يعطيها القمح والشعير والأرز وأشجار التخيل .

وأخيرا تأتي المنطقة العليا لما بين النهرين (الجزيرة) التي تشمل سلسلة من الواحات على طول دجلة (الموصل وآمد وديار بكر) والخابور حتى منعطف نهر الفرات . وهذه المنطقة في الوقت الحاضر ، عبارة عن سهوب قاحلة يجوبها العرب الرحل طلبا للسراعي . ولكنها في العصر الاسلامي ، كانت عامرة بالسكان المقيمين .

والإنتاج الذي اشتهرت به هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب ، هو قطن الخابور الذي كان يصدر الى الموصل ، ثم الى بغداد ، حيث كان

يمزج بالحرير وتصنع منه الاقمشة البغدادية المشهورة ؛ أو الى أخلاق  
وغيرها من مراكز صناعة النسيج في أرمينيا .

ومزارع القطن كانت تروي بواسطة قنوات حفرت تحت الأرض ،  
ونظام الري هذا مأخوذ عن آسيا الوسطى .

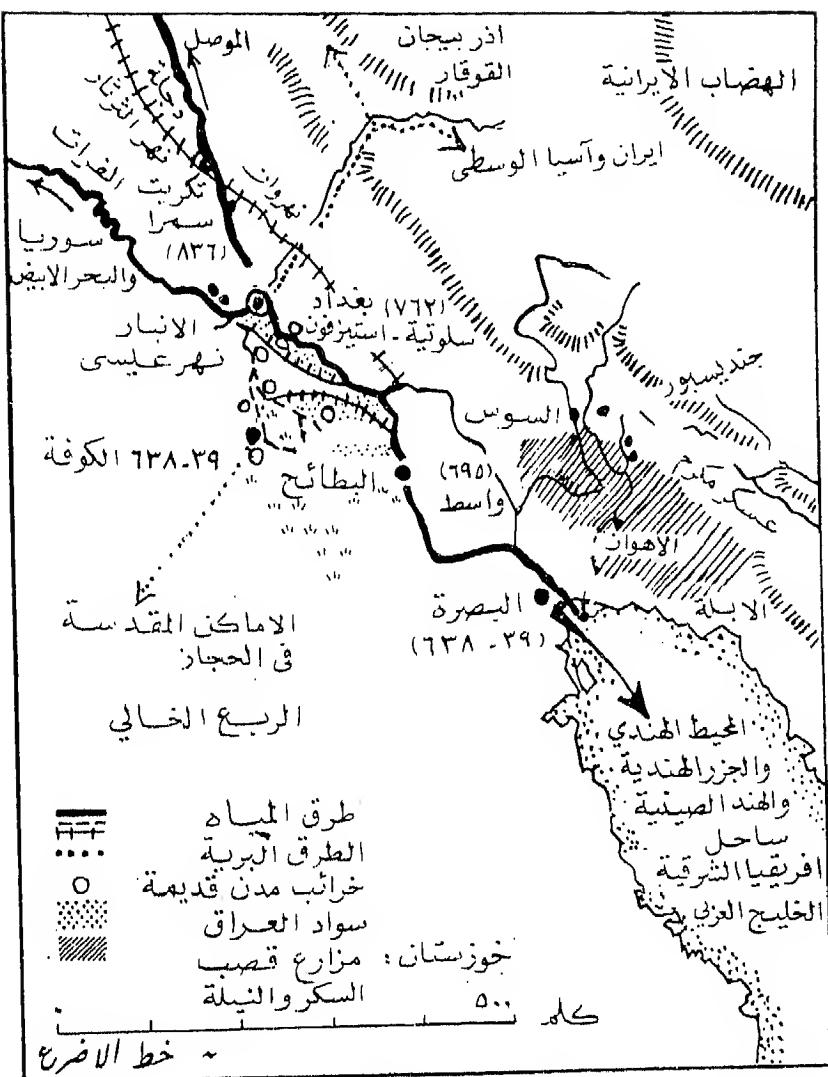
وبعد ما رفعت الحدود التي كانت تفصل بين الامبراطورية البيزنطية  
والامبراطورية الساسانية اللتين أصبحتا تشكلان العالم الإسلامي ، أمكن  
تكييف القطن وزراعته في الشمال ؛ ثم في جنوب سوريا . وهذه المنطقة  
أصبحت في العصور الوسطى المورد الرئيسي للقطن لجميع بلاد البحر  
الأبيض المتوسط .

ومن منعطف الفرات حتى مرتفعات الأرض السورية ؛ تتدنى سهوب  
ومراعي ، ولكن الأرض في الاتجاه الجنوبي تصبح صحراء تدريجيا  
(بادية الشام) ، ولو أن تربية الحيوانات أمر ممكן دائمًا بالاتجاه بين  
جوانب بادية الشام (في الصيف) ووسط المنطقة (في الشتاء) . وتربى في  
هذه المنطقة ، خصوصاً الجمال التي تستعمل للنقل .

وهذه المنطقة مركز مهم للاتصالات تنطلق منه شبكة من طرق المواصلات  
في شكل مروحة . فعند هذه المنطقة ينتهي طريق الملاحة البحرية من المحيط  
الهندي والملاحة النهرية عن طريق دجلة ثم الفرات ويتوصل بسوريا  
الشمالية ، والطريق البرية التي تربط إيران وبغداد ، مارة بمنعطف الفرات  
في سوريا نفسها .<sup>(6)</sup>

وسورية ، مثل بلاد ما بين النهرين ؛ تتكون من عدد من الواحات  
الغنية الخصبة ، تتلقى كميات معتبرة من الطمي الذي تحمله الأمطار  
الغزيرة التي تحفر مجاري وتقتلع الأشجار ، وهي تهبط سيولاً من كتل

6 - راجع الخرائط المرفقة بكتاب :  
R. BUSSAUD, *Topographie Historique de la Syrie Antique et Médievale*, Paris, 1927.



الشكل رقم ٢ - اراضي ما بين النهرين

الحصى والصخر المرتفعة . ففي كيليس ، أصبح من الممكن زراعة المحاصيل الاستوائية ، بفضل توفر وسائل الري . وأهم هذه المزروعات هي قصب السكر والقطن . وفي البقاع تصلح زراعة القمح . وكذلك تزرع المحاصيل الاستوائية في الغور ، في الأردن . وأهم هذه المزروعات هي قصب السكر والقطن والأرز الذي أدخلت زراعته إلى المنطقة في العصر الإسلامي .

وأما واحة دمشق التي تروي منطقتها المياه التي تهبط من الجبال التي تفصل بين سوريا ولبنان ، ومن حرمون ( جبل الشيخ ) فهي عبارة عن حديقة غناة واسعة الأرجاء ( الغوطة ) ، تختلط فيهاأشجار الجوز بأشجار التين والزيتون وغيرها من أنواع الشمار . وقد كانت المربى التي تصنع في دمشق تتمتع بسمعة عالمية في العصور الوسطى . وكانت تصنع من الشمار الدمشقي وتحلى بالسكر السوري . وبالمثل ، كانت الشواطئ السورية عبارة عن واحات من الحدائق ، ولو أنها تمتد على مساحات محدودة ، وذلك لأن كتلا جبلية تهبط فجأة إلى البحر . والشواطئ السورية عبارة عن شريط من السهول كثيرة ما تقطعها الجبال .

وهذه الشواطئ تنتشر فيها المراسي التي كان يتردد عليها البحارة الفينيقيون ثم البحارة الهلينيون والرومانيون والبيزنطيون ، وأخيراً البحارة المسلمين . ودور صناعة السفن ، تتلقى الخشب الذي تنتجه سوريا الشمالية ولبنان . وهذه الشواطئ ، تشكل واجهة البحر الأبيض المتوسط للبلدان الواقعة على الخليج العربي .

ومن الناحية الديموغرافية يعتبر سكان سوريا امتداداً لسكان بلاد ما بين النهرين ، وهم من العنصر السامي ، وذلك فيما يتصل باللغة والعادات والتقاليد واطار التفكير على السواء . والسوريون يشكلون حافة العالم العربي ، والبوقة التي انصرفت فيها العناصر السامية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية في عدة موجات ، كانت آخرها هي الغزو الذي وقع

فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ . فِي سُورِيَّةِ تَنْعَاشٍ جَنِبًا إِلَى جَنْبِ فَئَاتِ مِنِ السُّكَانِ غَيْرِ الْأَرَبِينِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهَا حَدِيثًا مِنْ شَبَهِ الدَّائِرَةِ الَّتِي تَشَكَّلَهَا الْجِبَالُ الشَّمَالِيَّةُ (آسِيَا الصَّغِيرَى وَأَرْمِنِيَّةُ وَإِيرَانُ ) ، بَلْ وَتَوْجَدَ فِيهَا جَمِيعُ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَوْجَدُ فِي افْرِيقِيَّةِ وَآسِيَا . وَذَلِكَ لِأَنَّ سُورِيَّةَ كَانَتْ مَفْتُوحَةً وَتَشَكَّلَ مَرَّاً تُشَعِّرُ مَخْتَلِفَ الْعَنَاصِرِ بِالْجَذَابِ خَاصِّ إِلَى مَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ الْحَضَارَاتِ الْقَدِيمَةِ ، وَالسُّكَانُ ذُوِّيِّ الْمُشَاهَدِ الْأَجْنبِيِّ وَالْمُتَعَدِّدِيِّ الْأَصْوَلِ . وَهُؤُلَاءِ السُّكَانُ يَسْتَعِينُونَ بِالْرَّقِيقِ وَبِالْجَنُودِ الْمَرْتَزِقَةِ مِنْ مَخْتَلِفِ الْأَلْوَانِ وَالْلُّغَاتِ ، مِنِ الْأَتْرَاكِ وَالْسُّودِ وَالصَّقالِيَّةِ . فَالْقَاعِدَةُ إِذَا هِيَ مِنِ السَّامِينِ وَلَكِنَّ تِيَارَاتٍ عَدِيدَةٍ جَدِيدَةٍ مِنِ السُّكَانِ اخْتَلَطَتْ وَانْدَمَجَتْ فِيهِمْ مَعَ مَرْوِرِ الزَّمِنِ ، وَقَدْ زَادَ اخْتَلَاطُ الْعَنَاصِرِ ، خَصْوَصًا ، فِي الْعَهْدِ الْإِسْلَامِيِّ .

وَلَكِنَّ الْلُّغَةَ سَتَظِلُّ الْعَامِلُ الْأَكْبَرُ فِي هَذَا الْاخْتَلَاطِ . وَهُنَا لَا بَدَّ مِنْ أَنْ نَلَاحِظَ السَّهُولَةَ الَّتِي يُمْكِنُ الْاِتِّقَالُ بِهَا مِنْ لُغَةِ سَامِيَّةِ إِلَى أُخْرَى ، بِسَبِّبِ الْأَصْلِ الْثَّلَاثِيِّ الصَّوَامِتِ الَّذِي تَحْفَظُ بِهِ الْكَلِمَةُ حَتَّى حِينَما يَكُونُ النُّطُقُ مُخْتَلِفًا .

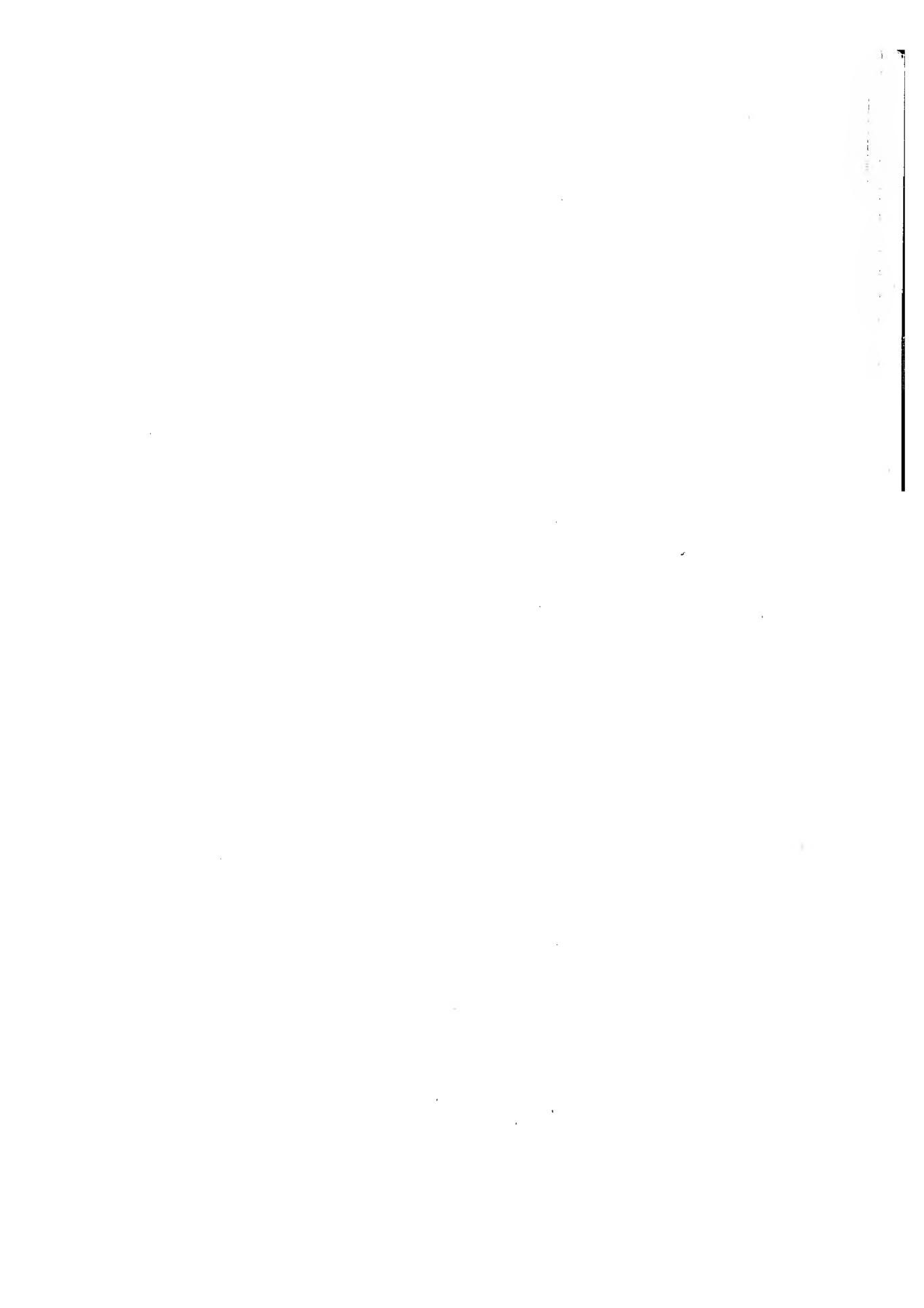
وَالسُّورِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا آفَاقَ النَّشَاطِ الشَّرِقِيِّ مَفْلِقَةً فِي وُجُوهِهِمْ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى بِسَبِّبِ « الْحَائِطِ » السَّاسَانِيِّ ، تَحَوَّلُوا إِلَى الْبَلَادِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي يَسِيِّطُ عَلَيْهَا الْبَرَابِرَةُ . وَقَدْ اسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى اسْتَنْزَفَ الْغَربُ احْتِيَاطَهُ مِنَ الْذَّهَبِ . وَهَذَا الشَّعْبُ سِيَاجِدُ مَجَالًا فِي حِلَا لَنْشَاطِ الْاِقْتَصَادِيِّ فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي وَحَدَّهَا الْإِسْلَامُ . وَهَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ مِنِ الْعَنَاصِرِ سَتَتَجْهِيُ إِلَيْهَا الْآنُ مِنْ جَدِيدٍ بِنَشَاطِهَا نَحْوَ بَلَادِ مَا بَيْنِ النَّهْرَيْنِ وَهُنَا ، كَمَا هِيَ الْحَالَةُ فِي الْمَحِيطِ الْهَنْدِيِّ ، سِيَدْخُلُ الْيَعَاقِبَةَ وَالنَّسَاطِرَةَ فِي مَنَافِسَةٍ . وَكَذَلِكَ التَّنَعُّمُ الْعَالَمِ الْأَرْمَنِيِّ بِالْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ وَالْبَحْرِ الْأَيْضِيِّ الْمُوْسَطِ ، وَأَصْبَحَ يَمْدُ فِي اِتِّجَاهِ الْغَربِ شَبَكَةً مِنِ الْعَلَاقَاتِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ وَالْقَانِفِيَّةِ .

و ضمن هذا التقارب سيحمل في طياته منافسة واصطداما ، بل ونضالا خصوصا بين الجاذب السوري وما بين النهرين في المنطقة .

كانت دمشق عاصمة الخلفاء الأمويين . والمدينة تقع على حافة بادية الشام . ونظرا للثورات وحركات العصيان التي كانت تتضطر布 بها منطقة ما بين النهرين ، ولا سيما الكوفة والبصرة ، فقد رأى آخر خلفاء بني أمية ، مروان الثاني ، نقل العاصمة من دمشق الى حران ، في المنطقة العليا بين النهرين .

ولما اتصر العباسيون ، لم يختاروا دمشق عاصمة لهم . فان فرود الايرانيين ، والقوات العسكرية الخراسانية ، والمستشارين الذين جاءوا من ايران الشرقية ، والبرامكة ، رجحوا كفة اختيار منطقة ما بين النهرين لاقامة أسس الدولة الجديدة . وهذه المنطقة التي تفضي ايران ، آرامية، ولكن التقاليد الإيرانية قد استقرت فيها منذ عهد الساسانيين . وبعد محاولات لبناء عاصمة قام بها الخليفة العباسي الاول ، أبو العباس السفاح ، وكلها جرت في منطقة الأنبار ، حيث ينصب نهر عيسى في الفرات ، قام الخليفة العباسي الثاني ، المنصور ببناء بغداد على الطرف الآخر من نهر عيسى ، حيث ينتهي نهر عيسى الى دجلة . والارض التي بنيت عليها بغداد ، كانت حينئذ عبارة عن عدد من القرى ودير للنساطرة.

وأما سكان العاصمة الجديدة ، فقد جيء بهم من مختلف أنحاء المملكة، ولكن الاصل المتغلب فيهم آرامي . وعن طريق نهر عيسى ونهر الفرات، وعن الطريق التي تصل بالس بانطاكيه ودمشق والقدس ، أمكن احداث وصلة بين مركري العالم الاسلامي ، بلاد ما بين النهرين وسوريا .



## الفصل الثاني

# العالم الايراني

اذا خرجنا من العالم السامي الذي يتحدث اللغة العربية والآرامية ، تلك المنطقة التي شاهدت الاتصارات العربية ، واذا خرجنا من منطقة البرازخ التي شهدت في جميع الازمنة تنافساً بين طرق الخليج العربي وطرق البحر الاحمر ، بدت لنا التحود الايرانية كما لو كانت عالماً آخر ، يسكنه خلق آخرون يتحدثون لغة أخرى ويعيشون في اطار حضارة تختلف تماماً عن الحضارة السائدة في المنطقة السابقة .

### تطور دور ايران

كانت ايران في العهد الساساني تشكل وحدة مع ما بين النهرين . وأما عاصمة الساسانيين فقد كانت اكتزيفون التي تقع في أرض آرامية . ولكن تيارات التبادل ( الحروف الهجائية والالفاظ اللغوية والمهارة التقنية والافكار ) كان قوياً بين المنطقتين .

والفتح العربي الذي سار على طول الطريق الذي تربط ما بين النهرين بایران وآسيا الوسطى ، والذي طرد آخر الملوك الساسانيين ، كان أشبه ما يكون بنزهة ممتعة . وبعد احتلال مرات ومضائق سلسلة جبال آسيا الغربية التي تشرف على ایران وما بين النهرين والخليج العربي ، تسم للعرب الاستيلاء على الواحات والمدن التي تمتد على طول طريق القوافل

التي تساير وادي ديالي ، والاتصار في معركة نهاوند في سنة 642 م  
وقتل يزدجر الثالث في مرو ، في سنة 652 م .

وقد شهدت الخلافة الاموية ، استقرار غزاة جدد يمثلون استعماراً  
 حقيقياً للأرض من الجنود الذين كانوا يقيمون في البداية في أحياء تبني  
 بجانب المدن القديمة الأهلية ، وهي عبارة عن مدن صغيرة قائمة بنفسها  
 ولها قلاعها ومساجدها وأسواقها الخاصة بها وكذلك تكونت مناطق  
 سكنية مزدوجة : المدينة القديمة الأهلية التي تؤدي إليها أربعة أبواب  
(وتسمى بالفارسية : شهرستان)، وبجانبها مدينة من مدن الضواحي(تسمى  
 بالفارسية : بيرون وبالعربية الربيض) ، وهي مدينة الجنود الغزاة . وهذا  
 الأزداج للمدن واضح ولاسيما في خراسان وفي ماوراء النهر وفي مرو ،  
 وبخاري وسمرقند . وهذا التصميم بلغ في بعض الحالات ، مثلما في بلخ ،  
 حدا قامت معه مدينة ثانية منفصلة ، على مسافة بضع كيلو مترات من  
 المدينة القديمة .

كان الأنصار الأوائل للدولة العباسية ومستشارو الخلفاء الأوائل  
 يتبعون إلى شمال شرقي ايران ، خراسان وما وراء النهر . وفي عهد  
 بني العباس ، انتهت حركة استعمار الجنود للأرض وحل محلها اتجاه  
 معاكس . فقد أصبحت ايران مركزاً قوياً لنفوذ وذا تأثير خطير  
 الشأن في جميع أنحاء الشرق الاسلامي وقد رافق نفوذ الفرس  
 السياسي انتعاش اللغة الفارسية والأدب الفارسي . ففي أواخر القرن  
 العاشر وأوائل القرن الحادى عشر وضع الفردوسى ، كتاب الملوك  
 «الشہنامہ» . بل أن الفرس كانوا يبذلون جهوداً لنشر اللغة الفارسية  
 بين الترك في آسيا الوسطى وفي الهند . وهذه الجهد مستمر حتى  
 عهد كبار المغول .

وقد ظهرت محاولات نشر النفوذ والثقافة الفارسية بين الفرازة الساميين ، خصوصا على مستوى المدن . فقد اتّهى عهد المدن المردوجة وأصبح الاتجاه الآن إلى توحيد المدن التي كانت تعاني من ظاهرة الانفصال . وكذلك أصبحت « شهر ستان » كما تسمى المدينة الموحدة بالفارسية مقراً للحكومة ومركزاً للادارة ( قصر العاكس والمكاتب الادارية ) والنشاط الاقتصادي ( الأسواق ) والديني ( المساجد الكبيرة ) .

وفي ضواحي المدينة القديمة وعلى جنباتها ، كانت تبني أحياط شعبية جديدة ( بدلاً من مدينة منفصلة ) . وفي نفس الوقت أصبحت مقراً لأسر الأمراء التي تتمتع باستقلال نسبي عن بغداد ، بقصورها ومظاهر أبهتها وسائلها لنشر النفوذ والثقافة الفارسية . وبذلك استقر نفوذ النخبة الإيرانية وسيطرتها على طول طرق القوافل المؤدية إلى الغرب والمؤدية إلى الشرق والجنوب .

### البلاد الإيرانية :

ایران بلد واسع يتكون من صحراء مشبعة بالملح ومن سهوب قاحلة وجبال عارية ، بالإضافة إلى بعض المناطق الخصبة التي تشبه الواحات من الحدائق والحياة العمرانية . وبالقياس إلى السهوب والصحراء ، تعتبر هذه الواحات جنات وارفة الظلل . في قلب الواحة ، تقوم ، عادة ، مدينة كبيرة تزين جنباتها حدائق غناء ، تروي بنظام للري يتكون من قنوات مدت تحت الأرض ، وذلك تفادياً لتبخّر الماء فيها تحت تأثير حرارة الشمس .

وقد شاهد العصر العباسي الذي كمل الأعمال الكبرى التي بدأها الساسانيون ، نمواً كبيراً في المساحات الزراعية المروية ، الأمر الذي سمح بازدهار المدن الموجودة وبناء مدن جديدة وهذا النظام الإيراني

للري سيتنتقل عن طريق الصحراء والواحات ليصل الى جنوب الجزائر « فجارة » وجنوب المغرب الأقصى « خطاره » بل ان قبائل الطوارق التي وصل اليها هذا النظام سيسمونه « النظام الايراني » (1) .

وهذه الواحات تمتد عند أقدام الجبال الداخلية وسلسلة جبال آسيا الوسطى التي تقسم البلد الى منخفضين صحراويين . والمياه النازلة من الجبال تحبس بعناية لتنتفع بها مراكز العمران المجاورة ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن التي تستخدم محطات لطرق القوافل . وفي هذه الطرق تسير جمال ذات سنايم ، تربى في منطقة بلخ ، احدى عواصم خراسان ، والجياد الايرانية التي تحمل على متنها فرسانا مدججيا بالسلاح من النوع الذي تمثله التقوش البارزة في آثار الساسانيين . والمشتغلون بتربية الجمال ، ومعظمهم من الأكراد ، يحتلون حفارات الهضبات التي تهبط الى ما بين النهرين . وكردستان ولورستان ، وهي أراضي ينتفعها البدو الرحل ، كانت دائماً تحفظ باستقلالها تجاه الدول الكبيرة والادارات البيروقراطية التي تحتل السهول المجاورة ، مثل قدماء ملوك الفرس والساسانيين والخلفاء . وقد كان هؤلاء الأقوام الذين يحمي من غائلتهم تنظيم الأمن العام في السهول ، دائماً مصدر تهديد بغزوائهم لهذه المنطقة . وكذلك نجد منطقة واسعة للرعي غير خاضعة للقانون – كما هي الحالة اليوم – تمتد بين سهول ما بين النهرين والهضاب الايرانية ، وتفصل بين البلدين .

وللنفوذ الى هذه المنطقة ، كانت توجد ثلاث ثغرات ، وهي منتهى طرق القوافل وتحرسها قوات الأمن العام أولاً ، توجد الطريق المؤدية الى أرمينيا مارة بـ وادي دجلة وـ Bitlis ثـم بـ جزيرة ابن عمر ، الى

— 1 — راجع :

H. GABLOT : Dans l'ancien Iran. Les Techniques de l'eau et de la grande histoire Annales E.S.C., 1963, pp. 499-519.

أخلط . وثانيا الطريق الكبرى المؤدية الى ايران من بغداد مارة بوادي  
ديالى ، وتصل الى كرمانشاه وهمدان ، ومن هناك تتجه الى زنجان  
وأذربيجان وأرمينيا ومدينة أطرازندہ ، او الى أران ، ودربند ( باب  
الأبواب ) واتل . وأخيرا توجد الطريق التي تخترق « الجبال » وتصل  
الى الري ( طهران ) ومن هناك تتجه عن طريق خراسان نحو آسيا  
الوسطى .

وكذلك يوجد خط للسير يؤدي من بغداد الى خوزستان والى فارس  
( شيراز ) .

ومن الجنوب الشرقي أيضا ، يحد ايران حاجز من السكان البدو  
وسكان الجبال العصاة، وهم البلوتش ( سكان بلوشستان ) والأفغان الذين  
نقلهم الساسانيون من آسيا الشرقية الى هذه المنطقة . وهنا أيضا ، لا تمتد  
الطرق التجارية ومراعي الحضارة والعمaran ، الا في شريط ضيق من  
الأرض تحرسه عدد من القلاع والمحصون : بلخ وهراء ، وقندمار ،  
وغزنة ، وكابل .

وكذلك يجب أن نفرق في ايران ، بين سكان أطراف الجبال والأحاديد  
الوسطى ، وهم من الرحيل الذين يعتمدون في معيشتهم على الرعي ،  
وسكان المنخفضات الصحراوية وخط الواحات الذي يمتد ، أما في  
الداخل على حافات وسفوح الجبال ، او في الخارج ( ايران الخارجية ) :  
خوزستان ، وأران ( الأرضي || رفيعة ) التي تقع جنوب القوقاز ،  
وطبرستان ( الشواطيء الجنوبي لبحر قزوين ) ، وأ الواحات الواقعة  
في آسيا الوسطى : مرو ، وما وراء النهر ، وخوارزم ( دلتا نهر  
اموداريا « جيحون » ، عند بحر الأرال ) .

وكانت الدولة الساسانية قد أقامت في ولايات الشعور أربع حكومات

مدنية أو عسكرية . وكانت هذه الولايات هي أذربيجان التي تمتد في الشمال الغربي ، وفارس ، التي تقع في الجنوب الغربي ، وسجستان ، في الجنوب الشرقي ، وخراسان ، في الشمال الشرقي . وهذه الولايات تتفق مع ثلاثة اتجاهات كبرى : فان باب أذربيجان ينفتح على أرمينيا والقوقاز ، وباب زغروس ينفتح على ما بين النهرين ، وباب قندھار يؤدي إلى الهند ، وباب خراسان يصل إلى السهوب التورانية وآسيا الوسطى والصين .

وهذا التقسيم قد احتفظت به الدولة العباسية في العصر الإسلامي .

#### أذربيجان :

أذربيجان بلد جبلي يشكل استمراً لأرمينيا ووصلة مع المضاد الإيرانية ، وهي منطقة جبلية جافة في الداخل ، ولكنها توزع الرطوبة على المنخفضات والسهوب المجاورة التي تصبح خصبة بمجرد ما تتوفر لها وسائل الري . وأذربيجان تشكل أيضاً معبراً تمر به الطرق التي تتجه نحو أرمينيا حتى أطراف زندہ ، ثم إلى همدان وبلاد ما وراء النهر . دور أذربيجان التجاري كان دوراً عظيماً . وقد كانت أسواق ومعارض كبيرة تعقد في تبريز . والى الشمال ، تقع برذعة ، في أران ، وهي تشكل احدى الثغور المتقدمة للدفاع عن ايران في الغرب ، بمضيق باب الأبواب .

باب الأبواب ينفتح في سور ذي فوائل من الرصاص المذاب بنيت لمنع غزوات شعوب الخزر والتوران .

#### جنوب بحر قزوين :

يفصل حاجز ضيق ولكنه مرتفع ايران عن جنوب بحر قزوين ، وهو كتلة جبال البرز ، حيث يوجد بها بركان يقع على ارتفاع ما يقرب من 6000 متر عند ، دمافند (Demavend) وعند السفوح الجنوبية لجبل البرز ،

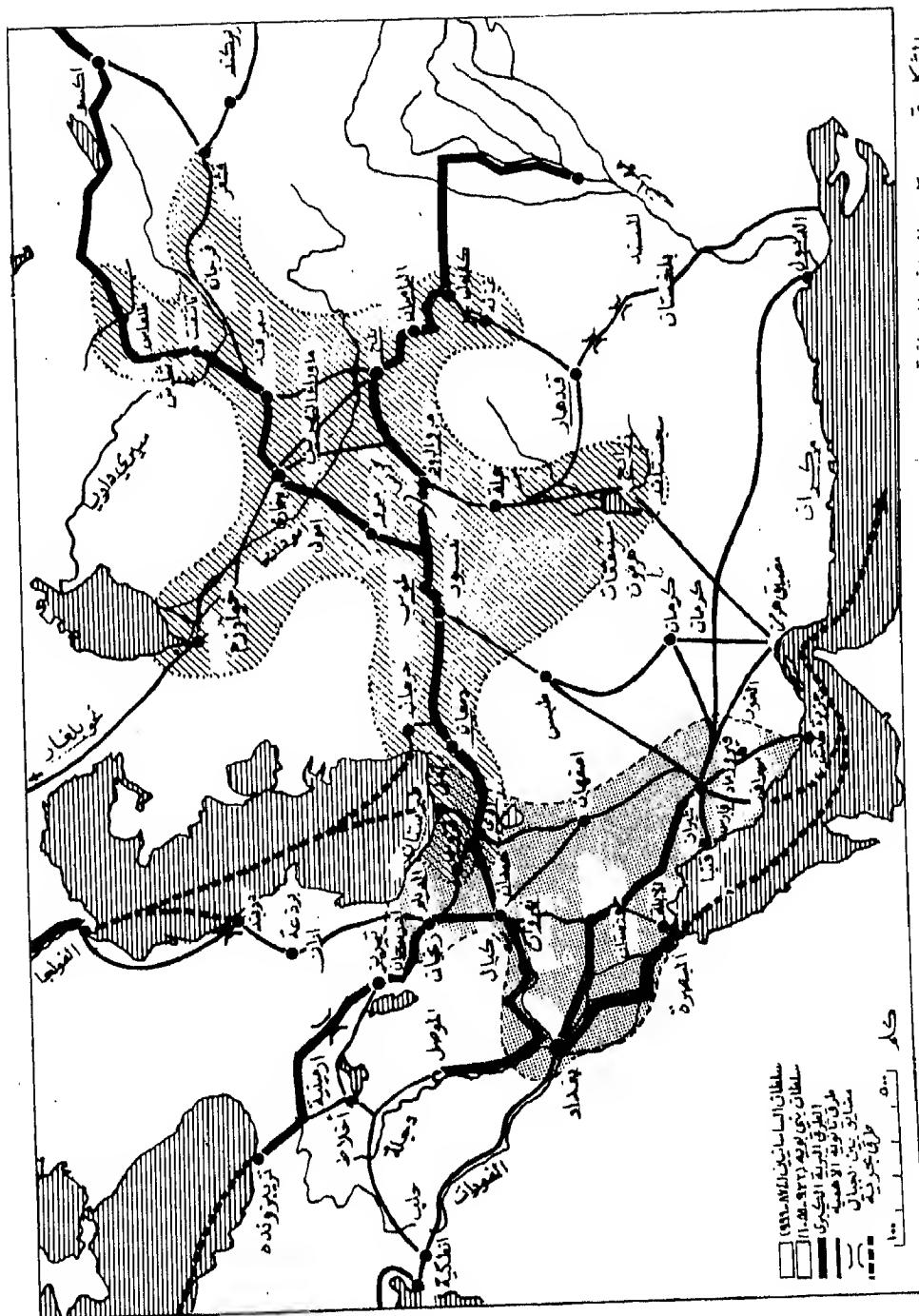
تنشر الواحات ، تستخدم محطات على الطريق التي تمر بزنجان وقزوين والري ودامغان وبسطام . وأهم هذه الواحات هي الري . وفي هذه المنطقة يجري نهر ، نهر كزيل أوزن ، ينصب في بحر قزوين ، بعد ما يخترق سلسلة جبال تسير موازية لها طريق تؤدي من الهضبات إلى ميناء آمل ، على بحر قزوين . والري كانت مستودعاً كبيراً للسلع التي تحملها القوافل التي تسير في اتجاه خراسان وفي اتجاه بغداد وفي اتجاه فارس . وهذه المدينة المشهورة بصناعة الخزف تحتل مكانة مهمة في عالم التجارة والثقافة .

وفي القرن الثالث عشر ، اختفت الري وتضاءل دورها ، لتحول محلها طهران التي كانت إحدى ضواحيها . وقد لعبت الري دوراً هاماً ، خصوصاً ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر، يشهد به ما ورآه ابن خرد ذبه ، في منتصف القرن التاسع الميلادي . فالري كان التجار الروس ، أي الصقالبة والسكندينавيون ، يحملون السيوف والفراء . ولكن هؤلاء الروس ، أو المجوس ، كانوا يقومون أيضاً بغارات نحو الجنوب للنهب والسلب .

وقد كانت بذلة صحيحة لهذه الغارات مرتين في النصف الأول من القرن العاشر ، في سنة 913 م ، وفي سنة 944 م .

وفي شمال البرز ، تمتد حافة ضيقية يكثر فيها الطمي ، على ضفاف بحر قزوين ، ولكنه لا يوجد في هذه المنطقة سوى عدد صغير من المراسي المنيعة . وهذه المنطقة تمتاز بطقسها الحار والرطب وبها أنها الوخم ، بحيث كانت طبرستان تعرف ببلد الحمى . وهذه أيضاً هي الحالة في جيلان ومزندران والديلم . وفي الغابات الواسعة ذات النباتات الغزيرة التي تنتشر في هذه المنطقة تعيش النمور والفيهود .

الشكل رقم ٢ - الارض الازدية



وأما الديلس ، فقد ظل عهودا طويلة مستودعا للاحتياطي من الرجال : العبيد والجنود المرتزقة وحرس الخليفة . ولم يستقر الاسلام في الديلس الا في أواخر القرن التاسع الميلادي ، وكان ذلك خصوصا بفضل الدعاء العلوين . ومنذ نهاية عهد الساسانيين ، أدخل الى الديلس عدد من المزروعات : الأرز ، والقطن وقصب السكر ، والبرتقال ، وشجر التوت « صناعة الحرير » . وقد شجع الخلفاء المسلمين هذه المزروعات التجارية والصناعية فعرفت ازدهارا كبيرا ، أدى بدوره الى ازدهار حياة المدن .

ونحن نذكر بأن هذه المنطقة كانت مرحلة هامة في انتشار تربية دودة الحرير من آسيا الوسطى نحو أذربيجان واران وأرمينية ، ولكن طريقة قد أوصل هذه التقنية الى سوريا الشمالية أيضا ، تحت الامبراطور أجوسطينيان الأول ، في القرن السادس الميلادي . ومن سوريا الشمالية، توغلت تقنية تربية دودة الحرير في جميع المناطق الملائمة على ضفاف البحر الايض المتوسط في العصر الاسلامي .

### — خراسان :

تشتمل منطقة خراسان على عدد من الجبال التي تربط البرز بيمير Pamir . ولكنها قليلة الارتفاع ( أقل من 3000 متر ) وبين تعرجات هذه الجبال ، نجد كثيرا من المنخفضات التي يسهل المرور منها ، ولاسيما ، على « طريق الحرير » المتوجه الى آسيا الوسطى ، والتي كانت أيضا الطريق التي سلكها كبار الفزاة الذين يأتون من الشرق ( الأتراك والمنغول ) . وخراسان تحمي ايران من الشرق ، كما تحميها أذربيجان من الغرب . وخراسان عرفت بالتنظيم العسكري ( مرزبان ) المحكم . فمن هذه المنطقة انطلقت حركة بنى العباس في القرن الثامن الميلادي ، بتأييد جيش

خراساني . وعند أقدام الجبال ، تنتشر المدن التي تحيط بها حقول وغياض خصبة تتوج الأرز والقطن ، وخصوصاً العجوب .

واما المنطقة الغربية من خراسان التي تقع فيها نيسبور وطوس (مشهد) . فقد كانت هرري جميع ايران الشرقية . ومدن هذه المنطقة مهمة . ومن أهم هذه المدن التي لعبت أدواراً كبيرة ، حسبما تقول الرواية الايرانية التي ردها الفردوسي في الشهنامة ، بلخ (بكتر) ومردو (مرجيان) وهراة (أريا) . ولكنه يجب أن نضيف الى هذه المدن الثلاث نيسبور ، أو « شبور الجديدة » .

وبلغ تقع مقابل مجوى نهر جيحون (أموداريا) وماوراء النهر وعند أقدام الكتلة الجبلية التي تمتد بين بامير وكوان لوان ( مضائق باميان وكابل وبشاور ) . ومن هذه المرات والمضايق يمكن الدخول الى الهند عن طريق قندهار وكابسا ، وهما مملكتان اغريقيتان بوذitan ، يمتزج فيما تأثير الثقافة الايرانية والثقافة الهندية .

ومن هذه المضايق تمر الطرق التجارية التي تربط ايران من جهة وتوران والهند ، من جهة أخرى . وهذه الطرق هي التي سلكتها جيوش الغزاة والدعاة والمبشرون وتوغلت منها مختلف أنواع النفوذ ، ومنها دخلت البوذية من الهند الى ايران ، وبها كان يمر الحجاج الآتون من الصين ، مثل هيوان تسانج ( 629 - 645 م ) .

وعند مضيق باميان ، كانت تقع تماثيل منحوتة من الحجر الصلد لبودا .

وعلى هذه الطريق ، في بلخ ، كان يوجد دير بوذى كبير يكاد يكون مدينة مستقلة بنفسها ، يسمى « الدير الجديد » كان يشرف عليه كاهن كبير ، أو « برمكا » . وبعد الفتح الاسلامي ، اعتنق هذا الكاهن

الاسلام وحول ممتلكات ديره الى الدولة . وهذا هو أصل البرامكة الذين كانوا أنغوانا ومستشارين لأوائل الخلفاء العباسيين .

وكذلك دخلت الى بغداد العادات والتقاليد التي كانت سائدة في شرق ايران والهند والصين مع البرامكة وغيرهم من ذوي النفوذ من أبناء هذه المنطقة . وكان جعفر البرمكي أول من أدخل الورق رسمياً في مكاتب الدولة وأسس مصنعاً لصنع الورق في بغداد في سنة 794 - 795 ميلادية ، في عهد هارون الرشيد . وقد كان هذا المصنع نواة لسلسلة من مصانع الورق انتشرت في مختلف أنحاء العالم الاسلامي وكان أول ما ورد ذكر الورق في مصر ، سنة 796 ميلادية .

ومرو (ماريجان) عبارة عن واحة في عرض الصحراء وهي مرحلة مهمة في طريق القوافل التي تسير بين نهر أمو داريا وايران . ومرو في هذه المنطقة تشبه في وضعها تدمر في سوريا .

وأما نهر جيحون (أموداريا) ، فكان يقطع في تشارجوي (آمل) في اتجاه بخارى وسمرقند .

نيسبور التي هي مدخل ايوان من الشرق ، كما أن آذرستان مدخلها من الغرب ، كانت ، مثل المدينة الاخيرة ، مدينة تجارية كبيرة بل ان نيسبور ستتصبح في القرن الحادي عشر الميلادي ، بعد ما فقدت بغداد كثيراً من مكانتها ، أهم من بغداد نفسها ، من الناحية الاقتصادية وأكثر منها سكاناً وأوفر عمراناً . وقد اتخذها السلاجقة عاصمة لهم . ولكن المنغول خربوا عمارتها وأصبحت اليوم عبارة عن قرية لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة .

وقد حل محل نيسبور مدينة مشهد (طوس) التي يوجد فيها ضريح الامام الثامن علي الرضا ، مزار الشيعة الايرانيين . والجبل الذي يمتد بين نيسبور ومشهد يحتوي على معادن مهمة : الفضة ، وخصوصاً الرصاص .

وهذه المنطقة يخترقها عدد من الانهار التي تنزل من جبال الكتش الجردا وتروي مناطق خصبة .

وأما هراة ( اسكندرية آسيا ) (2) ، فهي مدينة تجارية كبيرة . تقع على طرف مستديرة تمر بيلخ ، ومرو ، وهراة ، وقندھار ، وغزنة ، وتحيط بمنطقة الكتش الغربية لتهبط الى حوض كابل ووادي السند ( Indus ) . وهذه المنطقة أيضا مهمة بمعادنها الحديدية التي تقع غير بعيد من هراة ، والتي كانت تستغل طبقا للطرق التقنية المعروفة في الهند لصناعة الفولاذ ، وخصوصا لصنع أسلحة تصدر الى الخارج .

### سجستان :

تشتمل سجستان على منطقتين مختلفتين : سفوح جبال الكتش الجنوية ، حيث تمر الطريق التي تصل بين قندھار وهراة ومرو وبليخ ، وهي منطقة مفضلة بطرق مواصلاتها الكبرى . فأما قندھار التي تروي تربتها المياه النازلة من الجبال ، فتنطلق منها الطريق التي تتجه الى الجنوب الشرقي ، لتصل الى الهند وتنتهي عند قندیل المشهورة بتربية الجمال البكتيرية . والمنطقة الثانية ، هي الحوض الصحراوي الذي يحيط ببحيرة تستغل مياهها للري ، وحيث ينصب ذراع دلتا تغير مراكز العمران فيها باستمرار . وفي هذه المنطقة موقع للحفريات أسفر التنقيب فيه على تنازع معبرة . والمنطقة خصبة بفضل شبكة واسعة من أعمال المياه . وهي مشهورة خصوصا بانتاج القمح بحيث تعتبر هذه الواحة مخزنا ومستودعا للحبوب لتمويل المناطق الواقعة في الجنوب الشرقي . وكذلك تسمح المراضي الواسعة الموجودة فيها بتربية الدربانى الهندي (3) .

2 - هراة هذه هي التي يعندها الشاعر العربي حين يقول :

هراة ارض خصبتا واسع يخرج الا بعد ما ينكس  
ما احد منها الى فرمتا يخرج الا بعد ما يفلس

« الترجم »

3 - حيوان ثديي من الفصيلة البقرية على غاربة سنام واحد « الترجم » .

وقد كانت هذه البلاد تتمتع بكثير من الرخاء ، وكانت زرانج مركزاً للعمران فيها . ولكن تيمورلنك خرب هذه المدينة في سنة 1384 ميلادية وقضى على نظام الري فيها . وأثر ذلك ، أخذت حالة البلد تتدحر تدريجياً وهذا يدلنا على مدى ضعف الاسس التي يقوم عليها رخاء يعتمد قبل كل شيء على نظام الري يستلزم عملاً منتظماً جماعياً يجري تحت اشراف ومراقبة دقيقة .

### مكران :

تمتد منطقة مكران في أقصى الجنوب على شواطئ بحر عمان ، وهو بلد صحراوي قاحل لا يكاد يصلح للحياة . فان سلسلة من قمم الجبال يصعب المرور فيها تعزل عن داخل البلد مكران ، وبعض موانئ صيد السمك التي تقع على شواطئه والتي هي مراكز صغيرة للملاحة بين الخليج العربي وشمال الهند . وأما الواحات مكران الساحلية ، فينما فيها النخيل والقطن . وهذه الواحات لعبت دوراً مهما حيث كانت مرحلة لنقل زراعة قصب السكر من الهند الى ما بين النهرين . وفي داخل المنطقة ووراء حاجز الجبال ، تمر طريق تؤدي الى أسفل وادي السند ، وهي منطقة جافة لا يقصدها الا القليلون ويسكنها خلق لا يزالون على الطبيعة الاولى ( البالوش ) . ومع ذلك ، فان الجيوش الاسلامية الاولى احتازت هذه المنطقة في طريقها لفتح وادي السند . وبعد فتح كرمان وسجستان 634 - 644 م ، قام المسلمون بمحاولة غير مجدية لفتح ديبول . ولكن حملة مظفرة بقيادة محمد بن القاسم وجهها الحجاج بن يوسف ، سلكت طريق مكران وفتحت الديبول ثم صعدت مجرى السند مستقلة عن خلافة بغداد .

وفي سنة 872 م ، ضمت السند الى ممتلكات يعقوب بن الليث الصوري (4) في بلاد ما وراء النهر وخراسان وسجستان وكرمان . تلك الممتلكات التي كانت تشمل جميع ايران الشرقية وما وراء النهر والسند . وكل هذه الاراضي ، أصبحت الان خاضعة لاسرة من الامراء تكاد تكون مستقلة عن خلافة بغداد .

### كرمان :

تنخفض الثنایا الجبلية التي تشكل الطرف الجنوبي للهضاب الايرانية بحيث يسهل المرور عن طريقها الى الداخل : كرمان ، وهي عبارة عن منطقة يفصل بينها وبين عمان الذي يمثل زاوية لشبه الجزيرة العربية ، مضيق هرمز الذي يشمل على عدد من الجزر والمراسي . وميناء كيش ، وهو أكبر ميناء على الخليج الفارسي ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، ولا سيما بعد ما حل محل سيراف الذي دمره زلزال هائل في أوائل هذا القرن . ومن هرمز ، تنطلق طرق تتجه الى البلاد الداخلية ، نحو شيراز وفارس ونحو كرمان وراء طابس ونيسبور ، الى زرانج ووراءها نحو هراة وبليخ . والقرن الحادي عشر الميلادي ، هو العصر الذهبي لهرمز ونيسبور . وقد كانت عدن في سنة 1513 وهرمز من سنة 1515 نقاطا استراتيجية ومراكيز تجارية مهمة للبرتغاليين في المحيط الهندي .

ان كرمان (أو كراماني عند اسطليموس واسترابون ) لا تزال تمثل واحات مرتبة عند سفوح جبال ذات تواریخ طویلة تغلق بانحراف الهضاب

4 - يعقوب بن الليث الصفار ، أبو يوسف : يعتبر من اشد أمراء الاسلام دماء وأعظمهم ملكا ، وقد كان في صغره يعمل الصغر (النحاس) في خراسان ويظهر الزهد ، ثم تطوع في معركة الشراة ، فانصوى اليه جمع نظر في معركتهم ، وبعد ذلك اشتدت شوكته فقلب على سجستان (247 هـ) ، ثم امتلك هراة وبوشنج ، واعتراضه الترك فقتل ملوكيهم وشنت جموعهم نهايه امير خراسان وغيره ، ثم امتلك كرمان وشيراز واستولى على فارس ، وكتب الى خليفة بغداد المتر بالله يعرض عليه طاعته ولكنه انتهى به الامر ، الى ان طع في بغداد فرحف اليها وصد عنها « المترجم » .

الايرانية : واحات حارة الطقس ، تظلل فيها أشجار النخيل . مزروعات أهمها الأرز والحناء والنيلية . وحقول النخيل تمتد نحو الشمال حتى واحة طبس التي كانت تملك حينئذ مائة ألف نخلة . وأما تربة الجبال فيقوم بها السكان مستغلين في ذلك المراعي التي تمتد من الصحراء (في الشتاء) حتى المناطق التي يسود فيها جو أكثر اعتدالاً في الأرض المرتفعة (في الربيع) والمعادن الموجودة في جنبات الجبال ، كانت مصدراً لنشاط كبير في مجال استخراج الحديد والرصاص والنحاس وتحويله وفي مجال الصناعات التقليدية ، وجدوا شجر الترس الهندي ، توفر الفحم الضروري للمراجل ولا تاج الفولاذ الهندي — مثلما هي الحالة في هرآة ، ونحن نجد ضمن الملاحظات التي سجلها السائح ماركوبولو . ملاحظات عن « الهندوانى » ، أو الفولاذ الهندي الذي يصنع في كرمان ويستعمل لصنع الأسلحة (5) .

وأما مصانع النسيج الواقعة في كرمان فهي تستعمل الصوف الذي تنتجه قطعان الماشية وشعر الماعز الذي يربى محلياً ويجري طبع قطع النسيج بالألوان ، بواسطة قطع من الخشب المنقوش ، على الطريقة الهندية — الصينية التي تتبع أيضاً في مراكز النسيج الكبرى المجاورة ، في فارس .

### فارس :

تمثل جبال فارس استمراً لجبال زغروس ، ولكنها تنخفض وتصبح أكثر بساطة في فارس فإن أودية مستطيلة مغلقة تسيرها قم جبال تقطعها مضائق مرتفعة . ويمكننا أن نميز ثلاثة مناطق بوضوح في فارس : المنطقة التي يشتهر فيها قيظ ورطوبة لا تطاول ويسود فيها وخمر وتحيط بها رمال مشربة بالبترول يكثر فيها الوباء . وهذه المنطقة تملك

5 - راجع :

M.C.-Barbier de Meynard « tableau littéraire du Khourassan et de la Transoxiane au IV siècle de l'Hégire, Journal Asiatique 5ème série, II, 1853 et III, 1854.

بعض المراسي التي تجري معاملات تجارية عن طريقها في الخليج العربي ، ولكنها تربطها طرق رديئة مع داخل البلد ، وهي : جزيرة كيش وسيراف وجنابة . فأما سيراف فقد كانت مستودعاً كبيراً للتجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند ، كما كانت مركزاً مهماً لصناعة السفن ، وخصوصاً السفن التجارية الكبيرة . وتستعمل هذه الصناعة الساج الذي يستورد من شواطئ الهند الغربية ، والذي تبني به قطع الأساطيل التي تبحر عباب الخليج العربي ، ومياه جنوب شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، وبعض قطع الأسطول المصري في البحر الأبيض .

وقد شهدت سيراف أوج نشاطها في القرن العاشر الميلادي ، بعد عهد البصرة ، وقبل عهد هرمز . ويحصل تحول المراكز البحرية (الموانئ) في الخليج العربي - البصرة وأبلة وعبدان وأخيراً سيراف وهرمز وجزيرة كيش - اتصالاً قوياً بالتقنيات السياسية والاقتصادية التي نجمت عن ظهور حركة القرامطة والنزاع بين السامانيين والبرلوك وتدور مركز بغداد وازدياد عظمة نيسبور .

وتشرف على الشواطئ بلاد جبلية يسكنها قوم يشتغلون بتربيه الخيل والجمال ويعملون في النقل بواسطة القوافل ، كما يمارسون نشاط تربية الغنم الذي تموذ مراكز النسيج في فارس بصفوفه .

وهنا أيضاً يخضع انتفاع قطعان الغنم لمناطق الرعي ، لتقنيات المواسم بين أراضي الشواطئ التي تسود فيها الحرارة ومناطق فارس الأصلية المعتدلة الطقس .

وفارس يتكون من منخفضات مدققة مرتفعة عن مستوى البحر ، وتمتاز ، بالمقارنة إلى المضارب ، بما تشتمل عليه واحتاتها المروية من الغياض والحدائق الفخاء . وغياض شيراز ، كثيراً ما تغنى بها شعراء فارس في القرن الثالث عشر الميلادي .

وهذه الحدائق تنتج الخضروات والأزهار والفواكه ، وخصوصا العنب الذي يستخرج منه خمر كانت له شهرة عالمية . وقد نقلت بذرة هذا الكرم الى اسبانيا حيث تأقلمت في التربة والجو ، وكانت الخمور التي تنتجها تحمل اسم شيراز بتحريف وتسمى « جيرز » Jerez .

وفي هذه المنطقة ازدهرت حضارات قديمة كانت تقوم على مدن مثل بيز يولييس وبازرجاد . ومنها أيضا خرجت الحركات الاولى التي وجهها الساسانيون في العصور الوسطى والتي تستهدف نشر النفوذ الايراني في مختلف الأصقاع . وأما الحركات التالية ، فقد كان موطنها خراسان في ايران الشرقية ، وقد رافق ظهور الدولة العباسية . ولكن هذه الحركات كانت تحمل تيارات ثقافية أجنبية ، هندية وصينية ، وبالتالي ، فقد كانت أقل تقاوة من الحركات الاولى .

ومنطقة فارس مشهورة بخصوصا ، بصناعة النسيج . وكان انتاج فارس من الأقمشة مع انتاج خراسان والدلتا المصرية ، أهم انتاج في العالم الاسلامي . وقد استمرت التقاليد الايرانية القديمة بعد الفتح الاسلامي ، بخصوصا ، في مجال التطريز بالابرة . وتنمية المنسوجات بقطع معدنية وبالأحجار الكريمة واللؤلؤ . ولكن ايران تلقت طرقا تقنية جديدة من مصر وأرمينيا في العصر الاسلامي : فقد كانت تصنع هناك الأقمشة « الدبيقة » ( من دبيق في مصر ) والسجادالأرميني .

وقد كانت يحيط بشيراز عدد من المانع الصغيرة للنسيج من أهمها : فسا ، ودار بجيرد ، وفيروزباد « غور » التي كانت تنتج أيضا ماء ورد ، يعرف بالغوري ، للتصدير الى مختلف أنحاء العالم .

### الجبال :

والآن نعود الى النقطة التي بدأنا منها ، حافة جبال زغروس، عن طريق منطقة جبلية تمتد على 1000 كيلو متر طولا ، 200 كيلو متر عرضا ،

ت تكون من أخدود كبيرة متوازية ، وكانت في العصر العباسي تحمل اسم « الجبال » . وهذه المنطقة يخترقها نهر واحد ، نهر ديالي ، الذي يجري بشكل مستقيم الانحدار بين سلسلة من الجبال ، والذي لعب دوراً مهماً في المواصلات بين الهضاب الإيرانية وسهول ما بين النهرين . وعند مصب هذا النهر الذي يشكل طريقاً طبيعية للمواصلات ، تقع بغداد التي كانت بمثابة رأس جسر إيراني في بلد ارامي ، تماماً مثل آتشيفون : في العهد الساساني ، ولكن بغداد كانت أكثر شمولاً من عاصمة الساسانيين .

و هذه المدينة المستديرة ، تفتح عن أربعة أبواب تدل أسماؤها على أربعة اتجاهات لعلاقات بغداد الخارجية : ففي الشمال الشرقي يقع باب خراسان ، وفي الجنوب الشرقي يفتح باب البصرة . وفي الجنوب الغربي باب الكوفة ، وفي الشمال الغربي باب سوريا .

فأما طريق خراسان ، فقد كانت الطريق التي سلكها بنو العباس المظرون . وهذه هي الطريق التاريخية القديمة التي تمر بكرمنشاه . وبهستون ، ونهواند ، حيث خاض المسلمون معركة حاسمة ضد الجيوش الإيرانية ، انتصروا فيها وفتحوا طريقهم إلى همدان . وبعد كرمنشاه تخترق هذه الطريق مسيرة في جبل زغا (3240 متراً) ، ثم تتحدر على حافات الجبل ، نحو همدان ، مارة بهضاب تنطلق منها الطرق المؤدية إلى السري والى زنجان . وهذه المنطقة المهجورة تتكون من منحدرات كثيرة الحصى ، تشكل الحافة الداخلية للجبل . ومع ذلك ، فإن بعض الواحات تنتشر هنا وهناك ، عند منابع الانهار والجداول التي تنزل من الجبل : همدان ، وأصفهان المثان تربطهما طرق القوافل مع فارس في الجنوب ومع الري في الشمال ، وكلتاهما تقع على الطريق الكبيرة المؤدية إلى خراسان والى ما بين النهرين .

ومهما يكن من أمر ، فإن ولاية الجبال كانت ذات أهمية قصوى للمواصلات مع إيران في العصر العباسي . وقد وصف لنا ابن خردبة الذي

كان صاحب البريد في الجبال ، في عهد الخليفة المعتصم (870 - 892م) في كتاب المسالك والمالك ، الطرق الكبيرة المؤدية إلى بغداد بعنابة ، مرحلة فمرحلة .

صاحب البريد ذو منصب مهم للغاية ، بتجمع لديه معلومات وافية : فهو الذي يشرف على المراسلات الرسمية ويجمع المعلومات عن غيره من موظفي الدولة ، وكان على اتصال مستمر مع الدواوين المركزية . وكتاب ابن خردذبة الذي وضعه ليسعني به الموظفون الذين يقعون تحت اشرافه ، يسمح لنا بمتابعة خطوط المواصلات في ذلك العصر بكل دقة .

## التخوم والطرق

ملتقى الطرق في آسيا الوسطى :

يشكل ملتقى الطرق في آسيا الوسطى الصورة الخلفية للحضارة والاقتصاد في العصر العباسي . فهذه الطرق المتشعبه تضفي أهمية خاصة على منطقة لم يكن لها أي دور في نشر الاسلام وتعزيز جانبه ، وكل ما قامت به هو توسيع مجاله الاقتصادي .

ومنذ هذه المنطقة وواحاتها التي تتتوفر وسائل الري فيها والتي كانت مزدهرة في خراسان وخوارزم في عهد الساسانيين ، كان يسكنها أقوام من التجار الاثرياء الذين كانوا يستخدمون شبكة واسعة من العلاقات التجارية وكانت يتحدثون لغة تجارية هي اللغة الصنفية . وقد زاد استقرار الحكم الاسلامي نشاط هؤلاء التجار حدة واتساعا . وكذلك استقرت جماعات من التجار في بلخ ، ومورو ، وبخاري ، وسمرقند وكشغر . كما اتسع نطاق تنقل الاشخاص وتبادل السلع والافكار والطرق التقنية . وقد تعايشت مختلف التيارات وألوان النفوذ جنبا

الى جنب ، ثم اختلطت وانصهرت في مدن الواحات الايرانية -- وهي مناطق كانت دائساً معرضة لغزوات التوران الرحل .

ولذلك بني سور طويلا يمتد على مئات الكيلو مترات منذ عهد الساسانيين ، للدفاع عن هذه الواحات ، بما في ذلك المساحات الزراعية ، بين بخارى وسمرقند وباب الأبواب ( وهو يشبه سور جزيرة القرم الذي بني في عهد الامبراطور أوجستينيان الأول ) . ولكن مثل هذه الأسوار قليلة الجنودي في مقاومة الغزوات الكبيرة .

وأما المسلمين ، فقد أقاموا مراكز منعزلة « رباط » متقدمة . نانت تستعمل للدفاع والهجوم معا . ومن هذه المراكز سينتشر الإسلام في سهوب آسيا الوسطى عن طريق الغزو والفتح . وهذه الحملات ، تشبه تلك الحملات التي شنها القيتون على بلاد الصقالية . وقد ظلت فرغانة وقتا طويلا تحت سيطرة أسرة طانج التي أدخلت إليها الورق وفن النقش على الخشب ولكن معركة تالاس التي وقعت في سنة 751 م وضعت حدا للنفوذ الصيني في المنطقة . وفي نفس الوقت تسربت إليها القبائل التركية التي ستسيطر عليها وتنشر فيها اللغة التركية تدريجيا .

— وباختصار ، فقد كانت آسيا الوسطى مسرحاً لثلاث ثيارات من النفوذ :  
النفوذ التقني الصيني ، والنفوذ الديني الإسلامي ، والنفوذ اللغوي  
التركي . وفي غضون الفترة التي تمت بين القرن الثامن والقرن التاسع  
الميلادي ، استقر الاتراك في منطقة تالاس وفي الشاش وفي فرغانا وفي  
كشغراريا . وفي القرن الحادى عشر ، سيغزوون المناطق الواقعة وراء  
أمو داريا ، ثم يستولون على جميع ایران الشرقية ويقدمون حتى سورية  
والاناضول ويتأسسون الدولة السلجوقية .

ولكن هؤلاء الأتراك قد أصبحوا ايرانيين . والحضارة التي كانوا يحملونها حتى أقصى التخوم الغريبة لفتحاتهم ، انما هي الحضارة

الايرانية التي تشتمل على عناصر تركية . وكذلك يمكن القول ، دون أية مجازفة بالخطأ ، بأن الأتراك قد خلفوا الايرانيين في حمل مشعل النفوذ والشناقة الايرانية الى الخارج .

كان هؤلاء الغزاء ، من الناحية الدينية ، من الشمانيين ومن أتباع مذهب ماني أو حتى من النساطرة . وقد التزموا جانب التسامح مع الديانات التي استقرت في المدن الايرانية القديمة التي ظلت متمسكة بالبوذية والمزدكية والمانوية وعقيدة النساطرة واليهودية . ولكن السامانيين ، سيتولون ، ابتداء من منتصف القرن العاشر الميلادي ، نشر الدين الاسلامي بين هذه الملل والنحل .

جرت تحركات مهمة ومتعددة للشعوب في المنطقة التي تمتد بين ايران والسهوب التركية . وهذه هي المنطقة التي تفصل عنها النفوذ الصيني امام الاسلام ، بعد معركة تلاس . وكذلك تنقل التبت البوذيون في اتجاه الشمال بينما اتجه الأتراك الى الجنوب . وقد تقدم المانويون ، والكرلوك الشمانيين ، والغز حتى وصلوا الى خوارزم . وهذه الشعوب التي لم تكن قد اسلمت بعد ، كانت تشكل احتياطياً كبيراً من العبيد . وقد كانت « بلاد الأتراك » مقصدًا للنخاسين ، كما كان الذين يشنون غزوات من الرباطات يسبون كثيراً .

وفي نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، اعتنق قبيلة الغز التي تقع أراضيها على نهر سيرداريا ، الاسلام ، وتأسست منها أول أسرة ملوكية تركية مسلمة — الغزنويون . وفي نهاية القرن الحادى عشر ، أسلمت قبيلة تركية أخرى قامت فيها سلطنة السلاجوقيين الذين ملكوا خراسان بعد سقوط دولة السامانيين وكذلك قامت قبيلة أخرى ، القبشقق ، باحتلال جنوب روسيا ( 1054 م ) وطاردت البجناك ( Kiptchaks ) حتى البلقان . وفي البلاد التي تمتد وراءهم سيحتل البولوفت ( Petcheneques ) حفافات الطرق المجاورة لانهار روسيا .

## الطرق المؤدية الى السهوب الاروبيه الآسيوية :

كانت العلاقات مع السهوب الأروبية - الآسيوية تجري خصوصاً على طول نهر الفولجا الذي كان تحت سيطرة الخزر ، من ايتل الواقعة على شواطئ بحر قزوين ، وعلى طول نهر الدنير الذي كان تحت الزوس (كيف) . واذا صعدنا مجرى هذه الأنهر ، فسنصل الى الغابات الشمالية التي كان يعيش على حافاتها البلغار ، وهم شعب تركي لم يكن قد خرج تماماً من حياة التنقل الى حياة الاستقرار . وكان البلغار يبنون من الخشب عند ملتقي نهر كاما(Kama) بنهر الفولجا(Volga) في أطراف الغابات . ولكنهم لم يكونوا يعيشون في هذه المدن الا في فصل الشتاء . وغير بعيد من هذه المنطقة ستقوم ، فيما بعد ، مدينة كازان (Kazan)

وأما بلغار (Bulgar) ، عاصمة بلغاريا ، فقد اعتنق أهلها الاسلام في وقت مبكر .

ومثل البلغار ، كان البرطاس لم يخرجوا بعد من حياة التنقل الى الاستقرار . وقد انطلقت المحاولات الاولى لاسلامهم من العي الاسلامي في ايتل (التي تقع غير بعيد من المكان الذي قامت فيه استراخان فيما بعد) . وأما خاقان الخزر ، فقد اعتنق اليهودية . ومثل مدينة بلغار ، كانت مدينة البرطاس تقع عند ملتقي نهرين ، اوكا وكاما ، عند حافة الغابة . وهناك ستقوم فيما بعد مدينة نوفجورود (Novgorod)(Oka)

وفي داخل الغابات كان يعيش الفنلنديون ، والفنلاديون الأجربيون ، والسلاف ، وهي الشعوب التي تشكل ما يسميه العرب «بلاد الصقالبة» . وهذه البلاد تشكل احتياطياً كبيراً آخر للبعيد ، يمتد حتى الفسحة الجرمانية واللريان (Illerienne) ومن هذه المنطقة تستورد ، الى جانب البعيد ، الفراء والعسل والجلود البلغارية الناعمة والتي تستعمل خصوصاً

لصنع أحذية عالية الساق لركوب الخيل ، والملكايل من شجر القيقب  
« الخليج » .

ومن البرطاس ، تسير الطرق الموازية للأنهار ، مارة ببلغار وكيف  
لتنتهي الى اتل وشواطيء بحر قزوين ثم الى طبرستان والري وكذلك  
توجد طريق آخر تربط سهوب البرطاس وبلغار مباشرة بخوارزم  
وخراسان .

وتجدر الملاحظة بأن الطريقين كانتا متنافستين بنشاطهما التجاري .

#### علاقات العالم الإسلامي بالهند والصين :

تم فتح المسلمين للسند من الجنوب منذ سنة 712 م . ولكن التوغل  
في الهند عن طريق ممرات الهندكتش ، انما وقع تدريجيا بعد معركة  
تالاس . وأما المنطقة الواقعة خلف بلخ وطخارستان الجبلية التي تسكنها  
أقوام بعيدة عن الحضارة ، فقد تم الاستيلاء عليها تدريجيا في القرن  
التاسع ، على يد الفاطميين ثم على يد الصفاريين الذين استقروا في نهاية  
الامر في كابل . وهذه المدينة قد قامت بجهود لنشر الإسلام بين سكان  
جبال كافرستان وهذه الشعوب التي عرفت بعصيانها ، كانت هي الأخرى  
مستودعاً كبيراً للاحتياطي من العبيد . ولكنه مع مرور الزمن ، تمكّن  
المسلمون من السيطرة على الاودية وطرق المواصلات والممرات المهمة ،  
مثل مضيق غزنة الذي يقع على الطريق بين كابل وقندهاز .

وكذلك استقر الأتراك في هذه المنطقة ، وقام الغزنويون في سنة 962  
ميلادية ، بتأسيس أول دولة تركية مسلمة مستقلة في ايران .

وفي غضون الفترة بين 1014 - 1025 ميلادية ، قام السلاطين  
الغزنويون بفتح شمال الهند ونشر الإسلام في تلك الأقطاع ولكنهم

سينسحبون منها حينما يدفعهم السلاجمة خارج آسيا الوسطى وایران الشرقية .

للسفر من ایران الى الصين ، كانت توجد طريقان : تتجه احداهما الى الشمال عن طريق تشقت وتالاس وأقصو ، بينما تتجه الأخرى الى الجنوب ، عن طريق فرغانة ، وكاشغر ، وياركند وخوتان ، وتلتقي بالاولى عند طوان - هوانج (Touen-Houang) حيث تشكلان طريقا واحدا كبيرا يؤدي الى سور الكبير والى عاصمة مملكة طانج (Tang) وفي القرن الثامن الميلادي كانت غارات التبتين (T'ou-Fan) المستمرة على الواحات التي تمر بها الطريق الشمالي مصدر تهديد للتبادل التجاري . ولكن معظم التبادل التجاري في هذه الفترة ، كان يجري عن طريق البحر ، من الخليج العربي حتى قانطون ، حيث استقرت جماعات مهنية من التجار المسلمين واليهود منذ القرن الثامن الميلادي .

وفي القرن التاسع الميلادي ، عاد الأمن الى طرق التجار البرية في هذه المنطقة . فان التبتين قد تعقلوا بعد ما اعتنقوا الديانة البوذية . وبين النظام الاسلامي والنظام الصيني ، قام الأتراك بدور مسيري القوافل وحماية الطرق التجارية ، وبذلك أمكن استئناف النشاط التجاري . وقد قدر المسعودي المدة التي يستغرقها السفر الى الصين بأربعة أشهر .

وفي هذه الحقبة بدأت الجماعات الاسلامية في الاستقرار في الصين .

#### أهمية شبكة الطرق : دولة السامانيين :

كانت الدولة الطاهرية ( 820 - 872 ) التي كانت تحتل كرمان والري ، والدولة الصفوارية ( 867 - 903 م ) التي قامت على أنقاضها ، قد رسمت الخطوط الرئيسية لوحدة ایران الشرقية . فان يعقوب بن الليث الذي كان قد استولى على سجستان ، قد تمكّن من اضافة مناطق

هرة ، وماوراء نهر جيحون ، وفارس الى ملکه ، قبل أن يملي  
بالفشل في نهاية الأمر .

وفي هذه الأثناء ، كان السامانيون منهمكين في النضال مع بني بویه  
( 932 - 1055 م ) . وهذه الخصومة المستمرة بين الدول الأربع ،  
ليس لها أهمية تذكر حتى من الناحية الاخبارية ، ولكنها كانت تستهدف  
السيطرة على محطات القوافل والطرق التجارية في آسيا . واماارة  
السامانيين كانت حارسة الطرق التجارية ، كما كانت تجارة العبيد فيها  
ذات أهمية خاصة .

والسامانيون ينحدرون من أسرة ايرانية نبيلة . وكان سامان خودادة .  
هو مؤسس دولتهم وباني مدينة سامان التي تقع غير بعيد من بلخ . وقد  
كانت الدولة السامانية تسعى ، وراء الاسلام ، لازحياء مجد السامانيين  
والارتباط بهم ، بينما كانت الدول التي تسيطر على المناطق الغربية ،  
من جهتها ، تعمل لربط نفسها بسلالة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) .  
وبعد ما اعتنقوا الاسلام ، وضع السامانيون أنفسهم في خدمةبني  
العباس . وفي سنة 820 ميلادية ، عين المأمون جميع الاخوة السامانيين  
( كانوا أربعة / ولادة ، في سمرقند ، وفرغانة ، والشاش وهرة . ولكنه  
لم يبق في الحكم من بين أفراد الاسرة في سنة 892 ميلادية ، سوى  
اسماعيل بن أحمد . وفي عهده ازدهرت عاصمة ملکه ، بخاري بحيث  
فاقت عظمتها سمرقند نفسها . وفي سنة 893 قام بحملة على الاتراك  
واستولى على تلاس . وفي سنة 900 دخل الى خراسان . وفي سنة 902  
استولى على طبرستان ( الري وقزوين ) . ومن هناك انفتحت آمامه  
الطريق الى بحر قزوين والى بغداد .

وقد بلغت الدولة السامانية أوج عظمتها في عهد نصر الثاني 913 -  
942 م الذي امتد ملکه ، ليشمل تلاس ، وفرغانة ، وكشغرية في

الشرق ، وخوارزم وبلغار في الشمال ، والمنطقة التي تمتد من الري حتى بحر قزوين في الغرب ، وما بين سجستان وقندهار في الجنوب .

وفي عهد نوح الاول ( 943 - 954 م ) استكملت الدولة السامانية نشاطها التوسيعي ثم أخذت في الانحطاط والتدهور وكان نوح قد دخل في نضال مع بنى بويه للسيطرة على الري .

وأما دولة بنى بويه ، فهي تنتسب أيضا إلى السامانيين . وقد اعتمدت هذه الدولة في توسعها على الجنود المترفة الذين تجمعهم من الدليل ، وسعت هي الأخرى للسيطرة على طرق التجارة في آسيا الوسطى . وقد استولى أحد أمراء الدولة على الري وأصفهان وسيراف ثم احتل العبال . وفي سنة 945 م ، دخل إلى بعداد ، حيث أصبح خليفة ، وظل على الخلافة حتى سنة 1055 ميلادية ، لدى ظهور السلاجقوسين .

وأما السامانيون ، فقد كان فقدمهم للطرق التجارية الغربية سبباً في تدهور دولتهم . وفي سنة 977 ميلادية ، استعاد الفزنويون ، وهو أسرة من الرؤساء المحليين ، بالجنود المترفة الأتراك ، فاستولوا على كابل وطبرستان . والفنويون ليسوا ايرانيين ولكنهم أتراك تشعروا بالثقافة والتقاليد الإيرانية . وقد عملوا لحماية الكتاب الإيرانيين وتشجيعهم كما ساروا على نهج السامانيين الثقافي .

وكذلك كانت الدولة الفزنوية دولة تسيطر على طرق التجارة . وبعدما استولوا على المرجبي الذي يقع عند الكتش ، وعلى خراسان ، قاما في سنة 1030 م بغزو خوارزم وجوجان والري وطردوا منها بنى بويه . وأخيراً ، احتل الفزنويون شمال الهند ، حيث توقف تقديمهم بعد ما قوي ضغط السلاجقوسين .

كان الأساس الذي تقوم عليه ثروة مدن السامانيين ، هو التجارة في العبيد . وكانت تجارة العبيد رائجة في الواقع المستورد من بلاد القلب في مرو ، ونيسبور ، والري ، وبلغ وبخاري ، وسمرقد وهرة ، عن

طريق خوارزم ، وفي الرقيق المستورد من الهند عن الطريق كابل . خصوصا ، وفي رقيق الأتراك الذي يدخله النخاسون عن طريق مراكز الحدود . ومعظم هؤلاء يعاد بيعهم للخصي أو للتدريب العسكري . وقد احتل العبيد في الجيش وفي الحياة السياسية في الدولة السامانية مراكز عالية ، واستمروا على ذلك حتى سقطت الدولة نتيجة لعصيان المالك .

وعاد الملوك والأمراء في اختيار حاشيتهم وحرسهم من بين العبيد الأتراك ، عادة إيرانية .

وقد كان الفضل بن يحيى البرمكي . من بين الذين ساهموا بصفة خاصة في نشر هذه العادة التي سيكون من تنتائجها افتتاح العالم الإسلامي تدريجيا للنفوذ التركي .

وفي عهد المؤمن ، قدم أمير خراسان الطاهري اتاوة إلى الخليفة هي عبارة عن 2000 عبد تركي أدخلوا في حرس المؤمن ولكن العبيد الأتراك لم يحتلوا مراكز القيادة في عهد المؤمن ، وإنما أتيحت لهم الفرصة ليصبحوا ضباطا في خلافة المعتصم (833 - 842) . وعلى أثر الاضطرابات التي أشتركت فيها 70000 تركي في بغداد ، قام الخليفة بإنشاء سمراء في 836 ميلادية ، سعيا للتخلص من نفوذهم . ولكن المعتصم لم يلبث أن أصبح لعبة في يد الأتراك من جديد في سمراء ، فعاد إلى بغداد .

ان أحمد بن طولون ينحدر من سلالة عبد تركي جاء من بخارى . وقد كان المؤسس لدولةبني طولون في مصر . وفي سنة 935 م ، قام الاخشيد بدوره ، وهو ابن عبد جاء من فرغانة ، بتأسيس دولة الاخشيديين في مصر . والجدير بالتسجيل أن أهمية عبيد فرغانة في حراسة

الملك ، لم تكن تقل في عهد ملوك بيزنطة عما كانت عليه في عصر خلفاء  
بغداد .

وابتداء من قيام الدولة السامانية ، سيقوى التفوذ التركي ويشتد .  
فالترك هم الذين يشكلون الحرس في قصور بخارى . والخاسون  
يقومون بشراء العبيد في نطاق واسع على الحدود من القبائل المتنافسة .  
والغارات توجه من الرباطات ضد سكان المناطق المجاورة ، لل斯基 . والفرق  
بين العبد والجندي المرتزق غير واضح ، لأن العبد والجندي المرتزق  
كلاهما يرسل إلى الغرب مع دفع التعرفة الجمركية عليهم عند اجتياز نهر  
جيحون . ففي السنة الأولى ، يحارب العبد راجلاً ويعيش في ثكنة .  
وفي السنة الثانية يعطيه القائد (الحاجب) فرساً . وفي السنة الثالثة  
يتلقى حزاماً من نوع خاص ، وهو يساوي نيشان الامتياز . وحينما  
يصل إلى السنة الخامسة يتلقى سرجاً وأسلحة فاخرة . وفي السنة السادسة  
يمنع لباساً للاستعراض . وفي السنة السابعة يرقى إلى مركز قائد خيمة  
ويمضي الحق في حمل شارة مميزة « قلنسوة عالية من الفرو » . وباب  
الترقيات مفتوح أمام العبد بحيث يمكنه أن يصبح رئيس الحجاجب ،  
أو رئيس حكومة . ولكن هذا التقدم نظري وكثيراً ما توقف في طريقة  
المناورات والمؤامرات .

ودولة السامانيين ظهرت في مجتمع ايراني - تركي ، ولكن حضارتها  
ایرانیة .

لقد كان القرن العاشر الساماني في ايران الشرقية وفي البلاد الواقعة  
وراء نهر جيحون ، فترة تاريخية حاسمة في النهضة الثقافية الایرانیة  
وذلك فيما يتعلق باللغة والأدب والعلوم على السواء .

## استمرار المضمون الحضاري الایرانی :

ظهرت أول النصوص المعروفة والتي تدل على اكتمال اللغة الأدبية الایرانية في خراسان . ولكن هذه اللغة ، الفارسية ، لم تكن لها قاعدة من اللغة العامية المحلية ، بل من اللهجة العامية المستعملة في فارس والمتقدمة إلى خراسان . في أية فترة من التاريخ وقع انتقال هذه اللهجة من فارس إلى خراسان ؟

يقول كريستنسن (6) إن هذا الانتقال وفع منذ عهد الساسانيين . ولكن الأرجح هو أنه إنما تم في العصور الأولى لحكم المسلمين . وليس من شك في أن طاهر بن الحسن (7) قد كان له دور في اعتماد وتنمية اللغة الفارسية .

عهد نصر الثاني ، كان يعيش رودكي (8) ، أول شاعر فارسي لا نعرف شيئا عنه وحفظت له قطع من أعماله : كليلة ودمنة ، التي ترجمت عن الهندية بالنظم الفارسي . وهذا العمل سبق أن ترجم في عهد كسرى

### 6 - راجع :

A. Christensen, l'Iran sous les Sassanides 2<sup>e</sup> éd., 1944, p. 44 et suiv.

7 - طاهر بن الحسين بن مصعب، الخزاعي 150 - 207 هـ من كبار الوزراء والقساواد وأوسفهم أدباً وحكمة واقتراهم شجاعة ، وهو الذي وطد الملك للمامون العباسي ، ولد في بوشنج « من أعمال خراسان » وسكن بغداد ، فاتصل بالمأمون في صباح ، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد ، ولما مات الرشيد وولي الأمين ، كان المأمون في مرو ، فانتدب طاهر للزحف إلى بغداد ، فهاجمها وظفر باليمن وقتلها (198 هـ) وعقد البيعة للمأمون فولاه شرطة بغداد ، ثم وله خراسان (205 هـ) ولكن المأمون كان يشعر له شيئاً في نفسه لقتله أخيه الأمين دون مشورته ، وربما شعر طاهر بذلك ، لأنّه بعد مرور ما استقر له الأمر في خراسان ، قطع خطبة المأمون يوم الجمعة فقتله أحد رجاله في تلك الليلة بمرور (المترجم) .

8 - هو جعفر رودكي ، ولد في البندج « بالقرب من رودك سمرقند » وتوفي فيها (940 م) عاش في بلاط نصر الساماني ، وقيل أنه نظم 300000 بيت من الشعر « المترجم » .

أنو شروان الى الفارسية ، كما ترجمه ابن المقفع الى اللغة العربية في أوائل العهد العباسى .

ولكنه ، اذا كانت قصائد من الشعر الفنائي قد نظمت في عهد الطاهر بن الصفاريين ، فان اللغة الفارسية لم تعرف الا زدهار الا في عصر السامانيين .

والشكلة الأخرى التي تواجه الباحثين ، تتعلق بشكل الشعر الفارسي .  
فإن أوزان الشعر الایرانی تخضع لنفس القواعد التي يخضع لها الشعر العربي الجاهلي . فقبال الشعر الایرانی اذا ، عربي .

وفي عهد المنصور (بن نوح الساماني) (961 - 976 م ) قام وزيره ، البلعوي (أبو علي بن الفضل) (9) بترجمة تاريخ الطبری بلغة طبرستان الفارسية التي تكتب بالاحرف العربية . وكانت هذه بداية النشر الفارسي .

وفي بخاري ، كان ابن سينا (10) يحرر كتبه العلمية والفلسفية الكبيرة باللغة العربية – ولللغة العربية كانت دائما هي لغة العلم ، مثل اللاتينية في أروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي ولكن ابن سينا وضع أيضا ملخصا لأحد كتبه في الفلسفة باللغة الفارسية .

---

9 - كان البلعوي وزير عبد الملك بن نوح وملتصور بن نوح السامانيين . وكان له من التأليف تأقييع البلاغة وكتاب « المقالات » وقد توفي في خراسان في سنة 329 هـ . «المترجم» .

10 - هو الحسين بن عبد الله على « الرئيس » شرف الملك ، صاحب المصانيف ، العديده في الطب والمنطق والطبيعتيات والالهيات ، اصله من بلخ ، وقد عاش خلال الفترة بين 370 - 428 هـ . والى جانب اشتغاله بالعلم ، تقلد ابن سينا الوزارة في همدان ، ولكن الجيش ثار عليه ونوب المساكير بيته ، ومن اهم مؤلفاته التي يطبع عددها نحو مائة كتاب : القانون « في الطب » والشفاء ، والسياسة واسرار الختمة المشرقية ، ولسان العرب (عشر مجلدات) في اللغة ، وقد كان الرئيس ايضا شاعرا ينظم الشعر الفلوفي الجيد « المترجم » .

وقد كان الامير الساماني، نوح الثاني، يشجع الشعر الملحمي الفارسي. وكذلك ترجمت تواریخ قدیسه ( وبعضها من الأساطیر ولكنها تشتمل على معلومات مهمة ) ، من اللغة الفهلوية الى اللغة الفارسية . وهذه الروايات ، هي التي أمر نوح الثاني . الشاعر دیقی بنظمها شعراء ، ولكن الشاعر اغتيل بعد شروعه في هذا العمل بوقت قصير . وقد واصل هذا العمل الفردوسی الذي ولد في وقت ما الفترة بين 932 - 934 م . في ضواحي طوس ( مدينة لم يبق منها اليوم الا آثارها التي تقع في جهة مشهد ) .

وقد تم التحرير الاول للشہنامہ في حوالي سنة 994 ميلادي و لكن التعديلات والزيادات التي أدخلت عليها جعلت العمل في «كتاب الملوك» يستمر حتى سنة 1010 ميلادية . والسفر التام للشہنامہ يحتوي على 50000 «ديستيك» (11) ، وهو ما يساوي ثمانية أضعاف حجم الالیادة .

ولكن العصر كان شديد الاضطراب . ولما انهارت الدولة السامانية ، اتجه الفردوسی الى الرجل الجديد الذي وضع الاقدار مقاييس الحضارة الایرانیة في يده ، السلطان محمود الغزنوی ، الذي أهدى اليه الشاعر هذا العمل الذي يشتمل على 100000 بیت من الشعر . ولما رأى الفردوسی قلة مكافأة السلطان ، أثر ذلك على نفسه ، فوضع مكان الاهداء والتمجيد لمحمود الغزنوی قصيدة هجاء فيها ثم لاذ بالفرار . وقد مات الشاعر . في طوس مهجوراً منسياً بين سنتي 1020 - 1025 ميلادية .

11 - بیتان متكاملاً المعنى في اللغة الفارسية «المترجم» .

و هذه القصة الأدبية لا تخلو من معزى . فان تأثر الامراء الأترالث بالثقافة الإيرانية، لم يكن الا سطحيا ، ومع ذلك، فان النفوذ الإيراني، سينتشر في شمال الهند بفضل السلاطين الغزنويين .

و من ثم . يمكننا أن نميز عدة فترات في التأثير الإيراني : فان نخبة من الإيرانيين نزحت الى الخارج قبل الفتح العربي وبعده . ونشاط هذه النخبة وأثرها لا يعكسه المؤرخون والجغرافيون المتأخرون إلا بصورة غير وافية . فان جماعات ايرانية قد استقرت على الشواطئ الغربية للهند ، ولا سيما في الجزرات وبومباي ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي . وكذلك كان للإيرانيين منشئات على سواحل افريقيا الشرقية قبل الفتح العربي . وهذه المنشئات قوية بعد الفتح ، نتيجة لهجرة الإيرانيين .

والحركة الثانية لهجرة النخبة الإيرانية ، وقعت في العصر العباسي . وهذه الهجرة وقعت عبر المملكة الإسلامية حتى الشواطئ السورية (غربا) حيث سينقلون معهم الفنون البحرية المنتشرة في المحيط الهندي . والمؤرخ المشهور ، اليعقوبي ، والامير الرستمي (عبد الرحمن) الذي أسس دولة تيمرت في أفريقية الشمالية ، كان كلاهما فارسيا .

وأما الهجرة الثانية ، فهي من عمل الأترالث المتأثرين بالنفوذ الإيراني . مثل الغزنويين والسلجوقيين وهذه الهجرة مستمد حتى تبلغ الأنضول .

### الفصل الثالث

## المغرب الإسلامي

لم يقع أي انقطاع في تيار الحضارة في البلاد القديمة في الشرق ( ايران سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر ) ، بل اتصلت وسائل الحضارة البيزنطية الساسانية بالحضارة الإسلامية ، واستمرت المدن والمصانع والحرف والفنون كما كانت في السابق . والشرق كان مستودعاً لجميع القوى الحضارية المحركة : الاسلام واللغة العربية، والخصائص التي تميز الجنس السامي والعنصر الايراني « الاطارات الذهنية ، وطرق التفكير والطرق التقنية والافكار السائدة والأشكال الفنية » .

وأما بلاد المغرب ( افريقيا والمغرب وصقلية واسبانيا ) التي ستلتقي هذا النفوذ ، فهي بلاد خضعت لنفوذ البربر ويسود فيها نمط الحياة الزراعي ، وأسلوب معيشة البدو الرحل . والماضي الحضري الفنيقي والروماني فيها أصبح منسياً ، ان لم تعرف آثاره تماماً . وتدور المدن الذي نجم عن الأزمة التي واجهتها الامبراطورية البيزنطية ، زاد بسبب غزو البرابرة . ومع ذلك ، فان نواة من المدن ظلت قائمة : قرطاجنة ، وفولوييليس « في شمال مكناس » ، وتيمس وسبتم ، وقادس ، وملكا ، وهيسبياليس ، وقرطبة وطولطوم ، وسيزاريا أو جستا ، وبانورموس . ولكن هذه المدن التي تسير في طريق التقهر ، أصبحت تواجه ضغطاً نتيجة لنمو الأرياف وانتشار الأساليب الريفية في اسبانيا وصقلية .

وأما افريقيا الشمالية ، قد كانت المدن فيها مهددة بانتشار حياة البدو الرحيل واتساع نطاق المجالات التي يتزدّد عليها الجمالون . وسنرى ضيق

الرقة التي شملها غزو الامبراطور جوستينيان وضعف الحكم البيزنطي وعدم استقراره في هذه المناطق .

وبالمقارنة بالبلاد القديمة التي استنارت قواها بالاستغلال الطويل لمواردها ، فإن البلاد الجديدة ، أو التي استعادت جدتها في المغرب الإسلامي ، تنطوي على امكانيات اقتصادية جديدة وعلى موارد بشرية زاخرة ، وهي مصادر عظيمة للقوة . وهذه البلدان الجديدة ستستلتفت نظر الشرقيين : الأمويون ، سيتجهون إلى إسبانيا . والأدارسة ، إلى المغرب الأقصى . والrstميين إلى المغرب الأوسط . والأغالبة إلىAfrique . والفاطميون إلى المغرب الأوسط ، ثم إلى Afrique . وجميع هذه الأحزاب والنحل ، قصدت إلى المغرب الإسلامي الذي عرف الاستعمار منذ أحقاب بعيدة ، لتجرب حظها فيه .

وبلاطات هذه الدول والدوليات سيعج بالمغامرين من كل نوع وبالتجار والعلماء والأدباء الذين تغريهم المكافآت والوظائف الشاغرة . وهذه هي الحالة خصوصاً بالنسبة إلى بلاط قرطبة الذي لم تكن توجد فيه عناصر محلية لتتوفر له ازدهاراً ثقافياً مستقلاً . وهؤلاء المهاجرون ، سيكونون رؤاد الحضارة الشرقية وسينقلون معهم إلى المغرب العلم والمعرفة الشرقية .

#### Afrique الشمالية :

شاهدت القرون السابقة للفتح الإسلامي تقهقر المدن أمام زحف البدو الرحل . وهذا التدهور لم يتأثر باعادة فتح بيزنطة لأفريقيـة الشمالية في عهد الامبراطور أجـوستـينـيان . فـان الاستـعمـار البيـزنـطيـيـ الذي لم يكن يـمـتدـ الاـ ماـ يـقـرـبـ منـ قـرنـ «ـ 533ـ ـ 647ـ مـ »ـ لـشـمالـ Afriqueـ والـذـيـ لمـ يـشـمـلـ سـوـيـ رـقـعـةـ ضـيـقةـ ،ـ لمـ يـكـنـ منـ شـائـنـهـ أـنـ يـوقـفـ الاـختـنـاقـ المـتـزاـيدـ معـ مرـوـرـ الزـمـنـ لـحـيـةـ المـدـنـ .

فقد كانت الأراضي المجاورة للمدن والأرياف التي تغذيها ، محاطة بالبربر الرحيل ، وكانت الغزوات وحملات التأديب تتولى . وأما الأرياف التي كانت خاضعة للسلطة العسكرية البيزنطية ، فقد كانت تحصر في مناطق المواصلات ، التي تمتد بين كتل الجبال التي كان البربر المقيمون يعززون استقلالهم فيها . وكذلك نجد أن النفوذ البيزنطي لم يتوجل قط في الهضاب المرتفعة والمناطق الصحراوية حيث كانت القبائل الرحيل تتنقل بكل حرية .

والى جانب تخلص المناطق التي يشملها نفوذ المدن ، كانت عملية التخلص من النفوذ الروماني تزداد اتساعا مع مرور الزمن وكان البربر يسترجعون ماضיהם شيئا فشيئا . وهذا هو نفس التطور الذي وقع في سوريا ومصر ، حيث حلت أنماط الحياة الآرامية والقبطية محل النفوذ الهليني . والفرق بين هذين التطورين المتشابهين في الظاهر ، هو أنه ، بينما كان الماضي الحضاري الذي يقوم على المدن ، هو الذي انبعث في المشرق ، نجد أن الماضي الذي انبعث في شمال إفريقيا ، هو ذلك الذي كان يقوم على حياة البدو والاتجاه . والتغيير الوحيد الذي وقع ، هو ظهور الجمل الوحيد السنام .

وعملية التخلص من النفوذ الروماني التي بدأت منذ وقت بعيد ، لم يتمكن الغزو البيزنطي من وقفها . فان عددا متزايدا من البربر يتخلون عن اللغة اللاتينية وعن اللغة الفنيقية ، وخصوصا لغة المدن المكتوبة - ليعودوا الى اللغة البربرية واللغة الليبية القديمة ، التي تحفظ بنقوش قديمة منها والتي لا صلة لها باللغات السامية واللغات الهندية الأروبية . واللغة الليبية القديمة لغة شفهية وليس لديها أدب مكتوب . وفي الوقت الذي استرجع فيه البربر لغتهم ، استعادوا أيضا عاداتهم وتقاليدتهم القديمة ( القانون ) وهياكلهم الاجتماعية : الاطار القبلي ، الميل الى الديموقراطية والمساواة . وقد أدت روح

الاستقلال والتمسك بالتقالييد والاعتزاز المفرط بالفردية في البربري .  
إلى تزويق البلاد وانقسامها إلى جمهوريات جبلية صغيرة محافظة ، أو  
إلى قبائل من الرحيل .

ولكن سكان المدن ، استمروا مع ذلك ، على استعمال اللغة  
اللاتينية واللغة الفنيقية . وقد تمكنت اللغة الفنيقية من الاحتفاظ  
بمكانتها في بعض المناطق في إفريقيا . وهذا من العوامل التي ربما  
فسرت لنا انتصار العرب السريع في المدن الشرقية . وأما اللاتينية فقد  
ظلت وقتاً طويلاً لغة المدن . فاذ آخر النقوش التي عثر عليها في  
فولوبيليس ، يرجع عهدها إلى القرن السابع الميلادي . والمؤرخ  
اليعقوبي (القرن التاسع الميلادي) يتحدث عن الأفارقة الذين يتحدثون  
اللسان « الأفريقي » .

ولكن اللاتينية ستتطور إلى لغة عامية رومانية (1) . وفي القرن  
الثاني عشر ، يخبرنا الأدريسي ، بأن سكان جفصة في جنوب تونس  
يتحدثون لغة خاصة ، هي خليط من اللاتيني والأفريقي .

ولكن المدن استقبلت الفاتحين العرب بدون مقاومة تذكر . والمقاومة  
في إفريقيا سيواجهها العرب في الهضاب والجبال والصحراء .

وبعد الفتح الإسلامي ، ستعتمد المدن ومناطق المواصلات بين كتل  
الجبال اللغة العربية ، بينما تستمر جبال البربر وقبائل الصحراء على  
التحدث باللغة البربرية .

وفي هذه الأثناء ، أخذت الديانة المسيحية تتقلص مع تقلص المدن  
والنفوذ الروماني . وكذلك أصبحت الكنيسة الأفريقيَّة التي لعبت دوراً

---

1 - راجع :

T. LEWCKI. Une langue romaine oubliée de l'Afrique du Nord.  
(en français) ; ROCZNIK Orientalistyczny, XVIII, 1953, pp. 45-480.

كبيراً في القرن الرابع الميلادي وفي عهد سانت أوجستين البربرى ، تعانى من الضعف والتمزق ، خصوصاً نتيجة لاضطهاد الوندال الآريين للمسيحية . ومن جهة أخرى ، فإن المسيحية لم تدخل قط إلى بعض المناطق في إفريقيا الشمالية . والنصوص البيزنطية التي يرجع عهدها إلى القرن السادس الميلادي ، تحدثنا عن وجود كثير من القبائل التي لا تزال على الوثنية ، أو عادت إلى الوثنية .

وللبربر ميل قوي إلى التدين ، وجد ما يرضيه في الطقوس الدينية السحرية التي تنطوي عليها الديانات الوثنية الإفريقية التي كانت سائدة قبل أن يدخل الفنقيون والرومان آلهتهم إلى هذه البلاد . وكثير من الخصائص التي تميز الطقوس الوثنية التي تقوم على السحر في بلاد البربر قد وصلت إليهم بدون شك من إفريقيا السوداء ( وربما كان العكس صحيحاً ؟ ) .

وفي العصور المتوجلة القدم ، كان البربر على اتصال بأفريقية السوداء التي تمتد في جنوب جزيرة المغرب والتي انحسرت تدريجياً حتى السودان تحت ضغط الجمالين البربر . ولكن البربر سوف لا يستعيذون ديانتهم الوثنية التي كانت منتشرة قبل المسيحية والإسلام في صورتها الأصلية .

ومن جهة أخرى ، كانت توجد في إفريقيا في عصر الرومان ، جماعات مهمة من اليهود الذين كان أصلهم يرجع إلى عناصر فنيقية ، أو متأثرة بالفينيقيين ، أو من اعتنقوا الديانة اليهودية من سكان المدن . وعن طريق المدن وهجرة القبائل التي تزايدت مقدرتها على الحركة منذ نهاية العصور القديمة ، تمكنت اليهودية من التوغل إلى داخل بلاد البربر ، في الهضاب والجبال والصحراء ، وخصوصاً في جراوة بالأوراس ، ونقوسة ، في جنوب تونس ، وبين كثير من قبائل الأطلس والقبائل التي تنتقل في جنوب المغرب الأقصى . وكذلك يمكننا اكتفاء أثر انتشار

اليهودية عبر الصحراء . والرواية الاسلامية تخبرنا بأن هؤلاء اليهود كانوا ، منذ أقدم العصور يمارسون التجارة ويزاولون الفنون التقليدية .

ولما اختفت المسيحية من شمال افريقيا ، ظلت اليهودية محتفظة بوضعها في هذه البلاد ، وأخذت تربط نفسها بعلاقات من جديد مع المراكز التي كانت خاضعة للبيعة الرسمية في المشرق – تلك المراكز التي كانت مراكز التجارة العالمية أيضا .

وقد كانت طرق انتشار اليهودية في القرن التاسع الميلادي تمر بالجماعات المستقرة في الهند والصين ثم بشعب الغزر الذي اعتنق اليهودية ، ومنعطفات نهر الفولجا وبالجماعة اليهودية التي تقيم في شمال الصحراء الكبرى .

وأما الجماهير الوثنية ، فستعتنق الاسلام تدريجيا . وقد كانت مراكز العمران الباقي ، هي المراكز التي يتشر منها الاسلام واللغة العربية ، كما كانت الحال عند انتشار التأثير الفنطي والرومانى في العصور القديمة . وفي مرحلة تالية ، سينتشر الاسلام من مدن جديدة ومدن قديمة انبثت ، بحيث يبلغ أوجه خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر ، عندما وصل الى قمم الجبال . ولكن البربر سيتردون عدة مرات ( على الاقل عشرين مرة في رأي ابن خلدون ) . خصوصا في غضون القرنين التاليين للفتح الاسلامي . والاسلام في افريقيا له طابع خاص ، ويتميز بانفتاحه لاستقبال بعض المذاهب الجانبيه ، مثل مذهب الخوارج الذي يتعارض مع مذهب أهل السنة الذي تعتقده الحكومات ، ولكنه يتفق مع مزاج قنوات معينة من البربر ، مثل بنى ميزاب . بل ان مذهب أهل السنة نفسه ، قد لقي مقاومة طويلة بين جماهير البربر ، وسينفتح لكثير من الخرافات ، مثل الاعتقاد في الاولياء والمرابطين وفيما يسمى بالبركة .

وهكذا نجد المعتقدات الوثنية البربرية القديمة تظهر بشيء من القوة ، خلال الفترة بين القرن الرابع والقرن السابع الميلادي . كما نلاحظ ضحل تأثير الرومان والمسيحية في إفريقيا الشمالية . وكذلك نلاحظ ببطء انتشار الإسلام الذي كان تأثيره عبيقاً في بعض المناطق حيث تأقلم مع المعتقدات الإفريقية القديمة .

وكذلك عجز الاحتلال البيزنطي عن وقف التقهقر الاقتصادي الذي كانت تعاني منه إفريقيا الشمالية نتيجة لتناقص المساحات المزروعة ( الزيتون والقمح والدوالي ) من جهة ، ولاختناق التبادل التجاري . من جهة أخرى . وقد فشل البيزنطيون حيث سينجح المسلمون الذين سيعكسون هذا الاتجاه إلى الانحطاط والتدهور الاقتصادي ، خصوصاً بداخلهم شمال إفريقيا من جديد في التيارات الاقتصادية العالمية .

لقد شهدت إفريقيا الشمالية أبعاث الماضي البربري الذي لم يكن ينطوي إلا على قليل من الحضارة والتسدن ، كما شهدت تدهوراً اقتصادياً . ولكن المغرب كان يسلك مصدرين للقوة : الغنى بالرجال . فقد شهد المشرق في المراحل الأولى من النضال ، تدفق العبيد على هذه المنطقة . ولكنه بعد اعتناق كثير من المناطق المفتوحة للدين الإسلامي – الامر الذي أدى إلى تناقص موارد العبيد – اتجهت الأنظار إلى بلاد البربر التي تحتوي على احتياطي كبير من الجنود الذين سيتم على يدهم فتح إسبانيا وصقلية ( في عهد الأغالبة ) ، ومصر ( في عهد الفاطميين ) . وبواسطة البربر أيضاً تم استعمار الصحراء حتى بلاد السودان .

هل كان التوسع الديسوجافي الذي شهدته المغرب في العصور الوسطى العليا نتيجة لما يسمى « عهد السلام الروماني » ؟ من الصعب تأكيد ذلك ، حيث أن هذه الظاهرة شاهدها أيضاً في العصر الحاضر . وعلى كل حال ، فإن إفريقيا الشمالية كانت خلال الفترة بين القرن الثامن

والقرن الثاني عشر الميلادي مورداً معتبراً للقوة العسكرية ، مثل الدليل في المشرق .

والقوة الأخرى التي لم تكن مستغلة في المغرب وسيحولها الإسلام إلى حقيقة هي : افتتاح عالم البربر على الصحراء الكبرى وببلاد السودان . فعن طريق التبادل التجاري بين المغرب وببلاد السودان سيدفع الذهب والعيدي السود في اتجاه البحر الأبيض المتوسط والشرق . فالذهب سيكون مصدراً لقوة تجارية ، بينما يشكل العيدي السود يداً عاملة في الزراعة ، كما أن الخصائص العسكرية التي يتسم بها هؤلاء العيidi . ستعزز قوة إفريقية الشمالية البربرية من الناحية العسكرية .

### البلاد المغربية :

تحتل جزيرة المغرب موقعًا جغرافيًا ذات قيمة عظيمة بين المشرق الإسلامي وأسبانيا الإسلامية ، ثم بين صحراء السودان والبحر الأبيض المتوسط . والمناطق الثلاث التي يتكون منها المغرب والتي بسط عليها المسلمون الذين جاءوا من المشرق سلطانهم ، هي إفريقية والمغرب الأوسط ، مضافة إليها حفافات الصحراء ، والمغرب الأقصى .

وإفريقية (africa proconsularis) تسيطر بمقامها على مضيق طليلة . وهي مركز فنيقي قديم ونقطة استراتيجية معتبرة استغلتها الوندال ثم البيزنطيون من بعدهم . وقد كانت مدنها ، ولا سيما قرطاجنة ، مأهولة بالمشاركة ، وأهم المزروعات فيها هي الزيتون والقمح والكروم . والمغرب الأقصى الذي تمتد أراضيه في الشمال الغربي للصحراء ، يسيطر ب موقعه على مضيق جبل طارق وعلى المدن التي تقع على العدوتين : تينجس ، وسبتم ، وليكسوس ، وعلى الضفة المقابلة ، مالقة وقادس وهيسپاليس ، التي كانت مأهولة بجماعات من المشارقة واليهود . وفي الداخل ستكون فولويليس (أوليبي ) أول عاصمة للدارسة ، قبل فاس (نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي ) .

فاما افريقية وحافات الصحراء في المغرب ، وهما منطقتان سلكان مراكز حضارية قديمة ، فنيقية رومانية ، وتشكلان ممرا الى ايطاليا واسبانيا فقد انتشر الاسلام واللغة العربية فيهما بسرعة .

ولكن الحالة لم تكن كذلك فيما يتعلق بالمنطقة الصحراوية التي تمتد عند أقدام الأطلس ( وهي منطقة واسعة ) من الشرق الى الغرب ، حيث تلتقي الطرق التي تمر عبر الصحراء ، وحيث تتوالى محطات القوافل الشمالية في شبكة العلاقات السودانية الصحراوية وهذه المنطقة كانت أيضا ملجأ في الصحراء للبربر الرحيل الذين يأتون من الهضاب المرتفعة . وقد كان منهم من الدخول الى هذه المنطقة ، عملية مهمة في خطط الفاتحين العرب . وبالفعل ، فأن عقبة بن نافع قاد عدة حملات في المنطقة من الجريد الى غدامس ( سيدموس القديمة ) ثم الى السوس الأقصى ، في اتجاه وادي درعة والطرق التي تستند على ضفاف المحيط الأطلسي . وقد جاء في احدى الروايات ، أن عقبة بن نافع ، لما بلغ المحيط الأطلسي ، دفع بفرسه الى البحر ، ثم أعلن أسفه لعدم امكانه التوغل الى أبعد من ذلك .

والوضع الطبيعي للمغرب ، يشتمل - في الوسط - على أشرطة منضدة تتجه من الشرق الى الغرب ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا ، الى الصحراء الكبرى جنوبا : الساحل الذي تقطعه سلسلة من الجبال ، الأطلس التي ، والهضاب المرتفعة ، والأطلس الصحراوي ، والصحراء . وقد كانت السهول الساحلية دائما مزدهرة بالعمران في افريقية والمغرب الأقصى . الساحلية دائما مزدهرة بالعمران في افريقية والمغرب الأقصى . وهذا الوضع يفسر لنا الصعوبات التي واجهتها الغزوات التي اتخذت هذه الواجهة هدفا وانقضت عليه ، مثل الرومان والفرنسيين ، والسهولة التي فتح بها الغزاة الذين جاؤوا من الشرق ، مثل العرب ، الذين سلكوا هذه الأشرطة الطبيعية التي تمر بين الجبال وعند أقدامها .

توجد طريقان كبيرتان في المنطقة : تمتد الاولى في الهضاب المرتفعة وتمر بالجريدة لترجع على الأوراس وتندى إلى الحضنة ثم إلى تازا . والشمال الغربي لل المغرب الأقصى . وبعد اخضاع المناطق الجبلية في وسط افريقية ، وبناء القิروان ، اتصلت طريق آخرى ، تمر بحوض الحضنة بهذه الطريق ، في تيهرت .

وأما الطريق الثانية : طريق القصور « جمع قصر » ، فهي تكمل من الجريدة ، الطريق الأتية من مصر عبر برقة وطرابلس الغرب . وهي تمتد محاذية للمشارف الجنوبية للأطلس الصحراوي حتى المناطق الجنوبية الغربية من المغرب الأقصى . ونحن ندرك بسهولة أهمية هذه المنخفضات التي تقطع سلاسل الجبال المتوجهة من الشرق إلى الغرب ، وتسمح بمرور الطرق التي تمتد من الشمال إلى الجنوب وتلتقي عندها طرق القصور وطريق الهضاب العليا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

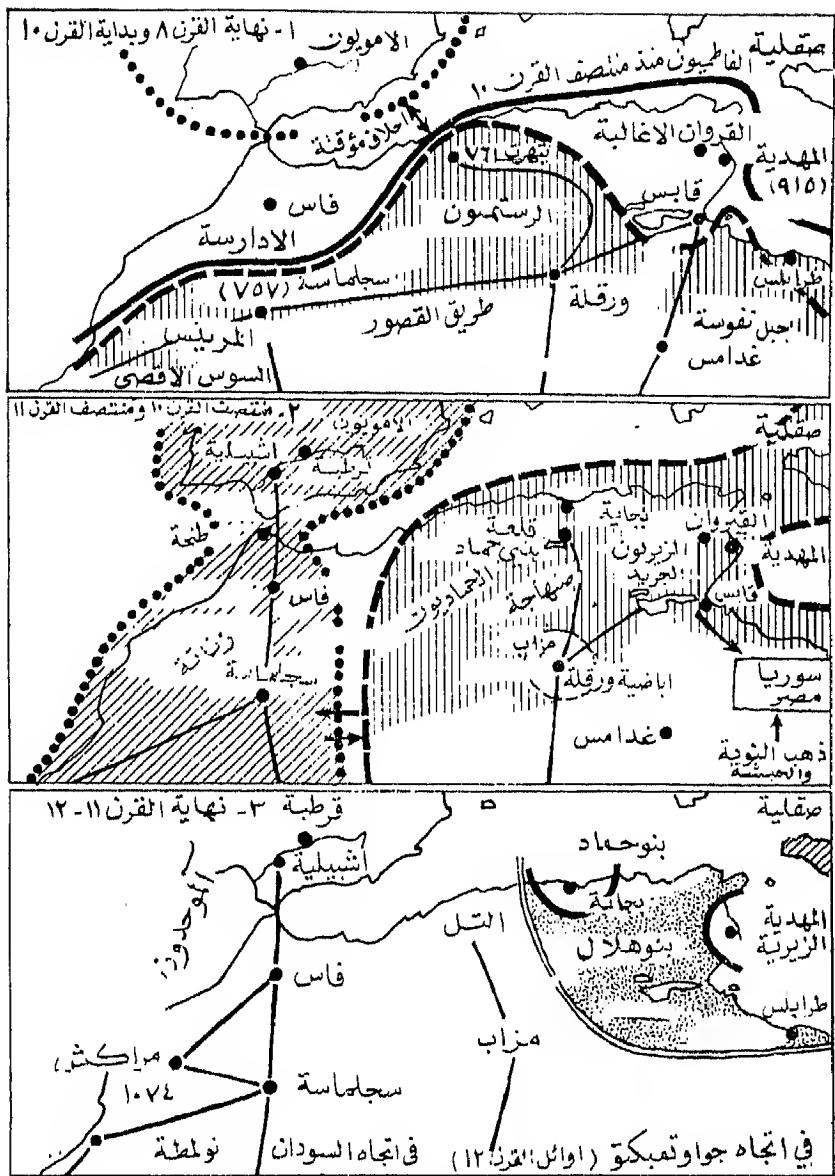
وهذه المناطق التي تمتد فيها شبكة خطوط المواصلات ، مناطق مأهولة وتنشر فيها المدن ، ولا سيما ساحل افريقية ومنخفضات الحضنة « تيهرت ، وورجلة وسداته وبني مزاب » والمرات الجبلية التي تقطع الأطلس في المغرب ، مثل تيزى تلعمت ( فاس وسجلماسة ) ، وتيزى تلويت ( أغمات ، مراكش . سجلماسة ) ، وتيزى تيست ( فاس ، مراكش في اتجاه سوس الداخلية ونولطة ) .

ومنطقة الجريدة من جهة ، وسداته وورجلة وبني مزاب ، من جهة أخرى ، وسجلماسة ونولطة ، أخيرا ، تشكل ثلاث مجموعات لمحطات الشمال لطرق القوافل المتوجهة إلى الصحراء الكبرى والسودان ، وهذه المدن ، هي التي تستقبل الذهب والعبيد السود ، وفيها توزع هذه السلع في اتجاه البحر الأبيض المتوسط والمشرق .

وإنشاء هذه المدن التي تلتقي عندها طرق المواصلات تم في غضون الفترة التي تستد بـ بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن الحادي عشر الميلادي . وهي تشكل عنصرا مهما في حركة التوسيع في إنشاء المدن التي شهدتها بلاد البربر في تلك الفترة .

وأما شبكة المواصلات التي تمتد في الشرق والوسط والمغرب ، فقد كانت هدفا أساسيا للسيطرة عليها في النزاع بين الأدارسة والrstميين والأغالبة في القرن التاسع الميلادي ، والنضال بين الأدارسة والفاطميين ، في القرن العاشر ، والنضال بين الفاطميين والأمويين والصراع بين صنهاجة وزناته ، في القرن الحادي عشر ، وأخيرا لغزو قبائلبني هلال ونظامهم في شرقبني مزاب وفي الوسط ، ولسيطرة المرابطين في الغرب في القرن الحادي عشر الميلادي .

وكذلك نرى ، أن افريقيـة الشـمالـية تحتـل مـوقـعا استـراتـيجـيا جـوهـريا فيـ العـالـم الـاسـلامـي . فـهـذـه المـنـطـقـة غـنـيـة بـآفـاقـها المـفـتوـحة نحوـ المـسـتـقـلـ وـبـاتـصـالـاتـهاـ الـحـضـارـيـة . فـهـيـ مـلـتـقـىـ الـمـتـيـارـاتـ الـأـتـيـةـ منـ الشـرـقـ وـمـنـ اـسـبـانـيـاـ وـصـقـلـيـةـ وـالـعـالـمـ الـعـرـبـيـ الـذـيـ يـسـيـطـرـ عـلـيـهـ الـبـرـاـبـرـ ،ـ وـالـسـوـدـانـ :ـ مـنـ جـهـةـ،ـ وـبـيـنـ الـعـالـمـ الـمـتـحـضـرـ وـالـعـالـمـ الـجـدـيدـ مـنـ جـهـةـ أـخـرىـ .ـ وـقـدـ شـهـدـ المـغـرـبـ تـحـتـ الـحـكـمـ الـاسـلـامـيـ توـسـعاـ دـيمـوـغـرـافـياـ كـمـاـ شـهـدـ حـرـكـةـ مـهـمـةـ لـإـنـشـاءـ المـدـنـ ،ـ وـعـرـفـ اـزـدـهـارـاـ اـقـتصـادـيـاـ وـتـجـارـيـاـ جـديـداـ .ـ



الشكل رقم. ٤ - الاراضى المغربية تحت الدول الاسلامية

## الواجهة الصحراوية :

في سنة 761 ، قام عبد الرحمن بن رستم (2) بإنشاء مدينة تيهرت وأعلن استقلاله عن الخليفة وقد كانت مملكة الخوارج ، أو الاباضيين . الرستمية تمتد على جميع أراضي المغرب الأوسط لتشمل جبل نفوسة وجزيرة جربة ، بل وحتى طرابلس الغرب . وفي الجنوب الغربي ، في سجلماسة التي أسست في سنة 757 م . كان بنو مدرار الذين يتسمون إلى الصفرية ، من الخوارج ، يوسعون نفوذهم حتى بلغوا السوس الأقصى . والدولتان الخارجيةتان تجمع بينهما صلات عائلية ، ومن ثم ، فقد كانتا شكلان أمبراطورية تسيطر على جميع الطرق الآتية من الجنوب . وكذلك كانت زناته منهكمة في حركة التجارة الكبيرة وتستخدم شبكة المواصلات التي تربط إفريقيا الشمالية ببلاد السودان . وأما مدينة تيهرت ، فقد عرفت ازدهاراً كبيراً وسميت « البصرة الصغيرة » .

وبعد قضاء الفاطميين على الدولة الرستمية ، تراجع آئمة الخوارج والتجأوا إلى مزاب .

وأما زناته ، فقد كانوا يرتبون علاقات حسنة مع الأمويين خلفاء قرطبة ، وتحالفوا معهم ضد صنهاجة ، أئمة الفاطميين ، في النضال من أجل السيطرة على محطات طرق القوافل .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، استولى الفاطميون على سجلماسة ، وبذلك تمكنوا من السيطرة على الطرق المؤدية إلى

2 - عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، أول من ملك من الرستميين ، ذارسي الأصل ، وقد كان من فقهاء الاباضية بأفريقية معرونا بالزهد والتواضع ، ولد كتاب «التفسير» ، ولما تغلب أبو الخطاب على إفريقية استخلفه على القروان ، وأثر زحف ابن الأشعث على القروان وقتلته أبا الخطاب (سنة 44 هـ) فسر عبد الرحمن بن رستم باهله وما خف من ماله إلى الغرب ولحقت به جماعات من الاباضية فنزلوا بتيهرت التي كانت غيبة بين ثلاثة أنهار وهيها آثار عمران تديم ، لبني أصحابه بها مسجداً واحتظروا مساكنهم «سنة 161 هـ» وبابعوه بالإقامة بها إلى أن توفي في سنة 171 هـ «المترجم» .

السودان . وبفضل ما تجمع لديهم من الذهب والعيدين ، ملؤوا خزائن الحرب ومولوها جيشا كثيرا بتحقيق خططهم العسكرية : غزو مصر . وفي سنة 915 م بنوا مدينة المهدية ، التي ستحل محل القิروان . وقد بسطوا سلطانهم على جميع أفريقية الشمالية فيما عدا المنطقة الواقعة في الشمال الغربي والتي كانت خاضعة للأدارسة ولكنهم واجهوا في سنة 944 م ، خطرا كبيرا ، نتيجة لثورة أبي يزيد الخارجي ، الذي كان مسيرا للقوافل وينتمي إلى منطقة الجريد . على أن الفاطميين تسكنوا من قمع هذه الثورة ، واستعادوا سيطرتهم على جميع الطرق التي تستد في الشمال .

وفي منتصف القرن العاشر كان يسب في مدينة سجلasse 400000 دينار من الذهب سنويا .

وفي سنة 972 م : قاد جوهر الصقلي جيشا عن طريق الواحات لغزو مصر التي انتشرت فيها دعوة العبيديين . وكانت القوة التي اعتمد عليها هي رجال كتابة ، والجنود المرتزقة السود ، والذهب الآتي من السودان .

ومنذ ذلك التاريخ ، ترك الفاطميون أفريقية الشمالية لبني زيري وبني حماد . وفي هذه الأثناء ، وجه الأمويون أعوانهم من زناته للاستيلاء على محطات القوافل الغربية ، فاحتلوا ، فيما احتلوه سجلasse . وأما الأدارسة الذين تحالفوا مع صنهاجة ، فقد فقدوا مدينة طنجة ، في الوقت الذي بسط فيه خلفاء قرطبة نفوذهم على المغرب الأقصى ، بواسطة أعوانهم من زناته .

وكذلك تكونت كتلتان سياسitan كبيرةان في أفريقية الشمالية : الأمويون الذين يسيطرون على محطات القوافل في الغرب ، والفاطميون الذين يشمل حكمهم المحطات الواقعة في الوسط وفي الشرق . وقد كانت

الحرب عواناً ومسترة في البر والبحر بين صنهاجة وزناتة . ولما وجد الأباضيون في سدراته وورجلة أنفسهم بين نارين ( في القرن الحادي عشر الميلادي ) هربوا إلى مزاب .

ومنذ الآن سينقسم التيار الذي يتدفق منه الذهب من السودان إلى قسمين ، يتجه أحدهما إلى قرطبة ، والآخر إلى القاهرة ، وفي قرطبة سيعذى ذهب السودان ببيوت السك - سك الدينار - ويكون مصدراً لثراء القصور وتتدفع منه تكاليف بناء مسجد قرطبة ومدينة الزهراء ، ويساهم في حماية العلوم . والفنون : فإن ذهب السودان هو عمدة الحضارة الأندلسية العظيمة وسندتها في القرن الحادي عشر . وفي القاهرة ، سيكون الذهب الآتي من التوبه والجيشة والذي اخليط بالذهب المستخلص من قبور الفراعنة ، مصدراً لثروة الخلفاء الفاطميين . وقد تمكّن ناصري خسو ، الذي زار القاهرة في ذلك العهد من مشاهدة الدينار المصري والاعجاب به . وهذه الدنانير هي التي كانت تمول توسيع الفاطميين في اتجاه المحيط الهندي ، وحياة البذخ التي كانت سائدة في قصورهم ، ونشاط البناء ( بناء المدن والقصور والمساجد والأسواق ) الذي بلغ أوجه في عصرهم .

وفي منتصف القرن الحادي عشر ، اضطر الغزو الهلالي بني زيري في إفريقية إلى الالتجاء إلى المهدية ، وبني حماد إلى الالتجاء إلى بجاية ، وذلك في الوقت الذي كان المرابطون في المغرب يشيدون فيه أمبراطوريتهم التي تمتد من الصحراء إلى أسبانيا . وأما بنو مزاب ، فقد شرعوا منذ ذلك الوقت في ممارسة نشاطهم في تجارة التجزئة وأخذوا يستقرّون في التل ويندمجون في تيار التجارة مع السودان .

وفي غضون القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، انفصلت بلاد البربر نهائياً عن المشرق بسبب الغزو الهلالي والنورماندي وأصبحت

كثير من المناطق مسرحا لغارات المسيحيين أو لنشاطهم التجاري . وكذلك كانت سفن جنوه تقصد المرسى الكبير في وهران لتنقل منها الذهب . وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر ، قام البدقيون في تونس بحياة الطرق الشرقية . وفي القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . سيقوم الجنويون بممارسة التجارة بطرق القوافل التي تمر بالصحراء الغربية ، قبل أن يقوم الديسيون (Diepois) ثم البرتغاليون بالسيطرة على التجارة في الذهب عن طريق البحر .

### الواجهة البحرية :

ينبغي أن نستحضر دائما في أذهاننا المخطط العام لوضع إفريقية الشمالية الذي يتكون من أشرطة تتجه من الشرق إلى الغرب ومن امتداد في طرفيها : في الشرق ، ساحل إفريقية ، وفي المغرب السهل التي تشرف على المحيط الأطلسي . ومن هاتين النقطتين يعبر في بعض ساعات إلى صقلية وإلى إسبانيا . وقيمة هذا الوضع وأهمية هاتين المنقطتين اقتصاديا ، شيء معترض به منذ القدم . ومدن ضفت خليج صقلية وجبل طارق ، كانت ترتبط فيما بينها بروابط تجارية نشطة .

وقد كان طرفاً إفريقية الشمالية في الشرق والغرب ، قاعدة لانطلاق الغزو الإسلامي للغرب الذي يقع تحت سيطرة البربرة ، وكانت هاتان المنقطتان مركزين لبناء السفن ، بفضل الغابات التي تكسو الجبال الشاطئية من الشرق حتى جبال الريف في المغرب الأقصى . وكذلك كانت المنقطتان ملتقى لتيارات النفوذ الآتي من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض وينتشر نحو المغرب وهي في نفس الوقت ، مستودع توزع منه منتجات السودان : فساحل إفريقية ينقل هذه المنتجات إلى الشرق الإسلامي وصقلية . ومضيق جبل طارق تنقل عن طريقه المنتجات إلى إسبانيا وما وراءها من بلاد الأفريقي (إمبراطورية شرمان) التي ظلت بمعزل عن موجة الفتح الإسلامي .

والمناطق يسود فيها نشاط بحري ممتاز . فكلتاهما كانت منطقة مهمة لصيد السمك . وعلى عكس الوضع السائد عند بقية شواطئ المغرب حيث يشتد عمق البحر فجأة ، فإن شواطئ المضيقين غنية بالسمك الذي يحدد ويملح ، بفضل الملح المستخرج من البحر ومن مناجم البر : ويصدر إلى الخارج .

ومن جهة أخرى ، فإن العبور سهل إلى العدوة الأخرى : من مدينة المجوس إلى النقطة الشمالية من رأس بون نحو صقلية ، ومن قصر المجوس ، بين طنجة وسبتة نحو طريفة والجزيرة الخضراء على العدوة المقابلة .

ففي هذه المناطق ، كان يعيش صيادوا السمك البربر والتجار الشرقيون الذين يشكلون جماعات أعدتها العادات المتوارثة للقيام بدور مهم بمجرد ما تسمح الظروف بذلك ، أي حينما يفتح أفق واسع للتجارة بظهور العالم الإسلامي .

والطريق البحري التي تربط المشرق الإسلامي وصقلية عن طريق سرت ، والتي تربط الشواطئ الشمالية للمغرب باسبانيا ، عن طريق مضيق جبل طارق ، ذات تكوين مزدوج . فهبي ، أولاً ، تمثل علاقات مباشرة فقد أنشئت على هذه الشواطئ موانئ جهزت بأحواض وأرصفة وفنارات وبسلسلة من مصانع السفن وورش التصليح ، مثل الاسكندرية والمهدية وتونس وبجاية . وكانت السفن الكبيرة ترسو فيها وتفرغ حمولات كبيرة . وحركة النقل البحري ، تستشهد نشاطاً واسعاً ، خصوصاً في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . وهذه الفترة بعينها هي التي شهدت بناء السفن الكبيرة الحجم لنقل السلع . وقد استمر صنع السفن على الطريقة المعروفة في البحر الأبيض المتوسط ولا سيما السفينة المزودة بساريتين ذات الأشرعة « اللاتينية » . ولكن

صناعة السفن قد استفادت من وصول الطرق التقنية المعروفة في المحيط الهندي . ولكن البحارة كانوا يمارسون أيضا ملاحة الشواطيء ، من مرسى إلى مرسى . والمراسي ، في بعض الحالات ، لا تتعذر كونها مرفاً تلجم إليه السفن لتجنب الرياح .

ولكنه ، كان يوجد ، إلى جانب السفن الكبيرة الحمولة سفن أصغر وقوارب تواصل النشاط البحري القديم على الشواطيء .

وهاتان الشيكتان من خطوط المواصلات البحرية تكمل ، احدهما الآخرى .

وكذلك نجد أن كل مدينة على ساحل المغرب ، تقابلها مدينة على الشواطيء الإسبانية الواجهة .

تم فتح إفريقية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي ، ولكنه كان من المحتم ضمان سلامة الحاميات وتأمين البلد ضد تهديد الهجمات من الخارج وغارات الأسطول البيزنطي . وكذلك أصلحت العصون والقلاع الموجودة في الداخل ، كما وضعت ترتيبات على طول الشواطيء للدفاع عنها ضد محاولات نزول « الرومي » فيها .

كانت سلسلة من الرباطات (3) تمتد من سوريا حتى المغرب الأقصى ، وخصوصا على الساحل التونسي . وهذه الربط عبارة عن مراكز للمراقبة والاسارات ، ولكنها في نفس الوقت ، قلاع صغيرة للدفاع عن الشواطيء ولحماية النشاط البحري . والحامية تتكون من أشخاص آتقيناء ، يسمون مرابطين ، كرسوا حياتهم للعبادة وللدفاع عن بلاد الإسلام ضد الكفار .

3 - رابط رباطا ومرابطة الجيش : لازم التخوم ، والمرابط ، كلمة يرجع أصلها إلى المرابطين ( الملثمين ) الذين كانوا يرابطون في الساقية الحمراء ، ولكن منها اتسع في مرحلة تالية بحيث أصبحت تتطبيق على جماعات من الزمام والعلماء والآتقيناء الذين يوقفون حيائهم على العبادة والجهاد ، وهؤلاء هم الذين انتشروا في داخل بلاد المغرب بيدما زالت فعالية نظام الرباطات على الشواطيء وكوئوا الروايا التي لا يزال بعضها موجودا حتى الآن ( المترجم ) .

والرباطات تستخدم قاعدة لحملات للغزو ، في الوقت الذي تقوم فيه بدور مراكز المقاومة ومؤسسات لنشر الاسلام – وهو الدور الذي قامت به الرباطات في آسيا الوسطى ، وعلى ثغور الأنضول ، وتحوم اسبانيا . وهي منشآت ذات طابع مزدوج ، ديني وعسكري ، يدافع عنها جنود ، هم في نفس الوقت ، من الزهاد المترغبين لعبادة الله .

والرباطات ، هي أصل النظام الديني العسكري الذي ابتدأه المسيحيون في العصور الوسطى في الاراضي المقدسة في فلسطين وفي اسبانيا ، وقت استعادة المسيحيين لشبه جزيرة الاندلس . ومن أهم الربط التي تقع في هذه المنطقة ، تلك التي كانت في الاسكندرية ، وسفاقس ، ومنستير . وسوس ، وتونس ، والرباط . (في مقابل مدينة سلي ) . وسلسلة الربط تمتد حتى شواطئ افريقيا الغربية .

واثنان من الرباطات المشهورة التي حفظت آثارها ودرست ، يقعان في تونس (4) أحدهما في منستير ،بني في العصر العباسى وجرى توسيعه أولاً في القرن التاسع وثانياً في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى . والثانى يقع في سوسة وبني في عهد يزيد بن حاتم الوالى العباسى ، في الرابع الاخير من القرن الثامن الميلادى ، ثم كمل في سنة 821 م ، بتشييد برج للمراقبة عليه ، وكان ذلك في عهد الامير الأغلبي الثالث . وهو يتكون من مربع من البناءات التي تحيط ببناء مركزي ، ومحصن بأبراج ذات فتح . وهذا هو التصميم العادى للحصون البيزنطية مع ادخال عدد من التحسينات عليه . وباب الرباط مزود بوسائل الدفاع من سياج ، وشرف لرمي الحجارة والسوائل المحرقة على المهاجمين ، والدبابيس المتالية ،

4 - راجع : A. Lazine, deux Ribats du Sahel Tunisien, cahiers de Tunisie, IV, 1965, pp. 279-288. pl.

والتي ترتب عند المدخل الخ . وهذه الوسائل الداعية التي كانت معروفة بين النهرين ، هي التي أخذها عن المسلمين الصليبيون . وهذه التحصينات معززة بمتكا يتخذ شكل نصف دائرة ، وبرج مربع يقع عند الزاوية ومزود بمرقب مستدير له عدة طبقات . والبرج والمتكا ، كلاهما موجود في الآثار الشرقية القديمة . انه من الممكن الافتراض بأن مهندساً معماريًا عارفاً بأساليب البناء الإيرانية ومطلاً على طراز الربط السائد في آسيا الوسطى ، قد أثر على اختيار الولاة العباسين والأغالب لهذا الأسلوب الفني .

ومثليماً نرى مدن القوافل مرتبة على طول طريق القصور ، نجد سلسلة من المراسي منتشرة على طول شواطئ شمال إفريقيا وتشكل خططاً من المدن النامية مع شبكة العلاقات العامة . وهذه المراسي بعضها أشئر حديثاً وبعض الآخر كان موانئ ، ومراكيز بحرية بعثت في العصر الإسلامي . وهذه الفئة الأخيرة ، كانت في بعض الأحيان تحتفظ باسمها الفني أو الروماني .

وهكذا نمت تونس . وبعد استيلاء حسان « بن النعمان » (5) في سنة 694 ميلادية على قرطاجنة ، أهللت عاصمة الفنقيين وأصبحت خراباً بلقعاً تستعمل محاجراً . وأما المركز المدني الجديد فسيئموا في موقع تينس Tynes ، التي هي أحدى ضواحي قرطاجنة . وعن طريق القناة التي أمر حسان بحفرها عبر البحيرة ، اتصلت المدينة بالبحر وأصبح لها ميناء .

---

5 - حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الفساني (مات بعد 86 هـ) من أولاد ملك غسان ، قائد محلك وسياسي بارع مشهور في الفتوحات الإسلامية ، ولد إفريقيا في زمن معاوية ثم عين عاماً على عامل مصر في أيام عبد الملك بن مروان ، ولما اضطررت إفريقياً بعد مقتل زهر البلوي (76 هـ) أمره عبد الملك بالرحف عليها على رأس أربعين ألف مقاتل ، وبعد وقائع مع الروم في قرطاجنة ومع الكاهنة البربرية في قابس وجبل أوراس دانت له إفريقياً كلها ، وبعد أن عم الإسلام المغرب ، أقام بالقيروان حيث دون الدواوين وولي الولاية ، وقد اعتزل الاعمال في أول عهد الوليد بن عبد الملك . « المترجم ».

وكذلك احتجز عدة آلاف من الأقباط المتخصصين في بناء السفن ونقلوا من مصر عائلاتهم للعمل في دار صناعة تونس . وقبل نقل الأقباط للعمل في تونس ، كان عمال آخرون متخصصون « ناخوسة » قد نقلوا لنفس الغرض من الخليج العربي إلى سوريا . وبعد ذلك ، جاء دور العمال السوريون والمصريون والأفريقيون نقلوا إلى شواطئ إسبانيا للعمل في إمارة قوطبة : المرية .

وهكذا نرى رجالاً يمرون من الشرق إلى الغرب ينقلون معهم الفنون والطرق التقنية ، وكثير منهم من الإيرانيين واليونانيين الذين يلبسون ثياباً عربية . وعن طريق هؤلاء الفنانين ينتقل ألفاظ تقنية إلى العربية ، ومنها إلى اللغات الرومانية التي ستؤثر بدورها في اللغات الجermanية .

وفي عهد الفاطميين ، سببوني عبيد الله مدينة المهديّة على شواطئ إفريقية « 915 م » ليلجأ إليها هرباً من القiroان التي كانت متلقى ل مختلف التيارات ولم يكن من بين سكانها سوى عدد قليل من يعطون على عقيدة الشيعة . وستشيد المدينة الجديدة في شبه جزيرة صخرية تتوغل بعيداً في البحر ويسهل الدفاع عنها . وتشتمل المدينة على مسجد يبني في وسطها ، وقصرين للمهدي وابنه ، وعلى دار المحاسبة . والمدينة محاطة بأسوار تخترقها أبواب من حديد . وكذلك حفر فيها 360 صهريجاً كبيراً في الصخر الصلب ، وزودت بالآلات لرفع الماء لسد حاجات المدينة . وأما زويلة ، أحدى ضواحي المدينة ، فستقام فيها أسواق مبنية بالحجر المقصوب ، ومباني للسكان .

وميناء المهديّة الذي يمتد على طول شبه الجزيرة يتكون من حوض ذي شكل قائم الزاوية ، حفر في الصخر ويمتد على 26 متراً في 57 متراً ، مع ممر يبلغ عرضه حوالي 15 متراً . ويقول أبو عبيد البكري ، إن ميناء المهديّة كان مجهزاً لاستقبال ثلاثين سفينة . والميناء منيع وتحميته

أسوار المدينة التي ينفتح فيها باب من الماء ، تحت قوس ضخم تسر فيه السفن . وهذا الباب مزود بسلاسل تمنع مرور السفن متى شدت .

وستكون المهدية ملجاً لبني زيري في سنة 1057 ميلادية ، عندما اضطروا إلى التخلّي عن القيروان تحت ضغط العربان الهلاليين .

وهذه المراكز البحرية الأفريقية ، كانت تقوم ، بتبادل تجاري نشيط بين البلدان الشرقية الواقعة على شواطئ البحر الأبيض ومع صقلية وأسبانيا . وقد كانت تونس أول ميناء تقلع منه السفن مباشرة في اتجاه طرطوشة (Tortose) الواقعة على دلتا نهر ابرة (Ebre) نهر سرقسطة .

وأما قابس ، فهي ميناء الجريد . ومبداً الطريق المؤدية إلى السودان . وقد كانت سفاقس والمهدية وسوسة . الموانئ التي يصدر منها الزيت الذي تتجه غابات الزيتون المنتشرة على الساحل التونسي .

ومن هذه الموانئ ، ومن ميناء تونس تصدر إلى بلدان المشرق منتجات البلد (القمح والزيت والمرجان الذي تتجه مرسى الخرز ) . ومن المناطق الخلفية ، تصدر أفريقية الصوف والجلد والشمع والجياد . وقد كانت إفريقية الشمالية ، مع سوريا ، مصدراً لتزويد سلاح فرسان سلاطين مصر بالخيول حتى حملة سانت لويس وبعد ذلك .

وفي نفس الوقت كانت إفريقية مركزاً لتجارة المرور (الترانزيت) في المنتجات السودانية : النسوارات ، والعاج ، واللؤلؤ ، وسلع الترف ، ومنتجات الغرب المسيحي : العبيد الصقالية ، والفراء ، والسيوف .

وكذلك بعثت الحياة في موانئ قديمة كانت ترقص شواطئ البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى : بنزرت (Hippo, Diarytnus, Bizerte) ومرسى الخرز، والقل، حيث يستخرج المرجان وقد كان أسطول خاص يقوم بعمليات صيد المرجان . وكانت السفن تزود بشبكات تربط بصلبان من الخشب مطلية بالحديد . والمرجان الأحمر . رمز للحظ السعيد . وتصدر منه كسيات معتبرة إلى بلدان المحيط الهندي التي لا تعرف إلا المرجان الأبيض .

وأما مدينة بونه (Hippône, Bône) فقد كانت تصدر الحديد الذي يستخرج من جبل ايدوغ الذي يقع غير بعيد منها .

وسواحل بلاد القبائل الصغرى . كانت تصدر الخشب بواسطة الملاحة الساحلية إلى أحواض بناء السفن في إفريقيا وسكنكدة ، ولكن بجایة كانت تستعمل المواد التي تتجهها الجبال المجاورة لها لبناء السفن : الخشب والحديد والقار والشمع .

ومدينة الجزائر التي بناها بلکین بن زيري في سنة 946 ، ستتصبح سوقاً مهمة للقبائل التي تقصدتها من الداخل ، وشرشال (Ceasarea) مينا آخر يقع غير بعيد منها .

كانت عصابات من المغامرين الأندلسيين الذين يقصدون بلاد البربر للتجارة ، يضربون خيامهم هنا ويبنون حصناً أو مدينة صغيرة هناك . وقد كانت مدينة تنس التي بنيت في 870 - 876 م ، مما خلفه هؤلاء الأندلسيون . وكذلك بنيت مدينة وهران بنفس الطريقة . فقد توالت علاقات تجارية بين بعض المغامرين الأندلسيين وقبائل البربر في حوالي سنة 902 - 903 ميلادية ، وكان من تائجها قيام هذه المدينة التي سيحرقها البربر في سنة 910 ، ثم أعيد بناؤها في السنة التالية ، وظلت

تتمتع بهـد من الرخاء حتى سنة 954 ، حينـا دمرـها بنـو يـفرـن ، ثمـ  
أعـيد بنـاؤـها بعد ذـلـك بـيـضـع سـنـوات .

وأخـيرا ، فقد بـعـثـت عـلـى ضـفـاف بـحـر الرـقـاق ( مضـيق جـبـل طـارـق ) فـ  
الـمـغـرـب الـأـقـصـى الـمـوـانـىـء الـقـدـيـمة : سـبـتـم وـتـينـجـس ، وـأـنـشـئـت مـوـانـىـء جـدـيـدة  
مـثـل قـصـر مـصـمـوـدـة . وـعـلـى شـوـاطـىـء الـمـحـيـط الـأـطـلـسـي ، تـقـع أـزـبـلـة  
« أـصـيـلا » ، فـي الـقـرـن التـاسـع الـمـيـلـادـي ، وـشـمـيـشـ ( Lixus, Larache )  
وـسـلـى ، وـالـرـبـاط ، وـهـي أـقـصـى حدـود الـأـرـاضـى الـمـغـرـبـية الـتـي كـانـت تـحـت  
سيـطـرـة الـرـوـمـان .

وـفـيـما وـرـاء ذـلـك ، شـهـدـ العـصـر الـإـسـلـامـي بـنـاء مـوـانـىـء أـسـفـى ،  
وـمـزـغان « الـجـدـيـدة » ، وـأـجـادـير وـمـاسـة . وـقـد ظـهـرـت هـذـه مـوـانـىـء  
تـيـعـة لـازـديـاد أـهـيـة مـحـطـات القـوـافـل الـتـجـارـيـة الـتـي تـرـبـط الشـمـسـالـ  
بـالـسـوـدـان . وـهـذـه مـوـانـىـء الـمـغـرـبـية كـانـت تـقـوم بـدور نـشـيـطـ فـي الـتـجـارـة  
مـع مـوـانـىـء شـبـه جـزـيـرـة الـأـنـدـلـس الـوـاقـعـة عـلـى الضـفـاف الـجـنـوـيـة الـمـسـيـطـ  
الـأـطـلـسـيـ : قـادـش ( Gadès ) ، وـمـصـب نـهـر قـرـمـلـة ( Guadalquivir )  
( الـوـادـي الـأـعـظـم ) وـالـسـفـنـ النـهـرـيـة تـصـعدـ حـتـى اـشـبـيـلـيـة وـقـرـطـبـة )  
وـشـلـطـيـشـ ( Al-cacer Do sal ) ، وـقـصـرـ أـبـي دـانـسـ ( Saltes ) وـمـوـانـىـء  
الـغـرب .

وـفـيـ اـتـجـاهـ هـذـه مـوـانـىـء الـأـنـدـلـسـيـة كـانـت تـصـدر الشـبـوب وـالـمـواـشـي  
وـالـصـوـفـ وـالـجـلـدـ وـالـشـمـعـ وـالـعـسـلـ الـذـي تـنـتـجـهـ الـبـلـادـ الدـاخـلـيـةـ الـوـاقـعـةـ  
وـرـاءـ شـوـاطـىـءـ الـمـحـيـطـ الـأـطـلـسـيـ . وـكـذـلـكـ توـسـقـ عـنـ طـرـيـقـ هـذـهـ مـوـانـىـءـ  
الـمـعـادـنـ : الـحـدـيدـ وـالـفـضـةـ وـالـنـحـاسـ الـذـيـ يـسـتـخـرـجـ مـنـ جـيـالـ الـأـطـلـسـ  
الـمـغـرـبـيةـ .

## طرق الهضبات العليا :

وقد أُول غزو لأفريقيا في سنة 647 ميلادية . وكما رأينا فإن المدن التي كانت تدافع عنها حاميات بيزنطية تم اخضاعها بسرعة . وقد استقبل سكان المدن الفاتحين استقبالاً حسناً ، حيث كان سلطان هؤلاء قوياً وتنظيمهم الإداري للمدن فعالاً ، وحمايتهم ضد البربر الرحل مكفوّلة . وأما العناصر التي أبدت مقاومة ، للفتح الإسلامي ، فهي العناصر الداخلية ، من سكان الجبال والبربر الذين يستجعون في الهضاب العليا .

وقد كانت القิروان التي أسسها عقبة بن نافع في سنة 670 ، في وسط السهوب ، وراء الساحل التونسي ، بمثابة رأس جسر ، أو رباط . واسم القิروان نفسه ، معناه « محطة الابلال » أو « مكان التجمع للدفاع عن مدينة » (6) وموقع القิروان عند متهى الطريق الكبيرة الآتية من مصر ، يسمح بالهجوم والتراجع . وقد تمكّن البربر أثناء الثورة الكبيرة التي قام بها الخوارج في القرن الثامن الميلادي من الاستيلاء على مدينة القิروان عدة مرات ومن تدمير تحصيناتها . وفي سنة 772 ميلادية ، استعاد يزيد بن حاتم (7) المدينة عقب انتصاره على الخوارج ، فأعاد بناء مسجدها وأسوارها التي بنيت بالطوب

6 - لم اعثر في ابحاثي على ما يسمح لي بمتابعة المؤلف وتاكيد ملاحظاته بشأن هذا الاشتباك ، وكل ما أعرفه هو أن الكلمة (قِيَرْوَانْ جَ قِيَرْوَانَاتْ ) فارسية معربة ، معناها : الجماعة من الخيل (معظم الكتبة ) ، أو القافلة ، ولربما كان المعنى الذي عرّاه استاذنا للكلمة من معانيها الأصلية في الفارسية ، وعلى كل حال ، فانا انقل من تفسيره حرفيًا « الترجم » .

7 - هو يزيد بن حاتم بن قبضة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، أبو خالد « توفى في سنة 170 هـ » من أمراء العباسيين ، ولد مصر في سنة 144 هـ ، في عهد المنصور واتّقام بها لينها وسبعين سنتين ، وصرّفه المنصور في سنة 152 هـ ، ثم ولد أفريقية الشمالية في سنة 154 هـ واستقرّ والياً عليها خمس عشرة سنة . قاتل خلال ولايته الخوارج وقضى على كثير من الفتن . وقد كان يزيد بن حاتم مشهوراً بالدهاء والشجاعة والكرم ، وفيه يقول ربعة الرثى :  
لشنان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأفسر بن حاتم

المكوي ، ويبلغ عرضها أثنا عشر ذراعا ، أي حوالي خمسة أمتار ، ثم أمر بناء سوق خاصة لكل حرف ، ومن ثم : فهو يعتبر بحق الباني الثاني للمدينة .

ولما خضعت جميع مناطق المغرب ( أو على الأقل مناطق المواصلات التي تمتد بين كتل الجبال ) للحكم الإسلامي ، أصبحت القิروان القاعدة التي تطلق منها الطريق المتوجه إلى الهضاب العليا ، من الساحل التونسي مارة بشمال جبل أوراس إلى شط الحضنة ، وتنفرع عنها طرق تتجه إلى بجاية وبسكرة وورجلة من جهة ، وإلى الهضاب العليا الغربية مارة بمضيقي تازا حتى الامتداد الثاني لسهول المغرب الأقصى .

وقد شهدت القิروان في عصر الأغالبة ( 909-800 م ) ، وهم أسرة شرقية من ولاة بني العباس أصبحوا يتمتعون باستقلال يكاد يكون تماما عن الخلافة ، شهدت في هذا العصر وفي عصر الفاطميين توسعاً وازدهاراً كبيراً . وفي القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ستشكل ثلاثة مدن تابعة للقิروان وهي العباسية ورقادة وصبرة المنصورية .

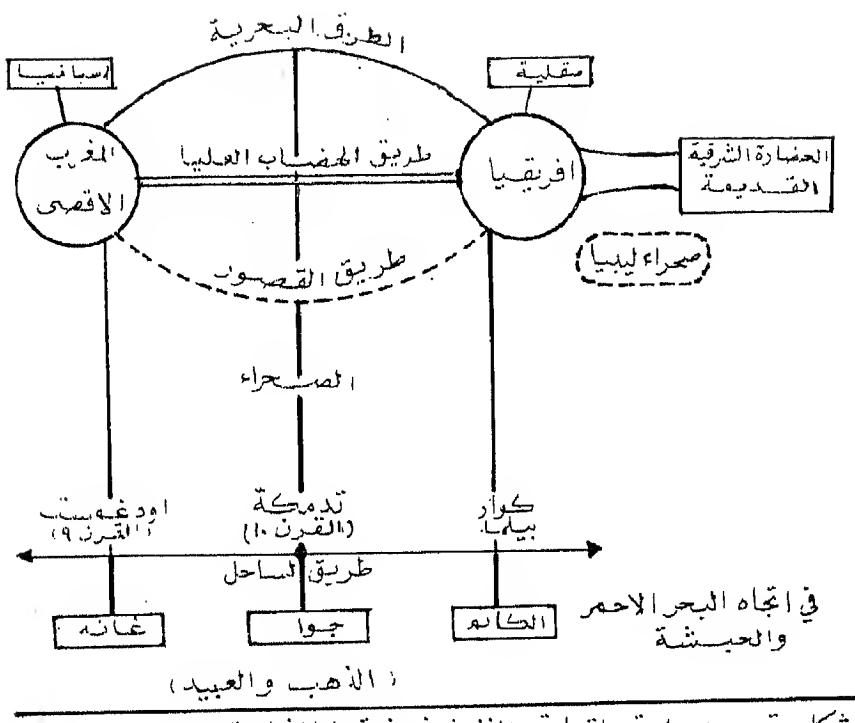
ومثل الفسطاط - القاهرة ، ومثل قرطبة ، فإن أهمية القิروان ، تعود إلى هذا التوسيع العمري الذي كان يسانده ازدهار التجارة وتصميم القิروان وعظمته تحصيناتها تدل على قوة تأثير الفن الإيرلندي والفن السائد بين النهرين في الحضارة العباسية .

وقد جذبت مظاهر العظمة والثراء التي كانت تسود بلاط القิروان وقصور المدن المحيطة بها ، إلى هذه المدن أفواجاً من الأدباء والعلماء والفقهاء الذين سيضعون مدارس ومذاهب ، وسيتسلّذ لهم البربر ، كما تتلمذوا من قبل على علماء الرومان .

ومن القiroان ، سينتشر النفوذ الديني واللغوي والفنى والأدبى .  
والعادات والتقاليد والإطارات الفكرية . حول المدينة في المرحلة الأولى .  
ثم الى داخل البلاد . في مرحلة تالية ، بواسطة الطريق المؤدية الى  
الهضاب العليا ، سجّرد ما تحطمت مقاومة البربر وانسحبت بقائهم الى  
الجبال المنيعة ، حيث لا تزال اللغة البربرية الأصلية مستعملة . وعلى  
طول هذه الطريق التي تقطعها طرق آتية من الجنوب ( من محطات  
تجارة القواقل عبر الصحراء ) ستتشكل مدن جديدة .

ولكن ما هي النقاط التي تلتقي عندها طرق التجارة في هذا المخطط  
الواسع في المغرب الأوسط ؟

أولاً ، توجد تيهرت في غرب وادي شرف على سفح جبال تشرف  
على الطرق المؤدية الى الهضاب العليا ، وتیهرت التي أنشئت في سنة  
761 م ، ستظل حتى سنة 908 م مقرًا للدولة الرستمية الفارسية وعاصمة  
الخوارج من البربر الذين سيحتفظون بعلاقات مع الخوارج المقيمين  
على شواطئ الخليج العربي . وقد ازدهرت تجارة تيهرت ، وكانت  
مقصداً لعدد كبير من رجال العلم والأدب والفقه من المشارقة . وكذلك  
حصلت مكتبة الرستميين على ثروة جديدة من الكتب التي اشتريت  
في الشرق ، وخصوصاً من الكتب التي تعالج التسجيل والفلك .



الشكل رقم ٥ - طريق التجارة والنفوذ في افريقيا الشهالية (القرن ٨ - ١١)

ولما بحث الرستميون عن ملجأ يأوون إليه ، وجدوا هذا الملجأ أولاً في ورجلة ثم في سدراته ثم في مزاب ، على طول الطريق المتوجهة من الشمال إلى الجنوب .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي ، كانت طبنة الواقعة على شط الحضنة والتي حصنها الولاية العباسيون تتمتع بسكنة مرموقه . وفي سنة 927 م ، قام عبيد الله الخليفة الفاطمي بإنشاء مدينة المسيلة ، في مكان يقع في شمال طبنة .

وكذلك قام أمراء صنهاجة ، أعوان الفاطميين وخلفاؤهم على المغرب بعد رحيلهم إلى القاهرة ، بإنشاء سلسلة من المدن . ومنذ سنة 935 م . أي قبل رحيل الفاطميين ، قام زيري بن مناد ببناء مدينة أشير ، على سفوح جبال الحضنة . وقد وجد زيري بن مناد ما يحتاج إليه من العمال والنجار والصناع محلياً ، ولكنه طلب إلى الخليفة الفاطمي أن يبعث إليه بمهندس معماري ليجري العمل في بناء أشير تحت اشرافه فأجاب بلاط الفاطميين طلبه . وقد شهدت أشير ازدهاراً سريعاً فيما بعد .

وكذلك قام ابنه بلكين بن زيري ( بناء على أوامر أبيه ) بإنشاء مدينة المدينة على الهضبة الواقعة شرقي نهر الشلف ، مليانة ، على ضفة النهر اليمني ، ومدينة الجزائر ، وهي مراكز تنتشر على الطرق المتوجهة إلى البحر .

وفي سنة 1007 ميلادية ، أنشأ حماد بن بلكين قلعةبني حماد ، على سفوح جبل « تقربيت » يرتفع في شمال الحضنة ، واتخذها عاصمة لملك بني حماد . وقد بقي من قلعة بني حماد آثار مهمة ، من بينها آثار قصر مشابه لقصر سر من رأى ، وهو تصميم سنجهة أيضاً في أحد قصور أشبيلية . وقد اتسع عمران القلعة وزاد عدد سكانها بسرعة .

وكان التجار والعلماء والفنانون ، يشكلون فئات معتبرة من سكان القلعة التي اشتهرت منسوجاتها في جميع أنحاء المغرب ، وكانت القلعة مقصدًا للقوافل الآتية من مختلف البلاد ، وكانت علاقات عاصمةبني حماد التجارية قوية خصوصاً مع مصر وسوريا والعراق ، وقد استفادت القلعة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر من خراب الفيروان نتيجة لغزو بني هلال لأفريقية ، وحل محلها . وهجر إليها كثير من العلماء والفنانين والأعيان من إفريقية طلباً للأمن والاستقرار . وقد استمرت تقوم بدورها التاريخي حتى تعرضت بدورها للاختناق نتيجة لغزو الهلالي ، وحتى وجد بنو حماد ملجأ لهم في مدينة بجاية .

وفي غربي مملكتي بني زيري وبني حماد الصنهاجيتين ، تنتد مناطق نفوذ زناته ، التي تشمل القسم الغربي من ولاية وهران والمغرب الأقصى . ومدن زناته الرئيسية هي ، تلمسان (Pomaria) قديماً ) ، وووجدة التي أنشأها أحد زعماء زناته في سنة 994 ميلادية . على الطريق المتوجه إلى الغرب والتي تربط تازا بفاس .

وفي سنة 788 م . وصل إلى المغرب حيث التجأ إلى أوليلي (Volubibis) أدریس « بن عبد الله » . أحد أبناء الأشراف من سلالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وهناك استجبار بقبيلة أوربة . وأما آخوه الذي لحق به فيما بعد ، فقد سار إلى تلمسان . وقد قام كلاهما بإنشاء إمارتين ، أحدهما في تلمسان والآخر في فاس . وبعد ذلك قام الأدارسة بدور مهم في إنشاء المدن وبعث المدن القيدية . فاما إدارسة تلمسان ، فقد حققوا كثيراً من السرخاء والازدهار لهذه المدينة التي يقول العقوبي أنها كانت في القرن التاسع الميلادي ، مكتظة بالسكان وعامة بالقصور والمنازل العاجمة ، ويحيط بها سوران مبنيان بالحجر . وكذلك أنشئوا ميناً أرجشغول (في جزيرة أرجشغون) وهنين ، وعدد من مراكز العمارة الصغيرة التي تبلور فيها النشاط الاقتصادي .

وهي كلها تحمل اسم مؤسسيها الذي يأتي بعد كلمة سوق : سوق ابراهيم ، سوق حمزة ، الخ .

وأما ادريس الأول . فقد غادر خرائب اوليلي الرومانية لكي يضع أسس عاصمة ملكه . مدينة فاس (ا) التي ستقوم بدور فاوبيليس كما حلت تونس محل قرطاجنة . وقد اختار ادريس الأول موقع المدينة بعناية على الطريق التي تمتد من تلمسان غربا . وتفضي جنوبا الى سجلماسة . في منطقة خصبة يتتوفر فيها الخشب والحجر للبناء . وكذلك توجد عيون ثرة في المنطقة (8) وفي سنة 789 . قامت مدينة فاس على الضفة اليمنى لوادي فاس الذي يسمى الآن نهر سبو . وقد كانت فاس في البداية مدينة ببرية ، تتكون من خليط من الخيام والمنازل المترجلة ، ومن المراعي ، كما تشتمل على مسجد ، وربما كان فيها أيضا متجر جماعي . وتحيي كل ذلك في شكل أسوار جذوع الشجر وحواجز القصب . وبعبارة أخرى ، فإن المدينة كانت متواضعة . ولكن ادريس الأول كان يقيم فيها ، حينما يبتعد عن أوليلي . ومات ادريس الأول في سنة 791 ميلادية .

وفي سنة 805 ، انضم الى ابنه ادريس (الثاني) بن ادريس الذي ولد بعد وفاته والذي رباه العبيد الذين اعتنوا به . نحو خمسينات من المشارقة الذين أغراهم صيت الشريف وخيرات هذا البلاد الجديد . وكذلك قصد الى المملكة أقوام آخرون من افريقيا . ومن هؤلاء شكل ادريس الثاني : جيشا

(ا) اعتمد استاذنا الراحل هنا نظرية للمشروع ليوني بروفنسان تتناقض مع الرواية التقليدية القائلة بأن ادريس الثاني هو باني مدينة فاس . وقد نصحت في الفصل الذي خصصته لمدينة فاس في كتابي دولة الادارسة ملوك فاس وتلمسان وقرطبة لاغادة جمع النصوص القديمة التي تتصل بالموضوع ولتحليلها . وقد أوضحت أن الادلة التي استند عليها ليوني بروفنسال ( وهي عبارة عن درره قديم ) غير كافية لإبطال الرواية التاريخية التي تكاد تكون محل اجماع . ( المترجم )

8 - راجع : E. Lévi-Provinal, *La Fondation de Fès* : in « Annales » de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, IV, 1838.

وحاشية على الطريقة الشرقية . وفي سنة 808 م ، أُسست فاس الجديدة على الضفة الغربية للنهر . وهذه المدينة ، مستكورة عاصمة الدولة .

والى جانب المسجد والقصر والأسواق ، اشتتملت المدينة الجديدة على بيت لضرب السكة تسمى «العالية» بدأت تصدر النقود منذ سنة 810 م .

وفي وقت متأخر ، سينشأ حي في فاس يسمى ، حي القرويين (عدوة القرويين) .

وأما المدينة ، فستظل مقراً للبربر ، وتحتفظ بمعظمها الريفي .

وأثر قيام أحد ضواحي المدينة (ربض) قرطبة بشورة ، في سنة 814 ، هاجر عدد كبير من العائلات الأندلسية إلى مصر «الأسكندرية» ثم إلى جزيرة كريت . وقد استقبل أديريس الثاني 8000 عائلة من هؤلاء المهاجرين وأنزلهم في فاس ، على الضفة اليمنى للنهر (عدوة الأندلسين) .

وكذلك عرف جنوب المغرب الأقصى توسيعاً في المدن فقامت اغمات ونبیس على المرات الجبلية المؤدية إلى السوس الأقصى «ایغلي» ، والى سجلماسة «تاfileات» ، كما أنشأ المرابطون مراكش في سنة 1077 ميلادية ، عقب وصولهم إلى موقعها قادمين من ربط الصحراء عن طرق القوافل .

وكانت مراكش في بداية عهدها عبارة عن خليط من الخيم والمنازل ، ثم بنيت أسوار حولها . وقد نمت هذه المدينة وتطورت ، على الطريقة التي نشأ بها مدينة فاس ، من مخيم إلى مدينة شرقية عظيمة القدر .

وفيما بعد ، أطلق على البلد كله اسم عاصمته الجنوبية الكبيرة ،

## الأندلس

تشتمل شبه جزيرة الأندلس على سهول ساحلية ، وهي المنطقة التي استقر فيها الحكم الإسلامي في البداية : سهول الشرق (Campus) (Juncarius) وهي منطقة حديثة الاستغلال ولم تفقد خصباتها . وبعدها تأتي المضاب الداخلية : وهي سهوب وأراضي زراعية يسهل التنقل فيها . وأخيراً تأتي المناطق الجبلية التي تقع خارج نطاق العمل المباشر . والبلاد مقسم إلى ولايات متباينة الخصائص .

فأما الجهات الشمالية الغربية من شبه جزيرة الأندلس فقد كانت تسكنها شعوب من الأستور والكتاتير والفالاسكون ، وهي لم تخضع قط للقوط ولا للمسلمين . وقد كانت دائماً ملتجأ وملذاً وفيما بعد ، ستتشكل مملكة الاستروليوني التي ستصبح قاعدة لعمل المسيحيين لاسترجاع الأندلس إلى حكمهم .

وفي شمال بلاد الأندلس ، تمتد ولايات الثغور التي كانت محصنة بسلسلة من القلاع وتشن منها غارات على البلاد المجاورة والمدن الواقعة خلف هذه المنطقة ، وهي قواعد بلاد الثغور : الثغر الأعلى ، وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط ، وقاعدته مدينة سالم (Medinaceli) والثغر الأدنى ، وقاعدته قورية (Coria) ، وطرق المواصلات تقطع منطقة الغارات في نقاط معينة . والطريق الوسطى الكبيرة تمر بسرقسطة وطنطلة وتمضي حتى تصل إلى قرطبة وشبيلية ، حيث تلتقي بطريق الملاحة النهرية في النهر الأعظم ومن قرطبة ينطلق عدد من الطرق وتتّخذ شبكة المواصلات شكل نجم : طريق نهر إبرة (Ebra) تتطاير من طرطوشة مارة بسرقسطة وطنطلة (Tudèle) . حتى ممر فيتوريا الجبلي . وأما الطرق البحرية الرئيسية ، فتمتد على الشواطئ الشرقية من نربونه (Narbonne) حتى المريّة (Almeria) والنهر الأعظم ، وعلى

الشاطئ الغربي للأردالس (Castro Urdiales) على خليج بسكونية حتى قصر أبي دانس (Alcacer do sal) ونهر قرطبة.



الشكل رقم 7 - الاراضي الاسپانية

## خلاصة النتائج الاسبانية :

اذا استثنينا العنصر الباسكوني (Basque) ، فإن إسبانيا كانت مأهولة لدى وصول المسلمين إليها بعناصر إسبانية قديمة ، امترجت بعناصر جرمانية وشرقية «السوريين واليهود» .

والسكان الذين ينتمون إلى أصل سلتي إسباني والذين تأثروا بعض الشيء بالرومان ثم تخلصوا من هذا الأثر ، كانوا موزعين في مناطق صحراوية أو شبه صحراوية .

والمدن التي تتكون من مستنقعات ومن ألسنة البحر كانت أهميتها تنحصر في الطرق الشاطئية التي تمر بها . ولكن الطريق الرئيسية كانت تمر في الداخل في العصر الإسلامي .

وأما المناطق الغربية ، فقد كانت ضحلة السكان ، وتغطيها غابات الصنوبر . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمناطق الجبلية . وعلى عكس ما شاهدناه في بلاد البربر ، فإن إسبانيا لم تعرف توسيعاً ديموغرافياً قبل الفتح الإسلامي . وكذلك أخذ الأسبان ، اثر الاضطرابات والتقهقر الاقتصادي الذي مر به البلد ، عقب انتهاء الامبراطورية الرومانية يعودون إلى التقاليد السلالية والاسبانية التي كانت سائدة قبل الرومان .

وعملية التحول ستشهد تطوراً سريعاً بعد وصول عصابات القوط الذين كانوا لا يزالون في المرحلة البدائية في التنظيم الاقتصادي والاجتماعي . والمجتمع الإسباني القديم كان يقوم على أساس من علاقات التضامن والوئام التي تربط الرجل بالرجل . وعبارات التضامن القومي والولاء التي يستعملها المؤرخون اللاتينيون عندما يصفون غزو الرومان لاسبانيا ، هي نفسها التي يرددونها حينما يتحدثون عن المجتمع

الجرماني . وبعد مرور وقت من الزمن ، أخذت مستويات المعيشة ونوع الحياة السائدة في مجتمع الغزارة والمجتمع الإسباني يتعادل تدريجيا . والتكتل على أساس الأسرة ، تلك الخلية الأولى والمهمة في المجتمع الجرماني ، هو أيضا أساس المجتمع الإسباني . وكذلك تسود في القبيلة الجرمانية والإسبانية نزعة إلى الانفراد والاستقلال . وهذا التكوين الاجتماعي محكم التقسيم ولكنه ينقصه التنظيم ، تماما مثل التكوين السائد في المجتمع البربري ، في المغرب . وهذه الظاهرة ، تفسر لنا اقسام البلد فيما بعد وتقى الحكم فيه في العهد الذي يعرف باسم ملوك الطوائف . (Reyes de Taifas)

كان الوضع السائد في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي يتسم بالتقهقر والانحطاط الاقتصادي والاتجاه إلى احياء العادات والتقاليد التي كانت منتشرة قبل الاحتلال الروماني وتضعضع إطار الدولة واستقرار السيطرة الجرمانية . وقد كان يمكن أن تخذ العيل للتخلص من النفوذ الروماني شكلاً أعمق ، لولا وجود الكنيسة التي كانت تهيمن على التقاليد الدينية واللغة اللاتينية . ومنذ البداية ، كانت الكنيسة الإسبانية تتمتع بالفوذ والثروة ، وكان رجالها ينتمون إلى طبقة الملوك ، كما كانت هبات أتباعها تزيد من سعة أملاكها باستمرار . وكذلك كان تخلي ملوك القوط عن المذهب الأنطوني (9) واعتنائهم بالمذهب الكاثوليكي مصدراً لقوة جديدة مكنت الأساقفة من تعزيز مراكزهم ، ولا سيما في العاصمة ، طليطلة ، التي كان أسقفها يتمتع بمكانة خاصة

---

9 - مذهب يذكر الوهبة المسيح عليه السلام « المترجم » .

في عهد الخلفاء . ففي عهد الحكم الثاني (10) قام الملك ليون أردون الرابع بزيارة قرطبة ، وكان مطران طليطلة من بين الأعيان المسيحيين الذين عينوا لاستقباله وتعريفه المراسيم المتبعة في بلاط الخليفة .

وهذه القوة والتفوز الذي تتمتع به الكنيسة الأسبانية ، يفسر لنا بقاء جماعة مهمة من المسيحيين تمارس نشاطاً كبيراً ، بل وتشاغب كثيراً ، خصوصاً في طليطلة وقرطبة وأشبيلية . وقد ظلت المدن مراكز للمحافظة على تفوز الرومان والمسيحيين كما كانت فيما بعد مراكز لنشر الإسلام والثقافة الشرقية . وكان المسيحيون يتمتعون بوضع الديم شيد مير ، باسم منطقة مرسيية (Murcie) . وبموجب هذه النصوص الذي تضمنه لهم في بعض الحالات معاهدات الصلح ، مثل التي وقعتها يتعهد الغزاة المسلمين باحترام ديانة المغلوبين وكنائسهم . والواقع أن التسامح الديني كان يشمل الجميع ، وذلك فيما عدا المرتدين المسلمين أو المسيحيين الذين يريدون الاستشهاد .

و «المستعربو» (Mozarabes) يشكلون جماعات يترأسها شخص يختارونه بأنفسهم ويكون مسؤولاً على حفظ النظام وجباية الضرائب على الأسس المعمول بها في الشرق : القسم الذي يمثل

---

10 - الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (المستنصر) 302 - 366 هـ ، خليفة أموي أندلسي . ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه ( سنة 350 هـ ) وكان دودون بن الفونس ، ملك الأسبان ، قد طمع في ملوكه واعد العدة للإغارة على قرطبة ، ولكن المستنصر سقه وغزا الأسبان بنفسه فعادوا على السلم ، واشترط على « كنت » برشلونة وسائل إمداد الكتلان ذلك حصولهم التالية من ثوره وعاصدوه على الأيمالوا عليه أحداً من ملوك المسلمين الذين يدخلون في حرب معه ، وقد قوي المستنصر وكثرت فتوحاته ، وكانت زيارة أردون المذكور له في قرطبة للاستجابة ، وكذلك جاءته بيعة وطاعة توامس (Comtes) جايبة وسمورة ، وخطب بدعوه ملوك زنانه في المغرب الأقصى ، وكان عالماً بالدين ملماً بالأدب والتاريخ ضليعاً في معرفة الانساب جماعاً لكتاب محبأ للعلماء ، وقيل أن مكتبه بلغت أربعين ألف مجلد ، قال ابن حزم إن ولايته امتدت خمسة عشر عاماً « في هدوء وعلو » . وقال ابن حيان : « وباسمه طرز أبو علي البندادي القاليبي كتاب الاماني وعليه وفناً حمد وفاته » . ( المترجم ) .

الجامعة ، والأسقف يقوم بجمع العجزية . وللمسيحيين قاضي يحكم في الأحوال الشخصية ( قاضي النصارى ) كما كانت لهم طقوس دينية خاصة ( طقوس المستعربين ) .

وكذلك يفسر لنا اتحاد الكنيسة القوي ، المحافظة على اللغة اللاتينية التي تستطرد إلى لغة رومانية ( الإسبانية ) تشتمل على كثير من الكلمات العربية ، ولا سيما في المجال التقني .

وتقويم قرطبة (11) في سنة 961 م مكتوب باللغة العربية واللغة اللاتينية . والكنيسة ، ستحافظ على جميع الخصائص الأساسية التي تميزها منذ عهد القوط حتى استرجاع المسيحيين الأندلس . وأما علاقتها مع الدول المسيحية الواقعة في الشمال ، فقد كانت تزداد قوة مع مرور الزمن حتى نهاية القرن العاشر الميلادي .

#### الشريقيون :

والعنصر الآخر المهم من عناصر سكان إسبانيا في عهد القوط ، هو العنصر الشرقي الذي سيشتند ويقوى في العصر الإسلامي ، وهذا العنصر يتكون أساساً من التجار اليهود والسوريون وكان يتركز في مناطق المرور الكبرى : في الجنوب الغربي ، والشمال الشرقي من شبه جزيرة الأندلس ، وفي الجنوب ، غير بعيد من مضيق جبل طارق ، في ممتلكات قرطاجنة القديمة ، حيث كان الناس لا يزالون يتحدثون اللغة الفنيقية حتى في القرن الثاني الميلادي ، وحول مملكة ، التي لاحظ استرايون طابعها الفنيقية ، وعلى ساحل قادس وفي قرطاجنة (12) ، وفي المستعمرات الداخلية ، بين مالقة (Malaga) وقرطبة والبيرة (Elvira)

11 - راجع : E.D.R. Dozy, le calendrier de l'année 961, texte arabe et ancienne traduction latine, Leyde, 1873 éd. et trad. par Ch. Pellat. Leyde, 1961.

12 - ميناء إسباني يقع في ولاية مرسية على البحر الأبيض المتوسط أسس هذه المدينة الفنقيون في سنة 223 ق.م ( المترجم ) .

التي كانت تسمى « غرناطة اليهود » . واعتناق المهاجرين الشرقيين للديانة اليهودية ، يعتبر من الحوادث الهامة في التاريخ القديم للبحر الأبيض المتوسط . وفي الشمال الشرقي ، تجمع الشرقيون عند مرات جبال البرت (Pyrénées) التي تفضي من إسبانيا إلى بلاد الفرنجة . وقد انتشروا على طرفي الجبل ، في سبتمانيا وقسطلون . وعن طريق طرطوشة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وطركونة ، وبرشلونة ونوبونة ، كان اليهود (الراذانيون) يمرون إلى مدينة ليون سالكين نهر الرون (Rhône) ثم إلى نهر الراين . (Rhin)

كان العنصر اليهودي في مملكة القوط غير مندمج في السكان الأسبان والجرمانيين . وقد كان وضع اليهود في عهد الملوك الآريين محتملاً . ولكن هذا الوضع تغير في عهد الملك الكاثوليكي ، ولا سيما في عهد ركارد ، حين كان اليهود يتعرضون للاضطهاد . ومن هنا ، فلا عجب أن نرى اليهود ، ولا سيما تلك الجماعات التي تقيم في الجنوب ، يستقبلونا الفاتحين المسلمين استقبلاً حاراً . بل إن بعض الروايات تذهب إلى أبعد عن ذلك ، وتتهم اليهود بالتواطؤ مع المسلمين . وكذلك عهد الفاتحون المسلمين إلى اليهود بمهمة حراسة المدن التي فتحوها في الأندلس . وابتداء من القرن الثامن الميلادي ، كانت هجرة اليهود الشرقيين إلى الأندلس مستمرة . وأكبر الجماعات اليهودية في إسبانيا المسلمة ، كانت تقطن في قرطبة ، المركز الاقتصادي والسياسي ، حيث كانت توجد بيعة (القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلادي) .

وقد لعب اليهود مثل الطبيب حاسدي بن شبروط الذي كان وزيراً لعبد الرحمن الثالث أدواراً هامة في بلاط الخلفاء (13) وكذلك قاموا بتنظيم مملكة غرناطة في القرن الثاني عشر الميلادي .

والعنصر اليهودي ، أو المتهود ، سيسهل العلاقات بين الشرق وأسبانيا الإسلامية ، ولا سيما حينما تكون العلاقات بين نظم سياسية متعارضة ( مثل الأمويين والفالطين ) ، كما سيسهل العلاقات بين أسبانيا الإسلامية والبلدان المسيحية الواقعة في الشمال (14) وكذلك تكونت شبكة من الجماعات اليهودية على طول وادي الرون والبلاد الواقعة عليه ، كانت تقوم بنشاط واسع النطاق في تجارة العبيد ، في المنطقة التي تمتد بين نهر الألب ، وبلاد الأندلس ، ومن جهة أخرى ، فإن شبكة تتكون من اليهود تمتد من أسبانيا حتى المغرب الأقصى ، وتشمل السوس الأقصى والصحراء والسودان ، وتعمل في التجارة في الذهب والعبيد السود ، دون أن يقطع نشاطها ما يجري في هذه البلاد من النضال والمنافسة السياسية . والرسالة التي وجهها حاسدي بن شبروط ، وزير عبد الرحمن الثالث ، إلى ملك الخزر ، وهم شعب اعتنق الديانة اليهودية وتمتد أراضيه على ضفاف الفولجا ، تلقي ضوءاً ساطعاً على العلاقات بين جماعة يهودية وجماعة أخرى ، تقع كل منهما على الطرق الكبرى التي تسير فيها التجارة العالمية (15) .

13 - يمكننا أن نذكر في هذا السياق أيضاً يوسف بن نفرالية الذي سلم إليه باديس مقاليد الحكم في مملكة فرنطة . وقد حل محل أبيه اسماعيل بن نفرالية ، وزير حبوس ثم باديس ، فرقمه باديس فوق سائر كتابه وزرائه وفوض إليه أمر تعين الولاية والمناصب ، الدين كان يعين معظمهم من اليهود . وقد اشتهر يوسف بالذكر والدهاء ، ودمانة الخلق والفضل في الآداب العربية والعبرية ، كما درس الرياضة والفلك والهندسة ، ولما توفي يوسف ، ندب باديس ابنه يوسف للانطلاق بمنصبه . ( المترجم ) .

14 - راجع M. Lombard : La route de la meuse et les relations lointaines des pays Mosans entre le VIII<sup>e</sup> et le XI<sup>e</sup> siècle dans l'art Mosan, recueil de travaux pub. par P. Francastel. Paris, 1953, pp. 9.28.

15 - راجع : « Lettres en Hâgân des Khazâr » vers 958 » éd. et trad. E. Carmoly. Itinéraires de terre sainte de XIII<sup>e</sup>, XIV<sup>e</sup>, XV<sup>e</sup>, XVI<sup>e</sup>, XVII<sup>e</sup> siècle. Bruxelles, 1847, p. 38.

ولكن دور اليهود في التاريخ الإسلامي ، لا ينحصر في العلاقات التجارية . فان مدارس اليهود في قرطبة و طليطلة كانت تتلقى تيارات التفكير الآتية من بلاد ما بين النهرين . وكانت توجد في قرطبة مدرسة للتلמוד ذات شهرة واسعة . والى جانب تضلعهم في العلوم والأداب العربية ، كان لأصحاب اليهود علم واسع بالأدب العربي القديم . وكان منهم الأطباء والعلماء ولا سيما في الفلك والتنجيم . وقد كان «موسى» ابن ميمون الفطحي (16) على رأس هذه المدرسة في القرن الثاني عشر الميلادي .

وكذلك عرفت طليطلة ، وهي مدينة كبيرة للمستعربين المسيحيين نشاطا ثقافيا يهوديا واسعا . وقد كان يوجد في هذه المدينة التي تختلط العناصر المسيحية واليهودية ، مركز للترجمة من العربية الى العربية ومن العربية الى اللاتينية . وعند استرجاع المسيحيين للأندلس «1085 م» ، مرت الأعمال التي ترجمت الى الغرب اليوناني التي ترجمت الى اللغة السريانية ثم الى العربية والعبرية واللاتينية ، بمراحل وطرق واضحة المعالم : الأديرة السريانية التي تقع في شمال سوريا وفيما بين النهرين ، ومكاتب المؤمنون للترجمة في بغداد ، ثم الى مصر وأفريقيا الشمالية والأندلس : قرطبة ، و طليطلة

16 - موسى بن ميمون بن يوسف بن اسحاق ابو عربان القرطي ، هكذا سماه ابن أبي اصبيعة ومن اخلوا عنه ، واما بروكلمان ، فيسميه «موسى ابن عبد الله بن ميمون» . طبيب وفيلسوف يهودي ، ولد وتعلم في قرطبة «523 - 601 هـ» وقد ظاهر بالاسلام ثم عاد الى يهوتيه ، وبعد ما تنقل مع ابيه في الاندلس قصد الى القاهرة حيث اقام 37 عاما ( من سنة 567 هـ ) حيث أصبح رئيسا روحانيا لليهود . والجدير بالذكر ان ابن ميمون اشتغل وقتا طبيبا في البلاد الايوبي ، وقد وضع عددا من الكتب بالعربية والعبرية ، من اهمها كتاب «دلالة الحائز في الفلسفة» ( ثلاثة اجزاء ) و «القصول في الطب» ، ويعرف بقصول القرطبي وكلاهما ترجم الى اللاتينية وطبع بها ، وشرح أسماء «القار» و «المقالة في تدبير الصحة الانضالية» ، ورسالة في «البواشر» و «مقالة في الربر» ، وتوفي ابن ميمون في القاهرة ودفن في طبرية ( فلسطين ) . «الترجم» .

والمراكم اليهودية الأنجدوك ، لتصل في القرن الثالث عشر الى جامعة السربون .

### الفرزاة : البربر والعرب

كان الفتح الإسلامي للأندلس سريعاً سريعاً (711-714 م) ولم يكن له أي رد فعل يذكر بين سكان الأرياف . وبعد انهيار القوط العسكري في معركة ريو بربات Rio-Barbate في سنة 711 م ، استسلمت المدن المحاصرة الواحدة تلو الأخرى وكلف اليهود بمهمة حفظ الأمن فيها . ومنذ سنة 714 م ، وصلت الجيوش الإسلامية إلى ولاية سبتانيا ، وبعد حركة استكشاف في طريف ، قاد طارق بن زياد (17) جيشاً من البربر لا يزيد عدده عن 7000 مقاتل . وفي السنة التالية (712 م) خرج موسى بن نصیر والي المغرب بنفسه إلى أسبانيا على رأس جيش تعداده ، 10000 جندي وكلهم من العرب . وهؤلاء الجنود الفاتحون سيقون كلهم في أسبانيا ، وهذا القوچ من المستوطنين العرب والبربر الذين يبلغ عددهم 17000 نسمة ، كلهم من الرجال ومن العساكر ، ولكن هجرة مهمة من البربر الذين أغرتهم ثروة البلد الذي افتتح ، ستقتفي أثراهم خلال القرن الثامن الميلادي ، وستستمر حركة الهجرة بدون انقطاع حتى نهاية العصور الوسطى . وهذه الهجرة هي التي سمحت باستمرار مملكة غرناطة حتى القرن الخامس عشر الميلادي . والمسألة

17 - طارق بن زياد « الليبي بالولاء » . اصله من البربر اسلم على يد موسى بن نصیر وكان من اشد رجاله . ولما تم لموسى فتح طنجة ، ولـى عليه طارقاً فاقام بها الى اوائل سنة 92 هـ ، حينما حجز موسى جيشاً معظمـه من البربر لغزو الاندلـس ، بقيادة طارق وقد افتتح طارق على التوازي : جبل طارق وحسن قرطجـة ثم قاتل الملك رودريك Rodric لقتله طارق ، وافتتح اشبيلـية واستجهـة ثم ارسل من استولـى على قرطـبة وـمالـة ، واحتـل طـليطلـة (عاصـمة الانـدلـس) ثم عـبر وـادي الحـجـارة واستـولـى على عـدة مـدن ، منها مـدينـة سـالم ، وقد عـزلـه مـوسـى بن نـصـير عـقـابـا له عـلى توـغلـه فـي الفـتح لمـاعـاده الـولـيد بنـعـبد الـمـلك ، وـواصل فـتوـحـاهـه فـاستـعـدـ من طـليطلـة شـرقـا إـلـى مـنـابـع نـهر النـاج ، وـاستـعـان بـموـسى عـلـى فـتح سـرقـطـة فـافتـحـاهـا وـاحتـلـ طـرـطـوشـة وـبـلـنـسـية وـشـاطـيـة وـدانـيـة وـاستـدـعـاهـ الـولـيد إـلـى الشـام وـقصـدـها مـعـ مـوسـى فـي سـنة 96 هـ ، وـبـدـ هـذا التـارـيخ ، يـسـدـلـ ستـارـ كـيفـ من النـسـيـان عـلـى شـخـصـيـة هـذا الـبـطـلـ الـبـرـبـريـ الـظـيـمـ ) المـترجم )

**الأساسية** ، هي : أن عدد البربريين المهاجرين المسلمين الى إسبانيا عدد مرتفع ، بحيث يشكل الأغلبية الساحقة .

وفي سنة 741 م ، قام البربر بثورة في إسبانيا ضد الرؤساء العرب ، وكانت هذه الثورة نتيجة لثورة البربر في المغرب وظهور قوة صنهاجة . وهؤلاء البربر ، كانوا يحتفظون بعلاقات مع أخوانهم في إفريقية ، وكانوا يعملون لتحقيق هدف واحد وهو الاستقلال في ظل الفوضى . وكذلك كان البربر ينتخبون رئيساً لهم ويقومون بحلق رؤوسهم ، لتمييز أنفسهم عن أعدائهم . ولكن العرب الذين استقر لهم الأمر في إسبانيا ويتعلقوه تعزيزات من الجنود السوريين ومن بلاد البربر ، سيقضون على هذه الثورة . وبعد الهزيمة المكررة التي مني بها البربر ، وجهمت الجيوش السورية الى المناطق الجنوبيّة ، فاحتل جنود دمشق أبيرة وجنود الأردن ، مالقة ، والفلسطينيون ، سيدونه ، وجنود حمص ، أشبيلية ، وجنود قنرين ، جيان . وهؤلاء السوريون هم الذين سيدخلون تربة دودة الحرير ، ونسج الحرير في هذه المنطقة .

كان العرب الذين يحتقرن الأعمال الزراعية يقيمون في المدن ويعيشون من الضرائب التي يدفعها المزارعون .

وفي الأسماء الجغرافية للأماكن ، نجد الأسماء العربية منتشرة خصوصاً في السهول الشرقية . وأغلب أسماء الأماكن تبدأ ببني : بني فاييو ، قرب بلنسية ، (Valence) وبني قاسم ، قرب قسطلون (Castellon) وبني غانم الخ .

ولكن البربر الذين هاجروا الى الاندلس ، في مجموعهم فضلاً عن الاستقرار في الارياف ، ولم يختار البقاء في المدن منهم سوى عدد صغير . وأما سكان جبال المغرب الاقصى الذين انتقلوا الى الاندلس ، فلم يكن في وسعهم الاستقرار الا في الجبال الإسبانية : سلسلة الجبال التي تمتد

من الجنوب الى الشرق ، وسييرانيا دو روند ، وسييرا نفada ، وفي الشمال في سهول وادي النهر الاعظم ، وسييرادا المادن ، ووادي الرملة (Guadarrama) .

وقد كانت جميع المستعمرات البربرية تقع خارج سهول الاودية الاندلسية الواسعة . وفي كل مكان تسهل فيه الاقامة للبربر ، كانوا يشكلون جماعات من الجبليين ويطلقون أسماء قبائلهم على تلك المواقع . وهكذا أطلق اسم جزولة على الجبال التي تمتد بين غرناطة والبحر ، وأصبحت تحمل اسم « سييرا لوس جزول » . ومعظم المناطق التي تمتد في الجنوب والشرق في اسبانيا ، خارج السهول ، كانت مأهولة بالبربر . وقد كان البربر يمارسون تربية الحيوانات بصفة جماعية ، « المشتى » ، كما كانوا يعتمدون على زراعة الأشجار ، وخصوصا ، الزيتون .

والمنطقة الشرقية كانت أكثر المناطق تأثرا بالنفوذ العربي . فان ابن سعيد المغربي ، (من القرن الثالث عشر الميلادي ) ، يذكر أن سكان المناطق الجبلية يرتدون العمامات الافريقية ، ولكن سكان قرطبة والمناطق الشرقية يضعون على رؤوسهم القلنسوة ، وهي غطاء طويل للرأس أصله ايراني (18) .

وازدهار سهول وادي النهر الاعظم في العصر الاسلامي ، انما كان استمراً للنمو الهائل الذي شهدته هذه المنطقة في عهد الرومان . ولكن العمل الاصيل الذي قام به المسلمين والمنجزات التي حققوها ، انما تقع في مناطق كانت شبه صحراوية عمروها واستصلاحوا أرضها ، خصوصا في الشرق والغرب . ويضاف الى ذلك التنظيم الزراعي الذي يعرف باسم المشتى (Mesta) واستغلال شرق الاندلس الذي يقوم على تجديد

18 - نقله المترى في ازهار الرياض « 137/1 » عن ابي سعيد المغربي .

الزراعة وتعهيم الري ، الامر الذي سمح للعرب بدخول محاصيل شرقية الى الاندلس ، مثل الأرز ، والقطن وقصب السكر ، والبرتقال ، والموز . وكذلك أدخل العرب الى الاندلس صناعة الحرير التي ستظل اسبانيا عهدا طويلا ، البلاد الوحيدة الذي يمارسها في الغرب . وقد أقام المسلمون مركزا مدنيا مهما في المريسة .

وأما استثمار غرب الاندلس ، فهو يقوم على تحويل مناطق غابات الزان الى أراضي للممتلكات الاستوائية . وكذلك أصبحت حقول الزيتون تمتد في منطقة واسعة « الشرف » في غرب اشبيلية . ومن منجزات المسلمين أيضا انشاء دار ثانية لصناعة السفن الحربية في قصر أبي دانس ، غير بعيد من منجم الملح الواقع في استوبال ، وبناء مصايد السمك ، وتوسيع نطاق التجارة بالطرق البحرية ، الامر الذي أصبح ممكنا بفضل أحواض واسعة لبناء السفن كانت تستعمل الخشب الذي تنتجه الغابات المجاورة .

وأخيرا ، فقد حمل البربر من الشمال الى اسبانيا ، طريقة التربية الجماعية للغنم : حراسة القطعان ورعايتها واتباع طرق واضحة في الاستجاجع ، المشتى الذي أخذ شكل « مستاس » ، باللغة الاسبانية وهذه الطريقة الجماعية ، يجري العمل بها في الهضاب الداخلية وفي الجبال التي تحيط بالمناطق التي كانت في عهد الرومان صحراء قاحلة . وبعد استعادة المسيحيين الاندلس ، سيحافظون على هذه الطريقة في تربية الحيوانات ويجعلون منها تنظيميا « وطنية » ناجحا . وقد كسبت اسبانيا ثروة طائلة من انتاج الصوف فأدخل نوع الغنم المسمى « الميرينو » ذي الصوف الناعم والمرن « والذي نجد اسمه في نصوص اسبانية ترجع الى القرن الثاني عشر الميلادي » ، بصورة اقتصادية مفيدة ، ليعيش جنبا الى جنب مع النوع المسمى « الشوزو » ذي الشعر المتصلب . ومن جهة أخرى ، فقد انتشرت تربية الخيول . وقد تتج عن تهجين السلالة الاسبانية بالفرس

البربرى سلالة تسمى « جينيت » من ( زناتة ) . والأرجح أن الاهتمام بتربية الخيول كان له أثر في ادخال أنواع جديدة من العلف ، ولاسيما « الفلغا » الذي هو من أصل فارسي والذى لا يزال يحتفظ باسمه العربي في اللغة الإسبانية .

### التأثير الشرقي في إسبانيا : أمارة قرطبة :

شهدت الفترة التي تسبّد بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى ازدهاراً كبيراً في العروان وبناء المدن في العالم الإسلامي ، وخصوصاً في إحياء المدن القديمة وبعث النشاط فيها . وقائمة هذه المدن في إسبانيا أكبر منها في شكلٍ أفريقي وذلك لأن حركة الأسعار وبناء المدن في إسبانيا في العصر الفنطي والعصر الروماني . إذا لم تكن أوسع مما كانت في شمال إفريقية ، فقد كانت بالتأكيد أكثر كثافة . وزيادة على ذلك . فإن القوط الرحل ، انتهت الامر بهم إلى الاستقرار في المدن .

وقد مرت المدن الإسبانية في العصر الإسلامي بفترة من النسو والازدهار ، لا يمكن مقارتها بما عرفته في عهد الإمبراطورية الرومانية . وأهم المدن وأكثرها ازدهاراً هي إشبيلية وقرطبة والمركون الكبيران اللذان يقعان في وادي النهر الأعظم ، هما مالقة وقادس . وهما ميناءان على مضيق جبل طارق . وتأتي بعدهما طليطلة وسرقسطة . ولكنه إلى جانب هذه المراكز التي قام المسلمون بابوها وبعث النشاط فيها ، لا يوجد سوى مركزين من انمائهما . وكل هاذين المركزين ميناء ، أحدهما على البحر الأبيض المتوسط ، والآخر على المحيط الاطلسي : المريّة التي بنيت في سنة 756 ميلادية ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية ، والذي أنسى في نفس الفترة .

كانت قرطبة ، وهي مدينة عظيمة . خصوصاً مركزاً بلاطياً .  
وعبد الرحمن الأول (19) الذي اتخذ قرطبة عاصمة لامارة مستقلة في  
سنة 756 ميلادية أمير أموي شرقي التجأ إلى الأندلس . كما التجأ  
الرستميون إلى المغرب الأوسط ، والإدارسة إلى المغرب الأقصى . هرباً  
من اضطهاد بنى العباس .

وقد كان عبد الرحمن الأول الذي عرف بشدة الحنين إلى سوريا  
والوفاء لذكريات أجداده ، كان هو وخلفاؤه ، ولا سيما عبد الرحمن  
الثاني ، يسعون لخلق الجو الشرقي الذي فقدواه في الشرق ويتحسرون  
عليه . وكذلك أطلقوا اسم الرصافة على أحد ضواحي قرطبة التي  
تقع فيها قصورهم ، كما في سوريا . وقد كان الامراء الامويون يقلدون  
طراز الحياة السائدة في بغداد ، مقر الخلافة المنافسة لهم ، ومركز اشعاع  
حضارى واسع النطاق . وفي قرطبة سيفد عليهم الادباء والملفكون والعلماء  
والفقهاء والشعراء والفنانون من مختلف بلاد الشرق وهؤلاء سيلقون  
في بلاطهم الترحيب والحماية وسعة الرزق .

ذكر ابن بسام في مقطوعة نشية ساخرة ، أن حاشية أمراء الامويين  
كانوا دائمًا يترصدون التغيرات التي تطرأ في حياة القصور في الشرق

19 - عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الملقب بضرير فريش ،  
ويعرف بالداخل : مؤسس الدولة الاموية في الأندلس ويمكن وضعه في مصف اعظم  
الساسة وملوك العالم ، ولد في دمشق ونشأ ينبعاً في بيت الخلفاء . ولا يُعرف  
ملك بني امية في الشام وتعمق الاباسيون رجالهم بالاضطهاد والفتنة ، اذات  
هو من بدّهم وأقام في قرية على الفرات ، ولما اوثق أعداؤه على الظفر به ،  
التوجه إلى الأدغال حتى أمن ثم قصد المغرب ووصل إلى مكتابة ، حيث لحق به  
مولاه « بدر » بمالي وجوهراً حملها إليه من اخته « أم الصبيح » ، وفي منازل  
نفروة كان ينكتب انصار الامويين في الأندلس ثم يبعث إليهم بولاه بدر ، فاجابوه  
له حملوه إلى الأندلس حيث نابعوه ، ونذر نزل ، « ولا في المكتب(Almunicor) في سنة  
138هـ ، تم انتقال إلى الشسبلية ومنها إلى قرطبة فقتلهم وإلى الأندلس ، وسوف  
بن عبد الرحمن الفوري ) ، فتقرر سفر فريش ودخل قرطبة حيث بني قصرًا وبنى  
مسجد ولما استقر له الامر ، قطع دعوة البابيين ، وقد كان عبد الرحمن الأول ،  
كما وصفه ابن الأثير ، حازماً سبيع النهضة ؛ لا يخلد إلى راحة شجاعاً كمقداماً ،  
« المترجم » .

ليقلدوها . ويقول هؤلاء اذا سمعوا نعيق الغراب أو طنين الذباب يأتي من سوريا أو العراق ، خروا ساجدين ، كما لو كانوا أمام صنم معبد .

أصبحت قرطبة ذات ثراء عظيم ، خصوصا بفضل ذهب السودان الذي يسمح لها بشراء العبيد الصقالبة الذين يجري توزيعهم فيها وتوجيههم الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، في مقابل الدنانير الذهبية الشرقية . وكذلك تكون في هذا الطرف من العالم الاسلامي ، مثلما تكون في الطرف الآخر في امارة السامانيين ، سوق واسعة نشيطة للتبدل التجاري . وبذلك أصبحت قرطبة ، مثل امارة السامانيين . مركزا هاما مقصودا من العلماء والادباء . وقد تبلور ميل الابوين في قرطبة الى اعتماد الاساليب والتقاليد الشرقية ، خصوصا ، اثر وصول المغني والموسيقار زرياب من بغداد في سنة 845 ميلادية ( 320 هـ ) . حيث حمل معه أحدث التطورات في الفن . وكان زriاب تلميذا لاسحاق الموصلي المغني والموسيقار المعروف باتفاقه للغناء المدني . وقد قدمت مع زرياب فرقة من القيان «بنات زرياب» اللائي سيقمن بتدريب البلاط والمجتمع القرطي على ألوان جديدة من الموسيقى وعلى العزف على العود وغيره من الآلات ، وخصوصا على الغناء المدني الذي اشتق منه التعبير الاسباني : (Cant jondo)

وفي نفس الوقت ، ظهرت أساليب شرقية جديدة للطهي على أساس الأرز والسكر والتوابل ، في بلاط قرطبة ، وفي صناعة الحلويات حيث أدخل الماسبان والنougat . وكذلك أخذ الغرب المسيحي يتعلم الفنون الشرقية عن طريق قرطبة .

ومع هذه الفنون ، أخذ المجتمع القرطي يستعمل الاواني المصنوعة من الزجاج الشفاف المسمى «العرافي» (والذي تذكر النصوص التي بين أيدينا ، أن الغرب المسيحي كان يستعمله منذ القرن العاشر الميلادي ) ، والأثاث المغطى بالجلد الناعم والمنقوش والمطرز بالذهب طبقا لطريقة

وصلت الى قرطبة عن طريق القصور التي تحدثنا عنها . والجلد القرطيبي كان يستعمل أيضا لتفعيلية الحيطان الداخلية في المنازل ، وقد اقتبس القرطبيون أيضا طراز الملابس الشرقية الفاخرة التي تفصل من أقمشة ذات خطوط عريضة ، قلدت فيها النسوجات الفارسية ، وأردية مصنوعة من قماش شفاف ، كان يستورد من خراسان أو من مصر ، ولكنه أصبح يصنع في الاندلس .

وقد سجل تقويم قرطبة ( 961 م ) أنه بحلول شهر أكتوبر وميل الطقس إلى البرودة ، تخلى الناس عن الملابس البيضاء وأخذوا يستعملون بدلا منها ملابس مصنوعة من الصوف ذات لون غامق . ويعزى اعتماد هذا الزي إلى زريب المغني . وقد كان عبد الرحمن الثاني أول من أدخل إلى إسبانيا « الطراز » ، وهو عبارة عن مشغل في القصر يعمل لاتخاذ الأقمشة الفاخرة لسد حاجات القصور فقط . وهذا المشغل الذي يكتب عليه اسم الأمير له إدارة وتنظيم معقد ، بحيث يشكل مصلحة حكومية مهمة على رأسها « صاحب الطراز » ، الذي هو من كبار موظفي القصر .

وهذا التجديد في أساليب الحياة ينتقل من القصور إلى الأثرياء ليعم المدينة كلها .

وفيما بعد ، ظهر تيار جديد للتأثير الشرقي ليضاعف الأثر الذي تركه المهاجرون الأوائل من السوريين والجماعات اليهودية التي كانت على اتصال بمراكيز الحضارة في بلاد ما بين النهرين . فقد اتجهت إلى بلاد الأندلس عدة أمواج من النفوذ الشرقي : السامي والإيراني . وهذا التأثير سيغير نمط الحياة الاجتماعية في المدن وسيكون امتزاج مختلف عناصر هذا التأثير أساسا لما يسمى « الحضارة الاندلسية » .

تمتد إسبانيا الإسلامية بين شواطئ إفريقيا والغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البربرة : مملكة الأسبان التي تقع في شمال شبه

الجزيرة ، وبلاد الفرنجة ، والامبراطورية الكروLANجية . وملكة الكابتان (20) وهي ما يسميه العرب « الأرض الكبيرة » ، أي اليابسة في مقابل الجزر : قبرص ، وشبه جزيرة الاندلس .

وفي الجنوب ، كانت الموانئ تؤمن المواصلات عبر جبل طارق ، وفي الشمال ، تقطع الطرق والممرات جبال البريني (Pyrénées) إلى بلاد الفرنجة بينما كانت الملاحة المحاذية للشواطئ تربط المرينة ببرشلونة وزربونة .

والتجارة الإسبانية مع إفريقيا تنصب أساسا على الذهب الآتي من السودان ، والعبيد السود الذين يستجلبون من سواحل السودان ( في المناطق التي تمتد من السينغال حتى التشاد ) ، والصاغ الذي يستخرج من إفريقيا الفرنسية . وهذه السلع ، تدفع الاندلس في مقابلها بضاعة زهيدة القيمة ، كما تصدر الزئبق الذي يستعمل مع معدن آخر « أملعام » لاستغلال الذهب .

ومن الغرب المسيحي ، كانت ترد على الأندلس العبيد الصقالبة الذين ينقلهم من منطقة من نهر الألب ، عبر ألمانيا وفرنسا ، تجار معظمهم من اليهود ، وخصوصا ، الفراء التي تتوجه الغابات الشاسعة الكبيرة . ويضاف إلى ذلك السيوف المعرفة بالفرنسية التي كانت الامبراطورية الكرولانجية تصدر كميات كبيرة منها . وفي مقابل ذلك ، كانت الاندلس تقدم بعض الكماليات التي من بينها الاقمشة التي تسمى إسبانيسكا (Spanisca) . وخصوصا النقود المضروبة من الفضة والذهب : الدرهم الذي كان يضرب في قرطبة . في الوقت الذي كان فيه ذهب السودان يتوجه إلى امبراطورية الفاطميين . والدينار الذي يأتي من الشرق الإسلامي ولكن في مرحلة تالية ، حينما حصل أمراء قرطبة على حصة من ذهب

— 20 — أسرة من الملوك . حكمت فرنسا حلال الفرق بين 987-1328 م . اسمها هو Capet Hugues الذي تحمل اسمه . «المترجم» .

السودان ، بفضل عبادتهم وأعوانهم من زناتة في المغرب الأقصى ، أخذوا يضربون النقود الذهبية في قرطبة . وأما انتصار الخلفاء الامويين في قرطبة على خصومهم الادارسة في قاس الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق انتشار ثروتهم في المغرب ، فقد وقع في سنة 974 ميلادية .

وهكذا كان ازدياد الاستهلاك في المدن الكبيرة في مملكة قرطبة ، سببا في ظهور تيارات تجارية هامة وافتتاح شبكة من الطرق تمتد نحو الجنوب والشمال معا . ونحن نلاحظ في هذا السياق أن هذه الطرق التي سلكها غزاة اسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي . والبرابرة الذين تيقظوا لأهمية التجارة ، قد استخدموها ، هم الآخرون طرق التبادل التجاري .

ومن جهة الشمال ، نشاهد توسيع الديواليات الاسبانية التي يؤيدتها الفرسان النورمانديون والبورجونيون ، وطائفة « كلوني » (L'ordre de Cluny) الدينية (21) . وهذه الحركة هي التي تسمى « اعادة فتح الأندلس » (من وجهة نظر الأسبان المسيحيين) و « الحروب الصليبية الغربية » (من وجهة نظر الغرب المسيحي) .

ومن جهة الجنوب ، تعرضت الأندلس لغزو البربر المرابطين الذين خرجوا من ساحل التیجرا وصعدوا حتى سجلماسة ، وعن طريق المغرب الأقصى ، وصلوا إلى الأندلس .

ومهما يكن من شيء ، فإن حركة اعادة فتح الأندلس ، سيكون من نتائجها وقوع جزء مهم من بلاد الاسلام تحت سيطرة المسيحيين ، كما

21 - كان غليوم المعروف بالنقى (Guillaume le pieux) دوق داكيستان ، ند اننا في سنة 910 ميلادية ديرا في كلوني (قاعدة الصوم واللوار) للرهبان البنيديكتيان (Bénédictins) انطلقت منه حركة اصلاحية امتدت الى جميع البلدان المسيحية في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . « المترجم » .

سيحدث ذلك في سوريا نتيجة لاحيالات الصليبيين وفي المرحلة الأولى . أدى تعصب بارونات الشيشان وغراائزهم في الساب والنهب . الى تخريب جزء مهم من حضارة الاسلام العظيمة . ولكنهم في مرحلة تالية ، أخذوا يتعلمون هذه الحضارة ويدركون معناها . فان العمال والصناع والفنانين سيواصلون أعمالهم تحت سيطرة « الكفار » ، وبذلك تعزز تأثير الاسلام وسهل توغل هذا التأثير في جميع بلاد الغرب المسيحي .

وقد استمر الحي اليهودي (Juderias) وحي المسلمين (Morisias) كلاهما على ممارسة نشاطه دون أن يتأثر بالوضع الجديدة .

ومن جهة أخرى ، فان المرابطين قد أثروا تأثيرا سلبيا في نمو حضارة الأندلس بانسجام . فان تعصب رعاة الجمال الفراخ الذين جاءوا من الصحراء ، حملهم على تخريب حياة القصور واحراق المكتبات . ولكنهم سرعان ما أدركوا خطأهم وانضموا لهم أيضا ، تحت لواء هذه الحضارة التي ستنتشر عبر مضيق جبل طارق الى المغرب ، بل الى السودان . بفضل توحيد الأندلس بهذه المناطق تحت راية المرابطين .

وفي هذه الأثناء ، تحول المعسكر البربرى الذى يقع فى جنوب المغرب الأقصى ، الى مدينة مراكش العظيمة فى 1077 م . وفي القرن الثاني عشر ، أنشئت مدينة تمبكتو (22) . وهذا هو عصر « المرابطين » الذين يتجلوا فى كل اتجاه .

### صقلية :

وبعد هذه النظرة الى آثار الفتح الاسلامي ، في اسبانيا نحوال أنظارنا الى جهة أخرى لتوسيع البربر : جزيرة صقلية التي تحمل مكانا مركزا

22 - مدينة في جمهورية مالي ( 8700 نسمة ) ومركز تجاري على نهر النiger . خرج منها كثير من العلماء والفقهاء الذين من بينهم احمد بابا المنبيكتي 1555 - 1622 . الفقيه المالكي الذي ألف بنيعا وأربعين كتابا . « المترجم » .

بين حوضي البحر الأبيض المتوسط ( الشرقي والغربي ) . فأما قواعد الانطلاق لغزو الجزيرة ، فقد كانت موانئ رأس بون : تونس ، نابل ، اقلبية ، سوسة . والبربر الذين تأثروا بالفينيقيين ويعيشون في هذه المنطقة ، كانوا يمارسون صيد السمك والتجارة والقرصنة . وكان هؤلاء السكان يمدون بالبحرين من المغرب ، أو يحصلون عليه بشن غارات على شواطئ صقلية وإيطاليا الجنوبيّة ، وأحياناً على شواطئ ألمانيا ، أيضاً .

ومنذ القرن الثامن الميلادي ، كان سكان هذه المنطقة يقومون بغارات على شواطئ صقلية وعلى جبال اسپرومونت ( Aspromonte ) وسيلا ، ذات الغابات الكثيفة في إيطاليا ، للحصول على الخشب . ولكن الأسطول البيزنطي الذي تقع قواعده في صقلية ، كان يشن غارات من حين لآخر على شواطئ إفريقيّة التي لم تكن حاميات الربط دائمًا كافية للدفاع عنها ومن هنا ، واجه المسلمون ضرورة الاستيلاء على جزيرة صقلية كلية . وفي سنة 700 ميلادية 81هـ ، احتل المسلمون جزيرة قوصرة ( Pantelaria ) وبعد ذلك بثلاث سنوات ، وقعت المحاولات الأولى للاستقرار على شواطئ صقلية . ولكن الحملة المتصرّفة التي وجهها زيادة الله الأغلبي (23) للاستيلاء على صقلية ستقوم بهذه المهمة بعد ذلك بأكثر من قرن ( 827 - 831 م ) . وقد تم الاستيلاء على بلزم في سنة 827 م ، ثم سرقوسة في سنة 878 م . وهاتان المدينتان تمثلان طرفي الجزيرة التي كانت في القديم مسرحاً للنضال بين الاستعمار اليوناني ( مع سرقوسة في مقابل أرض

23 - زيادة الله بن ابراهيم بن الاشوري ، أبو محمد 788 - 838 ) رابع الاغالبة : ولد بعد وفاة أخيه عبد الله « 201هـ » وجاءه تقليد الولاية من المأمون العباسي ، وثبت على دعائه له أيام وليوب ابراهيم بن البدوي على الخلافة ، وقد ذُصف شأنه في اواخر العقد الاول من القرن الثالث حتى لم يبق على طاعته في سنة 209هـ ، في افريقيّة ، سوى قابس وال Sahel وطرابلس وقبائل نفراوة . ولكن هذه القبيلة وضعفت نفسها تحت خدمته بدون تحفظ وتمكنه من تجهيز اسطول عظيم « 212هـ » سيره لفتح صقلية التي استولى على معظم حصونها . توفي في القبروان ، وقد كان فصيحاً اديباً واسع الاطلاع ، وكان أول من سمي زيادة الله من بنى الاغالب .

اليونان) والاستعمار القرطاجي (مع برم في مقابل قرطاجنة) وكذلك كانت سيراقوسية المدينة الرئيسية في صقلية في عهد بيزنطة . ولكن برم ، ستحل محل سرقوسة في العصر الإسلامي ، كما حلت تونس محل قرطاجنة الفنية .

وفي أوائل القرن التاسع الميلادي ، كانت صقلية البيزنطية متأثرة كثيراً بالنفوذ الهليني . وإذا كان الشعب الصقلي يتحدث اللغة اللاتينية ، فإن لغة الكتابة الوحيدة في الجزيرة كانت هي اليونانية . وأما الكنيسة الصقلية ، فقد أحقت بكنيسة القسطنطينية ، بينما كانت الأديرة في الجزيرة تسير على نظام سانت بازيل (24) . ولكن الفنون الجميلة ، والفن المعماري ، وبصفة خاصة «الفسيفساء» ، أخذت عن البيزنطيين . وهذه الفنون ، سيتبناها أمراء صقلية جنباً إلى جنب مع الفنون الإسلامية . وفي عهد الأغالبة وعصر الفاطميين ، شهدت صقلية ازدهاراً كبيراً في المباني ، ولكن يد الدهر لم تبق على شيء منها ، إذا استثنينا قصر فواراً (Favara) في برم . وكل ما بقي اليوم من المباني التي تمثل الطراز الإسلامي ، إنما يرجع عهده إلى عصر النورماند ، مثل القبة «العزيزية» . والفن السائد في هذا الأثر ، يشتمل على كثير من الزخاريف والنقوش الكتابية التي تسلّل أنماطاً مأخوذة عن أفريقية ومصر وبغداد . ولكن صقلية في ذلك العصر (تحت النورمانديين) ، كانت عبارة عن قطعة من العالم الإسلامي ، تحت سيطرة المسيحيين ، حيث كانت الطرق التقنية والإنتاج ، ولا سيما الإنتاج الفني ، مستمرة كما كانت الحالة في الأندلس ، بعد انتقال السيادة إلى المسيحيين .

كانت جزيرة صقلية وشبه جزيرة الأندلس موئلاً لحضارات قديمة تركبت عليها حضارة جديدة . وهذا التزاوج بين الحضارات ، سيسهل انتشار الطرق التقنية الصناعية والتأثير الفني ، ويسمح بابعاد تركيب

— 24 — أبوا الكنيسة الاغريقية ولد في قصرين (Césarée) 379-329م مؤلف كتاب «الرسائل» ويعتبر من كبار مؤسسي نظام الأديرة في المسيحية . (المترجم)

حضاري جديد . والغزو المسيحي في الغرب سيلعب نفس الدور الذي لعبه الفتح الإسلامي : فهذا الغزو للأرض قامت عليها حضارات شرقية ، سيكون وسيلة للغزاة لنقل عناصر من هذه الحضارات إلى الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ، وهم قوم ظلوا حتى ذلك الوقت بدون اتصال مباشر بهذه الحضارات . وبهذه الطريقة انتشرت الطرق التقنية الزراعية والصناعية : طرق الري في منطقة بلزم ومزروعات جديدة . مثل القطن ، وقصب السكر ، والأرز . والبرتقال ، ودودة الحرير ، وصناعات نسج الحرير ، والقطن ، وصناعات الخزف والزجاج ،

الخ .

وكذلك يجب أن نشير إلى الازدهار الذي عرفته المدن في جزيرة صقلية . فقد كان المسلمون هم الذين جعلوا بلزم نهائياً عاصمة الجزيرة . وبلزم اليوم ، يبلغ عدد سكانها 400,000 نسمة ، بينما نجد أن عدد سكان سرقوسنة لا يتجاوز 40,000 نسمة . وفي القرن العاشر الميلادي ، يقدر ابن حوقل (25) عدد سكان بلزم بـ 300,000 نسمة . وقد كانت بلزم من أعظم مدن الإسلام ، خصوصاً بعدد مساجدها ، ولم يكن يفوقها في هذا المجال سوى قرطبة . وكما يلاحظ الكتاب العرب ، فإن سرعة نمو المدينتين متشابهة .

وكذلك كانت الموانئ الواقعة على الشواطئ المقابلة للبحر التيرهيني (Mer Tyrrénienne) (26) ، أمالي (Amali) سلرن (Salerne) ، نابلي (Naples) وجایت (Gaète) ، من الناحية الاقتصادية تابعة لصقلية ، التي كانت بدورها قطعة مهمة من إمبراطورية الفاطميين . فان

25 - راجع : M. Amari, Description de Palerme au milieu du X<sup>e</sup> siècle de l'ère vulgaire, par Ibn Hawcal, Paris, 1845.

26 - المنطقة الغربية للبحر الأبيض المتوسط التي تمتد بين شبه جزيرة إيطاليا وجزيرة كورسيكا ، وجزيرة سردينيا ، وجزيرة صقلية . (المترجم) .

نقوذ الفاطميين كانت متداولة في جميع مدن ايطاليا الجنوبيه : كان الدبشار الفاطمي عملة متداولة في جميع أنحاء ايطاليا . وكانت هذه هي الحالة . خصوصا ، بالنسبة الى ربع الدينار الاسلامي الذي كان يفليد . وهذه الظاهرة — ظاهرة نقلية نقوذ الاسلامية ، نلاحظها أيضا في ممالك المسيحيين الواقعة في شمال اسبانيا ، ولا سيما ، في ولاية برشلونة التي كانت في القرن الحادى عشر الميلادي . تقلد نقوذ الذهب التي كانت تصدرها ممالك الاسلامية في الجنوب .

ولما ضم النورمانديون هذه القطعة من العالم الاسلامي ( صقلية ) الى ممالك المسيحيين ( 1061 - 1089 ) ، لم يكن من نتائج ذلك ارتخاء في علاقات التبادل التجاري ، بل على العكس ، فان هذه العلاقات مستشدة وتنمو . وكذلك نجد أن تقنية تربية دودة الحرير ، وصناعة الحرير . قد انتقلت الى مدن ايطاليا الشمالية ( اللوك — Locca ) . البندقية — ( Venise ) وهذا التيار سيعزز في نفس الوقت بتiar آخر يأتي مباشرة من امارات الفرنجة في سوريا — تلك الامارات التي قامت نتيجة للحروب الصليبية . وينبغي أن نضيف أن جزيرة صقلية ، مثل اسبانيا . قد اغترفت ، منذ بداية العصر الاسلامي ، من مختلف العلوم ، مثل الطب والفلسفة وعلم الفلك والتنجيم الخ .

وهذا الاتجاه نحو العلم والمعرفة ، سيستقر في عهد النورمانديين . في بلاط فردريل الثاني . وقد كانت صقلية ، مثل اسبانيا ، من المتأذى الرئيسية التي توغل منها التأثير الشرقي في الغرب المسيحي . وكذلك ساهمت كل من قبرص وأسبانيا في حركة النهضة في ايطاليا في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادي ، وهي فترة عرفت فيها هذه البلاد ازدهارا ثقافيا معتبرا .

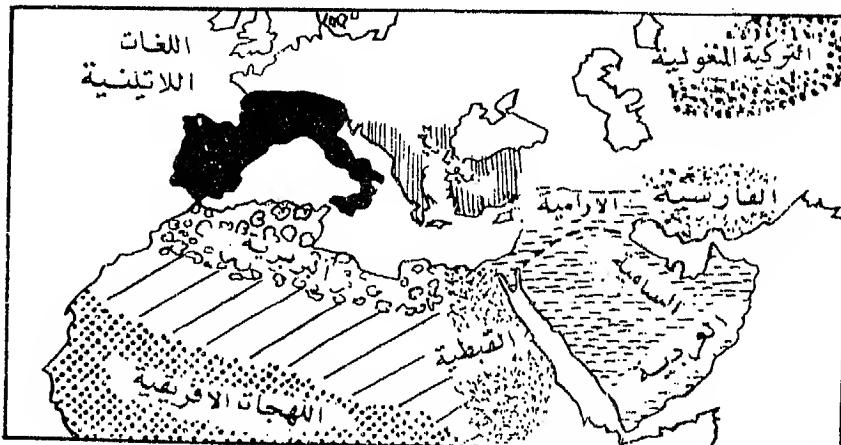
## الفصل الرابع

# الوضع اللغوي

العربية واللغات الأخرى :

قلنا ان العالم الإسلامي كان عبارة عن بوتقة انصهرت فيها عناصر مختلفة ، كان بعضها أجنبياً عن البعض الآخر ، وضعت جنباً الى جنب ، ثم ، أدمجت ، وذلك في الوقت الذي استمر فيه تأثير تقاليد قديمة . ودرس الوضع اللغوي ، عن طريق المشكلة اللغوية والحوروف الهجائية ، سيسعانا بتحديد الجانب الأساسي لهذه الظاهرة .

كان الوضع قبل الفتح الإسلامي ، على وجه التقرير ، كما يلي :



الشكل رقم ٧- الحالة اللغوية قبل الفتح الإسلامي

كان يوجد في مقابل مجموعة اللغات السامية ، اللغات الهندية - الأوروبية ، واللغات التركية - المغولية (أو لغات المناطق التي تمت

بين جبال الأرال والأطلسي ) ولغات افريقية السوداء ، ومنطقة اللغة القبطية ، ومنطقة اللغة البربرية .

وقد كان من تداعي التوسع الإسلامي في العالم القديم انتشار اللغة العربية التي ستتقسم على نفسها بوصفيها لغة الحديث إلى فتني أساسيتين من اللهجات ، لهجات المغرب ، ولهجات الشرق . وعلى أطراف العالم الإسلامي ، تسود لغات تجارية مركبة من عناصر متعددة : اللغة الصدغية في آسيا الوسطى ، والسواحلية ، على شواطئ إفريقيا الشرقية ، ولغة أزر ( Azer ) في السودان ، وأخيرا ، لغات الافرنج في منطقة البحر الأبيض المتوسط .

#### اللهجات العالمية السامية :

يسود في المنطقة السامية غير العربية النظام التركيبى اللغوى الأرامى . فان اللغة الآرامية قد « ابتمت » في القرن الرابع قبل الميلاد - على الأقل ، على مستوى اللغة العالمية - جميع اللغات السامية السائدة في المنطقة ، وذلك فيما عدا اللغة العربية .

وقد كانت اللغات الرسمية السائدة قبل الفتح الإسلامي في المنطقة هي : اللغة البيزنطية في سوريا ، واللغة الفهلوية في منطقة ما بين النهرين الخاضعة للساسانيين . ولكن الآرامية كانت لغة حية وينحدرها الجميع .

وللغة الآرامية لهجتان : اللهجة الآرامية السائدة في المناطق الغربية الواقعة تحت بيزنطة ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وبها كتب التلمود في فلسطين خلال الفترة التي تمتد بين القرن الرابع والقرن السادس الميلادي . واللهجة الآرامية السائدة في المناطق الشرقية في مملكة الساسانيين ، وهي تشتمل على لهجتين فرعيتين : اللهجة البابلונית ، وهي لغة الحديث والكتابة ، وكان يستعملها اليهود، وبها كتب تلمود بابل خلال

الفترة بين القرن الخامس والقرن السادس الميلادي . وللهجة السريانية الأدبية (1) التي كانت لغة الكتابة وتتصبح لغة الآداب الدينية لجميع الكنائس المسيحية . اليعقوبية والنسطورية . من فلسطين حتى ما بين النهرين والفرس . وقد كانت فترة ازدهار اللغة السريانية ، هي التي تستد بین القرن الرابع والقرن الرابع عشر الميلادي .

وفي عهد الفزو العربي . كانت الوضعية اللغوية كما يلي :

فإن لهجات المدينة ومكة التي كان يستعملها الباحثون ، قد أصبحت هي لغة القرآن (2) وللغة العربية المكتوبة . وأما الشعوب المغلوبة على أمرها في سوريا وما بين النهرين ، فقد كانت تتحدث اللغة الآرامية (الغربية والشرقية) وتكتبها . أو تكتب اللغة السريانية ، بحروفها النسطورية أو . بحروفها اليعقوبية .

وجميع هذه اللغات متباينة وحروفها الصامتة متتشابهة . ولمقاومة ميوعة لغة الحديث بذلت محاولات عديدة لوضع علاقات صوتية ، بقصد تثبيت النصوص المقدسة في اللغة العربية ، في مركز الدراسات اللغوية في طبرية الذي كان يأوي علماء النحو والصرف وأحبار اليهود . وهؤلاء العلماء ذهبوا بعيداً في بحثهم عن الوثائق وبلغوا ما بين النهرين حيث

1 - نسبة إلى أديس (Edess<sup>6</sup>) ، مدينة ومحطة للقوافل في جنوب ما بين النهرين ، انتشرت المسيحية فيها في وقت مبكر ، كما أصبحت من أهم مراكز التأسيس بعد استيلائهم على مدينة القدس ، وقد استرجوها الترك في سنة 1144 ميلادية . (المترجم) .

2 - الواقع أنه إذا كانت لهجات مكة والمدينة هي الأساس الذي تقوم عليه لغة القرآن - كما يقول استاذنا المؤلف ، فإن من المعلوم أن اختلاف اللغات واللهجات العربية ، قد نجم عنه اختلاف القراءات في القرآن . واللهجات « أو الروايات » الأساسية سبع . وقد روي عن ابن عباس (ض.ع.) أنه قال : « نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازان ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازان وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف » ؛ وبما لذلك ، فإن قراءات القرآن ، يمكن دراستها من هذه الناحية ، ناحية كونها تمثل بعض لهجات قبائل العرب . (المترجم) .

تبينوا في اختلاط لهجتين ظلت كل منهما منفصلة عن الأخرى . حتى ذلك العهد : الآرامية الشرقية والآرامية الغربية . وبذلك ظهرت لغة للحديث هي خليط بين اللهجتين .

وهذا الاتجاه إلى الجمع والخلط والتركيب إنما سمح به توحيد العالم الإسلامي ، بل الأولى أن تقول إنه كان قوام هذه الوحدة .

وفي نفس الوقت ، وفي نفس الاتجاه ، ولنفس الغرض ، حاول الكتاب السريانيون استبطاط طرق لتبسيط نطق الكلمات في النصوص المقدسة ، فوضع اليعقوبيون ( نهاية القرن السابع وببداية القرن الثامن الميلادي ) حركات أغريقية تركب فوق السطر أو تحته ، بينما وضع النسطوريون ( ابتداء من القرن الثامن ) حركات هي عبارة عن نقط تركب فوق أسطر أو تحته . وفي نفس الفترة أيضاً جرى عمل مماثل لضبط وتشكيل حروف الآيات القرآنية ، فوضعت الفتحة والكسرة والضمة التي تركب تحت الحروف أو فوقها ( 3 ) .

وأما اللهجة الآرامية العامية التي كانت لغة الحديث في سوريا وبين النهرين ، فقد اختفت في حوالي سنة 800 ميلادية ، على أقصى تقدير . وقد أخذت عناصرها وحلت محلها لغة سامية أخرى : اللغة العربية .

3 - يجد بنا الاشارة هنا إلى أن الكتابة في العصور الأولى كانت ، فيما عدا القرآن ، غير منقوطة ولا مشكولة ، ومن هنا دخول ما يسمى بالتصحيف إلى اللغة في المراحل التالية . والتصحيف ، كما يقول أبو العلاء العربي ، هو أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيحة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب . وقد وقع في التصحيف ، كما قال صاحب الهر ، جماعة من الأعلام من أئمة اللغة وأئمة الحديث ، مثل الخليل والأصمي ، وقد طعن في الخليل الذي أورد في كتاب العين « بذات » : وهو يوم كان فيه حرب الأوس والخزرج ) باللين المجمدة ، وليس « بذات » بالعين المهملة ، كما هو ، لأنه يوم مشهور لا يصح أن يخطئ فيه . والخوف من وقوع التصحيف ، يفسر لنا حرص المؤلفين الأوائل على ذكر النقط والحركات للكلمات التي هي مبنية للالتباس ، فيقولون ، مثلاً : بالباء المجمدة وبالكسر ، الخ . ( المترجم ) .

واللغة الآرامية والسريانية ، أصبحتا لغتين مقدستين ، لا تستعملان بعد الآن الا للكتابة .

واللغة العربية بدورها لم تعد تدرس الا بوصفها لغة ميتة ومقدسة في محافل أخبار اليهود في فلسطين ، وفيما بين النهرين . وهكذا تم رسم التلسكود في شكليه القدسي (نسبة الى مدينة القدس) والبابلي (نسبة الى بابل) . وأما التلمود نفسه ، فينقسم الى قسمين : الشرائع . «ميشنة» التي حررت باللغة العربية وتم تحريرها في القرن الثاني الميلادي . والهوامش «جبار» التي وضعت على نصوص الشرائع ، وتم تحريرها باللغة الآرامية أو الغربية أو الشرقية ، طبقا للنصرين المختلفين من التلمود .

وبذلك أصبح المتندينون بالديانة اليهودية منقسمين ، كما نرى . ومضطربين الى الازدواج اللغوي .

كان لسورية في العالم الاغريقي اللاتيني : أربع لغات : لغة الحديث (العامية) الآرامية ، ولغة مكتوبة يستعملها المسيحيون اليعقوبيون ، (السريانية) ، ولغة أخرى مكتوبة ، وهي العبرية التي تدرس في مدارس فلسطين ، وأخيرا ، الاغريقية التي تستعمل في الشؤون الادارية والخارجية .

ومن الناحية الأخرى : كانت بلاد ما بين النهرين التابعة للساسانيين ، تستعمل نفس اللغات ، مع تحفظ واحد ، هو أن الفهلوية لغة الفرس ، هي التي تقوم بدور اللغة الاغريقية في الشؤون الادارية الخارجية . أضاف الى ذلك ، أن اللغة العبرية واللغة السريانية كان لكل منها هنا خصائص معينة . فان الثقافة اليهودية في هذه المنطقة عرفت ازدهارا وانتشارا واسعا ، وكان «راش جالوث» (رئيس المنفى) من الشخصيات التي تحمل مكان الصدارة في بلاط العباسين .

وأما اللغة السريانية ، فتمثلها الكنيسة النسطورية . وهنا أيضا ، نجد أن رئيس الجماعة النسطورية . الكاثوليكية في استزفون سيلعب دورا لا يستهان به في بغداد .

وأهمية اللغة السريانية تتجاوز الاطار الاقليمي ، حيث أن التأثير المتبادل بين التفكير اليوناني والتفكير الفارسي ، سيقعن عن طريق هذه اللغة . واللغة السريانية ، وهي لغة مكتوبة نحيلة ولغة الثقافة ، هي التي تتسمح بامتزاج خطير الشأن بين الأفكار والآلفاظ . وعن طريق السريانية ستترَكَبُ في هذه البوتقة اللغوية حضارة من عناصر مختلفة تقوم خصوصا على أساس الاتصالات بين الحضارات والقارات ، تلك الاتصالات التي تشكل أحدى الميزات الثقافية الواضحة لشعوب الشرق القديمة .

وإذا حولنا أنظارنا الآن ، ونحن دائما في المنطقة السامية ، إلى منطقة اللغة العربية ، فماذا نجد يا ترى ؟

تنقسم مجتمع اللهجات السائدة بين السكان في شبه الجزيرة العربية إلى ثلاث فئات ، ستوحدها رسالة القرآن ابتداء من القرن السابع الميلادي .

أولا ، توجد اللهجة السائدة في الجنوب العربي والتي تنقسم بدورها إلى حميرية وبئية ويمنية . وهذه اللهجة تغطي الجنوب الغربي من شبه الجزيرة وهو ما يعرف باليمن السعيدة ، مع ميناء عدن (Athana) الذي يقع في منطقة ذات أهمية حيوية في العلاقات التجارية ، حيث يشكل ملتقى لطرق التجارة البحرية في المحيط الهندي ، مع نظام طرق القوافل المنتشرة في غرب شبه الجزيرة ، والطرق التجارية المتوجهة من مكة (المكرمة) إلى بلاد ما بين النهرين من جهة ، وإلى موانئ البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى . واللهجة العامية السائدة في هذه المنطقة نجد نماذج منقوشة

محفوظة منها تمثل الفترة التي تمت بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي .

واللهجة العمانية ، هي لهجة الشواطئ الجنوبيّة الشرقيّة التي كانت هي الأخرى مركزاً مهماً للعلاقات البحريّة ، حيث تسيطر على مدخل الخليج العربي . وبحكم هذا الوضع الجغرافي ، لا تستغرب من أن نجد هذه اللهجة مشربة باللغة الفارسية ومتأثرة بنفوذ القوم الذين يقعون على الشواطئ المقابلة .

وأما اللهجة النبطية التي كانت لهجة الحديث في الشمال ، فهي ترتبط بآثار البتراء (سلم) (4) مدينة القوافل الكبيرة التي كانت مزدهرة في القرون الأولى التي أعقبت ميلاد المسيح . وهذه اللهجة ، وصلت إلينا نقوش منها يرجع تاريخها إلى الفترة التي تستدِّي بين القرن الأول والقرن السادس بعد الميلاد .

وأخيراً ، فإنَّ وسط شبه الجزيرة العربيَّة تسود فيه لهجة سكان المدن الحجازية ، ولا سيما ، مكة ، وهي مركز مهم لتجارة القوافل التي تسير بين السبيئين في الجنوب ، والنبطيين في الشمال ، أو لهجات البدو الرحل في نجد ، وهم مشهورون بنشاط تربية العمال ، وهذه اللهجات غير مكتوبة . والشعر الجاهلي الذي نظم بها ، لم يسجل إلا بعد ظهور الإسلام ، وعلى أساس روایات شفهية . ومن اللغة الشعريَّة المشتركة بين مناطق وسط شبه الجزيرة العربيَّة ، تتكون لغة القرآن في معظمها . وهذه

4 - موضع بالأردن ، كان عاصمة لدولة النبط في العصر الهلنني « القرن 2 - 6 ب.م » ينحدر إليها من مدخل جبلي ضيق يدعى « الثاق » . وقد شهدت المدينة ازدهاراً كبيراً بفضل موقعها على طرق القوافل بين شبه الجزيرة العربية والشواطئ السوربة احتلها تراجان سنة 106 ميلادية ، ثم أصبحت مركزاً أسقفية مسيحية حتى الفتح الإسلامي . وهي تحتوي على آثار منها قصر ، ودبّر ، ومسلات ، وقبور : « المترجم » .

هي لغة الآداب والتراث العربي القديم وهي التي ستعمل على مختلف اللهجات ، وتنشر في جميع أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا نجد أن العالم السامي يقوم على قوتين لغويتين : اللغة الآرامية في سوريا وما بين النهرين ، واللغة العربية ، في شبه الجزيرة العربية والعلاقة بين اللغتين ، من جهة أخرى ، وثيقة . حيث أن لهما هيكل متشابهة . ثلاثة الصوامت ، وتجمع بينهما أمالات صوتية غير مسجلة . وحروف أبجدية متحدة أساسيا . مأخوذة من الحروف الهجائية الفنيقية .

ومن المجاورة التي وقعت بين اللغتين . خرجت اللغة العربية منتصرة بفضل الفتوحات الإسلامية . ومنذ وقت مبكر ، ( في أوائل القرن التاسع الميلادي ) ، تحول العالم الآرامي ، الذي وجد في التقارب بين اللغتين معينا ، إلى التحدث باللغة العربية في سوريا وما بين النهرين .

ولكن اللغة الآرامية ، لم تكن الفصحية الوحيدة التي طردتها اللغة العربية من معقلها . فان تعريب الدواوين الذي بدأ منذ القرن الثامن الميلادي ، قد طرد اللغة الاغريقية والفالوية أيضا . وأما اللغة السريانية التي تجمدت وأصبحت لغة الكتابة والأدب فقط ، فانها لم تعد في نهاية القرن العاشر إلا لغة علمية ، يكتب المؤلفون المسيحيون بها وباللغة العربية بدون تمييز . ومع ذلك ، فان اللغة السريانية لم تمت كليا ، بل على العكس ، ستشهد بعض التوسيع والانتشار ، بفضل البعثات التبشيرية النسطورية التي كانت تجوب آسيا الوسطى والصين .

#### اللهجات الفعافية غير السامية :

والآن لنلقي نظرة ، ونحن دائما في سياق الفتح الإسلامي . على المناقش اللغوية غير السامية .

تنحدر اللغة القبطية ، وهي لهجة وادي النيل ، من اللغة المصرية القديمة . وهي تسجل بأحرف اغريقية مكثفة . وفي وادي النيل أيضاً . ستحتفى اللغة القبطية واللغة الاغريقية ، وتحل محلها اللغة العربية ، ولو أن هذه العملية جرت بسرعة أقل مما شاهدناه من اختفاء الآرامية في سوريا وبين النهرين . والتاريخ التالية ستتيح لنا بتكون فكرة دقيقة عن تقلص اللغة القبطية والاغريقية واحتفاظها في مصر .

تم فتح مصر خلال الفترة بين 639-641 ميلادية . ونحن نلاحظ أن أول ورق بردي مكتوب بلغتين (العربية والاغريقية) يرجع تاريخه إلى سنة 693م ، وآخر ورق بردي باللغتين ، بتاريخ 719 ميلادية . ومع ذلك فإن آخر ورق بردي باللغة الاغريقية يرجع إلى سنة 700م . ولكن أول ورق بردي مكتوب كله باللغة العربية ، مؤرخ في سنة 709 ميلادية .

وكذلك يمكننا أن نستخلص دلالات أخرى من مصادر أدبية ومنقوشة . فنحن نقرأ أن البطريق ميشل (728-752 ميلادية) لا يعرف اللغة العربية ، وأن الخليفة المأمون كان يرافقه مترجم أثناء زيارته لمصر في سنة 832 ميلادية . وفي مقابل ذلك يوجد ما يحصل على الاعتقاد ، بأن رجال الكنيسة كانوا يعرفون اللغة العربية في القرن التاسع الميلادي . لأننا نجد أن نصباً تذكارياً مسيحياً بتاريخ 909 ميلادية ، مكتوب باللغة العربية .

صحيح أن شعراً شعبياً قبطياً كان لا يزال ينشد في أواخر القرن التاسع . ولكنه ابتداءً من القرن العاشر كان رجال الكنيسة القبطية يكتبون باللغة العربية حينما يريدون أن يتآكدو من أن ما كتبوه يمكن فهمه . ومع ذلك ، فإن اللغة القبطية ظلت وقتاً طويلاً أكثر من مجرد لغة دينية . بل أنتا نجد أن المثقفين من رجال الكنيسة القبطية في القرن الثالث عشر كانوا يعرفون هذه اللغة . وكذلك كان البطارقة في هذه

الفترة يكتبون القبطية والعربية . وآخر النقوش التي وصلت اليانا باللغة القبطية ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ولكن هذه القبطية كانت لغة الكتابة والعلم . وأما لهجة الحديث اليومي ، فقد اختفت بسرعة أكثر . وقد حللت اللغة العربية محل اللغة القبطية في القرن العاشر الميلادي وهذا معناه أن اللغة القبطية عاشت نحو قرن من الزمن ، بعد ما اختفت اللغة الآرامية ، وأصبح العالم الآرامي عالماً عربياً .

وإذا كانت الوضعية اللغوية قد شهدت ، بالطريقة التي وصفناها ، انتصار اللغة العربية في المناطق المركبة في الامبراطورية الاسلامية ، فإن الأمور لم تجر على هذا المنوال في طرفي العالم الاسلامي ، حيث استمرت كتلتان من اللغات على قيد الحياة ، على الرغم من توغل التعریف في المدن والادارات وفي أوساط المثقفين ، ونعني بذلك اللغة الفارسية في المشرق .

واللغة البربرية في الغرب

ونحن هنا سنقتصر على الحديث على اللهجة الفارسية المتوسطة التي خرجت من لهجة قديمة . وهذه اللهجة المتوسطة هي الفهلوية التي تنحدر منها مباشرة اللغة الايرانية الحديثة والتي ظلت زماناً تستعمل الى جانب اللغة العربية .

من المؤكد أن النفوذ الذي كان الفرس يتمتعون به في العصر العباسي . كانوا يمارسونه عن طريق اللغة العربية . ولكن النفوذ الذي مارسه الفرس في العالم الاسلامي في القرن العاشر والقرن الحادى عشر ، ولاسيما في عهد الدولة السامانية في خراسان ، وبعدها في عهد السلاطين الغزنويين ، كانوا يمارسونه عن طريق اللغة والثقافة الفارسية . ونحن نعرف أن واحداً من أعظم الآثار الأدبية الفارسية ، شهنامة الفردوسي ، وضعت في هذا العهد : 990 — 1020 ميلادية .

وفيما يتعلق باللغة البربرية ، فقد كانت لغة الحديث في المناطق الخلفية التي تمتد من وادي النيل وبرقة حتى أقصى المغرب . من جهة . والى ساحل النيجر ( السودان ) من جهة أخرى . فان اللغة العربية في هذه المنطقة ائما توغلت أولاً وقبل كل شيء في المدن . وهذه اللغة التي هي لغة الدين والحضارة المدنية ستتقدم بخطى بطيئة في العجائب والهضاب البربرية . وبالتالي ، فان اللغة العربية ائما تغطي المناطق التي كانت تابعة لقرطاجنة ، والفيلسوف البربرى ، سانت أجستين ، بل وبروكوب ( Procope ) أيضا ( في القرن الرابع الميلادى ) ، يخبرنا بأن اللغة الفنيقية كانت لا تزال شائعة في المناطق المجاورة للمراكز التي كانت تابعة لقرطاجنة ثم وقعت تحت سيطرة الرومان . وهذا قد يكون من العوامل التي تفسر لنا سرعة انتشار اللغة العربية في المدن الرومانية في إفريقيا الشاسعة : هذا ، على الأقل ، هو الفرض الذي اقترحه جزيل ( S. Gsell ) .

ومهما يكن من شيء ، فان التغيير السريع الذي وقع من اللاتينية إلى العربية ، يمكن تعليله بحاجة المراكز المدنية إلى الاعتماد على لغة حقيقة للمكتابة ، وهي لغة الادارة والتبادل التجارى التي لا يمكن مقارنتها باللغة البربرية غير المكتوبة .

ومن جهة أخرى ، فقد لوحظ توغل اللغة العربية في جبال بلاد القبائل الصغرى ( بلاد كتمة ) في غضون الفترة التي تستد بـ بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر الميلادى ، ذلك التوغل الذى لا بد من ربطه بحركة الفاطميين ونشاطهم في تلك المنطقة . وكذلك أدى غزو بنى هلال في القرن الحادى عشر للمغرب إلى انتشار اللغة العربية في إفريقيا ، ثم في الهضاب العليا المرتفعة في الجزائر ، في غضون الفترة التي تستد بـ بين القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر .

ولكن هذه العملية كانت بطيئة . ولم تكن تشمل في الحقيقة سوى المدن والأراضي التي تحيط بالمدن مباشرة .

ما هي الوضعية اللغوية في إسبانيا وفي الطرف الغربي للعالم الإسلامي؟

كانت اللغة اللاتينية لا تزال تحتفظ بمساكنها ، وكانت تتطور إلى لغة رومانية ستصبح بدورها أصل لهجة الحديث في شبه جزيرة الأندلس . وكذلك نشاهد ، بعد الفتح الإسلامي تأثيراً لغويًا للبربر ، ولا سيما في المناطق الجبلية التي تمتد من الجنوب إلى الشرق والتي تقطنها عناصر من البربر الذين هاجروا من إفريقية الشمالية . وفي نفس الوقت ، كانت الجماعة اليهودية التي تقيم في الأندلس تستعمل اللغة الآرامية . ويضاف إلى كل ذلك العنصر الجديد ، اللغة العربية .

ففيما يتعلق باللهجة سريّة العامية ، اقترح فرض يقول بوجود كتلة من اللهجات العامية الغربية التي تشمل سكان المدن في إسبانيا الإسلامية وسكان المدن في المغرب ومالطة وصقلية (5) . وهذه العربية «الغربية» تعرف ، فيما يقال ، باسم «الغربيّة» التي حرفت باللغة الإسبانية السى (Algarbia) ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية Charabia (6) : والى جانب هذه اللهجة العامية ، توجد ، بطبيعة الحال اللغة العربية الفصحى . لغة الآداب والفلسفة في جميع أرجاء العالم الإسلامي . وهذه أيضًا هي لغة الدين والإدارة والتجارة والحضارة . وهي ستلعب في الأندلس نفس الدور الذي لعبته اللغة اللاتينية من قبل ، في العالم العربي المسيحي ، أو اللغة الإغريقية في العالم البيزنطي .

5 - راجع : Colin, Un document nouveau sur l'arabe dialectal d'Occident en XII<sup>e</sup> siècle, Hisperis, XII, 1931, pp. 1-32.

6 - معناه بالفرنسية : لغة غريبة ، غير مفهومة . «المترجم» .

## لغة التجارة :

ولكن اللغة العربية سوف لا تقنع بتأمين تفوقها المطلق في داخل الامبراطورية الاسلامية (7) ، حيث أنها سوف تخترق الحدود مع التجار اليهود من نبوونه ، أو مع التجار البربر الذين يعملون في بلاد افريقية الغربية (السودان) ، بل إلى مناطق التبادل التجاري العربية - ايران على المحيط الهندي ، وفي أندونيسيا والهند الصينية ، والصين الجنوبيه (المعروف أن مدينة قانطون كانت تأوي مستعمرة كبيرة من التجار الذين ينتهيون إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ) . وكذلك انتشرت اللغة العربية في اتجاه الشمال ، حتى بلغت الأنهر الروسية الكبيرة ، ودخلت مدنًا مثل اتل ، وبلغار ، وكيف . والقسطنطينية نفسها ، تستعمل على مسجد يضم جماعة المسلمين الذين يعيشون فيها .

بقى الآن ، أن نبين وضع اللغات التي تتكون من عدة عناصر والتي نمت على هامش العالم الاسلامي . وهذه اللغات التي ولدت في نفس الفترة ولكنها ستنطوي مع مرور الزمن ويكون لها خطرها هي .

السواحلي الذي كان يستعمل في مراسي المحيط الهندي على شواطئ افريقيا الشرقية . وهي لغة افريقية تحتوي على كثير من الألفاظ المأخوذة من اللغة العربية

- لغة آزر (Azer) ، وهي لغة المناطق التجارية حيث كانت تجري المعاملات في الذهب والعبيد ، على سواحل السودان (على المحيط الاطلسي) . وهي تشتمل على كثير من الألفاظ المأخوذة من اللغة العربية

7 - ورد في كلام يهودي كان يكتب من مدينة القيروان ، وكان قد تجول في العراق وفي الاندلس وأفريقية الشمالية ، قوله : أنه يعتذر لعدم كتابته باللغة العبرية ولأنجاته إلى الكتابة بالمربيبة ، حيث أنه مستعجل وليس لديه وقت . واللغة المربيبة أكثر ملامة له . اراجع : I. Goldziher Mélanges Judo — Arabes XXIII<sup>e</sup> Revue des Etudes Juives, L, 1905, pp. 182-188

واللغة البربرية ، والهجات السودانية ( وخصوصا ، الصونكبي والصونغاي ) .

ـ اللغة الصغدية التي كانت لغة التجارة منذ عصر الساسانيين . وهي لغة ايرانية تشربت كثيرا من الألفاظ المأخوذة من اللغات المجاورة .

ـ لغة الفرنك التي كانت منتشرة على ضفاف البحر الأبيض الأروية وهي لغة عاشت طويلا ، حيث أن آخر رجل كان يتحدثها مات في منتصف القرن التاسع عشر ، في راجوز (Raguse) .

وكذلك لعبت لغة قريبة من اللغة المالزية ( كانت لهجة الحديث في موانئ جزر المحيط الهندي ) دورا يشبه الدور الذي لعبته لغة الفرنك ، ولكن في وقت متاخر .

فهذه اللغات التي نست في أطراف العالم الاسلامي . تبدو غير ذات بال على الخريطة ، ولكنها في الحقيقة ذات أهمية بالغة . فهي تشن بوتفقات تحول فيها المصطلحات التقنية ، وتعابير البحريين والألفاظ المستعملة في التجارة ، ثم تنتقل الى اللغات المجاورة . وأهمية هذه اللغات تستحق التدوية حيث أنها ساهمت في نقل المصطلحات التقنية من العالم الاسلامي الى اللالغة الرومانية (8) .

وهذه النظرة المتخصصة في اللغات العالمية المستعملة في داخل العالم الاسلامي وفي أطرافه ، تساعد لنا بحصر الموضوع . تقديم تعريف ملائم لكلمة « مسلم » . والتمييز بين العالم العربي وـ « هـ » الذي اعتمد اللغة العربية .

---

8 - لغة مشتقة من اللاتينية ، وتقدمت تاريخيا اللغة الفرنسية . « المترجم » .

وفي المكان الأول ، ينبغي أن نستبعد تعبير « العالم العربي » في هذه الفترة . فقد طالما قيل أن العنصر العربي الحقيقى ليس له أهمية ضئيلة حيث أنه « أغرق » في بحر من السكان هم أكبر عددا وأعمق حضارة وأكثر تسدنا منه . وأما تعبير العالم الذى اعتسدة اللغة العربية ، فهو أكثر دقة ، ولو أنه لا يرضينا تماما . فان أطراف هذا العالم كانت فى تطور دائم . وهي لا تشكل كتلة واضحة المعالم . فان المدن التي تقع فيه كانت دائما فى نضال مع الأرياف . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان لعنة قد تسكتنا من الاحتفاظ بمركزها وتجددتا في العالم الاسلامي ، كما رأينا وهما اللغة الفارسية ولغة البربرية ، وكلتاها ستعيش طويلا .

وادا ، فان التعبير الملائم الذي ينبغي أن تأخذ به ، هو : « العالم الاسلامي » .

فهذا التعبير ليس أفضل ما نبحث عنه . ولكنه أحسن من غيره ، شريطة الاتفاق على مضمون هذا المصطلح . وهنا أيضا نجد أنفسنا في فضاء دائم التطور . وفي هذا المجال أيضا ، نجد أن نقاط الارتكاز هي المدن . والعلاقات بين المدن . فمن المدن ينتشر التفود الثقافي والحضاري إلى العالم الريفي والى مجالات البدو الرحيل . وخارج المدن انسا ينتشر الاسلام ببطء ، في بعض الحالات : فان بعض المناطق في جبال البربر ، مثلا لم تتقبل الاسلام ، بشريته والعادات التي ينطوي عليها . الا في وقت متأخر ، في القرن التاسع عشر ، تحت ضغوط خارجية .

والاعتراض الآخر الذي يتadar الى الذهن ، في سياق اعتقاد هذا التعبير ، هو أن العالم الاسلامي في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي ، لم يكن بعد يشمل اندونوسيا والهند الواقعة على نهر الكنج . وأخيرا فان أقليات مهمة أفلتت من الاسلام ، كانت تعيش في داخل الخلافة الاسلامية . وهؤلاء ينتشرون الى مختلف

الملل والنحل ، مثل المسيحيين ، واليهود ، والزنادقة ، والمزدكين ، والوثنيين ، والبوذيين والملحدين .

والواقع أن الأصلح والأدق هو أن تتحدث عن « العالم الذي يشسله الحكم الإسلامي » ولكن اختيارنا نهائياً لتعبير « العالم الإسلامي » ، يقوم على اعتبار أن مضمونه مشابه لتعبير « العالم الهليني » و « العالم الروماني » . وبعبارة أخرى ، فنحن نتحدث عن شعوب مختلفة تستظل بعلم حضارة مشتركة ، أو تعيش في شبكة من العلاقات التي تربط المدن والتي تشكل أساس هذه الحضارة التركية . وكذلك نجد أن العالم الإسلامي يتسم بالخصائص التالية :

مجال فسيح اقتصادي ، أولاً وقبل كل شيء ، ثم هو بعد ذلك مسرح لحضارة ذات أصول متباينة ، تعود إلى الحضارات الهلينية والسامية والإيرانية والهندية ، وبطبيعة الحال ، إلى الحضارة العربية وهذه الحضارة التركية ، كما يشهد بذلك فها الذي يتكون هو الآخر من عناصر متعددة : فارسية وتتنتمي إلى ما بين النهرين وبيزنطة ، بل وقوطية أيضاً . وميزة الإسلام وفضله الأكبر هو أنه تمكّن من صهر جميع هذه العناصر ثم إعادة تركيبها في حضارة واحدة متسقة ، لا يكاد الإنسان يُتعرّف على العناصر الأصلية فيها .

فإن تحفة فنية إسلامية ، مثلاً ، كثيرة ما يخفى أصلها والمنطقة التي استخرجها منها على المقبول . إذا كانت لا تحمل نقوشاً واضحة مفهومة وبالتالي ، فنحن لا نعرف ما إذا كانت هذه التحفة قد جاءت من الهند ، أو من إسبانيا ، أو من مصر ، أو من آسيا الوسطى .

واللغة العربية لها نفس الميزة : الطابع الكوني . فهي في نفس الوقت لغة الدين ، ولغة الادارة ، ولغة التجارة ، ولغة الحضارة .

وهذا العالم الاسلامي الذي هو عالم تركيبي ، مثل العالم الهليني والعالم الروماني ، يقدم شيئاً أكبر مما قدمه هذان العالمان : أبعاداً جديدة . وهو أوسع منها ، لأنه يجمع في أحضانه العالمين السابقين له . ولو ركنا فكريياً تخوم إمبراطورية الاسكندر الكبير وتخوم إمبراطوريات الرومان والخلفاء المسلمين ، لوصلنا حتى إلى النتيجة التالية : أن العناصر البشرية في الخلقة قد أخذت من العالم الهليني والعالم الروماني . وهذه العناصر ، هي الشعوب الشرقية وشعوب البحر الأبيض المتوسط .

وفيما يتعلق بالناحية الجغرافية . فإن الخلقة الاسلامية تضم الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض الشرقي . وهي منطقة العالم الهليني . ولكن الخلقة تضم أيضاً الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وهي منطقة الرومان سابقاً .

وعالم الخلقة العباسية ذو آفاق أكثر افتتاحاً من العالم الهليني في اتجاه المحيط الهندي ، والهند ، وآسيا الوسطى والصين . ومن جهة أخرى ، فهو يفتح على المحيط الاطلسي ، وعلى الشمال الغربي . مثل العالم الروماني .

ولكن العالم الاسلامي يضيف إلى مجموع امتداد العالم الهليني والعالم الروماني ، فتحاته على منطقة الانهار الروسية الكبيرة ، وعلى الطرق المتوجهة إلى بحر قزوين وإلى بحر البلطيق ، وعلى طرق التوافل التي تمر عبر الصحراء في اتجاه السودان وافريقيا الوسطى .

وظهور الامبراطورية الاسلامية كان من تأثيره الاساسية اتساع آفاق التجارة الدولية ، وقيام نظام اقتصادي أوسع وأكثر تنوعاً وأشد قنوة



القسم الثاني

## قوة نظام النقد الإسلامي وتقدير العمران في المدن



## الفصل الخامس

# مشكلات النقد

كان بحثنا حتى الآن مركزاً على الناحية الجغرافية ، على أساس درس كل أقليم على افراد . ولكنه الآن يت Hutchinson علينا أن ندرس بعض التواحي الأساسية التي كانت سبباً في قوة العالم الإسلامي وعظمته . وسبباً أولاً بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد ، ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والغليان الاجتماعي الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

### الحالة النقدية غداة الفتح الإسلامي

نبدأ أولاً ، بدرس المحرك الرئيسي المولد لهذه القوة ونعني بذلك نظام النقد (1) ، ثم نبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والغليان الاجتماعي الذي يكون نتيجة للاضطراب الاقتصادي .

فإن ذهب العالم المسيحي الغربي الذي يسيطر عليه البرابرة : قد استنزف كله تقريباً ، وأصبح هذا العالم لا يعتقد إلا على ما ينتجه من معدن الفضة لصك النقود . وهذه النقود الفضية ، هي في معظم الحالات

1 - للمزيد من التفاصيل عن المسائل التي يعالجها هذا الفصل ، راجع :  
M. Lombard, *Les bases monétaires d'une suprématie économique* :  
*L'or musulman du VIII<sup>e</sup> au XI<sup>e</sup> siècle*. Annales E.S.C. II, 1947, pp.  
143-160 et *Etudes d'Economie Médiévale*, I. - *Monnaie et Histoire d'Alexandre à Mohammed*, éd. Mouton et co., Paris, 1971.

من نوع رديء . ونحن نعرف من هذه النقود . مثلاً . «التريان» (Triens) الميروفجي المضروب من النحاس والمطلبي بطبقة خفيفة جداً من الفضة . وهو ذو وزن خفيف وقيمة ضئيلة للغاية . والبلد نفسه قد هجرته تيارات التجارة العالمية

وتجارة الاستيراد . مثل التجارة في الكساليات وسلع الترف . محكمة في يد الشرقيين «السوريين» الذين استنزفوا احتياطي الغرب المسيحي من الذهب . وبسبب ما يسلكه من الذهب القليل الذي هو النقد الأساسي . الذي يستعمل في التبادل التجاري في منطقة البحر الأبيض . وقد أصبح الغرب المسيحي مجالاً تسود فيه أشكال الحياة الريفية . وفي نفس الوقت الذي يخضع فيه لنظام اقتصادي مغلقٍ على نفسه . كان تدهور العمارة في المدن في الغرب يسير بسرعة .

ومن ناحية أخرى . عرفت الإمبراطورية البيزنطية صعوبات جدية مرّجعها إلى انقطاع تموينها بالذهب .

وانقطاع معدن الذهب عن بيزنطة مرّ برحلتين : تضاؤل الكميات الواردة ، ثم قلة انتظام وصول الذهب الجديد أو الذهب المستخرج من المناجم . فان برابرة الشمال قد قطع الطريق المؤدية من بيزنطة إلى سهوب البونت (Pont) (2) وبحر قزوين بينما قطع البليميون في مصر العليا طريق الجنوب المؤدية إلى المناطق المنتجة للذهب في إفريقيا السوداء .

2 - مملكة قديمة تبعد أراضيها من الشمال إلى الشرق في آسيا الصغرى ، على البحر الأسود ، أعلن استقلالها عن إمبراطورية الفرس في سنة 301 ق . م . وقد عرفت هذه المملكة بهذا من الإزدهار والتقدّم خصوصاً تحت الملك ميريادات Méthriodate وبعد فترة طويلة من التضليل مع الرومان سقطت في أيديهم في سنة 63 ميلادية . (المترجم) .

و في نفس الوقت ؛ حيل بين بيزنطة وبين النفوذ إلى المحيط الهندي الذي يسيطر الساسانيون على طرق التجارة فيه .

وقد زاد من فقر بيزنطة في الذهب ؛ ميل الناس ؛ ولاسيما رجال الكنيسة (أديرة سورية ومصر والقسطنطينية) ، إلى اكتناز الذهب ، مما نجم عنه حبس كميات كبيرة من المعدن الثمين ، ومنعها من التداول في الأسواق في صورة نقود . وما زاد من خطورة النقص الذي تعانيه بيزنطة ، أن هذا النقص وقع في نفس الوقت الذي اختفت فيه تيارات النقود الذهبية المضروبة والآتية من الغرب المسيحي (الواقع تحت سيطرة البرابرة) . وهذا الاختفاء كما رأينا . مرجعه إلى استنزاف المشارقة لاحتياطي الغرب من الذهب . وقد أدى مجموع هذه الظواهر إلى فرض قيود متزايدة الشدة على تداول العملة المضروبة من الذهب .

ومع ذلك ، فإن ولايات بيزنطة الشرقية . سورية ومصر ( وهي بلاد اشتهرت بدورها في تجارة المور (الترانزيت) بين الغرب المسيحي وملكة الساسانيين ) تملك احتياطياً كبيراً من الذهب . وبفضل هذا الاحتياطي . تمكنت بيزنطة من مواجهة أزماتها النقدية وتوفير الذهب لضرب عملتها . الدينار (Dinarios) ، التي لا تزال الوسيلة الوحيدة للتتبادل التجاري على ضفاف البحر الأبيض . والتي هي أهم أوراق المساومة الدبلوماسية في يد بيزنطة .

ومع ذلك ، فإن الإمبراطورية البيزنطية تعاني ضيقاً كبيراً في مجال النقد : فالتجارة مع العالم ، أصبحت بالركود ، أولاً . ثم بالانقلاب وأخيراً . أصبحت تجارة بيزنطة منحصرة في مجال ضيق لا يكاد يتجاوز حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي : الإسكندرية انطاكيّة – القسطنطينية – الإسكندرية .

والى جانب المدن التي لا تزال تحفظ بمساكنها العمരانية كانت الامبراطورية تعاني من حركة واسعة للقطاع ، كما تدل على ذلك أوراق بردی ( القرنين السادس والسابع الميلادي ) ، ومن انتشار الملكيات الزراعية الكبيرة التي كانت مراسيم الامبراطورية تقواها .

وفي مقابل بيزنطة ، نجد أن امبراطورية الساسانيين لا تضرب نقود الذهب ، لأن النقد المتداول فيها هو الدرهم ( الدراخم ) المضروب من الفضة .

ولكن احتياطي الساسانيين الكبير من الذهب كان مجده في شكل حلبي للزينة وأثاث مكدس في قصور الملوك ومنازل الأثرياء . وكذلك كان الشرق الساساني يبدو وكأنه كنز حقيقي من الذهب .

وعلى أساس نظام النقد الذي يقوم على الفضة ، والذي يسيطر على الأسواق الكبيرة في الشرق الأوسط والمحيط الهندي مع نقاط في آسيا الوسطى والأنهار الروسية الكبيرة ، عرفت هذه المناطق نشاطاً اقتصادياً واسع النطاق . نجم عنه ازدهار كبير في عمران المدن . وكذلك كان الطابع الريفي والاقطاعي يسيل في هذه المناطق إلى الاختفاء ويحل محله نفوذ المدن والحركة التجارية .

وقد كان وضع النساء والاقطاعيين الذين يعيشون على دخلهم من استغلال الأرض . يتدهور تدريجياً ، مع مرور الوقت واتساع نطاق التبادل التجاري مع البلاد الواقعة على المحيط الهندي . وعلى البحر الأحمر ، وآسيا الصغرى ومناطق الانهار الروسية الكبيرة .

وزيادة على ذلك ، فإن الساسانيين يسيطرون . بوصفهم وسطاء بحكم الضرورة . على طرق تموين بيزنطة بالتحف الشنية الآتية من آسيا .

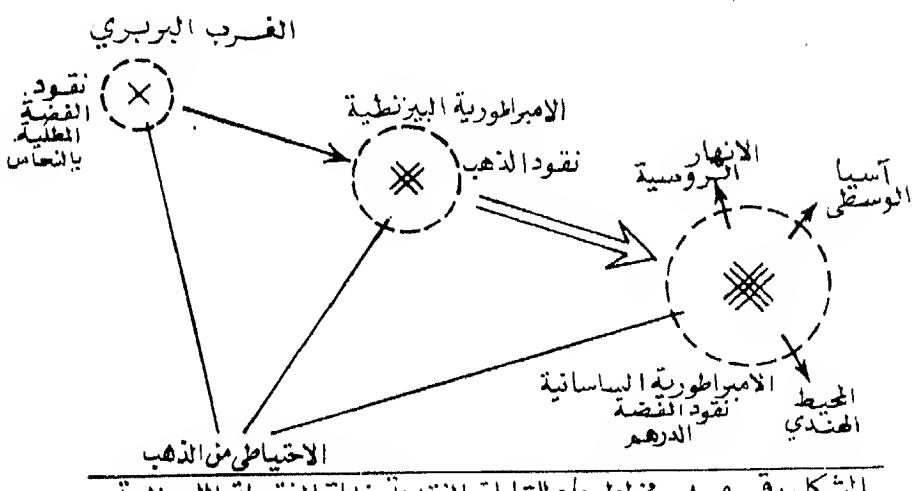
وكذلك نرى مجموعة اكتزيفون - أبلة ( اللتين حلتا محل سلوقية وأبوجوس الهلينيتيين ) على الخليج قد أعدت مجموعة بغداد - البصرة ، تقوم بالدور التجاري الخطير الشأن الذي قامت به في العصر الإسلامي .

وهذه السيطرة الاقتصادية التي يمارسها الساسانيون في ملكهم ، تعكس آثارها في مجال الفن ، بازدهار أنماط من الصيغ التقنية في العمارة والآيقونيات والزخرف ، في ايران وما بين النهرين . وهذه الأنماط مستشرة في الاتجاه الشرقي ( كهوف أجاتا في الهند ، وجداريات خوطان وكوتشا وتورفا في آسيا الوسطى ) ، وفي الاتجاه الشمالي ( الصياغة والتجارة في المصوغات بين شعوب السهوب ) ، وفي الاتجاه الغربي ( خصوصاً المنسوجات البيزنطية ) .

ومتن حصرنا بدقة هذه المناطق النقدية الثلاث ، فسيبقى أمامنا أن نحدد معنى تيارات التبادل القائمة بينها . وهذه التيارات ، في نهاية التحليل ، تتجه من الغرب إلى الشرق : فإن الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة يستنزفاحتياطيه من الذهب لفائدة بيزنطة التي تفقد ما تكسبه من الذهب لفائدة الساسانيين في الشرق .

وهكذا نلاحظ ، قبل الفتوحات الإسلامية حركة تتجه في خط مستقيم من الغرب إلى الشرق وتستنزف موارد الذهب من غرب البحر الأبيض المتوسط ، لفائدة الشرق وشواطئ المحيط الهندي . والذهب الذي تدور حوله هذه الحركة سيتهي في آخر المطاف إلى صناديق الكنازين الساسانيين والهنود .

وفي بداية القرن السابع الميلادي ، نشاهد اختلالاً في التوازن يزداد خطورة مع مرور الزمن ، بين حجم مجموع الذهب المكتنز ، والكميات



الشكل رقم ٨ - مخطط عام للتيارات النقدية شدة المفتوحات الإسلامية

المتداولة منه في صورة نقد . فان ممالك البرابرة التي استنزفت احتياطيها من الذهب ، كما قلنا ، أو أوشكت : تعاني من نقص شديد في معدن الذهب لسك النقود . وبينما يتناقص الذهب المتبادل في صورة نقود في الامبراطورية البيزنطية ، على الرغم من وجود احتياطي مهم ، (غير تقدير ) في بعض ولاياتها ، نجد أن الامبراطورية الساسانية ، لا تملك فيه كميات عظيمة من معدن الذهب المكتنز .

وهذا الاتجاه سيؤدي الى تقيد حجم الذهب المتبادل في صورة نقود ، والى تقلص جغرافي لمنطقة معيار الذهب واتساع منطقة معيار الفضة .

وقد انحصرت منطقة الذهب المتبادل ، بحيث لا تكاد تتجاوز الحوض الشرقي للبحر الايض المتوسط والاراضي التي يمتد عليها سلطان بيزنطة . وبذلك أصبحت منطقة معيار الذهب محاصرة بين منطقة معيار الفضة في الغرب المسيحي ، ومنطقة معيار الفضة الساسانية التي تتسع تدريجيا في الاتجاه الشرقي . والاسباب الثلاثة التي أدت الى هذه الحالة

هي : اكتناف الذهب ، وضعف الانتاج وعدم انتظام ورود الذهب ، وأخيرا ، تنقل الذهب في خط مستقيم وفي اتجاه واحد ، من الغرب الى الشرق وهو اتجاه يفرضه توازن الميزان التجاري على التيارات النقدية والفتحات العربية وظهور العالم الاسلامي ، سيؤثران على الحقائق الثلاث المذكورة ويفيران خريطة العالم النقدية .

#### معادن النقد في العالم الاسلامي :

والحقائقتان الأساسيةتان في هذا الموضوع . هما . تدفق الذهب الذي يستعمل لضرب الدينار الاسلامي ، واستغلال الموارد الكبيرة من الفضة التي تستخدم لضرب الدرهم (Drachem) من جهة ، والنحاس والقصدير ، وهما المعدنان اللذان تضرب منهما قطع النقد الصغيرة ( الفلس أو البيزنطي ) ، من جهة أخرى . (Phollis)

فاما تدفق الذهب الى العالم الاسلامي ، فهو يكتسي ثلاثة أشكال : وضع الذهب المكتنز في دائرة التداول من جديد ، ووصول ذهب جديد ، والتقدم التقني في معالجة الذهب .

وادخال الذهب المكتنز من جديد في دورة التبادل التجاري مرجعه الأسلاب والفنائهم التي أخذت من قصور الساسانيين أولا ، ثم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي (685-705م) ، من الكنائس الشيرية في سوريا وما بين النهرين . وهذا الخليفة الذي واصل التعریب وادخال اللغة العربية الى الادارة بحزم ، وسيقوم بضرب الدينار الاسلامي ، هو الذي ألغى امتيازات القساوسة التي كانوا يعفون بموجبها من الجزية . فان كل واحد من القساوسة سيدفع منذ الآن دينارا ذهبيا واحدا . وأما ممتلكاتهم فقد أحصيت وأخضعت للضربة العقارية — الخراج .

وهكذا كانت الكنائس والاديرة في العالم الاسلامي تقوم خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن التاسع ، بدور الاحتياطي من المعدن الشمين الذي يلتجأ اليه الخليفة في وقت الضائق ، تماما مثل المعابد القديمة التي التجأ إليها الامبراطور قسطنطين من قبل .

وإذا لاحظنا أن التدابير الأولى التي اتخذها الخلفاء الأمويون لاخراج الذهب من خزائن الكنيسة ، ترجع الى حوالي سنة 700 ميلادية ، وأن الاجراءات الأولى التي اتخذها الاباطرة الأيسوريون المجددون (Iconoclastes) (3) في بيزنطة ، يعود تاريخها الى سنة - 726 ميلادية ، وأن قيام الامبراطور شارل مارتل بالاستيلاء على أموال الكنيسة في الغرب وقع في سنة 730 - 731 ميلادية ، فسيتأكد لدينا أنها أمام حركة انتشرت من الشرق الى الغرب ، ومن العالم الاسلامي في اتجاه بيزنطة ، ثم الى الغرب المسيحي ، وهي حركة وضعت حدا لدوره كنز الذهب .

وفي مرحلة تالية ، اكتشف الذهب المكتنز في قبور الفراعنة في مصر . فان الفتح الاسلامي قد وضع حدا لعملية كنز الذهب أثناء تشيع جنائز الموتى في مصر . وبعد ذلك ، تحدث النصوص التي بين أيدينا عن عمليات عديدة لاكتشاف الذهب كان يقوم بها الباحثون عن الكنوز في القبور ، والذين كان يطلق عليهم اسم « أصحاب المطالب » . وأصحاب المطالب ، كانوا يحترفون البحث في القبور ويدفعون خمس ما يكتشفونه من الذهب الى الدولة ، وكانوا يعملون بتعاون وثيق مع دار السك . وت نفس الحالة ، هي التي تجدها في أمريكا اللاتينية فيما بعد ، في عهد المغامرين الغرابة الإسبان ، حينما كانت عصابات متخصصة من سراق

3 - الأيسوريون نسبة الى ايسوري (Isaurie) بلد في آسيا الصغرى يقع على السواحل الجنوبية، وترجمة كلمة (Iconoclaste) بكلمة « مجددين » ترجمة لفوية . والكلمة في السياق الديني اطلقت على طائفة في الامبراطورية البيزنطية في القرن الثامن الميلادي ، وصفت بالهرطقة ، وكانت تحطم الايقونات والصور المقدسة . ( المترجم ) .

القبور ، تبحث عن الذهب في قبور الأسر البيروفية (الجواكا) . وهي أيضا تشبه الحالة التي كانت سائدة في الغرب المسيحي في العصور الوسطى ، ولو أن سراق القبور في أروبا ، كانوا بائسين بالقياس إلى زملائهم من المصريين والاسبان .

ولكن نعد إلى ذهب الفراعنة . فنحن نعرف أن مجموع كميات الذهب التي استخرجت من قبر توت عنخ أمون وحده ، تزن مئات القنابر وتمثل ضعفي رصيد تلك مصر من الذهب . ولكن توت عنخ أمون لم يكن في الحقيقة سوى ملك متواضع بالقياس إلى كثير من ملوك الفراعنة . فمن ذا الذي يستطيع تقدير قيمة مجموع الذهب الذي استخرج من قبور الفراعنة التي اتهكت حرمتها !

فإذا كانت مكتشفات الذهب في عصرنا هذا تكتنز ، وإذا كنا قد خرجنا من عصر اكتناز الذهب خلال عمليات تشيع الجنائز ، إلى عصر الاكتناز العلمي ( ذلك الاكتناز الذي يمثله متحف القاهرة للعاديات ) فاذ الذهب المكتشف في العصور الوسطى ، على خلاف الحالة السائدة الآن ، كان يوضع من جديد في دائرة النقد المتداول : لأن هذا الذهب يضرب نقودا .

والشكل الثاني الذي اتخذه تدفق الذهب إلى العالم الإسلامي هو وصول الذهب المستخرج حديثا إليه ، وهذا الذهب يأتي من استغلال مناجم الذهب في الممتلكات الإسلامية بعدما اتسعت رقعتها . وهذه المناجم ملك للمسلمين ، بأحدى الطريقتين : فاما أنهم يملكون أرضا وموقعها فعلا ، أو هم يسيطرون على الطرق التي يسلكها الذهب الآتي من الخارج . وبذلك كان المسلمون يسيطرون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على معادن الذهب في غرب شبه الجزيرة العربية والقوقاز وأرمينيا وجبال الأرال والألطاي التي تتموز منها قبائل الترك الرحـل ،

ومناجم التبت ودكان التي ينفل الذهب المستخرج منها الى المناطق التجارية الواقعة على نهر مهران ، أو على شواطئ ملابار : ومناجم افريقيا الشرقية التي كانت مصدر ثروة سفاللة ( سفاللة الذهب ) : ومناجم النوبة ، وأخيراً مناجم وادي العلاقي التي يتحدث عنها العقوبي والتي تنتجه ذهبها ينفل منها الى أسوان .

ومن جهة أخرى ، فقد سيطر المسلمون على مورد جديد للذهب هو أهم من كل ما ذكر ، وكان يشكل التيار الرئيسي الذي يمسو شواطئ البحر الأبيض بالذهب الحديث الاستخراج خلال الفترة بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر ، ويعني بذلك : ذهب السودان . واستخراج الذهب من هذه المناجم يقوم به ملقطوا الذهب من السود . وهؤلاء لا يزالون يمارسون نشاطهم حتى يومنا هذا . وأما نقل الذهب الملقط ، فهي مسألة تتصل بالتجارة التي كان يقوم الجمالون من البربر ، عبر الصحراء ، ابتداء من مراكز الایداع في منطقة السنغال - النيجر ، حتى محطات القوافل الكبرى على حافات الصحراء في الشمال . وقد كانت نولطة وسجلماسة وورجلة والجريد ، كلها موانئ مغربية ( في الصحراء ) للذهب . وسجلماسة التي أست في موقع تأثيلت في سنة 757 ميلادية ، كان لها دور خاص في توصيل الذهب من « بلاد السودان » التي تسمى أيضاً « بلاد التبر » الى الشمال .

والعامل الثالث الذي يسهل تدفق الذهب الى العالم الاسلامي ، هو التقدم التقني الذي تحقق في معالجة المعدن الخام للذهب بتعيم استعمال الملحمة ( وهي كلمة نقلت الى اللاتينية من العربية التي أخذتها عن الأغريقية ) أي « مرج المعادن » وهذه الطريقة على كل حال ، تستعجل الزوبق ( الزاؤوق Azoque = بالاسبانية ) الذي يستخرج من أسبانيا ، وفي مدينة المادن ( المعدن ) الاسبانية ، كان

يشتغل ألف عامل في صناعة الزئبق الذي كان يلعب دوراً مهماً في العصر الإسلامي، يشبه الدور الذي سيكون له فيما بعد في أمريكا اللاتينية لاستخراج الذهب . وقد كان الزئبق الإسباني يصدر إلى المغرب الأقصى والسودان وإلى مصر والنوبة وما بين النهرين وإلى آسيا الوسطى وشواطئ المحيط الهندي : وبعبارة أخرى ، إلى البلدان التي تنتج الذهب .

ومن هذا التقدم التقني بقي في اللغات الأوروبية إلى يومنا هذا اسم آلة تستعمل لغسل الذهب ، وهي : « *البطحة* » بالفرنسية (*Batée*) *بالإسبانية* « *Batéa* » .

والى جانب موارد الذهب ، توفرت لدى العالم الإسلامي أيضاً موارد من الفضة .

والمnexes التي كانت تنتج الفضة في العصر الإسلامي هي نفس المnxes التي كانت تنتج هذا المعدن في العصور القديمة ، وفي المكان الأول ، إسبانيا الجنوية . طرطوشة القديمة ، التي كان الفنيقيون يتزدادون عليها ثم احتلها الرومان ، قبل المسلمين . والمسلمون هم الذين وضعوا حداً لاضطرابات البرابرة التي أدت إلى انخفاض الاتصال ثم إلى توقف استغلال المناجم .

وقد نجم عن مجيء المسلمين إلى هذه المنطقة استئناف النشاط بقوة لاستخراج الفضة . وكذلك كانت مناجم الفضة الواقعة في جبال الأطلس في المغرب الأقصى والتي كان يستغلها الأهالي ، تنتج كثيراً من هذا المعدن للتصدير في عهد الفنيقيين . وقد ظلت هذه المناجم نشيطة حتى في القرن السادس عشر الميلادي .

وأهم من ذلك ، هي مجموعة المناجم التي تقع في أرمينيا وأيران الجنوية وآسيا الوسطى ، وهي مناطق مشهورة بما تحتوي عليه تربتها

من معدن الفضة في عهد الساسانيين الذين كانوا يستغلونها للحصول على الفضة لضرب الدرهم .

وأكبر المراكز المنجمية في هذه الأصقاع هي : « معدن بن جاهير » الذي يقع في جبال كابل والذي كان يشغل عشرة آلاف عامل ، ومعدن الشاش فيما وراء النهر في شمال فرغانة . وقطع النقود الفضية التي ضربت في عهد هارون الرشيد وفي عهد الدولة الصفارية ( القرن العاشر الميلادي ) تحمل اشارات الى معدن بن جاهير ومعدن الشاش ، وهي اشارات تؤكد ما كان معروفا من وجود دور لضرب السكّة بنيت قريبا من المعدين .

وأخيرا ، فإن المناطق الجبلية التي تمتد في شمال سوريا تحتوي على منجم مشهور للفضة كان يستغله الفنيقيون وتصدر منتجاته من معدن الفضة الى مصر الفرعونية .

فالعالم الإسلامي يشتمل خصوصا على منطقتين كبيرتين لانتاج معدن الفضة : اسبانيا في أقصى الغرب ، وآسيا الوسطى وشمال ايران ، في أقصى الشرق . وهاتان المنطقتان كانتا تمونان على التوالي ، دور الضرب في الغرب المسيحي ، وفي الشرق الإسلامي حيث يسمى الدرهم « بج دراهم » .

وفيما يتعلق بالنحاس والقصدير ، يكفي لكي ندرك أهميتها في العالم الإسلامي أن نستحضر في أذهاننا الأعمال الفنية العديدة التي أبقى عليها الزمن والمصنوعة من البرونز أو الصرف ( النحاس والزنك ) . ومناجم النحاس توفر دور الضرب لسك قطع النقد ذات القيمة الصغيرة ( الفلس . ج . فلوس ) للاستعمال المحلي وهذا المعدن يستخرج من جزيرة قبرص . وخصوصا في منجم أرغاني ( أرغاني معدن ) الذي يقع في أعمال ما بين النهرين ، والذي يوفر في أيامنا هذه المادة الخام لجميع الصناع البدوين ، في الشرق ، وينقل الى البصرة ويصدر الى دمشق . وكذلك تشتهر ك

افريقية الشمالية بسهم وافر في انتاج النحاس باتنتاج جبال كتمة في منطقة البابور في بلاد القبائل (الجزائر) — تلك القبيلة التي آوت العبيد وناصرتهم . وأما المغرب الأقصى ، فقد كان يساهم باتنتاج المناطق الوسطى الواقعة على ضفاف نهر أم الربع التي تحول كثيرا من هذا الاتنتاج الى مدينة فاس وتصدر كميات الى سجلماسة ، ومن هنا الى بلاد السودان . ومناجم السوس الأقصى تصدر النحاس الى بلاد السودان .

وأما إسبانيا ، فقد كانت معروفة منذ العصور القديمة باتنتاجها الوفير من معدن النحاس ، وكذلك كانت مناجم القوقاز وآسيا الوسطى تسون صناع النحاس الأثرية .

وفيما يتعلق بالقصدير الذي يتحول الى برونز بضم النحاس اليه ، فهو يأتي من موردين بعيدين ، وبالتالي ، فهو معدن ذو صلة وثيقة بتطور التجارة العالمية : جزر قسيترييد (Cassitérides) (4) وهي الجزر التي أعطت اسمها العربي لمعدن القصدier ، ومن بلاد كله ، أي من شبه جزيرة ماليزيا والقصدier الذي يأتي من البلاد الأخيرة يحمل اسم « القلبي » بالعربية .

وأما القصدier الذي تنتجه بريطانيا ، فهو يصل الى الأندرس عن طريق المحيط ، كما يصل الى البلدان الإسلامية الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط عن طريق الجول (Gaule) ونربونة ، والى البلدان الإسلامية في الشرق ، عن طريق حلب والبندقية .

والقصدier الماليزي يدخل الى البلدان الإسلامية عن طريق الخليج ، ضمن تيارا التبادل التجاري بين البلدان العربية وايران في منطقة المحيط الهندي والبحر الأحمر .

---

4 - اسم قديم لارخبيل يتكون على وجه التقرير من جزر السيلي (Scilly) الحالية .  
« المترجم » .

## الضرب وتداول النقد

كان تدفق الذهب ووفرة معدن الفضة . بالإضافة إلى النحاس والقصدير عاملاً ينطوي على امكانيات واسعة لضرب النقود في العالم الإسلامي . وتبعاً لذلك . فقد تعددت دور الضرب وأصبح ضرب نقود الذهب لا مركرياً حيث كانت السلطات تمارسه في جميع المدن الكبيرة في العالم الإسلامي . وبعد اقسام الخلافة الإسلامية كان جميع ملوك مختلف الدول يضربون النقود . الأمر الذي نجم عنه تدفق كميات كبيرة من نقود الذهب والفضة على الأسواق . ولكن النقود الإسلامية لم تكن مهمة من حيث الكم فقط . بل خصوصاً من حيث الكيف . نظراً للعناية البالغة التي كان يضرب بها الدينار الإسلامي - شأنه في ذلك شأن العملات التي لها سيطرة على الأسواق الدولية .

ومايرؤيه ابن خردذبه ( حوالي 850 ميلادية ) يؤكد ما هو معروف عن أهمية حجم النقود المتداولة واتساع نطاق انتشارها حتى أن نقود الذهب والفضة كانت متداولة في أصغر القرى وأبعدها عن مراكز العبران . والخارج يجبى بالنقود . وتكليف بناء قصور الخلفاء تقدر بالنقود - وهي أمور شهد بازدهار العبران في المدن .

وتداول النقد الذي شمل جميع أنحاء العالم الإسلامي . سيمس مناطق من المجالات الاقتصادية المجاورة .

وقطع النقود الإسلامية السودجية لم تظهر في بداية الفتح الإسلامي . فان الفتوحات الأولى : لم تشهد تغيراً في نموذج العملة المتداولة . فالدرهم الساساني ظل متداولاً في الولايات الشرقية . بينما كان الدينار البيزنطي مستعملاً في الولايات الإسلامية الغربية . ودور الضرب الإسلامية الأولى ، كانت تقتصر على سك هذين النموذجين . وقد استمر الأمر على ذلك حتى عصر الخليفة عبد الملك الأموي . وأما سبب هذا التأخير في

احلال عملة اسلامية محل العملات القديمة ؛ فينبغي أن نبحث عنه في الطابع التقليدي المحافظ للتبادل التجاري ؛ وفي الأهمية التي يعلقها عالم التجارة على وسائل التبادل ، وعدم ثقته بل ونفوره من التجديد في مجال النقد .

ولذلك نجد أن تغيير العملة لم يقع إلا حينما اقتضته الضرورة التي نجست عن التغيرات الجذرية التي طرأت على النظام الاقتصادي نفسه .

فهذا التأثر في ظهور العملة الاسلامية ، اذا ، يأخذ إلى اعتبار تطور العلاقات الاقتصادية الدولية . وإذا كان الدينار البيزنطي والدرهم الساساني قد استمر كل منهما على القيام بدور العملة المتداولة في التجارة العالمية حتى نهاية القرن السابع الميلادي ( الاصلاح النقدي الذي أدخله الخليفة عبد الملك الاموي وقع في سنة 696 - 697 ميلادية ) ، فذلك لأن دائرة المعاملات التجارية القديمة ، كانت مستمرة في العالم البيزنطي من جهة وفي العالم الساساني من جهة أخرى .

ولكنه ابتداء من القرن السابع . ظهرت وحدة اقتصادية ، وهي وحدة العالم الاسلامي الذي أصبح يضم الكلتين الاقتصاديتين القديمتين . وبذلك توفرت الشروط الضرورية لقيام عملة موحدة تجمع في أحضانها الدرهم الساساني المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطي المضروب من الذهب .

ونحن في امكاننا أن نحدد المراحل التي مر بها هذا التطور . فكان الخليفة علي بن أبي طالب ( رضي الله عنه ) . فقد قام بالمحاولة الأولى في هذا الاتجاه في سنة 660 ميلادية ، في البصرة ؛ حيث أصدر العملة الأولى التي اتخذت شكل درهم اسلامي عليه تقوش بالخط الكوفي . ولكن هذه المحاولة منيت بالفشل . وبعد ذلك بأربعين سنة ، أعيدت هذه التجربة وأسفر التجديد على نجاح .

ففي غضون هذه الفترة ، اذا ، وقعت تغيرات جذرية في الأحوال الاقتصادية وظروف تداول العملة . فان العملة الإسلامية فشلت في المرحلة الأولى ، ثم نجحت بعد ذلك ، حينما صمدت أمام امتحان عسير ، وهو مواجهتها في الأسواق لأنواع العملة التي كانت لها السيادة من قبل .

وأول عملية نقدية تحققت في العالم الإسلامي ، وقعت في عهد عمر بن الخطاب ( 634 - 644 ميلادية ) ، حينما تم تنظيم وزن نقود الفضة . فيبيتسا كانت نقود الذهب تقوم على نظام واحد ثابت ، فإذا بنقود الفضة كانت تقوم على ثلاثة أنظمة مختلفة : الدرهم البغلي ( الفارسي ) والدرهم الرومي الذي تجري المعاملات بواسطته مع بيزنطة ، والدرهم الطبراني ، الذي كانت منطقته في آسيا الوسطى . ورغبة في خلق مجال موحد من نقود الفضة ، حدد وزن الدرهم في المتوسط بـ 14 قيراط ( من الاغريقية Keration ) ، أي 396 جرام .

ونحن نلاحظ أن تحديد وزن الدرهم القانوني قد تم على أساس نظام ورث عن اليونان ، وهو القيراط ، وليس على أساس « الدائق » (5) الفارسي . وهذا التدبير معناه السعي لربط نقود الفضة الجديدة بنظام الذهب الذي هو نفسه من أصل يوناني .

وأما النقود الإسلامية الحقيقية ، فهي إنما ظهرت نتيجة للإصلاح الذي أدخله عبد الملك بن مروان ( 74-75 هـ - 693 م ) بسك

5 - يساوي ندس الدرهم الفارسي . « المترجم » .

6 - عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي ، أبو الوليد ( 26 - 86 هـ ) من أعظم خلفاء الإسلام وأشدتهم دماء وأكثرهم حنكة . نشأ في المدينة فقيها واسع العلم ، متبعاً ، ناسكاً . استعمله معاوية على المدينة وهو ابن 16 سنة ، ثم انتقلت إليه الخلافة بممات أبيه ( سنة 65 هـ ) ، فكان قوي الهببة ، اجتمعت عليه كلمة المسلمين ، بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الرزير في حربهما مع الحجاج بن يوسف التقني ، ونقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية وضبطت العروض بالنقط والحركات ، وهو كما يقول المؤلف ، أول من سك الدنانير في الإسلام . « المترجم » .

دينار الذهب في دمشق ومنذ ذلك التاريخ ظهر نظام العملة الإسلامية : ففي سنة ( 75 - 76 هـ - 694 - 695 م ) . سك أحد ولاء العراق درهم الفضة من النوع الإسلامي - في البصرة . وقد انتشرت هذه الحركة في مختلف الولايات الإسلامية ، فقام عبد العزيز بن مروان ( 7 ) وإلي مصر في سنة ( 77 هـ - 696 - 697 م ) . بسك الدنانير في الفسطاط .

والدينار الإسلامي الذي ظهر نتيجة لعملية اصلاح نظام النقد يحمل نقوشاً مستديرة الشكل وتاريخ صدور القطعة والبسمة . وابتداءً من خلافة المؤمنون ( 813 - 833 م ) العباسي ، سيحمل الدينار الإسلامي أيضاً اسم المدينة التي سك فيها . وفي وسط وجه القطعة تقرأ عبارة دينية كتبت في ثلاثة أسطر ، وفي الظهر ، كتابة مستديرة بالثناء على النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، وفي الوسط على ثلاثة أسطر عبارة دينية .

وقطعة الدرهم تضرب على نفس الطريقة وبنفس النقوش ولكنها أوسع أبعاداً حيث أن قطعة الفضة أغاظ وواسع رقعة .

وأما الفلس ، فهو يحمل نقوشاً مختلفة ، حيث أن هذه القطعة ذات أهمية محلية وثانوية ، وليس خاضعة لحق الملكية وتقوم بسماحتها سلطة محلية . ومن جهة أخرى ، نلاحظ أنه لا توجد أية علاقة بين النقود المضروبة من البرونز ونقود الذهب والفضة .

7 - وقع التباس في الأصل مرجعه ، بدون شك ، سوء التحرير ، حيث ذكر باسم عبد العزيز أبي عبد الملك . والأصوب ما ذكرنا ، وهو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، أبو الأصبغ ( وهو أبو الخليفة ، عمر بن عبد العزيز ) . ولد مصر لأبيه استقلالاً ( سنة 65 هـ ) وسكن حلوان ، حيث بنا المدار والمساجد وغرس كرماً ونخيلًا . كان يقطن شجاعاً جواداً وكانت تنصب حول داره كل يوم ألف قصبة للاكلين وتحمل مائة قصبة على العجل الى قبائل مصر . توفي بحلو سنة 85 هـ ( المترجم ) .

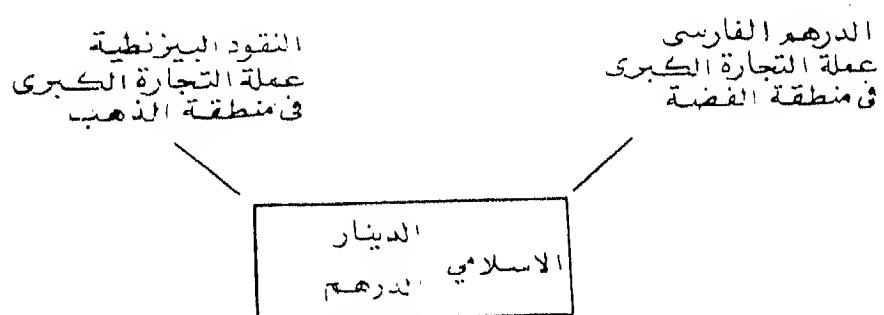
ونموذج العملة الذي صدر بهذا الشكل : تميزه تقوش بالخط الكوفي . وعدم وجود صورة على القطعة . وأما الدينار الذي ضرب في عهد المعتصم العباسي ويمثل الخليفة وهو جالس على عرش ، على غرار الساسانيين ، فهو استثناء من القاعدة .

وكذلك يعني بتحديد وزن القطعة الجديدة بحيث تكون موازية ومسائلة للقطعة المتداولة في الخارج فأما وزن الدرهم المضروب من الفضة . فقد ظل على الأساس الذي حدده عسر بن الخطاب . وأما وزن الدينار الذهبي ، فهو يحدد على أساس متوسط وزن عدد من القطع المتداولة في بيزنطة . والمعروف أن دينار الذهب المتداول في القسطنطينية ، يزن 4،25 جرام ولكن نظرا لأن القطع التي يحدد وزن القطعة الإسلامية على أساسها ، هي قطع مر على تداولها وقت من الزمن . وبالتالي فقدت قليلا أو كثيرا من وزنها من الذهب ، فان القطعة الإسلامية التي تضرب من الذهب الخالص أقل قليلا ، من حيث الوزن . من قطعة الذهب البيزنطية .

ونظرا لأن القطعة الخفيفة الوزن ، تطرد القطع الثقيلة من الأسواق ، فان الفرق البسيط في الوزن بين القطعة البيزنطية والقطعة الإسلامية المتنافستين ، كان من العوامل التي أدت إلى انتشار الدينار الإسلامي الجديد بسرعة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وأما قطع النقد البيزنطية القديمة ، فقد سحبت من الأسواق تدريجيا وأرغم الصرافون ومبدلو العملة على تسليم ما لديهم منها ، والقطع التي تصل إلى أيديهم وتحوילها إلى السلطات الرسمية التي تصرها وتعيد سكها .

وخارج حدود الخلافة الإسلامية أيضا ، سينتشر الدينار عملة الخليفة العظيمة ، ويتسع نطاق تداوله ، ولاسيما في البلاد التي ينافسه فيها الدينار البيزنطي : في روسيا الجنوبية ، وفي الغرب المسيحي الخاضع لسيطرة البرابرة .

وهكذا ، فإن الدينار البيزنطي والدرهم السياسي اللذين كانا رمزاً لنظامين نقديين مختلفين ، سيرتبط أحدهما بالآخر عن طريق الدينار والدرهم الإسلامي كما في المخطط التالي :



نقد التجارة الكبرى - نظامان مرتبطان للنقد .

عملة التجارة العالمية : منطقتان نقديتان مرتبطتان .

وعلى أساس 20 درهم لدinar واحد ( النظام الثنائي المعدن الذي سيسود في البلاد الواقعة على شواطئ البحر الأبيض ) تحقق تدريجياً اندماج النظامين النقيدين البيزنطي والسياسي . وانتصر نظام معيار الذهب . وسيتسع نطاق تبادل العملة المضروبة من الذهب في الاتجاه الشرقي ، في أراضي السياسيين قديماً ، وفي اتجاه الغرب المسيحي وأسبانيا في نفس الوقت .

بقي علينا الآن أن نحدد مراحل اتساع نطاق الذهب وسيادته في داخل العالم الإسلامي نفسه .

كان اتساع نطاق سك النقود الذهبية مرهوناً بتدفق معدن الذهب الذي جاء إلى العالم الإسلامي في أمواج متلاحقة . بدأت بالغناائم والأسلاب ، ثم بدخول الذهب المكتنز إلى دائرة التبادل في صورة نقود .

وأخيرا وصول الذهب الجديد من مختلف أنحاء العالم ، ولا سيما من السودان .

وتتجه لتدفق الذهب ، كانت قيمة الذهب ، وبالتالي ، القيمة الشرائية للنقد ، تتجه إلى الانخفاض . ونظرا لأن الناس لا يكتنزون النقد الذي تحطط قيمته تدريجيا ، فقد اتجهوا إلى الاستثمار في مختلف القطاعات الاقتصادية التي تضمن عائدا مرتفعا لرؤوس الأموال المستثمرة . ومن ثم ، فلا غرابة في أن نشاهد حركة واسعة النطاق تستهدف الحصول على الثروة وتنميتها في العالم الإسلامي ، ولا سيما بين التجارة ، عقب الفتوحات الإسلامية .

ولكن ، لنتوقف لحظات عند موارد الذهب في السودان . فاذ هذا الذهب الذي يغذي التiarات الرئيسية للتمويل بالمعدن الشمين منذ نهاية القرن الثامن ، وخصوصا . منذ القرن التاسع الميلادي يصل إلى المغرب كما رأينا ، عن طريق عدد من المدن الصغيرة التي تقع على طرق الصحراء : والواقع أن كل تاريخ إفريقيا الشمالية وتاريخ الدول التي قامت فيها ، كان يدور حول العمل للسيطرة على المحطات التي تقصدها القوافل ويحمل إليها معدن الذهب . وهذا الذهب . لا يبقى في المغرب . وإنما هو يمر به فقط ، تماما كما حدث في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي بالنسبة إلى الفضة والذهب اللذين كانت تتجههما أمريكا ويشحنان إلى قادس ، ثم يوزعان على مراكز التجارة والصناعة والبنوك والمراكز المحركة للاقتصاد .

وهكذا يتوجه ذهب السودان إلى مناطق الانتاج الكبيرة التي تعمل للإنتاج لتجارة التصدير . فهو يتوجه إلى مصر التي تتبع القمح والأقمشة ، والى منطقة ما بين النهرين التي تنتج قصب السكر والأقمشة ، وهو يتوجه أيضا إلى مراكز تجارة المرور التي تتلقى سلعا تأتيها من البلدان

الواقعة خارج العالم الإسلامي : إسبانيا التي تتلقى العبيد وغير ذاك من السلع التي يشتند الأقبال عليها في الغرب المسيحي . وأسوق مصر وسوريا وما بين النهرين التي تتلقى منتجات آسيا ، ولا سيما التوابل ؛ ومراكز التجارة في آسيا الوسطى ، سمرقند ، وبخاري ، وخوارزم ؛ التي تسيطر على الطرق المؤدية إلى منطقة الأنهر الروسية ، والى بلاد الأتراك والى الصين والهند .

وأخيرا ، فإن ذهب السودان يتوجه أيضا إلى المراكز السياسية الهامة ؛ والى بلاط الملوك والأمراء ، مثل بلاط بنى طولون ، أمراء مصر ، الذين كانوا يدفعون في القرن التاسع الميلادي إلى الخليفة العباسي اتاوة مقدارها 300000 دينار سنويا .

ولكن ذهب السودان لم يوزع بالتساوي بين مختلف المناطق . فإن المناطق التي تقع بعيدا عن الطرق الكبيرة للتبادل التجاري ، لا تتلقى سوى كميات ضئيلة منه . والذهب إنما يتجمع في المراكز التجارية والمصرفية ، وفي أسواق المدن الكبيرة وفي قصور الملوك . فهذه المراكز هي التي تتولى سك الذهب والفضة ، وبدرجة ثانوية ، النحاس وتقوم بإعادة توزيع هذه المعادن في شكل « محول ». وهذه التيارات النقدية هي التي تبعت النشاط والحياة ، بواسطة ذهب السودان ، في الاقتصاد الإسلامي ، وأما بلاد المغرب التي يمر بها ذهب السودان ، فدورها ينحصر في إعادة توزيعه إلى مختلف المراكز الاقتصادية .

\* \* \*

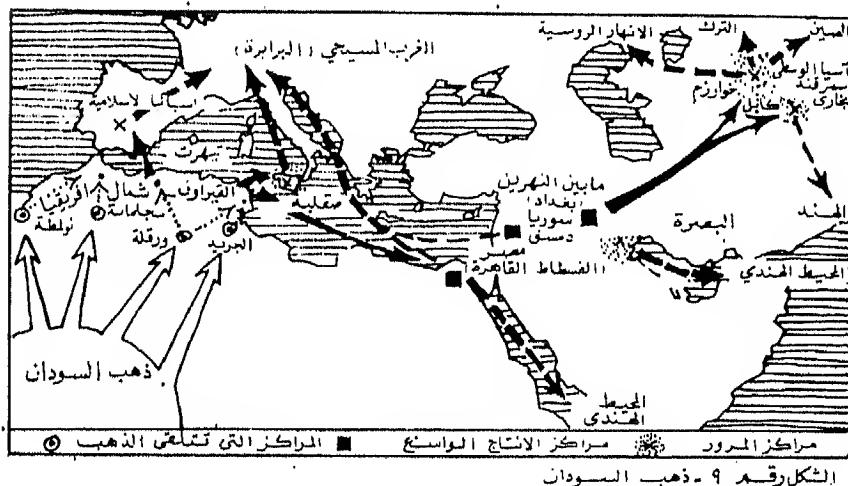
ولتقدير مدى انتشار تداول النقود الذهبية في العالم الإسلامي ، توجد لدينا خمسة مصادر للمعلومات : أولها ، بطبيعة الحال ، قطع النقود المحفوظة في متاحف القاهرة ، ودمشق ، وبغداد والمتاحف البريطاني ، وفي مقصورة الميداليات في المكتبة الوطنية بباريس ، الخ .

وهذه القطع تسمح لنا بتحديد أماكن السك ودور الضرب ورسوها على خريطة . فهذا الواقع ، هي ، أولاً ، دمشق في عهد الأمويين ، ثم بغداد ، وابتداء من سنة 763 م . في عهد المؤمن العباسى ( 813 - 833 م ) . نجد أن عملية سك النقود أصبحت لا مركزية . وبعد سنة 827 م ، أصبح ضرب النقود يجري في جميع المدن الرئيسية ، في الشرق والمغرب .

وبتوحيد طرق سك النقود ، تأكد اندماج معياري النقد . معيار الذهب ، « أهل الذهب » ، ومعيار الفضة ، أو « أهل الورق » كما كان يسمى .

والمصدر الآخر الذي نستقي منه معلوماتنا ، هو تقدير قيمة مجموع الضرائب التي كانت تدفع في عهد الدولة العباسية .

كان تقدير ميزانية الخليفة في عهد بنى العباس ، حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، يعبر عنه بالدينار للغرب وبالدرهم للشرق . ولكنه في بداية القرن العاشر ، أصبح التعبير عن تقديرات الميزانية يجري كله بالدينار ، وهو دليل على توحيد النظام النقدي نهائياً على الصعيد الإداري .



وابانيا الاسلامية ، تقادم لنا مثلا آخر للتوسع في استعمال النقد المضروب من الذهب . فان الأمويين في قرطبة انسا كانوا يضربون النقود من الفضة فقط ، حتى القرن التاسع الميلادي . ولكنهم بعد ذلك أخذوا يسكون النقود الذهبية وهو تدبير يرمز لما بلغته الدولة الأموية من القوة والعظمة التي ستتأكد في القرن العاشر ، باعتمادهم لقب الخليفة « أمير المؤمنين » .

ومن جهة أخرى ، فقد عرفت اسبانيا المسلمة حركة قوية لتدفق قطع النقد الذهبية الآتية من المشرق . وبعض هذا الذهب يتذبذب طريقه الى الغرب المسيحي في مقابل العبيد الذين يستوردون من هذه البلاد ، والذين يعاد تصديرهم الى المشرق ، وهي تجارة تؤمن للأندلس دور منطقة العبور « الترانزيت » .

وأخيرا ، فقد كانت الأندلس تتلقى ذهب السودان وكان ملوكها يتذلّلون عبر البحر في المغرب ليضمنوا لأنفسهم السيطرة على محطات القوافل الشمالية في التجارة عبر الصحراء .

وهذا الذهب الذي يisks في قرطبة . أو في مدينة الزهراء كان يعدي بالنقود الذهبية الغرب المسيحي الذي يقوم نظامه النقدي على معدن الفضة .

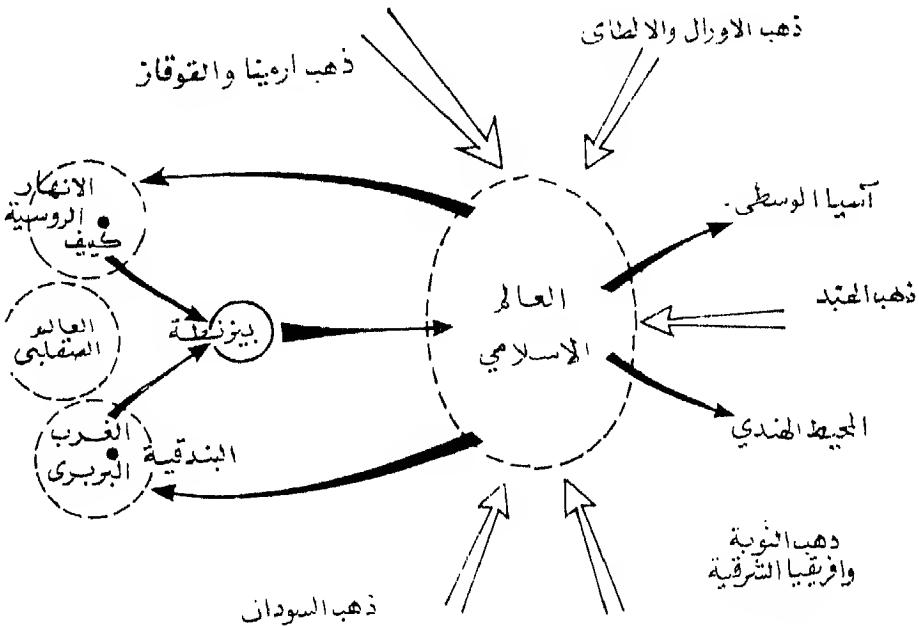
ومن الأدلة الأخرى التي تشير الى اتساع نطاق استعمال النقود الذهبية ، قيام الفاطميين بضرب النقود الذهبية . فان الفاطميين ، الذين جمعوا ثروة طائلة في القرن العاشر الميلادي ، بفضل ما وصل اليهم من الذهب الآتي من السودان الذي يحتكرونه ، سيكونون رصيدا هاما يسمح لهم بتحقيق خططهم لغزو مصر التي أخذت تميل الى دعوتهم ، نتيجة لسياسة نشيطة تقوم على الدينار . وقد ضاعف الفاطميون نشاطهم

لضرب نقود الذهب فكانت تخرج من دورهم للضرب كميات كبيرة من الدنانير التي ستنشر في امبراطوريتهم من سوريا الى صقلية . والفااطميون هم الذين خلقوا ربع الدينار الذهبي .

وأخيرا ، فان المعلومات والارقام التي تستقيها من المؤرخين والجغرافيين العرب ، تسمح لنا بتقدير الوضع فيما يتعلق بتداول نقود الذهب في العالم الاسلامي . ونحن هنا نقتصر على سرد بعض الامثلة التي تدل على ضخامة حجم الذهب المتداول . ففي الاندلس اكتشف لدى وفاة عبد الرحمن الثالث (8) في سنة 961 ميلادية أن خزائنه تحتوي على 5 ملايين دينار ، أي 250 قنطار من الذهب المضروب . وفي عهد خلفه ، الحکم الثاني « 961 - 976 م » ، بلغ دخل بيت المال 40 مليون دينار . وفي مصر اكتشف لدى وفاة الوزير ، الافضل ( القرن الحادى عشر الميلادي ) أن خزائنه تحتوي على 6 ملايين دينار ، وهو ما يمثل 300 قنطار من الذهب المسكوك . وفي بغداد ، كان دخل بيت المال في كل سنة في عهد الخليفة هارون الرشيد ( 809 - 786 م ) 7500 قنطار من الذهب المضروب نقودا ، أي مليارا ونصف مليار دينار . وقد قدم الخليفة الواقع ( 847 - 842 م ) هدية الى التجار في حي الكرخ ( بغداد ) الذي هدمته النيران ، تمثل مبلغ 500,000 دينار ، وهو ما يساوى 25 قنطار من الذهب .

---

8 - عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ( 350 - 277 هـ ) ابو المطرف الروانى ، اول من تلقب بالخلافة الاموية في الاندلس تشا يقيناً وبوبع بعد وفاته جده ( سنة 300 ) هـ ، وكان عاتلاً طموحاً انصرف الى اخماد الفتن فاستقر له الملك خصوصاً بعد ظهور شعف المقتدر العباسي في العراق . وقد بوبع بالخلافة في سنة 316 هـ . وتلقب بالناصر . وصفه ابن قشدة بأنه « من اعظم أمراءبني امية في الاندلس ، كان كبير القدر كثير المحسن محباً للمرمان مولعاً بالفتح » . حكم الناصر مدة خمسين سنة وستة أشهر . « المترجم » .



الشكل رقم ١٠ - مختلط عام لاتجاه التيارات النقدية بعد الفتوحات الإسلامية

وهذه الأرقام التي نسردها، من بين غيرها ، والتي تستقيها من المؤرخين والجغرافيين العرب الذين كانوا مطلعين على الوثائق والارشيفات في العصور التي كانوا يعيشون فيها ، تدلنا على مدى اتساع نطاق تداول الذهب في العالم الإسلامي . و حتى لو لم نقبل هذه الأرقام و نعتبرها دقيقة ( و حتى الاحصاءات في عصرنا كثيرة ما يتضمن الامر النظر اليها باحتراز ) ، فهي ، على الاقل ، تعطينا فكرة واضحة في الموضوع ، و تبرر الانطباع السائد في أذهاننا بعظمة حجم النقود المضروبة من الذهب في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . و ضخامة هذا الحجم تتضح لنا خصوصا ، متى أخذنا الى الاعتبار عدد السكان بالقياس الى كميات الذهب المتداول . وهذا العدد كان في ذلك الوقت أقل كثيرا من عدد سكان البلدان الإسلامية في الوقت الحاضر .

وفي الختام ، يمكننا أن نقول بأن العالم الإسلامي ، يتميز في تاريخ النقد البشري ، بتدفق المعدن الثمين إليه ، ذلك التدفق الذي درسنا مصادره والطريقة التي كان يقع بها . وبفضل وفرة هذا المعدن الذي يتمنى بحظوة خاصة في مراكز العمران الكبيرة المزدهرة ، فقد تمكن هذه المراكز من الحصول على جميع المنتجات التي تحتاج إليها ، بما في ذلك المنتجات التي تأتي من الأقطار البعيدة . وال الحاجة إلى المنتجات كانت قوية ، لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بارتفاع بعض الطبقات السلم الاجتماعي . وكذلك ظهرت تيارات نقدية جديدة في العالم الإسلامي وخارج حدوده ، على طول طرق التجارة التي تنطلق منه .

والمسألة الآن لم تعد ، كما كانت الحالة قبل الفتح الإسلامي ، مسألة تنقل الذهب في اتجاه واحد وفي خط مستقيم ، ولكن الوضع في العالم الإسلامي يقوم على مخطط جديد وعلى دائرة تجارية ونقدية حقيقة .

\* \* \*

## الفصل السادس

# ازدهار العمران في المدن ومطالب الاستهلاك

كان العالم الإسلامي ، خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ، مسرحاً لحركة هائلة من العمران في المدن . وقد بدأت هذه الحركة بإنشاء مدن سرعاً ما أصبح بعضها أكبر مدن العالم (1) . فإذا قيل في ساوبولو أنها أسرع مدن العالم نمواً ( 60.000 نسمة في سنة 1888 م ) و 2 مليون نسمة في سنة 1950 » ، فماذا نقول نحن في بغداد التي زاد عدد سكانها في ظرف سنوات أقل ، أي من سنة 762 حتى سنة 800 ميلادية ، من بضع مئات ( وموقع المدينة قبل الفتح الإسلامي ، كان عبارة عن قصر محصن للساسانيين محاطاً ببعض الأديرة التابعة لطائفة النساطة ) ، ليبلغ مليوني نسمة ؟ .

والى جانب هذه المدن المستحدثة والتي احتفظ معظمها بمركز المدن الكبيرة حتى يومنا هذا ، كان النشاط والحياة تنبثق من جديد في مراكز عمرانية قديمة سرعاً ما ازداد عدد سكانها واتسعت آفاق عمرانها لتبلغ درجة من النمو لم تعرفها حتى ذلك الحين .

---

1 - للمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع ، راجع :  
M. Lombard, l'Evolution urbaine pendant le Haut Moyen Age. Annales  
E.S.C., XII, 1957, pp. 7-22.

وهكذا ظهرت شبكة واسعة من المدن أصبحت ، بفضل الصلة التي قامت بين مدينة وأخرى ، تشكل ما يشبه العظام في هيكل العالم الإسلامي . وهذه المدن ، هي التي ستقوم فيها شبكة التيارات الكبرى للحضارة الإسلامية . وهذه الظاهرة ذات أهمية خطيرة لم تسلط عليها الأضواء حتى الآن . وحركة تعمير المدن في العالم الإسلامي ، تتجاوز بكثير حركة تعمير المدن التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية ، ويمكن ترتيبها على مستوى الحركة المثالثة التي عرفها العصر الهليني والتي عرفتها أروبا الغربية — على الأقل في البداية .

و هنا نجد من الضروري تحديد الوضع وتوضيح الاتجاه الذي اتخذته حركة تعمير المدن ، قبل ظهور العالم الإسلامي وبعد ذلك .

كانت توجد في النصف الأول من القرن السابع الميلادي ، كما كانت الحالة في النقد والعملة ، ثلاث مناطق يجري فيها نشاط متشابه السرعة لعمارة المدن . فالم منطقة الأولى تتكون من الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البربرية . فهذه المنطقة تميز بجمود في تداول النقد ، وبالعزلة عن بقية أنحاء العالم ، وبجفاف شرائين التجارة ، وانقطاع شبكة الطرق التجارية ، وتسخير الفلاحين في الأرياف وسيطرة أساليب الحياة الريفية في البلاد ، بعدما حل محل أساليب الحياة المدنية . وقد اختفت المدينة القديمة في الغرب المسيحي تحت وطأة الأزمات الاقتصادية والغزو والعبث بالأمن العام . وهذه الفترة التي شهدت انتصار الملكيات الكبيرة وساد الاقتصاد فيها الطابع الريفي ، ستتصبح المدن أثناءها مجرد حصون وملاجئ ضيقة يأوي الناس إليها للدفاع عن أنفسهم . فان البربرية وأشبائل الحياة الريفية ، تنتشر بحيث تشمل

جميع أنحاء الغرب المسيحي تقربياً . وكانت هذه الفترة أيضاً ، هي الفترة التي انتشرت فيها أساليب حياة البدو الرحل في أفريقية الشمالية .

وأما منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط البيزنطي ، فمن أبرز خصائص الوضع الذي يسود فيها الضيق المتزايد الذي يتسم به تداول النقد ، وتقلص التبادل التجاري الذي ضاقت دائرةه وأصبحت لا تتعدي نطاق المدن الثلاث : الاسكندرية ، وأنطاكيا ، والقدسية ، وانكماش سوق الخدم من العبيد ، وأخيراً تمتاز بجمود النشاط في المدن ثم تدهور هذا النشاط . والجمود والتصلب الذي يعني منه الاقتصاد المصري ، كما تدل على ذلك أوراق بردى ، سرعان ما مس سورياً وأسية الصغرى التي سينتشر فيها أيضاً نمط الحياة الريفية وقد انحصر النشاط في هذه المنطقة في المدن الكبيرة التي أُسست في العصر الهليني ، مثل الاسكندرية وأنطاكيا ، أو في بعض المدن التي أَسَسَها قسطنطين ، مثل القدسية . والحقيقة أن هذه المدن ، هي أشبه ما تكون بجزر منتشرة في بحر الحياة الريفية .

وأما امبراطورية الساسانيين التي شهدت تداولاً نشيطاً للنقد الذي يقوم على أساس الدرهم الفضي ، وكدست رصيداً كبيراً من الذهب وتوفرت فيها اليدين العاملة واعتمدت نظاماً للتجارة مفتوحاً على المحيط الهندي ، فقد شهدت تقلص نفوذ كبار ملوك الأرض « الدهقان » وتدعم الازدهار العمراني في المدن الكثيرة التي أنشئت حديثاً .

وكثير من هذه المدن الحديثة ينتهي اسمها بكلمة « أباد » التي تتطبق على أرض معمورة مزدهرة العمران .

وهكذا نرى أن سرعة النشاط وحدة حركة تعمير المدن يتناقض كلما سرنا من الغرب إلى الشرق ، بحكم تضاؤل رؤوس الأموال من الذهب ، وندرة اليد العاملة التي تتكون خصوصاً من العبيد ، وتقلص العلاقات التجارية العامة .

وبقيام العالم الإسلامي ( في القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلادي )، يستقوم كتلة متراصة واسعة ، وسوق تجاري تمتد بين آسيا الوسطى والمحيط الهندي ، وبين السودان والغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البربرة ، والأنهار الروسية الكبيرة ، وهذا الامتداد الذي يقوم على أنقاض المناطق الثلاث السابقة ويوجد بينها : الامبراطورية الساسانية والمتلكات البيزنطية في سوريا ومصر ، وغربي البحر الأبيض المتوسط البربرية ، يتسم الوضع فيه بالخصائص التالية : تدفق الذهب عليه ، واتساع سوق الرقيق فيه ( الرقيق التركي والأفريقي والصقليبي ) ، وامتداد شبكة واسعة من طرق التجارة الكبيرة ، من الصين شرقاً حتى إسبانيا غرباً ، ومن إفريقية السوداء جنوباً حتى آسيا الوسطى شمالاً ، وهذه العوامل ، ستكون أساساً لازدهار العمران ، عمران المدن الذي شهدته العالم الإسلامي .

وفي الامبراطورية الساسانية القديمة ( ما بين النهرين وايران ) مستمرة حركة العمران في المدن تلك الحركة التي بدأت في عهد الساسانيين . ومدينة بغداد وسر من رأى ، هي أعظم وأشهر المدن التي تمخضت عنها هذه الحركة .

وأما ولايات الامبراطورية البيزنطية القديمة ( سوريا ومصر ) فستشهد انطلاقاً لحركة عمران المدن ، توقفت في العهد السابق . ومن هنا ، ازدهار دمشق ومدينة الفسطاط ، أو القاهرة القديمة .

وفي ممالك البربرية سابقا ، في غربى البحر الأبيض ( افريقيا الشمالية وأسبانيا ) ، سيدخل المسلمون نظام المدن الكبيرة مثل القيروان وفاس وقرطبة ، وهذه المدن ذات قيمة رمزية في حركة العمران المدنية التي تنتشر من الشرق الى الغرب .

### حركة العمران المدنية بين القرن الثامن والقرن العادى عشر الميلادى

ففي كل واحدة من هذه المناطق القديمة الثلاث : الشرق السasanى ، سوريا ومصر ، ممالك البربرية في الغرب ، سنحاول اعطاء صورة اجمالية واضحة بقدر الامکان ، ثم نسلط الأضواء على مدينة تتخذها مثلا لحركة العمران في المنطقة والمدن التي اخترناها ، هي : بغداد ، والفسطاط « مصر القديمة » ، وقرطبة .

### أمبراطورية الساسانيين :

تشمل هذه المنطقة ما بين النهرين وايران . بلاد ما بين النهرين ، كانت مهدًا لحضارة قديمة و « مكانا للمدن » ، كان نبع حياة المدن فيه ، في جميع الأوقات ، مرتبطة بنظام الري في أرض « سواد العراق » الخصبة ، وباتساع نطاق عمليات تجفيف المستنقعات « البطائح » في منطقة تسمح بزراعة المحاصيل التجارية .

وهذه المحاصيل ، التي ستتسنم باكتظاظ المدن بالسكان ، هي القمح والشعير والذرة والأرز ، التي اتقللت زراعتها منذ أحقاب طويلة من الدلتا الهندية الى منطقة المستنقعات في أسفل نهر الفرات . وأما قصب السكر ،

فقد انتقلت زراعته في وقت متأخر ، في عهد الساسانيين ( القرن السادس الميلادي ) من الهند الى خوزستان ، أي الى سوزيان القديمة ، ثم الى منطقة قارون في جهة توستار ( Tustar ).

وأما أشجار التفاح التي أصلها من الخليج العربي ، فانها لم تصلح زراعتها في المكان الذي تقع فيه بغداد ، الا بعد أن قام بستاني من البصرة بتكييفها لمناخ المنطقة .

وأشجار البرتقال انما أدخلت زراعتها الى البصرة وعمان من الهند . وفيما بعد ، أصبحت تزرع في منطقة بغداد أيضا .

وأهمية الموارد الاقتصادية الزراعية ، تثبتها بوضوح النصوص العربية التي تتصل بناء مدينة بغداد .

وقد كان من نتائج انتشار هذه المزروعات المتنوعة ، الاتجاه الى الخبراء والتقنيين ليقوموا بأعمال المياه ، والى المتخصصين في فلاح الحدائق ، ولا سيما في تكيف المزروعات الجديدة للمناخ والتربيه .

وإذا كان من الضروري توفير الغذاء للشعب ، فانه توفير الملبس لا يقل أهمية عن الغذاء . والمواد الأولية للنسيج ، كان يوفرها سواد العراق ، من الكتان والقطن الذي جاء من شواطئ الهند وصلحت زراعته في أعلى ما بين النهرين ، وفي حوض الخابور الكبير . وزراعة القطن ترتبط بزراعة قصب السكر ، من حيث أن كلا المحصولين يتطلب يداً عاملة وفيرة ، خصوصاً ، من العبيد السود « الزنج » الذين يستوردون من شواطئ افريقيا الشرقية . وهذا الارتباط المثلث الزوايا ، سنشهده فيما بعد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ثم في جزر أمريكا .

وأخيراً ، يقتضي الأمر بناء المساكن . ومادة البناء الأساسية ، هي الطين الذي يجفف بحرارة الشمس ويكتوى في الأفران (2) وقد كانت لدى بغداد موارد كبيرة ومتعددة من الطين . ومن الطين (غير المكتوية) بنيت أسوار المدينة .

وأما قنوات المياه والمجاري ، فتستعمل لبنائها الطين المكتوية .

والطين المكتوية المطلية بالدهن الصيني اللامع ، وبالمينا ، تصنع منه أواني الفخار والخزف ، وطلاء الحيطان ذي الألوان الزاهية الذي اشتهرت به بلاد ما بين النهرين . ولكن الطين مادة غير متينة ، والمدن القديمة التي بنيت بالطين ، أصبحت الآن خراباً بلقعاً .

وأما الخشب ، فهو نادر في هذه المنطقة . وأما السفن التي تسير في دجلة والفرات ، فهي تشبه سلات مصنوعة من أغصان مفتولة مطلية بالقار الذي يستخرج من منطقة الكرك . وكذلك يقتضي الأمر استيراد الخشب (من أرمينية وسورية) الذي ينقل بواسطة تعويشه على مسطح خشبي يسحب ويكسر لدى وصوله إلى مقصدته . وحتى وقتنا هذا ، لا تزال هذه المسطحات التي تسمى كللاك (Kellek) بالأرمينية تستعمل للهبوط حتى أسفل ما بين النهرين .

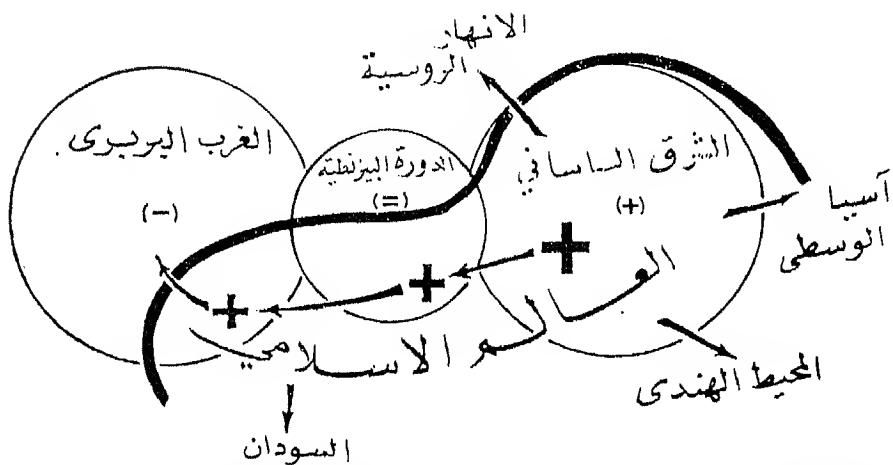
ولكن أنواعاً أخرى من الخشب ولا سيما الساج ، تصل إلى ما بين النهرين وإلى جميع المدن الواقعة على الخليج والبحر الأحمر ، من شواطئ ملبار .

وهكذا نجد أن منطقة ما بين النهرين مزدهرة المدن ، وتعيش على تراث من التقاليد القديمة ، ولها طريقة خاصة بها للحياة ولتدوين الفنون ،

---

2 - راجع : الماماش اسفله عن مباني مدينة بغداد . «المترجم» .

وتملك طرقاً تقنية متقدمة — وهي كلها أمور ذات صلة بالحياة في المدن .  
فكيف يكون تأثير العرب في كل ذلك ، يا ترى ؟



الشكل رقم ١١ - تطور المدن قبل ظهور العالم الإسلامي وبعده

جاء العرب إلى ما بين النهرين من الجنوب الغربي ، وعن طريق الصحراء التي تمتد حتى نهر الفرات . والعرب سيشيدون مدنهم الأولى على الضفة الغربية للنهر — الضفة « العربية » — . وهذه المدن تعتمد على الصحراء ، حيث تنطلق طرق الحجاج التي تؤدي إلى مكة والمدينة ، عند منتهى مناطق الرعي ، والسهوب والمناطق الزراعية التي تروي بمياه النهر وقنواته.

وهذه المدن الأولى ، كانت في مبدأ الأمر ، عبارة عن معسكرات محصنة . ولكنها سرعان ما تصبح مراكز جاذبة ، ومدنًا كبيرة غاصة بالسكان . فعلى مقربة من الحيرة ، عاصمة اللخميين (3) القديمة ، وقبل

3 - بنو لخم ، أو المناذرة ، من قبائل العرب ، أصلهم من اليمن ، رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسوريا وفلسطين والعراق . أسسوا الدولة الخمية في الحيرة ، وقد حاشت هذه الدولة في حروب متواصلة مع الفسستة ، اعتنقوا المسيحية ثم دخلوا في الإسلام بعد الفتح العربي واشتراكوا في معارك اليرموك ، وصفين ، وحملة يزيد بن معاوية على الحجاز . « المترجم »

القادسية (4) ، ستبني مدينة الكوفة . وعند البداية البحرية لما بين النهرين على شواطئ البحر ، وعند مدخل اليابسة التي تفصل الب Rahman عن ساحل الخليج ، ستقوم مدينة البصرة .

شيدت كل من مدينة الكوفة ومدينة البصرة في موقع كانت القرى والأديرة ومعابد النار منتشرة فيها ، ولكن هذه المنطقة لم تقم حتى الآن بأي دور سياسي أو اقتصادي يذكر .

والمدینتان اللتان شيدتا بعد دخول القوات العربية إلى ما بين النهرين مباشرة ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، في سنة (637 - 639 م) . تستشهدان أزدهاراً سريعاً قوامها عناصر السكان المختلطة من العرب والموالي والذميين . وبعد بنائهما بثلاثين سنة فقط ، سيبلغ عدد سكان الكوفة أكثر من 100,000 نسمة ، وسكان البصرة ، أكثر 200,000 نسمة . وهذا نمو نادر المثال في تاريخ تعمير المدن .

ستبلغ البصرة أوج عظمتها في العصر العباسي . فقد كانت البصرة مستودعاً كبيراً للتجارة مع المحيط الهندي ، وهي في نفس الوقت ميناء بغداد .

وتخدم البصرة عدد من القنوات المهمة التي تربط ضواحيها بالنهر . وعلى مقربة من باب البصرة الغربي يقع « مربض » محطة القوافل التي تتجه إلى السهوب العربية . وضفة النهر ، كانت مركزاً للأعمال التجارية ومحوراً لحياة ثقافية تدور حول المسجد ومكتبات المدينة العديدة .

4 - موقع بالعراق غربي النجف على بعد 18 كيلومتراً من الكوفة ، فيه وقعت المعركة الحاسمة (سنة 15 هـ) بين الجيش العربي بقيادة سعد بن أبي وقاص والجيش الفارسي بقيادة رستم ، وبعد هذه المعركة انفتحت أبواب الامبراطورية الساسانية أمام المسلمين . (المترجم)

وفي منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة ، شيدت مدينة واسط ( ومن هذا الوضع في الوسط اشتق اسم المدينة ) في سنة 695 ميلادية .

وكان الحجاج بن يوسف الذي أنشأ واسط يستهدف تركيز سيطرته على الكوفة والبصرة . وعلى كل حال ، فإن واسط هي المدينة الكبيرة الثالثة التي شيدت بين النهرين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي .

ولما قامت الدولة العباسية التي توجت حركة بدأت في حوالي سنة 750 م . في خراسان مقل التقاليد الإيرانية ، تركت دمشق المعروفة بولائها للأمويين ، خصوم بنى العباس ، لتبني عاصمة جديدة ، في الشرق . وقد وجد العباسيون في العراق بلدا غنيا بالموارد الطبيعية والتقاليد المدنية ، حيث كان هذا البلد واسطة لنقل التأثير بين العالم السامي والعالم الإيراني . وهكذا أصبحت بلاد ما بين النهرين ، من جديد ، مركزا للسياسة والحضارة .

ولما استقر الأمر لأبي العباس السفاح ، لم يختار الكوفة أو البصرة ليتخذها عاصمة له ، حيث أن نفوذ العلوين كان قد توغل في كلتا المدينتين الكبيرتين وإنما نزل على ضفة نهر الفرات ، وبالتحديد ، في الهاشمية ، قرب الأنبار ( الكلمة فارسية من أصل إغريقي معناها : مستودع الحبوب ) ، حيث تنفصل قناة تجري فيها السفن ، نهر عيسى ، تصعد الفرات بدجلة .

ولكن الخليفة العباسي الثاني ، المنصور ( 5 ) سيختار الطرف الآخر من نهر عيسى ، عند انفصاله عن دجلة ، لاقامة عاصمته ، بغداد .

5 - عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ، أبو جعفر المنصور 95-158 هـ . ثالث خلفاء بنى العباس ، كان أول من عنى بالعلوم من ملوك العرب ، كان عارفا بالفقه والأدب ، متطلعا في الفلسفة والفلك ، ولـي الخلافة بعد وفاة أخيه ، السفاح ، سنة 136 هـ ، وإلى جانب بغداد كان أيضا باني « المصيصة » و « الراقة » . وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونان والفرس ، وقد عمل أول استطول في الإسلام في عهده ، ولكنه يؤخذ عليه قتله لابن مسلم الخراساني 137 هـ .  
المترجم .

وأهمية نهر عيسى ، هو أنه كان ملتقى للتيارات التجارية الكبرى بين أعلى الفرات وأسفل دجلة . وذلك لأن الفرات ، بعد ما يمر بالأنبار ، يتحول تدريجيا إلى مستنقعات ، حتى يصل إلى البطائح ، حيث تنتشر مياهه بشكل يعوق الملاحة فيه . وبالتالي ، فإن أسفل دجلة ، هو أفضل للملاحة (6) .

تقع ببغداد عند ملتقى ثلاثة طرق للملاحة النهرية وطريقين يمتدان في اليابسة . وطرق الملاحة النهرية تؤدي إلى الشمال في أعلى دجلة ، إلى الموصل والى أرمينيا ، والى الشمال الغربي بواسطة نهر عيسى والفرات ، إلى سوريا ، والى الجنوب الشرقي ، عن طريق أسفل دجلة ، إلى الخليج والى المحيط الهندي . وأما الطرق البرية فتؤدي إلى الشمال الشرقي ، إلى ايران ، وآسيا الوسطى ، والصين ، والى الجنوب الغربي . نحو شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة في الحجاز .

وموقع بغداد ، مثل موقع البصرة ، كان مأهولا قبل الاسلام فقد كان يوجد فيه قصر محصن في عهد الساسانيين ، وجسر من القوارب يمتد على نهر دجلة وكذلك كانت تقوم في هذا الموقع قرية تتكون من أديرة مسيحية .

واسم بغداد يذكر بأصولها . فالأرجح أن هذا الاسم من أصل ايراني ، « بن داد » ، أي « هنة الله » . وأما اسم حيها التجاري الكرخ ، فهو من أصل أرمني « كركا » ، أي ، السوق . وببغداد قبل الاسلام ، نم يكن لها سوى دور محلي ، مثل كثير من المراكز القديمة التي كانت مأهولة ومنشية بغداد الحقيقي ، هو المنصور العباسي الذي سيطلق عليها اسم « مدينة السلام » .

---

6 - راجع الخريطة في آخر الكتاب .

بدأ العمل في بناء بغداد في سنة (154 هـ - 762 م) وقد جمع العمال من مختلف المناطق - كان يعمل في وقت واحد 100,000 عامل - وكذلك الفنانون والصناع . وهؤلاء العمال والصناع : هم السكان الأوائل للمدينة الجديدة (7) .

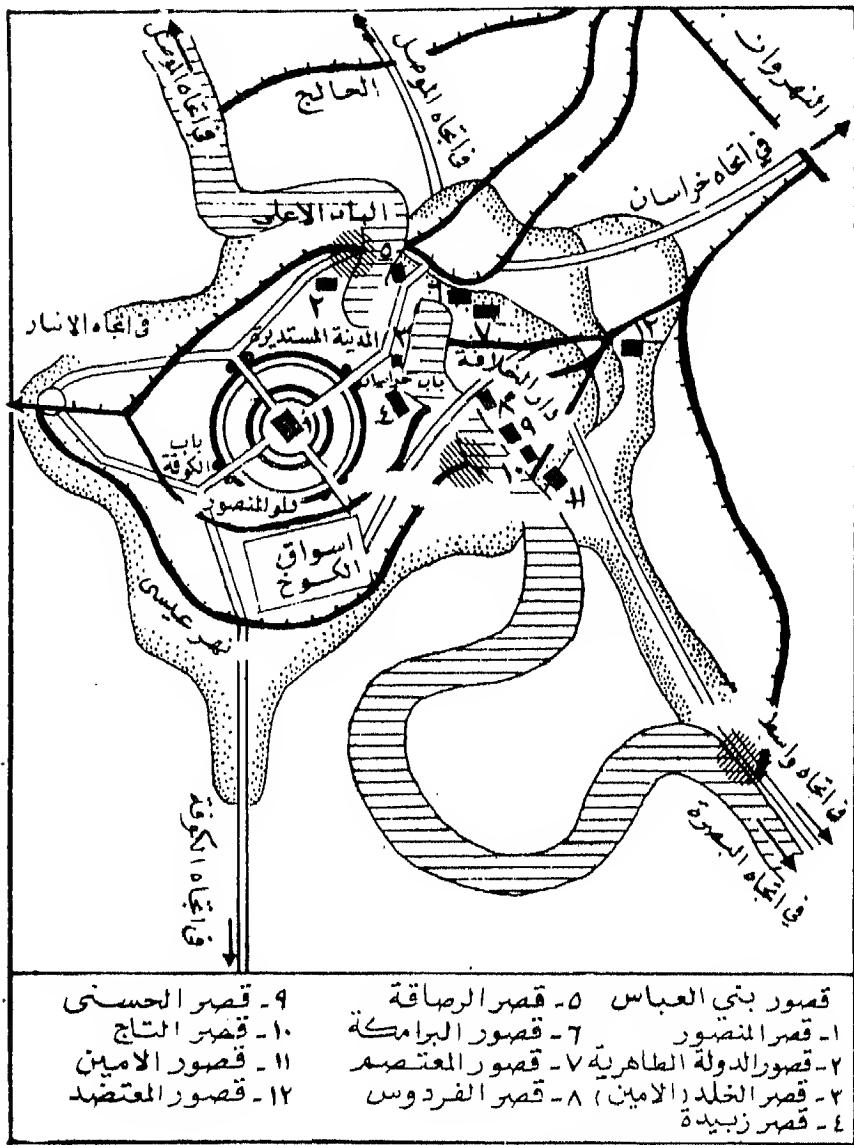
وفي ظرف أربع سنوات ، تم تشييد مدينة مستديرة باتظام حول قصر الخليفة والمسجد الرئيسي ، وتحيط بها أسوار . وبين هذه الأسوار تنتشر منازل الأفراد ومنازل المقربين من الخليفة . وقد حصنت المدينة بمتراس مزود بـ 360 برجا . وتقاطع المدينة أربعة شوارع كبيرة تتجه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ، ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي .

ومداخل المدينة عبارة عن أربعة أبواب أحاطت بعدها تحصينات وخصوصاً بخندق جلب إليه الماء من نهر عيسى ومن دجلة . والتصميم الدائري المعتمد لبناء بغداد تصميم مستوحى من الفن الشرقي لتخفيط المدن ويدركنا بتصميمه مدينة شهرستان (يزدجر ؟) وهو يختلف عن التصميم الهليني القائم الزوايا . وهذا الشكل الدائري أيضاً يجعلنا نذكر في التحصينات المستديرة التي تحاط بها مدن آسيا الوسطى ، وفي التصميمات المستديرة في مدن البرث . ففي مقابل مدينة سيلوسبي ، وهي مدينة هلينية ذات تصميم قائم الزوايا نجد مدينة اكتزيرون ، ذات التصميم المستدير .

ولكن المدينة المستديرة التي بناها المصور ، والتي نظمت فيها المتأخر تحت صفوف من الأقواس على طول الشوارع الأربع المقاطعة ، سرعان

7 - تعرض ابن سعيد المغربي « القرن السابع الهجري » للمر الموار المستعملة في مباني بغداد فقال إن معظمها مبني بالقصب والطوب ، والكبس والجبس يفسدها هواء المدينة فلا يكاد للحط يقع عليها في جميع مبانيها ، والرخام ينشق من الحر . « المترجم » .

ما اتصف صغرها وضيقها . وهذا الضيق اضطر المدينة الى التوسع في اتجاهين : نحو الجنوب الى حيث تمتد ضاحية الكرخ ، الذي تقع فيه المتاجر ، وحيث يمارس الصناع نشاطهم ; وفي الاتجاه الشرقي : وراء النهر الذي أقيم عليه جسر من القوارب لعبوره



الشكل رقم ١٢ - بغداد

وفي هذه المنطقة ، بني الحي السكني الذي تتوجه قصر الخليفة « دار الخلافة » . وهذه الحركة لتوسيع المدينة الى ضفة النهر الشرقية ، وقعت ابتداءا من سنة 768 ميلادية .

وبعد ذلك بثلاثين أو أربعين سنة ، في عهد هارون الرشيد والمؤمن ، ستمتد الرقعة التي تشغلاها مدينة بغداد على عشر كيلو مترات طولا في تسع كيلو مترات عرضا ، وهو ما يساوي تقريبا حدود مدينة باريس حاليا بشوارعها الخارجية . وهكذا أصبحت بغداد في ذلك العصر ، أعظم مدن العالم .

وفي سنة 836 ميلادية ، ترك الخليفة المعتصم العباسي (833 - 842) بغداد ، وانتقل الى سر من رأى ، التي تقع على مسيرة ثلاثة أيام ، ليتخذها مقرا له ، وهذه الحركة - هجرة ملك لعاصمته وخلق مدينة من القصور - تذكرنا بوضع فرساي من باريس .

وهذا التحول عن بغداد يفسره رغبة الخليفة في الابتعاد عن الضغوط والاضطرابات التي يحدثها الحرس الذي يتكون من الأتراك ، وعن الصخب والجلبة التي تسود في أسواق المدينة وقد ظلت سر من رأى مقر الحكومة خلال خمس وخمسين سنة (836 - 892 م) .

وفجوار قصر الخليفة ، ستقوم في سر من رأى مدينة مكتظة بالسكان . وفي سنة 892 ميلادية ، قرر الخليفة المعتمد ، للتخلص من ضغط الحرس التركي ، العودة الى بغداد ، الأمر الذي أدى الى توسيع المدينة الى الضفة الشرقية للنهر .

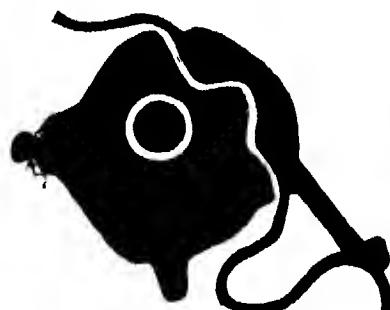
وبناءة تدهور مدينة بغداد ، تعود الى نهاية القرن العاشر الميلادي . وهذا التدهور سيتأكد في القرن الحادي عشر ، تحت السلجوقيين الأتراك ولكن وضع بغداد سينهار نهائيا اثر استيلاء هولاكو عليها في سنة 1258 ميلادية .



روما عاصمة الامبراطورية  
بالاسود؛ روما  
في القرنين ٩ و ١٠

القسطنطينية  
في القرنين ٩ و ١٠

باريس في نهاية القرن ١٩  
(بالاسود؛ باريس في القرنين ٩ و ١٠)



بغداد في القرنين ٩ و ١٠

### كلم لـ سـ نـ

الشكل رقم ١٢ - المساحة المقارنة لروما والقسطنطينية وباريس وبغداد  
خلال الفترة بين القرنين ٩ و ١٠

ولكن حركة بناء المدن وعميرها لا يقتصر في بلاد ما بين النهرين على مجموعة بغداد - سر من رأى حيث أنها تتضمن أيضاً المدن الموجودة في عصر الساسائين ، والتي تستشهد اتساعاً في الرقة ونموا اقتصادياً وبشرياً . فمن المدن التي شملتها هذه الحركة في خوزستان ( عربستان حالياً ) ، هو بلد قديم اشتهر بسدوذه الكبيرة وبوسائل الري التي سمحت بانتشار زراعة قصب السكر والقطن فيه ، تستر ، وسوس ، والأهواز .

وفي أعلى ما بين النهرين التي اشتهرت بزراعة القطن ، وفي حوض الخابور الكبير ، نجد أن من المراكز التي شملتها حركة تعمير المدن ، مدينة الموصل التي عرفت بمنسوجاتها الحريرية والقطنية الفاخرة ( التي أخذت منها كلمة موسلين (Moussline) باللغات الأروبية ) ، وبصناعة النحاس التي تستعمل المعدن الذي يستخرج من أرغاننا ، في أعلى دجلة .

والى جانب بلاد ما بين النهرين ، كانت أمبراطورية الساسانيين تشمل أيضاً ايران ، وهي بلاد ذات اتصال بمختلف المالك . فايران على اتصال بلاد الطوران (8) ، بلاد السهوب التي يجوبها الرجل من قبائل الآرال والآلطي التركية . فهذا العالم لا يعرف المدن ، اذا استثنينا مدن الآخرين التي يحمل الطورانيون في نهباً واحتلالها فالترك الرجل يواجهون المدن الايرانية تماماً كما يواجه العرب الرجل المدن السورية ومدن ما بين النهرين وهنا أيضاً سيسبق تسلب الأتراك مرحلة الفزوّات التي ستبدأ في القرن الحادي عشر الميلادي .

وإذا توغلنا في الاتجاه الشرقي ، فسنجد أن ايران على اتصال ، عن طريق سلسلة من الواحات ، بالحضارة الصينية : ففي هذه المنطقة يمر « طريق الحرير » الذي يفضي الى امتداد يقطنه سكان مقيموذن يعيشون على الزراعة .

ومن جهة الجنوب الشرقي ، تتصل ايران ، عن طريق ممر بامير (Pamir) الجبلي والهند والكتش ، بالهند ، وهي ذات حضارة قوامها سكان يعيشون على الزراعة .

وأبرز خطوط الخريطة الايرانية ، ليست هي الأنهر ومجاري المياه ، كما هي الحالة في بلاد ما وراء النهر ، بل هي طرق القوافل التي تربط

8 - اسم اطلقه الجغرانيون العرب على مقاطعة في بلوشستان . « المترجم » .

هذا البلد بـآسيا الوسطى والتي تخترق أطراف البلد . والفتح العربي الايراني ، سيكتسي طابعا خاصا يختلف عن الطابع الذي نلاحظه في مناطق أخرى . فبينما نجد العرب في بلاد ما بين النهرين يتمزجون بسرعة بالسكان الساميين أو المتأثرين بالقومات السامية والذين يتحدثون اللغة الآرامية ، نلاحظ أن ايران ، ستقاوم النفوذ العربي الاسلامي بتراوتها الدينية القديم : عبادة النار ، وديانة زرادشترا التي كانت متأثرة بالبوذية والمانوية .

ونحن قد رأينا ، كيف أن البرامكة الذين شغلو مناصب الوزارة تحت الخلفاء العباسيين الأوائل ، ينتمون إلى أسرة من الأمراء في بلخ ، وكانوا يخدمون ديرا كبيرا للبوذيين يقع في « نوبهار » « أو الدير الجديد » ، وهو اسم من اللغة السنسكريتية مشتق من فهارا (Vihara) « دير » ، وكانوا يسمون « برمك » ، أي الكهنة .

وهذا التحليل لوضع ايران القديم يسمح لنا بأن نفهم كيف أن ايران ، لما اعتنقت الاسلام ، اتخد الاسلام فيها شكلا خاصا ، وهو مذهب الشيعة . واذا كان كثير من الكتاب باللغة العربية من أصل فارسي ، فإن هذه الظاهرة لم تحل دون بقاء اللغة الفارسية على قيد الحياة ، ثم انبعاثها خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر .

كان الغزاة العرب في مبدأ الأمر ينزلون في أحياء جديدة تقام بجانب المدينة القديمة . وهكذا ألحق بالمدينة ( شهرستان بالفارسية ) ، ربع ( بيروم الفارسية ) ، يشتمل على حصن ومسجد وسوق وقد نشأت مدن مزدوجة وفي بعض الحالات تعايشت مدينتان متوازيتان احداهما قديمة والأخرى حديثة ، لا تبعد احداهما عن الأخرى الا ببعض كيلو مترات ( مثل بلخ وبروقانا وبخارى وسمرقند ) .

وفي مرحلة تالية ، ( في عهد العباسين ) ستندمج هذه المدن المتوازية في مدينة واحدة وتصبح « شهرستان » مركزاً السلطة وتشتمل ، هي الأخرى ، على مسجد كبير وسوق . وهذا معناه ، تحول العرب الغزاة نحو المراكز المدينة الفارسية الأصلية .

ونمو العمران في المدن ، يفترض توفر وسائل الري ( مثل الطرق التقنية المعقّدة التي تمثلها قنوات الري التي تشق تحت الأرض ) . ومن جهة أخرى ، فإن تنظيم الدفاع ضد غارات الأتراك الرحل يتطلب إنشاء مراكز عسكرية ، « الربط » وبناء أسوار حول المدن الكبيرة وضواحيها المزروعة لحمايتها ولحماية قرى المزارعين . وهكذا نجد أسواراً محصنة على مئات الكيلو مترات تمتد بين بخارى وسمرقند وبلغ — تلك الأسوار التي تذكرنا بأسوار هي أقوى وأعظم ، بناها الصينيون لصد غزوات نفس الطورانيين الأتراك .

واتساع العمران في ایران ، كما في غيرها من البلاد ، يرتبط بازدهار التجارة في العصر الإسلامي ، تلك التجارة التي كان يمارسها كبار التجار الذين يكسبون ثروات طائلة من تسيير القوافل .

والمدن المزدهرة العمران ، هي المدن ذات المواقع الملائمة للتجارة : فان سمرقند مدينة تدين بازدهارها لموقعها الذي تسيطر منه على ملتقى طرق القوافل الآتية من الهند ومن ایران . وبروثولد ( Berthold ) ، يقدر عدد سكان سمرقند في عهد السامانيين ( القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ) بحوالي نصف مليون نسمة (9) . وقد كان بناء سمرقند شامخاً عظيماً حيث كانت تحيط بها أربعة أسوار تضم على التوالي : جميع منطقة الواحات المزروعة ( الحائط الطويل ) ، والضواحي والمدينة ( الحائط

---

9 - راجع : Turkestan down to the Mongol invasion, 2<sup>e</sup> éd. London 1928 (Gibb memoria series. New ser. V), p. 22.

الأكبر الذي ينفتح منه بابان ) ، وقلب المدينة ( شهرستان ) ، الذي تنفذ إليه أربعة أبواب وأخيراً ، مركز المدينة ، أو القلعة . وهذا التصميم يذكرنا بتصميم مدينة بغداد . وتمد المدينة بالماء شبكة معقدة من القنوات . وأما شوارع المدينة فهي مفروشة بالحجر ، ومزينة بالقوارات والأحواض المصنوعة من النحاس ، مما يشهد بقرب مناجم النحاس من المدينة وبعقرية الفنانين الذين يعملون في هذا المعدن .

وفي المدينة حدائق عمومية ، تقوم فيها أشجار السرو التي يقول ابن حوقل أنها شذب بطرق فنية تمثل أشكالاً غريبة : الجياد ، والثيران ، والجمال والحيوانات الوحشية التي يواجه أحدها الآخر ويحترس منه ثم يدخل في قتال معه .

وهذه موضوعات فنية تذكرنا بطراز الفن السائد في السهوب .

#### ممتلكات بيزنطة القديمة :

تشمل الممتلكات البيزنطية التي فتحها المسلمون : سوريا ومصر .

لنبأً أولاً ، بسوريا . يمكن تقسيم المدن السورية إلى ثلاثة فئات : أولاً ، المدن الداخلية التي كانت في حالة تدهور في العهد البيزنطي ، والتي ستبث وتدب فيها الحياة في العصر الإسلامي ، بفضل الدور الذي تقوم به كمحور للاتصالات مع بلاد ما بين النهرين .

وثانياً ، الموانئ التي احتفظت بنشاطها في عهد بيزنطة ، وستشهد حدة في هذا النشاط في العهد الإسلامي .

وأخيراً ، المدن الواقعة على الحدود السيليسية والتي تسيطر على ممرات جبال طوروس ، وستدخل ، باستقرار الأوضاع على الحدود ،

في عهد من السلام : فأما المدن التي تهدمت نتيجة لهجمات البيزنطيين المضادة ، فسيعاد بناؤها في العصر العباسي ، وذلك في الوقت الذي أنشئت فيه حصون جديدة في المنطقة .

تعتبر دمشق نموذجاً لطراز المدن الداخلية ، التي تمثل واحات على ضفاف نهر بردي الذي ينبع في سهول البداني . وهي عبارة عن سوق يجري فيها التبادل التجاري بين البدو الذين يجوبون السهوب الصحراوية ( بادية الشام ) . ودمشق مدينة آرامية قديمة أصبحت تواماً لمستعمرة بناتها اليونان في العصر الهليني ، وقد كانت تموئلاً للجيوش الرومانية بالقمح .

وفي عهد يزنة انحط وضع دمشق وتدهر عمرانها ، حتى كان البدو ينتجعون ضواحيها . ولكن المدينة تبعث وتسرى فيها الحياة من جديد ، حينما وقع اختياربني أمية عليها لتكون عاصمة لملكتهم . وقد كان دور دمشق الأساسي ، مثل الكوفة ، السيطرة على الحضر دون قطع العلاقة مع البادية . وكذلك كان خلفاءبني أمية يحرصون على الاستمتاع بما توفره المدن من وسائل الراحة وألوان التسلية التقليدية التي توفرها الصحراء ، مثل الصيد .

أقيم المسجد الكبير ، والى جانبه قصر الملك « الخضراء » في قلب المدينة القديمة التي لن تثبت أن تحاط بعدد من الأحياء والضواحي التي ستصبح مسرحاً لنشاط كبير .

وكان خلفاءبني أمية قد عمدوا الى اعادة اشتقاء القنوات من بردي وتحويتها ، والى اعادة توزيع الحقوق في الماء في جميع هذه الواحة . وهذه السياسة ، كان من تنتائجها زيادة المساحات المزروعة وظهور قرى جديدة انتشرت فيها زراعة البقول .

وفي أوائل القرن الميلادي ، أضيفت بنايات عظيمة جديدة إلى المسجد الأصلي الذي أصبح يعرف بجامع الأمويين . وقد استخدمت في حركة البناء يد عاملة استجلبت من مختلف المناطق ، كما استعملت الفسيفساء المحلية والفصيوفاء المستوردة من بيزنطة .

وكذلك نجد أن عصر ازدهار دمشق هو العصر الذي كانت فيه عاصمة الخلافة — خلافة بنى أمية . ولما استولى عليها العباسيون في سنة 750 ميلادية ، هدموا أسوارها واعتذروا على حرمة قبور بنى أمية . وأثر ذلك تدهورت دمشق وانحكت إلى مستوى مدن الريف . ومع ذلك ، فهي تستظل مدينة خاصة بالسكان ومركز النشاط للاتصال الزراعي وللصناعات اليدوية . وسيطّل برقوم دمشق وعنها ومشتملها ، فواكه ذات شهرة خاصة . وكذلك المربي التي كانت تصنع من هذه الفواكه وتصدر إلى الأقطار البعيدة . ونفس الشهرة سيمتنع بها الفولاذ والنحاس المعمول في دمشق ( الدمشقي ) ، وكذلك الأقمشة الدمشقية التي تصنع من الحرير والقطن .

والى جانب دمشق ، ينبغي أن نذكر مدينة القدس ، التي هي مركز ديني وتعيش خصوصاً على نشاط الحج ، حيث كان يقصدها اليهود والمسلمون والسيحيون . وكذلك ينبغي الا تنسى الاشارة إلى حمص وحمادة الواقعتين في وادي العاصي ، وخصوصاً إلى انطاكيه وحلب .

ومن أهم موانئ سوريا ، ميناء السويدية وميناء انطاكيه واللاذقية وأما الموانئ الفينيقية القديمة : طرابلس ، وجبيل ، وصيدا ، وصور ، وعك ، فستبعث فيها الحياة ويُسرى فيها النشاط في العصر الإسلامي . وستبني لها أرصفة جديدة وحواجز لصد الأمواج . وقد شهدت تقنية البناء والتشييد تحت مياه البحر تقدماً كبيراً يشهد به وصف الجغرافي العربي ، المقدسي ، عند وصفه لميناء عككة في القرن التاسع الميلادي .

وأما المدن الواقعة على الحدود السليبية ، فهي تعرف باسم «الشغور» . وحراسة ممرات طوروس التي تتطلب حملات عسكرية متواصلة كان العامل الأساسي في قيام هذه المدن والمحصون ، تدمر ثم تبني ويجلوا عنها السكان ثم تعم من جديد . فهذه المدن مراكز كبيرة للاستهلاك ، لأن أسواقها التي تموّن الجيوش ، في حاجة دائمة إلى الرجال والخيول والمواد الغذائية والملابس والأسلحة ومواد البناء . والميزة الأخرى التي تميز هذه المدن : اختلاط العناصر فيها . فقد كان يتعايش فيها جنبا إلى جنب زنوج وصقالبة و airyaniون وأرمانيون وغير هؤلاء من الأجناس . وحياة الحضر في طرسوس وأطنه ومصيصة ، تكتسي طابعا خاصا . وهنا أيضا ينبغي أن نسجل حركة مهمة للتوسيع العمرياني ، استمرت على الأقل ، حتى النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، وهي القرية التي كان الامبراطور نيسفور فوكا (Nicephore phocas) يشن فيها حملاته في هذه المنطقة .

وفي مصر التي تشكل الجزء الثاني من الممتلكات البيزنطية نستطيع أن تتبع ، بفضل أوراق البردي ، تفاصيل التطورات التي تلت الفتح الإسلامي لهذا البلد . وفي المرحلة الأولى شاهد بطاقة عملية امتداد أساليب الحياة الريفية إلى المدن — تلك العملية التي بدأت في أوآخر العهد البيزنطي . وفي المرحلة التالية نلاحظ توقيف هذه العملية .

فإن الفتح الإسلامي سيحمل نظاما اقتصاديا يقوم على تبادل تجاري واسع النطاق ، محل نظام اقتصادي لم يصبح بعد ريفيا خالصا ، ولو أنه يتوجه إلى ذلك . وهذا التغيير في النظام الاقتصادي الذي تشهد به المعلومات المستقاة من الجغرافيين والسياح ، سيرافقه ، بطبيعة الحال ، ازدهار العمران في المدن — ذلك الازدهار الذي نستطيع إعادة تركيبه بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون ، وبتحليل الوضع الطبوغرافي الذي تحمله مدينة القسطنطينية (القاهرة القديمة) التي بنيت على فترات متعددة .

كانت تتحل موقع الفسطاط قبل العصر الاسلامي ، مدينة صغيرة اغريقية رومانية تسمى بابليون : وموقع هذه المدينة ، هو الحي الذي يحمل في الوقت الحاضر اسم « قصر الشام » في القاهرة القديمة . واسم بابليون ، مشتق من اسم محلی مصری أهمله العرب ، ولكن الاقباط ظلوا يستعملونه . والكلمة تهجاً بطرق مختلفة « بابليون » وبابلوان ، وبابلوانية » في الوثائق الاروبيّة القديمة التي تذكر القاهرة بهذا الاسم .

ومهما يكن من شيء ، فان بابليون مصر ، عبارة عن قلعة وموقع استراتيجي عند افتتاح دلتا النيل ، فهي تسسيطر على الطرق المؤدية الى سوريا ، والطريق المؤدية الى الغرب نحو افريقيا والمغرب والتي تتجنب مرحلة الدلتا التي تعوق المسافرين بأذرعها الكثيرة والقنوات العديدة التي تتفرع عنها . وعلى العكس مما يصادفه المسافر من الصعوبات اذا أخذ طريق الدلتا ، فهو هنا يقطع عند جزيرة الروضة ، نهر النيل عن طريق جسرین مصنوعین من القوارب . ومن جهة أخرى ، فان قناة تنطلق من هذا الموقع في اتجاه البحر الاحمر اتخدت أسماء متعددة في مختلف المهدود كانت تسمى نهر تراجان (Trajan's Amnis) عند الرومان ، وتسمى « خليج أمير المؤمنين » في العصر الاسلامي .

والى جانب هذه الطرق ، ينبغي أن نضيف طريقاً نهرياً في النيل يمتد من الشمال الى الجنوب ، ويربط مصر العليا بالدلتا

وموقع القاهرة ، على التحديد ، يتكون من ضفة منخفضة يشملها الطمي وهي عبارة عن سهل تمتد حتى جبل المقطم الذي يسمى جبل يشكور . وكانت توجد في هذه السهل بعض المستنقعات « بركة » التي جففت فيما بعد ، وأصبحت مناطق صالحة لاتتاح البقول .

والقاهرة ، من الناحية التاريخية ، عبارة عن عدة مدن متتالية وبعد بابليون ، أنشئت مدينة الفسطاط ، التي تولدت عن الفتح الاسلامي .

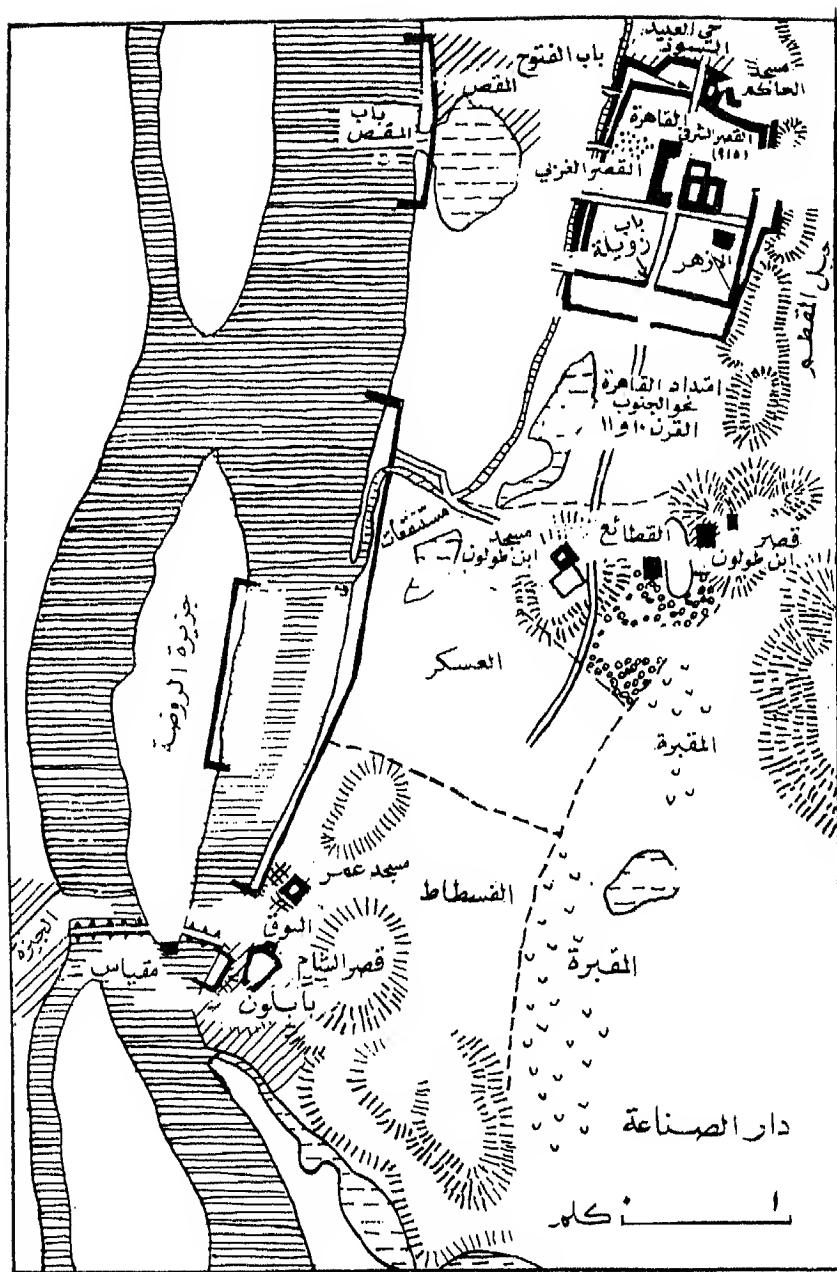
بني عمرو بن العاص (10) قائد الجيش الاسلامي الذي فتح مصر مدينة الفسطاط في سنة 641 ميلادية وقد اتخذت هذه المدينة التي تقع في شمالي المدينة القديمة في مبدأ الامر شكل معسكر . وكلمة الفسطاط كلمة معربة من فوساطون (Byz-Fossaton) فوساطم (Latin-Fassatum) ومعناها : خيمة عسكرية ، أو على الأرجح ، خندق دفاعي . وتاريخ الفسطاط ، شاهد واضح الدلالة على تطور معسكر وتحوله الى مدينة .

طلت الادارة العامة والأعمال الكتابية باللغة اليونانية التي يقوم بها الأقباط ، حتى القرن الثامن الميلادي ، في بابليون . ولكن في عهد عبد الملك ، وقع تغيير حاسم ، بدخول اللغة العربية الى الادارة وبظهور النقود الاسلامية . وكذلك قام مركز مدني اشتمل على مباني عمومية في الفسطاط . وكذلك بني مستودع ودار للصناعة وميناء وغير ذلك من المنشآت التي تشهد بانتشار نمط الحياة السائدة على ضفاف النهر وتعزز القاعدة الأولى التي بناها عمرو بن العاص والتي كانت تشتمل على مسجد كبير (مسجد عمرو ) ، وقصر الحكومة « دار الامارة » ، وسوق .

وفي سنة 749 - 750 ميلادية ، بنيت مدينة جديدة في شمالي الفسطاط أنشأها قواد بني العباس الذين يلاحقون آخر خلفاء بني أمية . وهذه المدينة التي تسمى « العسكرية » تشتمل ، هي الأخرى ، على قصر الحكومة ومسجد بني بجانب سوق .

---

10 - عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي ، ابو عبد الله ( 50 ق هـ - 43 هـ ) أحد كبار القواد ودهائهم ، كان شديدا على الاسلام في الجاهلية وبعد ما اسلم في هذه الحديبية ، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم امرة جيش « ذات السلاسل » ، ثم استعمله على عمان ، وقد كان من أمراء الجبوش في الجهاد بالشام في عهد عمر ، وهو الذي افتتح قنرين وصالح اهل حلب ومندرج وانطاكية ، ولاه عمر فلسطين ، لم مصر التي انتخها ، وعزله عثمان ، ولا وقت الفتنة بين علي وعمر ، وقف في جانب معاوية . ولما انتصر معاوية لاه مصر في سنة 38 هـ ، « المترجم » .



الشكل رقم ١٤ - الفسطاط - القاهرة

وفي سنة 872 ميلادية ، قام ابن طولون الذي كان والياً لبني العباس اسماً ، ولكنه مؤسس مملكة محلية مستقلة ، ببناء قصر عظيم عند قدم جبل المقطم ، ثم في سنة 875 م ، بتشييد مسجد كبير على جبل يشكر ، وهذا المسجد بني بأسلوب معماري متأثر بالفن الذي يسود مباني سمراء الذي كان هو الآخر متأثراً بالفن الزيجوري القديم الذي كان سائداً فيما بين النهرين .

وكذلك بني ابن طولون ملعباً للخيول « ميدان » تمارس فيه لعبة رياضة على متن الخيول بمضارب طويلة وكرة خشبية ( البولو ) .

وقد كمل هذه المنشآت العمرانية باجراءات بتوزيع الاراضي بين ضباط الجيش والحاشية . ومن هذه الاجراءات بقيت لدينا كلمة « القطاعي » ، أي التنازل عن قطع الارض للمدينة الجديدة .

وأخيراً ، ظهرت القاهرة في عهد الفاطميين الذين غزوا مصر من شمال افريقيا عن طريق الواحات .

وقد شيدوا المدينة الجديدة في شمال المنشآت القائمة ، فبنوا جامع الأزهر ( في سنة 972 م ) ، وأطلقوا عليها الاسم الذي تحمله اليوم « القاهرة » . وفي غضون السنوات التالية ، ستشهد المدينة نمواً وازدهاراً كبيراً ، خصوصاً بما اشتغلت عليه من المباني الرسمية . وستشهد القاهرة أعظم عهودها خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الحادى عشر الميلادى ، وهي الفترة التي وسعت فيها مبانيها حتى أصبحت تتصل بالقطاعي ، وكان سكان المدينة حينئذ يبلغ عددهم نحو 500.000 نسمة .

ولكنه ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادى عشر ، أخذت الحياة العمرانية في المدينة تتدهور ، اثر الاضطرابات التي وقعت في عهد المستنصر ( 1035 - 1094 م ) وكانت المجاعة التي وقعت في القاهرة

في سنة 1054 م . ونهب الجنود قصور الفاطميين في سنة 1060 م . من الحوادث الحاسمة في تاريخ انحطاط القاهرة . وبعد ذلك ظهر ما يعرف باسم « الخراب » . أي تحول مناطق عامرة إلى صحراء ، وأخذت الشقة التي تفصل بين القاهرة والفسطاط تزداد اتساعا مع مرور الزمن ، حتى وقع حريق في سنة 1168 م ، خرب الفسطاط . ومنذ ذلك الحين ترك مصير المدينة في القاهرة الحقيقة ، عاصمة البلاد .

### ممالك الغرب الخاصة للبرايرة :

تشمل هذه الممالك ، افريقيا الشمالية واسبانيا وصقلية .

شهدت افريقيا الشمالية التي تشكل الجزء الاول من هذه المنطقة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، توفر الشروط العامة الضرورية لقيام حركة مهمة لتجدييد العمران في المدن . وقد عرفت هذه الفترة ازدهارا كبيرا يقوم خصوصا ، على تجارة العبور ( الترازيت ) بين الاطراف الغربية للامبراطورية والشرق الاسلامي وبين اسبانيا وصقلية البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا ، وفتح جزيرة صقلية في عهد الأغالبة ، والملكة الاسلامية والسودان والصحراء ، وعلى تجارة المرور ( الترازيت ) عبر الصحراء . وفي مقابل ما تتلقاه افريقيا الشمالية من السلم ، كانت تضمن توغل أنماط الحياة المدنية من شمال الصحراء ( سجلماسة وورجلة ، ومزاب ) حتى ضفاف نهر النيل .

وقيام مدن مثل فاس والقيروان ، يتصل اتصالا وثيقا بهذه الواجهة الجنوية لتجارة المغرب ، وبازدھار محطات القوافل التي تقع على طرق الذهب والعيديد .

بعد نجاح غزو افريقيا الشمالية ، على الرغم من مقاومة البربر في الداخل ، أنشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة 670 ميلادية . وكان تخطيط المدينة على أساس كونها مدينة دفاعية ، كما يدل على ذلك

اسمها . وقد قامت القิروان في موقع استراتيجي هام ، عند مدخل الصحراء ، وعلى طرف السهوب و « الشطوط » التي تمتد في جنوب تونس .

والقิروان تسيطر — مثل الكوفة ، ودمشق ، والفسطاط — على طريق كبيرة تمر بالواحات ويمكنها متى أرادت حمايتها أو قطعها طريق الواحات هنا ، هي التي تمتد إلى مصر .

استولى الخوارج خلال الثورة التي قاموا بها في منتصف القرن الثامن على القิروان عدة مرات وهمموا أسوارها . وفي سنة 772 م ، أعيد بناء السور الذي يحيط بالمدينة ، كما أعيد بناء مسجدها . واعادة بناء المنشآت المهمة في المدينة كان ، كما يقول المؤرخون ، مقدمة للتوسيع الكبير الذي ستشهد في عهد الأغالبة « 800 — 909 م » . ففي هذا العصر سيقام عدد من الخزانات والصهاريج التي يمدتها بالماء خط من القنوات يمتد على 25 كيلومتر . وكذلك أعاد الأغالبة بناء مسجد القิروان الذي أصبح ضيقا — وهو دليل ، كما هي الحالة في دمشق وقرطبة ، على كثرة سكان المدينة . وفي نفس الوقت ، أشئت في ضواحي المدينة كثير من مراكز العمارة ، وهي عبارة عن سلسلة من المدن المجهزة للسكن والقصور التي سرعان ما زوالت بأسواق وأصبحت عامرة .

وفي سنة 800 — 801 م ، بني في الجهة الجنوبيّة الشرقية « القصر القديم » أو « العباسية » — باسم الخليفة العبسي — حيث استقبل سفراء شرمان . وهي عبارة عن مدينة جديدة كبيرة أحاطت بأسوار وكان لها خمسة أبواب وجهزت بالحمامات والفنادق والأسواق ، وشيد فيها مسجد على غرار مسجد سر من رأى ، وزوالت بملعب للرياضة على متن الخيل . وعلى الرغم من أن الامراء هجرواها في سنة 877 م ، فإن العباسية ظلت مدينة عامرة .

وفي سنة 876 - 877 م ، شيدت مدينة جديدة ، رقادة ، في الجنوب الغربي من القิروان ، التي يبلغ قطرها أكثر من عشر كيلو مترات . وقد جهزت المدينة بفضاء واسع من الحدائق والاجنة والميادين العمومية .

ولما سقطت دولة الأغالبة عقب استيلاء الفاطميين على القิروان ، قام جيرانها من سكان القิروان بنهايتها حسدا لها وغيره منها .

وفي سنة 948 - 949 ميلادية ، أنشأ الفاطميون مدينة ثالثة في شرق القิروان ، وهي صبرة المنصورية ، باسم المنصور الفاطمي ، اثر وقوع ثورة في مدينة القิروان . وكان لهذه المدينة خمسة أبواب ، وكان دخل كل باب منها 26 ألف درهم من الرسوم والمكوس في اليوم .

وكما حدث في سر من رأى ، فقد ترك الخليفة عاصمته المضطربة ليتجأ إلى مدينة في الضواحي ، التي كانت في بداية الأمر مدينة قصور ، ولكنها لم تثبت هي الأخرى ، أن أصبحت مدينة تجارية . ولكن صبرة ستدمج في مرحلة تالية في القิروان ويشملها سور هذه المدينة الذي وسع محیطه . وهذا مثال لتنوع المدن نتيجة لتضخم العاصمة ، ثم ضم مدينة الضواحي إلى المدينة الرئيسية ، كما حدث للفسطاط ولقرطبة .

ومدينة فاس ، مثال بارز لادخال حضارة تعتمد على المدن من النوع الشرقي ، إلى مجتمع ببربري يقوم على نمط الحياة السائد في الارياف . وهذه المدينة التي تمتاز بأسوارها وأحياءها وصناعتها وبوجود طبقة حضرية فيها « الفاسي » تضم سكاناً ينتمون إلى أصولين مختلفين : المهاجرين الذين أبعدوا من قرطبة عقب ثورة قام بها سكان أحد أحيائها ، والمهاجرين القิروانيين الذين كانوا وقتاً ما يشكلون حرس أمراء افريقية ثم تخلص هؤلاء منهم فيما بعد .

وهكذا، انقسمت المدينة التي قامت على وادي فاس الى شقين . عدوة الاندلس ، وعدوة القرويين ، لكل منها مسجد كبير وأسوق : بل ودار لصنف النقود .

وسحر مدينة فاس ، يعود ، خصوصا ، الى توفر الماء بغزاره فيها .  
فإن القنوات العديدة المشتقة من وادي فاس ، تتغلب مياها إلى كل منزل من منازل المدينة ، ذات الصحنون الواسعة والمزينة بالنبات والرياحين

وشوارع المدينة مبلطة . وكل يوم ، كما يقول الجغرافي ابن حوقل (القرن العاشر) ، تطلق مياه نهر فاس على أسواقها لتنفس الأرض وتتعشّج الجو . وكذلك تجري المياه في عشر حمامات عمومية وتسير ثلاثة طاحونة . وقد شهدت فاس نموا سريعا ، فكان عدد سكانها في نهاية القرن العاشر وببداية القرن الحادى عشر يبلغ 100,000 نسمة .

وهذه هي الفترة التي يرجع إليها تاريخ البصرة التي تقع في شمال المغرب الأقصى . وهذه المدينة غفت آثارها ولم تبق يد الدهر منها إلا على بعض أجزاء سورها . وأسوار البصرة مبنية بحجارة غليظة ومزودة بأبراج شبه مستديرة ، وهذا النوع من الأبراج من مميزات الفن العباسى ، وقد وصل إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر وأفريقية .

ومن المدن الأخرى التي شيدت في هذا العصر ، مدينة وجدة التي بنيت في سنة 994 ، وايغلي التي بنيت في القرن التاسع الميلادي في السوس الأقصى . وهذه المدينة ترتبط بمحطات القوافل التي تسير عبر الصحراء . وأخيرا ، مدينة مراكش التي شيدتها المرابطون الذين جاءوا من الجنوب .

وهذه المعالم التي وضعت في أزمنة متقاربة ، ذات دلالة هامة في تاريخ العمران في المدن الإسلامية . وهي تعطينا فكرة واضحة عن التجديد

الذي لحق الحياة في المدن وعن ازدهار العمran فيها . وهذا الازدهار ، يتصل ، بطبيعة الحال اتصالا وثيقا بحدة العلاقات التي تربط المغرب بالشرق والأندلس وصقلية ، وخصوصا ، بافتتاح آفاق جديد للتجارة مع بلاد السودان ، عالم الذهب والعيدي ، عن طريق الصحراء .

ومن جهة أخرى ، فان ازدهار العمران في المدن ، يرتبط بتوسيع ديموغرافي قوي . فقد كانت بلاد البربر في العصور الوسطى العليا مستودعا للاحتياطي من الرجال ، كما يشهد بذلك استعمار أصحاب الجمال من البربر للصحراء ، وفتح اسبانيا وفتح جزيرة صقلية في عهد الأغالبة ، ثم غزو مصر وسوريا في عهد الفاطميين بجيوش من أصل بربري .

ونمو حركة العمران في المدن في اسبانيا ، يخضع لنفس الاعتبارات العامة ، مع تحفظ واحد ، وهو أن قائمة المدن التي شيدتها المسلمين أقل طولا ، وازدهار العمران فيها يقوم على النمو المعتبر الذي شهدته مراكز العمران القديمة التي انبعثت الحياة فيها بعد أن تضعضعت وتوقف نشاطها في عصر البربرة . وفي مقدمة هذه المراكز مدن المناطق الجنوبية التي يرويها النهر الاعظم (Guadalquivir) وهي قرطبة ، واشبيلية ، وقادس ومالقة ، والمدن الواقعه على نهر التاج ، طليطلة ، وأشبونة (لشبونة) ، ومدينة ابرة ، سرقسطة .

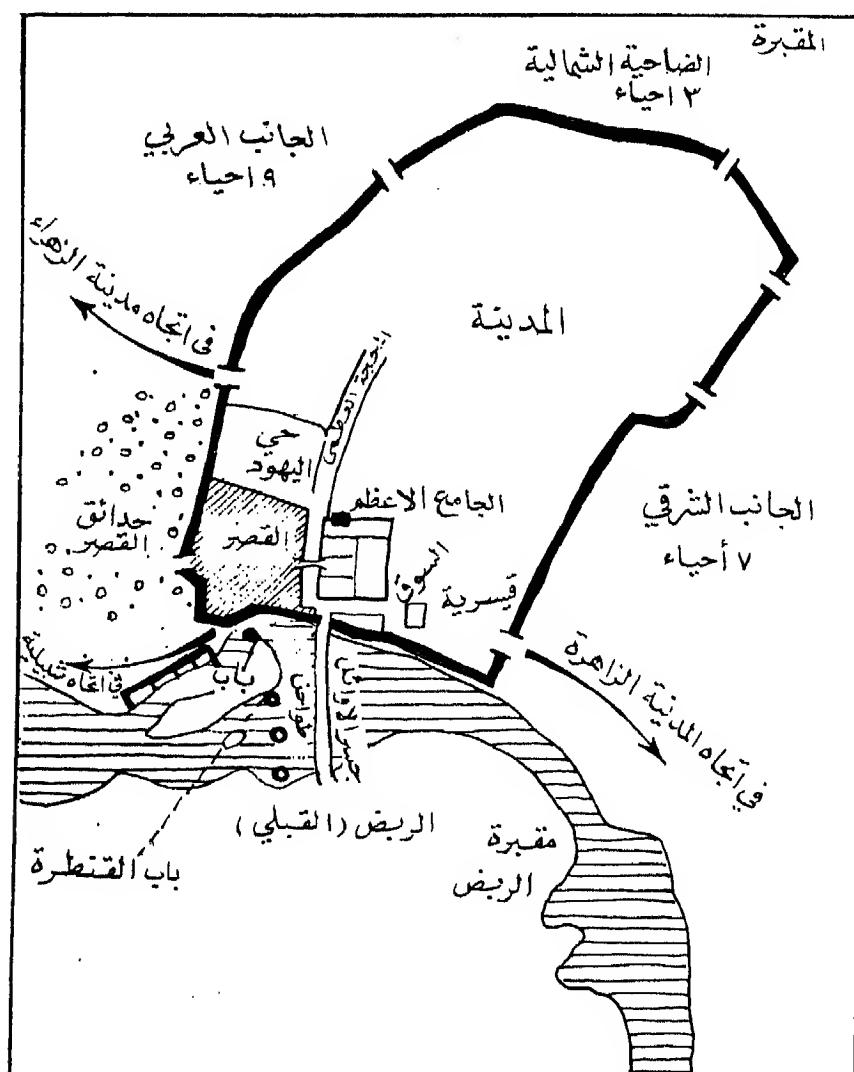
وكما سبق أن ذكرنا ، فان المدينتين الوحدين اللتين كانتا حقيقة من انشاء المسلمين — وانشاؤهما ذو مغزى كبير — هما الميناءان اللذان يحتويان على دور لصناعة الأسلحة ، والتتابعان لمملكة قرطبة ، وهما : المرية ، أو (برج المراقبة) في البحر الايبيض المتوسط ، وقصر أبي دانس الذي يقع على بحيرة شاطئية ، تواجه المحيط الاطلسي والمدينتان بنيتا في وقت متقارب ، بعد استيلاء أوائل ملوكبني أمية على الحكم في الاندلس . وبقيام هاتين المدينتين ، افتتحت التجارة في اسبانيا الاسلامية ،

ف نفس الوقت على البحر الايضاً المتوسط ، وعلى المحيط الاطلسي .  
ومع ذلك ، فاذ المرينة التي بنيت في سنة 706 م ، كانت أهم المدينتين .  
فقد كانت هذه المدينة ، الى جانب كونها ميناء ، مركزاً نشطاً للتجارة  
وتأوي مختلف الصناعات كما تشهد أسواقها ومعارضها التي يتردد ذكرها  
في الفرنسيّة القديمة . وكانت تصنع في المرينة أنسجة الحرير التي  
يستعمل فيها الحرير الخام الذي تتوجه منطقة البشرات (Alpujarras)  
وهي منطقة جبلية تمتد خلف المدينة . وفي المرينة أيضاً تقع أحواض  
كبيرة لبناء السفن كانت سبباً في نمو صناعة الخشب والحديد والقماش  
الذي تصنع منه أشرعة السفن .

ولكن الظاهرة الكبرى في نمو العمران في شبه جزيرة ايبيريا المسلمة ،  
هي بدون شك ازدهار قرطبة ونشاطها العبراني . فان عاصمة جنوب  
اسبانيا في عهد الرومان (Corduba) ، لم تكن شيئاً يذكر لدى وصول  
المسلمين الى الاندلس في أوائل القرن الثامن الميلادي ، لأن المدينة الكبيرة  
في ذلك العصر – ان صح استعمال هذا التعبير – كانت هي طليطلة ،  
عاصمة ملوك القوط . ولكن موقع قرطبة كان ملائماً . فان جسراً رومانياً  
بني على الوادي الاعظم عند هذه المدينة ، يشكل حداً ونهاية للسلاحة  
في النهر . وفي سنة 719 ميلادية ، اتقل الوالي السادس للخلفاء الأمويين  
في دمشق من اشبيلية الى قرطبة ، حيث شرع في أعمال البناء الاولى :  
بناء سور حول المدينة واصلاح الجسر القديم وبناء طواحين على رصيف  
تستعمل التيار المتولد من ماء النهر .

وفي هذا العهد ظهرت الضاحية التي تمتد في جنوب المدينة حيث خطت  
المقبرة الاسلامية . وفي غضون الأعوام التالية ، ستشهد المدينة تطويراً  
ونموا سرياً : فقد ضاق بها السور وامتدت نحو الشمال والشرق والغرب ،  
بينما استمرت ضاحيتها في الامتداد الى الجنوب .

وقد شهدت قرطبة أوج ازدهارها في غضون القرن العاشر الميلادي ،  
وخصوصاً في عهد الحكم الثاني وهشام الثاني .



الشكل رقم ١٥ - قرطبة

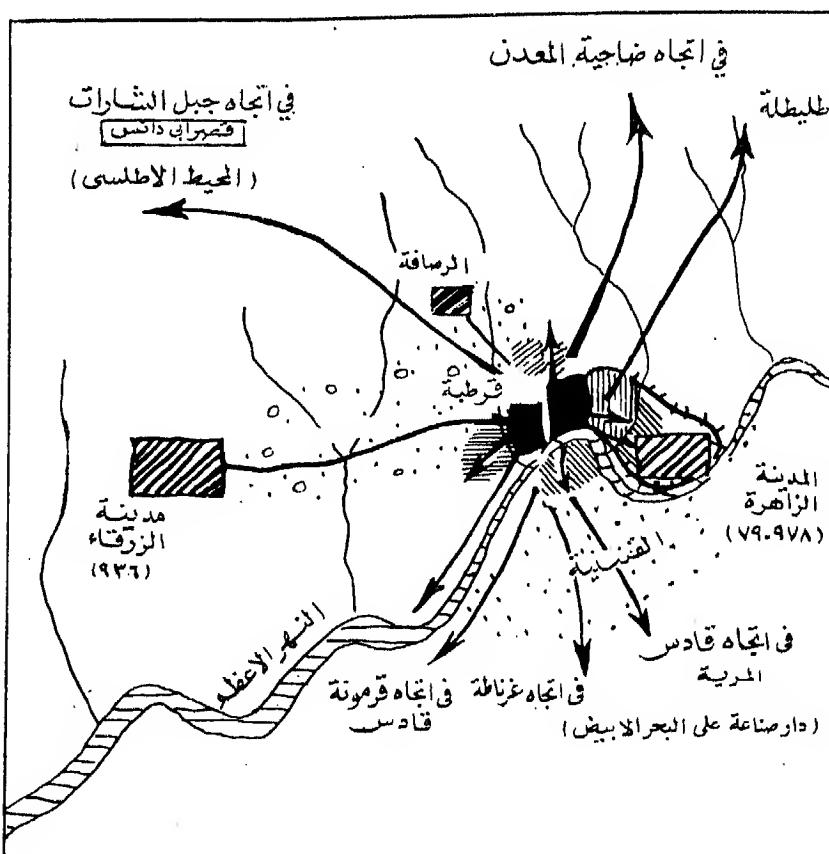
ومركز المدينة نفسها ( Madina ) له سبعة أبواب . وفي خارج المركز يمتد واحد وعشرون حياً تشكل ما يعرف بالرحب الذي يمتد في جميع الاتجاهات . تسعه أحياء في الغرب ، وبسبعين في الشرق ، وثلاثة في الشمال ، وحيان عبر النهر . وازدياد عدد سكان قرطبة يمكن أن نستتجه أيضاً من توسيع مسجد قرطبة المشهور مرات متواتلة : ففي سنة 785 ميلادية ، أصلح عبد الرحمن الأول المسجد القديم ، وفي سنة 833 ، وسع عبد الرحمن الثاني المسجد وأضاف إليه مساحات معتبرة في اتجاه الجنوب ، وفي سنة 961 ، قام الحكم الثاني بتوسيعه من جديد نحو الجنوب . وأخيراً زاد النصور في سنة 977 توسيع المسجد وأضاف إليه ثلث مساحاته ، في الاتجاه الشرقي . وهكذا يمكن تقدير عدد سكان المدينة على أساس أبعاد المسجد بحوالي 300,000 نسمة .

ومن الظواهر التي تسترعى الاهتمام في ازدهار قرطبة ، امتدادها نحو الضواحي . فهنا أيضاً ، أصبحت الضواحي التي بنيت فيها قصور الخلفاء نواةً لمدن جديدة ، على غرار قصور الأغالبة والفااطميين في ضواحي القيروان .

وقد بنيت القصور الأولى في ضاحية على مسافة 3 كيلو مترات في الشمال الغربي — وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الأول — وهي الرصافة ، التي تذكر بالرصافة التي كانت وقتاً ما مقراً للخلفاء الأمويين في سوريا ولكن الرصافة ليست الضاحية الوحيدة التي عمرها الخلفاء . لأن الضواحي تتسع لتشمل الحدائق المجاورة للمدينة ، الأمر الذي ظهر عنده اتساع المناطق السكنية والعمران في سهل « فحص » قرطبة ، حيث ستبني المنازل وتختلط المقابر وتغرس الحدائق .

ولكن أهم ضواحي قرطبة وأشهرها ، هي مدينة الزهراء التي بناها في سنة 936 ميلادية عبد الرحمن الثالث لأحدى محظياته وسميت باسمها .

ومدينة الزهراء التي تقع على مسافة 5 كيلو مترات من قرطبة ، عبارة عن مباني تضم مساكن الأمراء والدوافين ، يحميها حرس من الصقالبة : وهنا أيضا نلاحظ اهتمام الخلفاء باستمرار سيطرتهم على العاصمة ،



الشكل رقم ١٦: الامتداد العثماني في قرطبة

مع بقائهم بعيدا عنها بعض الشيء ، حتى لا يضطروا للحياة في مدينة يتزايد عدد سكانها مع مرور الزمن ، ويعرضوا للمخاطر نتيجة للقلائل والاضطرابات التي تقع فيها ، مثل الثورة التي شهدتها الربض في القرن التاسع الميلادي .

وبناء مدينة الزهراء عملية مهمة اقتضت أعمالاً استغرق تنفيذها عشرات السنين واستخدم فيها 10,000 عامل . وقد شملت هذه العملية استيراد المرمر من قرطاجنة وصفاقس ، استخلص من المباني القديمة في المدينتين .

كانت التجارة مزدهرة في مدينة الزهراء ، وكان اقبال التجار عليها كبيرا ، بحيث اقتضى الأمر فرض ضريبة على التجار الذين يسمح لهم بالاستقرار فيها ، مقدارها 400 درهم .

وفي سنة 978-979 ميلادية ، قرر المنصور بن عامر (11) الحاجب الذي استولى على الحكم في قرطبة ، بناء مدينة أخرى ترمز لسلطانه الجديد والقوى . وقد غادر مقره فـ. العاميرية ونزل في شرق قرطبة في المدينة الزاهرة . ولكن المقر الجديد لم يثبت أن أصبح مدينة التحتمت بقرطبة ، وبذلك أصبح اسم « الزاهرة » يطلق على جميع الضواحي التي تمتد في شرق قرطبة .

وهكذا نجد أن عمران قربة التي أحاطت بهالة من الضواحي في المرحلة الأولى، ثم تضخمت واتسعت أطرافها حتى وصلت إلى تلك الضواحي التي اندغمت في المدينة الأم في مرحلة تالية، عمران نشيط حاد النشاط. وكذلك كانت المدينة ضواحيها، ومدينة الزهراء والمدينة

الظاهرة مجتمعة ، منطقة عمرانية هائلة ، هي « قرطبة الكبيرة » التي تضم حوالي نصف مليون نسمة . وهذا رقم مرتفع جداً في الغرب ، اذا اعتبرنا أن باريس التي كانت أكبر مدن الغرب المسيحي بكثير ، لم يكن عدد سكانها في القرن الرابع عشر الميلادي يتراوح بين 200 و 300 ألف نسمة .

بقى علينا أن نحوال أنظارنا الآن ، إلى جزيرة صقلية ، حيث نجد أن بلرم ، كما لاحظ ذلك المسافرون المسلمين ، قد شهدت نمواً مشابهاً لنمو قرطبة . ففي الوسط يمتد القسم القديم من المدينة (القصر القديم Cassaro vecchio) الذي يحيط به حالة من الضواحي .

ذكر ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) أن القصر القديم كان محاطاً بسور تخترقه تسعه أبواب ، ويضم المسجد الكبير والسوق الرئيسية ومنازل التجار الأغنياء . وحول هذا المركز ، تمتد أربعة أحياء ، الحالسة ، وهي مدينةإدارية يحيط بها سور تخترقه أربعة أبواب ويضم القصر ، والدوابين ، ودار الصناعة ، وحدائق . وسيصبح هذا الحي ، فيما بعد ، ممراً للملوك النورمانديين . ويأتي بذلك ، حي الصقالبة ، وهو أكبر أحياء المدينة ويسكنه ، كما يدل على ذلك اسمه ، العبيد الصقالبة ، ويأوي الميناء وأرصفته . وهذا الحي لا يحيط به سور ، وهو مفتوح وله واجهة كبيرة على البحر .

والحي الثالث هو الحي المعروف باسم جامع بن سقلاب وهو أيضاً حي واسع يمتد بجداً فيه وطواحيه التي تعمل بمياه الجداول حتى يلتقي بالريف . وهذه الصافية عبارة عن سهل « فحص » متراوحي الأطراف ، تزرع فيه مختلف أنواع البقول والفاواكه التي تحتاج إليها المدينة .

وأخيراً ، يأتي الحي « الجديد » الذي يكفي اسمه للدلالة على ما عرفته بلرم الإسلامية من التوسيع والامتداد .

من أهم المعلومات التي وصلت اليانا عن بلرم الاسلامية ، تلك التي نقلها اليانا الراهب ثيودوز (Theodose) (11) الذي أسر عندما سقطت سرقوسة في سنة 878 ميلادية .

فإن هذا الكاهن يقدم اليانا فكرة حسنة عن ازدهار العمران وحدة النشاط في مدينة اسلامية كبيرة حيث يقول : « انها ، أي سيراقوسة ، مدينة مشهورة عامرة بالسكان من الأهالي والأجانب ، وكأنما تدفق إليها جميع الجنس العربي ، من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى البحر ، ضاقت المدينة بسكانها الجدد . ونتيجة لذلك ، فقد أخذوا في البناء خارج أسوار المدينة . وبذلك تكونت عدة مدن في ضواحيها ، أحاطت هي الأخرى بأسوار ولا تقل ازدهارا عن المدينة الأم » .

ذلك هو الامتداد والتلوّح الذي شهدته الامبراطورية الاسلامية من طرف الى آخر . والآن بقى علينا أن نعرف كيف يعمل الناس في هذه الامبراطورية وما هو نوع النشاط الذي يمارسونه ، وما هو الغليان الاجتماعي الناجم عن كل ذلك .

— 12 — راجع : C. Zuretti centenario della nascita di Michel Amari Palerme 1910, pp. 167-173 et par M. Amari Descr. de Palerme, Introd, pp. 7-8.

## الفصل السابع

# تنظيم العمل والحركات الاجتماعية

حققتان رئيسيتان تشكلان إطاراً للتطور الاجتماعي في المدن الإسلامية ، تدفق الذهب واتساع نطاق تداول النقد من جهة ، وسرعة التوسع العمراني في المدن وازدياد الاستهلاك الناجم عن ذلك ، من جهة أخرى .

ان تعدد وسائل الدفع ، والنشاط الحاد في ضرب النقود وسرعة نقلها ، واتساع نطاق عمليات القروض المصرفية والاقبال على الاستهلاك الناجم عن اتساع العمران في المدن ، كلها عوامل أدت الى ازدياد سرعة نشاط التبادل التجاري ، والى حيوية الاتاج الزراعي والصناعي ، والى انخفاض قيمة المعادن الثمينة وبالتالي الى ارتفاع الأسعار خلال مدة طويلة ، ذلك الغلاء الذي يسانده تدفق المعادن الثمينة «النقود» بصورة أقوى وأهم من ازدياد حجم الاتاج على الرغم من التقدم التقني الذي تحقق في هذا المجال .

وارتفاع الأسعار ، إنما تستفيد منه طبقة التجار وأوساط القصور . وتركز الثروة في يد التجار ، يدفعهم الى السعي لاستثمار ثروتهم ، والى عقد صفقات تجارية كبيرة تضيف ثروة الى ثروتهم وأاما أواسط القصور، فانها تستنزف قسطاً معتبراً من الثروة المتولدة وتغذى حياة البدخ ، عن طريق الضرائب وبواسطة أرباب المصارف الذين يتعاملون معها .

وكذلك يشكل رخاء التجار والبذخ الذي يسود في قصور الأمراء ، ما يشبه العمود الفقري لحضارة المدن المادية . بل أن من الممكن القول ، إذا أضفنا رعاية العلوم والفنون والأدب ، أن هذا الرخاء والبذخ يمثل أساس الحضارة الإسلامية .

وفي هذه الأثناء ، ينتشر الفقر بين الجماهير الشعبية . فإن الزيادة في المرتبات والأجور أقل من الزيادة في الأسعار ، وذلك بحكم توفر فائض من اليد العاملة .

وكذلك نلاحظ ، إلى جانب ظاهرة ارتفاع الأسعار العامة ، وانتشار الرخاء في القصور وبين طبقة التجار ، ظاهرة وسطية تدور حول التوزيع غير العادل للأرباح والفوائد بين مختلف الطبقات الاجتماعية .

وانتشار نفوذ المدينة في الأرياف ، كان من تنتائج ضعف نفوذ المالك الزراعيين . فان أشكال الثروة المتنقلة تحل تدريجيا محل الملكية الزراعية . وهذا الانفجار الذي لحق بخلية « القطاع » الزراعي سيكون من تنتائج تفكك الحياة الاجتماعية . وكذلك كانت ثورات الفقراء في الأرياف ، استجابة لثورات العبيد والرؤساء في المدن .

وهذه الحركات الاجتماعية ، كانت في البداية متفرقة وتقوم هنا وهناك ، ولكنها في مرحلة تالية ، ستندغم في حركة شاملة وسينضم تحت لوائها جميع الثوار من العبيد والأحرار ، من المدنيين وسكان الأرياف ، وهذه الحركة هي حركة القرامطة التي هزت العالم الإسلامي في القرن العاشر الميلادي : وأدت إلى قيام تنظيم جديد للعمل على أساس المهن والحرف .

#### طبقة التجار والقصر :

كانت طبقة التجار هي الوحيدة التي استفادت من الاحتلال النجي ، كما لاحظ ذلك تل مهري (Tell Mahre) منذ النصف الثاني من القرن

الثامن الميلادي والواقع أن نشاط التجار ، كان يمثل الأساس الذي يقوم عليه الازدهار الاقتصادي . وروح المخاطرة والمبادرة في مجال التجارة من التقاليد المتوارثة في المشرق . وكانت المبادرة تتخذ شكل مشاركة رؤوس الأموال وانشاء شركات تجارية ومصرفية .

والتاجر صاحب الأعمال يعمد إلى اقامة صناعة وتشغيل العمال فيها ، وتوفير المواد الأولية وتقديم القروض ، كما يقوم بتوزيع المنتجات . والتاجر يميل إلى المغامرة واستكشاف الأسواق في البلدان البعيدة وهو الذي سيكتشف موارد الذهب في السودان ويدفع في مقابل حمل بعير من الذهب شحنة من اللح والسلع ذات القيمة الزهيدة . وهذا الذهب سينقله إلى شواطئ المحيط الهندي وإلى بلاد السندي عن طريق البحر ، حيث سيبيعه بأضعاف ثمنه ويشتري سلعا أخرى يوسرها إلى البصرة في عمليات تضمن للتاجر أرباحا طائلة .

فإن شحنة سفينة آتية من الصين ، قدرت قيمتها بنصف مليون دينار . ومناطق الأنهر الكبيرة في روسيا ، ستتوفر العبيد ، وهي السلعة التي تضمن أوفر الأرباح في أسواق النخاسين في الشرق الإسلامي وفي كل مكان يسود نشاط يستهدف كسب الثروة سريعا . وقد نجم عن ذلك تعدد المراكز التجارية على طول الطرق المعروفة في العالم . ومن هنا ارتفاع شأن طبقة التجار التي يمثلها التاجر الكبير وهو مسلم في العادة ، ولكنه كثيرا ما يكون يهوديا أو مسيحيا أيضا .

والتاجر الكبير يملك أموالا طائلة من ثروته الخاصة ومن ثروة العائلة ويشترك مع غيره من التجار لينشئ دارا تجارية تقوم على الاعتمادات التي يضمنها جميع الشركاء ورؤوس الأموال الناجمة عن العمليات التجارية يعاد استثمارها باستمرار في مشروعات تجارية تزداد اتساعا مع

مرور الزمن في عالم تسري فيه حمى الأعمال والكسب ، كما تشهد بذلك الوثائق العبرية التي بين أيدينا .

فنحن مثلا نعرف رسالة (1) بعثها تاجر يهودي من سوريا ، وهو من أصل مغربي — اعتبرنا اسمه المغربي — في أوائل النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى من القدس إلى القاهرة عن طريق الفرما (2) بشأن وصول سفن إلى جزيرة صقلية ويطلب فيها تزويده بمعلومات عن سفينة إسبانية وعن غيرها من السفن التي تصل إلى الاسكندرية . وصاحب الرسالة يأمل في الحصول على جواب سريع عن استفساراته من مراسليه في القيروان وصيادا .

و كذلك ترينا وثيقة (3) أخرى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الطريقة التي نظمت بها دار تجارية عائلية . فالدار الأصلية تقع في الفسطاط ويقوم بادارة فرع للدار في مدينة عدن . وهذا الابن قام بسفرين إلى الهند بادارة فرع للدار في مدينة عدن . وهذا الابن قام بسفرين إلى الهند ووصل حتى سيلان وزار كلومبو . وأما خال الأولاد الذي أرسل إلى الهند ليعمل فيها وكيلا وممثلا للدار فقد مات هناك .

والتاجر الكبير متعلم — ونحن نستطيع أن نتصوره مستغرقا في مراجعة دفاتر حساباته ، وفي تحرير رسائله ، ومعالجة أوراق الاعتماد الخ .

---

R. Gotheil, Fragment - from the Cairo Genizah in the  
feer collection. New York, 1927, p. 116-129, n° XXVII.

2 - مدينة قديمة بين العريش والفسطاط خراب ، سفت الرمال عليها قرب قطية ، شرقى تنيس على ساحل البحر ، وبينها وبين بحر القلزم المصل بالحيط الهندي ، أربعة أيام ، وهو أقرب موضع بين البحرين ، وفي الفرما أصطدم العرب بالروم عند فتح مصر ، وفتحها عمرو بن العاص . والفرما هي التي ذكرها أبو نواس في أحدى قصائده اذ يقول :

واصبون قد فوزن عن نهر فطرس      وهن عن البت المقدس زور

طواب بالركبان فرة هاشم      وبالظرما من حاجهن شقود

3 - المصدر السابق ، صفحة 44 - 57

ومن جهة أخرى توجد كتب ورسائل تقنية تتوجه عادة إلى الموظفين ، يدل مضمونها على توفر حظ من الثقافة العملية عند رجال الأعمال . فان كتابا فارسيا عاش في خراسان وبغداد ، أبا الوفاء (940-997م) وضع كتابا بسيطا في الحساب يشتمل على المعلومات الضرورية للكتاب ومديري الأعمال في علم الحساب .

وهؤلاء التجار يعرفون في الشفرة والرسائل السرية . وهم يعلمون الأرقام الهندية (التي نسميهما العربية) التي تقوم على تسع علامات وصفر ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي جرى تعليم هذا النظام في الكتب العلمية ثم بين العلماء وفي أوساط التجار .

والى جانب هذه الثقافة العملية ، كثيرا ما يتمتع التاجر الكبير بحظ كبير من الثقافة الحقيقة . وهو يفخر في هذه الحالة خصوصا ببعض معلوماته في العلوم الدينية وفي الشعر . وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادي كان شقيق الشاعر ابن الباري ينظم الشعر هو أيضا ، ولكنه لم يكن يعيش على قرض الشعر لأنّه كان تاجرا .

ومن جهة أخرى فان الشاعر أبا بكر بن عبد العزيز الذي ثلقى مبلغا معتبرا من المال مكافأة له على احدى قصائده قرر أن يستقر في المدية ويشتغل بتجارة مربحة .

والتاجر الكبير يقوم بدور هام في فعل الخير والرعاية بما يقدمه من الصدقة والاحسان للمعوزين في الجماعة وهو يساهم كذلك في تمويل تكاليف تحسين وتوسيع المعابد (المساجد والبيع والكنائس) ويمد بالمال المؤسسات الخيرية وهذه المؤسسات تشمل أيضا في الاسلام انشاء مؤسسات ذات فائدة عمومية مثل المدارس والقوارات . والتاجر الكبير يقدم المأوى والضيافة للطلاب والعلماء كما يفتح أبواب منزله للحجاج

ولعابري السبيل والتجار الأثرياء من اليهود في الاسكندرية والقاهرة . وكذلك كانوا يقدمون الفدية لتحرير اليهود الذين وقعوا في أسر القرصنة . وهذه الفدية تمثل 33 دينار للرجل . وهو السعر المعمول به في جميع البلدان الواقعة على حوض البحر الأبيض وهذا المبلغ يمثل تأمينا شخصيا للتاجر المسافر .

والتاجر الكبير ينفق بسخاء ويعيش عيشة واسعة في منزله الفسيح في المدينة بين جماعات من العبيد والخدم والمقربين إليه ، محاطا بمكتبه وبما اقتناه أو استجلبه معه أثناء أسفاره من البلدان بعيدة من التحف والطرائف النادرة .

والتاجر الكبير يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة ، فأن بعض التجار الأثرياء الذين اتهموا بالاشتراك في ثورة اعتقلوا بهذه التهمة ، ولكن الوالي ، استدعاهم وقت الغداء لتناول الطعام على مائدة . وكبار التجار كثيرا ما يتمتعون بالحظوة في قصور الملوك والخلفاء . وهذه هي الحالةخصوصا بالنسبة إلى الصرافين المعتمدين لدى القصر ، والذين يقرضون المال لكيبار الشخصيات والمعتمدين بتموين القصور الملكية بالسلع . ولا سيما البضائع الثمينة ، والذين يدفعون الضرائب المستحقة على الآخرين ويتعلمون باستخلاصها . وكذلك نجد صرافا يهوديا في البلاط يستخلص الضرائب المستحقة في الأهواز ثم يستثمر الحصيلة في أعماله الكبيرة في صناعة السكر ، أو النسيج ، ثم يقدم اعتمادا لل الخليفة ليستخلص المبلغ المستحق من بيت اليهودي في بغداد . وهذا الصراف ( الجهد ) يؤمن سرعة تنقل الأموال بعمليات كتابية بين الولايات وخزينة الخليفة ، دون آية مخاطرة بتحويل الأموال نقدا .

بل إننا نجد في نهاية السلم الاجتماعي ، أن التاجر قد يرتفع مقامه ويشغل منصبا رسميا بل ولربما قلد الوزارة ووضع على رأس إدارة الدولة للشؤون المالية .

ولكن الناجر الكبير ذي المركز الرفيع والنفوذ والجاه ، قد يفقد الخطوة وينزل مقامه فجأة . وقد الحظوة كثيراً ما يرافقه الاستلاء على أموال الناجر وممتلكاته . وحينئذ تكون حياته العملية منتهية . والمثال المشهور في هذا السياق هو ذلك الذي وقع في القاهرة في أوائل عهد المنصور الفاطمي ( 1094 م - 1036 ) . فان الاخوة تستري من الصرافين والتجار اليهود في الأهواز ( وكانت تجارتهم في البضائع الشينة الآتية من شواطئ المحيط الهندي والصين ) ، قد جلبوا للخليفة الظاهر ( لاعزار دين الله ) جارية سودانية جميلة ولدت له خليفته على عرش الفاطميين ، المستنصر بالله . وهذه الجارية هي التي تولت الحكم أثرموت الظاهر حيث أن ابنها لم يبلغ سن الرشد بعد ، وكان ذلك بمساعدة الاخوة تستري . وقد دام حكم هؤلاء اثنى عشر عاماً ( 1048 م - 1036 م ) ولم يزحهم عن كرسي الحكم الا وزير ، من أصل يهودي هو الآخر ، ولكنه اعتنق الاسلام . وقد تقلد هذا الوزير منصبه بفضل الاخوة تستري ، ولكنه مع ذلك ، لم يتردد في أن يأمر العرس التركي باغتيالهم . وأما الملكة الوالدة ، فقد أخذت على نفسها أن تنتقم لسادتها السابقين . وبعد العادث بستة أشهر ، قتل الوزير بدوره ٠

وهذا المثال واضح الدلالة ، ولكنه لم يكن نادراً . لأن حوادث مماثلة وقفت وتوضحت ما كانت طبقة كبار التجار تتمتع به من الثروة والنفوذ ، (كيف يشتريون في المؤامرات التي تحرك في القصور ويشكلون حلقة وصل بين القصر وطبقة الأغنياء في المدينة ) . وهؤلاء التجار هم الأعوان الرئيسيون المحركون - مع كتاب الدواوين - للحياة الاقتصادية في العالم الاسلامي . وهم العدة التي تقوم عليها الحضارة الاسلامية العظيمة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر الميلادي .

## الصعفاء اقتصاديا في المدن والأرياف :

المركز الاقتصادي للمدينة الإسلامية ، هو السوق الذي يتردد عليه وي العمل فيه الصناع والعمال الأحرار والعيين والدلاليون والحمالون . ونظرا للصعوبات المتزايدة التي تلقاها هذه الفئات من السكان لكسب الرزق ، فهي أبدا في هرج ومرج وكثيرا ما تتعرض للفترة .

وفي الأرياف يعيش صغار الملاك والمفلسين والعمال البائسين . فان الأثرياء والمرابين من سكان المدن يطردونهم من اراضيهم التي يستثمرون فيها جزءا من الارباح الطائلة التي يحققونها من التجارة . وفي هذه الأثناء تزداد قبضة المدينة ونفوذها توغلا في الأرياف ، سنة بعد سنة .

ومن جهة أخرى فان عبء الضرائب يزداد فدحا على سكان الأرياف مع تناقض القوة الشرائية للنقد . والإدارة المركزية للامبراطورية تتوازي في كل شيء الا في جباية الضرائب .

ونحن نجد صورة مفصلة للبؤس الذي كانت تعاني منه الأرياف في عدد مهم من المصادر النسطورية واليعقوبية ، بالنسبة الى ما بين النهرين وسورية ، وفي التواريخ السريانية وأوراق البردي ، بالنسبة الى مصر .

وقد كان الأمل الوحيد في النجاة لسكان الأرياف ، هو الهروب الى المدن . وفي المدن يفقد القرى كل روابطه وعلاقاته العائلية والاجتماعية . حيث أنه يقصدها في كثير من الحالات للتخفى وللخلص من دائنيه المدينيين . وكذلك ينحدر شيئا فشيئا في السلم الاجتماعي ، وربما أفضى به الأمر أن يحترف السرقة وقطع الطريق .

والآفة الكبرى التي تشكو منها الأرياف هي اضطراب الأمن العام – والحكومة تسخر قواتها للقضاء على الاضطرابات ، رغبة في تأمين الاستقرار ، لكي تتمكن من جباية الضرائب وضمان فلاحة الأرض .

و كذلك أنشئ في مصر مكتب خاص مهمته البحث عن المهاجرين ، و انتهى الأمر إلى فرض جواز السفر على الأشخاص : فأما الأشخاص ذوي المكانة الاجتماعية فيمتحون وثائق تحمل ختما رسميا ، وأما أبناء الشعب والغوغاء فيحملون ختما ، في أذرعهم أو أيديهم ، أو تعلق في أعناقهم قطعة من الرصاص لاثبات شخصيتهم .

وهذا البؤس المنتشر بين الطبقات الشعبية في الأرياف والمدن هو السبب في ظهور كثير من الحركات الاجتماعية التي تتطوّي على عناصر من الدين والشعوذة ، و توهّم العامة بأن ساعة الخلاص ستأتي ولا ريب ، وما عليهم إلا أن يصبروا حتى يأتي المهدى المنتظر .

وهذه الحركات تجد اقبالا خصوصا في ثلاث فئات اجتماعية : الفلاحين والعبيد ، والطبقة الشعبية المتواضعة في المدن .

ففي طبقة الفلاحين نشاهد تيقظ الميل الایرانية القديمة لتحقيق العدالة في المحيط الزراعي ، تلك الميل التي كانت قد أوحى من عهد الساسانيين في القرن الخامس الميلادي بالحركة المزدكية التي تتصل هي الأخرى ، من الناحية الاجتماعية ، بازدهار الحياة الاقتصادية وال عمران في المدن . وقد كانت ايران وبلاد ما بين النهرين في القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي مسرحا لعدد من الثورات التي كان يتزعّمها أشخاص يدعون النبوة ويستمدون آرائهم وأفكارهم من تعاليم مزدك ، وفي مقدمة هؤلاء السنباذ المجوسي ( 754 - 755 م ) وأستاذ سيس ( 766 - 769 م ) ، وكلاهما كانا موجها وقاددا لحركة قوامها الغل

والحد ، كانت بمثابة رد فعل لاغتيال الداعي العلوي والقائد العباسي ، أبي مسلم الخراساني (4) .

وبعد هذا التاريخ بقليل ، قامت ثورة أخرى في أرمينيا (774-775 م) كانت نتيجة لتعسف محصلى الخارج وللبؤس المنتشر في المنطقة . وأثر ذلك ، قامت ثورة مدعى النبوة الملقب (المقنع) في خراسان (777-780 م) ثم وقعت الاضطرابات التي قام بها الباطنيون في جرجان (5) أي البلاد الواقعة على ضفاف بحر قزوين الجنوبي الشرقي . وهذه الثورة التي أتخذت لنفسها علماً أحمر ، حققت نجاحاً مذكوراً في سنة 782 - 783 ميلادية .

وفي حوالي سنة 800 ميلادية ، في عهد هارون الرشيد ، قامت أهم هذه الثورات جميعاً وأخطرها في خراسان بزعامة بابل (816 - 838 م)

وكان ثورة بابل التي تدور حول القضايا الدينية والمطالب الاجتماعية قد اجتاحت في المرحلة الأولى أذربيجان . وبعد ما تركت قوته في قلعة جبلية حيث دعم قياداته وأعاد تنظيم أنصاره ، انطلقت قواته في اتجاه

4 - عبد الرحمن بن مسلم الخراساني (100-137 هـ) مؤسس الدولة العباسية واحد كبار القادة العسكريين ، اتصل أبو مسلم في شبابه بابراهيم بن الأمام (من بني العباس) فأرسله أبراهيم إلى خراسان داعية لقام فيها واستعمال أهلها ووثب على ابن الكرماني (والى نيسبور) فقتلته واستولى على المدينة وخطب فيها باسم عبد الله السفاح ثم سير جيشاً لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوكبني أمية وقاتلته بالزواب ، وهزم جيشه ، وبذلك اقرضت دولةبني أمية (سنة 132 هـ) وخلص الملك للسفاح ، ولما تولى الخليفة أخوه المنصور خشي من أن يطمع أبو مسام في الملك ، فقتلته برومدة المدان ، وكان أبو مسلم فصيحاً بالمربيّة والفارسية ، راوية للشعر ، هذا إلى جانب ما كان يتصف به من الدهاء السياسي والشجاعة والحزم ، ولكن أبرز خصال أبي مسلم ، بدون شك ، هو قلة اكرانه بماله وبمظاهر الترف حيث مات وليس له دار ولا مقبار ولا عبيد ولا امة ولا ذينار . «المترجم»

5 - وقعت ثورة الباطنية في سنة 500 هـ ، وانتهت بمحاصرة السلطان محمد بن ملكشاه قلعتهم التي تسمى دار شادر ، بالقرب من أصفهان ، وبعد محاصرة طويلة ، نزل بعض الباطنية بالأمان ، ويقي صاحب شادر ، واسمه أحمد بن عبد الملك بن عطاش مع جماعة يسيرة من أصحابه فيها ، فزحف السلطان عليها وقتل ابن عطاش وأصحابه وملك القلعة وخرابها . «المترجم» .

أرمينيا غرباً ، وخراسان شرقاً ، والعراق جنوباً وبذلك انتشرت الثورة في جميع أنحاء إيران وشملت جزءاً من بلاد ما بين النهرين . وكان خطراً هذا التأثير يتمثل في أنه كان يقطع طرق القوافل ويعرقل حركة التجارة ، في الوقت الذي شل فيه حركات عدد من الجيوش التي تتكون من الجنود المرتزقة الأتراك ، وجهها الخليفة للقضاء عليه . وأخيراً ، استولت قوات الخليفة على قلعته وخربتها وقبضت عليه وسلمته إلى الخليفة المعمّم الذي أُنزل به عقاباً كانت فظاعته على قدر المخاوف التي أثارها : فقد تجولوا به في شوارع بغداد بعد ما قطعوا يديه ورجليه ، على ظهر فيل يحمل أيضاً لافتة كتبت عليها قائمة الجرائم التي عزي اليه ارتكابها ، وكانوا قد وضعوه في جلد ثور حديث السلح وخطوا الجلد حوله ووضع قرني الثور عند مستوى أذنيه ، وذلك حتى تضفط رأسه في جلد الثور الذي يجف تدريجياً ، حتى الموت .

والثورة الأخرى التي قام بها الفلاحون ، هي تلك التي أعلنتها قبائل الزط (الفجر) في أسفل ما بين النهرين في عهد المؤمن (813-833م)<sup>(6)</sup> — والزط (الجط أو الفجر) من أصل هندي أبعدوا من أسفل نهر مهران (السند) إلى المستنقعات الخلية فيما بين النهرين ، واستقروا في هذه الأرض التي يكثر فيها القصب ، وكانوا يشتغلون بترية الجاموس ، ولكن البؤس والشقاء دفعهم إلى الثورة ، فهذه كانت ثورة المتبوذين اجتماعياً . ولذلك ، فسرعان ما وجدت صدى وانضم إليها منبوذون

6 - ميد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، أبو العباس « 218 - 170 هـ » سابع الخلفاء واحد عظام ملوك الإسلام في علمه وسعة ملكه حيث كان ملكه يمتد من إفريقية إلى خراسان . ولـي الخلافة بعد أخيه الامين « 198 هـ » فتم ما بدأه جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة ، وقد طلب من الملوك الذين كان يبعث إليهم بالتحف والمهدى أن يصلوه بما لديهم من الكتب ، فيبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس ، فاختار لها مهارة المترجمين ، فترجمت وحصن الناس على قراءتها ، وكذلك قرب عبد الله العلماء والفقهاء والمحدين وأهل اللغة والأخبار والتكلمين وأطلق الحرية لأهل الجدل والفلسفة ، توفي في بلد دون ودفن في طرسوس . « المترجم » .

آخرون ، ولا سيما من العبيد الهاريين . ولما قبضت عليها قوات الخليفة ،  
أبعد الزط إلى منطقة الحدود مع بيزنطة وسورية الشمالية والى مستنقعات  
نهر العاصي ومن هذه المناطق ، انتقل الزط إلى الاناضول ثم إلى بلاد  
البلقان وبوهيميا .

وأول حركة ثورية قام بها العبيد ، يرجع تاريخها إلى سنة 770 م .  
حينما ثار العمال السود في الزراعة والمناجم . ولكن الثورة الحقيقة  
التي قام بها الملدون ، ستأتي بعد ذلك بحوالي قرن من الزمن ، أي  
في سنة 768 ميلادية ، حينما التجأ العبيد إلى المستنقعات الواقعة في  
أسفل نهر الفرات (وهي المنطقة التي ثار الزط فيها قبل ذلك بثلاثين سنة) ،  
بقيادة خراساني ، اتخذ لنفسه اسم « صاحب الزنج » ، وانتشر باسم  
« الخبيث » . وكان يدعى أنه من نسل علي ، بينما كان على مذهب مزدك .  
وعلى رأس قواته من العبيد ، سيفق في وجه الخليفة خمس عشرة سنة ،  
حتى سنة 883 ميلادية ، ويحدث أضراراً كبيرة . وقد انضم إلى جيش  
العبيد لاجئون ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة ، ونجحوا في نهب  
المدن الغنية الواقعة على الخليج ، وفي أسفل ما بين النهرين ، أبله ،  
والأهواز ، والبصرة ، وواسط ، بعد ما ذبحوا سكانها . وكذلك قطعوا  
الطرق بين بغداد والخليج وشلوا حركة التجارة . وأما القوات التي  
بعث بها الخليفة لاخضاعهم ، فقد فشلت في مهمتها بسبب صعوبة الأرض  
وبسبب سرعة تنقل الثوار . ولكن الموفق شقيق الخليفة سوف يتحمل  
على عاتقه مهمة القضاء على ثورة الزنج الذين ضرب حصاراتاً مشدداً عليهم  
في منطقة من المستنقعات . وبعد ما تحملوا الحصار مدة طويلة في قلعتهم ،  
قبضت عليهم قوة الخليفة وقتلتهم .

وأما الطبقة الفقيرة في المدن ، فقد كان حظها من البؤس أكبر من حظ  
الطبقة الفقيرة في الأرياف ، ومن ثم فقد كانت باستمرار هائجة مائحة .

وكذلك نرى أنه عند ما قام النزاع بشأن من يخلف هارون الرشيد اثر وفاته (7) بين ولديه الأمين والأمون ، تسكن الفقراء من السيطرة على مدينة بغداد ومن الاستيلاء على الحكم وقتاً قصيراً .

وفي عهد الأمون ، قام الصناع اليدويون الأقباط بثورة كانت ثورة اجتماعية خطيرة حيث أنها وقعت في منطقة لصناعة المنسوجات الرفيعة . وهذه الصناعة كانت تتركز على عدة مشاغل منتشرة في عدد من المدن الصغيرة . وهنا أيضاً تتسع الحركة الثورية وتتركز في منطقة من المستنقعات - مستنقعات الدلتا ، وبالتحديد ، مستنقعات بحيرة بحيرة بضم الهمزة . وقد كانت هذه الثورة من الخطورة بحيث اقتضى الأمر توجيه قوات الخليفة لقمعها ، بل وسير الخليفة بنفسه إلى مصر . وبعد اخضاع الثورة ، أبعد آلاف من الثوار المندرجين ، بل ويعوا في أسواق العبيد في سوريا وبين النهرتين . وكذلك تجمع الحركة إلى جانب كل هذه العناصر ، الاتجاهات الاحتجاجية المختلفة التي عرفها القرن التاسع والقرن العاشر الميلادي ، والتي كانت موازية لحركة نمو هائل في التجارة والصناعة وال عمران في المدن ، وبذلك تكون تجمعاً يضم محركي الاضرابات وغير ذلك من مظاهر الأزمة الاجتماعية ، والساخطين والثوار . وكذلك وضع مذهب القرمطية الذي يتسم بالأصلة والالاحاج على حرية الفرد ، ورفض قوانين الشريعة الإسلامية مع تأكيد الادعاء بأن كل شيء ذو طابع نسبي في العلاقات البشرية .

7 - هارون الرشيد ابن محمد (المهدي) بن المنصور العباسي أبو جعفر (149 - 193 هـ) خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم ، ولد باليزي لا كان أبوه أميراً عليها ونشأ في دار الخلافة في بغداد . ولد أبوه غزو الروم في القسطنطينية . فصالحته الملكة إيرين (Irène) وببيع الخلافة بعد وفاة أخيه المهadi (سنة 170هـ) فقام بأعيانها وازدهرت الدولة في أيامه وكذلك اتصلت الودة بيته وبين ملك فرنسا شارلمان (Charlemagne) ، فكانا يتهاديان التحف ، وكان الرشيد عالماً بالحديث والفقه وبالآداب وأخبار العرب ، كما كان شجاعاً كثير الفزوارات حازماً كريماً متواضعاً ويصح مرة كل سنة ، وهو أول خليفة لعب بالكرة والصواريخ ، وكان الروم يدعون الجربة إليه طول حياته ، وهو الذي أوقع بأسرة البرامكة الإيرانية . «المترجم» .

وعلى الصعيد السياسي ، فقد تبلورت حركة القرامطة في أتون العاشر إلى خلافة الفاطميين الذين انتشر مذهبهم وسلطانهم من إفريقيا وصقلية إلى مصر وسوريا وغرب شبه الجزيرة العربية . ومن جهة أخرى ، فإن سلطان القرامطة كان يمتد ليشمل بلدان الخليج : المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية وأسفل ما بين النهرين والشواطئ الإيرانية .

ومن الناحية الروحية والاجتماعية ، اقترح القرامطة نموذجاً من « العرق » الإسلامي ، ظهر في القرن العاشر الميلادي ، أول ما ظهر في المناطق التي كانت تحت سيطرة الفاطميين والقرامطة ، ثم انتشر بعد ذلك ، وهو لا يزال يحتفظ ببعض خصائصه إلى يومنا هذا .

انه من أصعب الأمور – لسوء الحظ – أن ندرس بعمق حركة تلتزم السرية والتكتيم وتفضل على تسجيل مبادئها في وثائق ، تدريب أعضائها وتلقينهم شفوياً . والصعوبات الأخرى ، التي تواجه الباحث هي في عدم دقة لغة القرامطة واعتمادها على الاشارة والتورية ، على الأقل ، في النصوص التي وصلت إلينا . ولكن هذه النصوص ، مع ذلك ، تتضمن حقيقة ثابتة ، وهي الاهتمام البالغ الذي يوليه المؤلفون القرامطة لطبقة الصناع اليدويين ، ولعالم العمل ، بصفة عامة ، ولاسيما ما يتعلق منه بالتقنية والتنظيم . فهو لاء المؤلفون لا يفتؤن يشيدون بنبل المهنة اليدوية وعلو مكانتها .

وفي هذه الآثناء ، نجد المنظمات المهنية في البلدان التي تدين بمذهب أهل السنة (غير القرامطة) تتعرض للاضطهاد ، أو على أحسن تقدير لكثير من القيود والمراقبة الشديدة التي تمثل استمراراً لروح التشكك وسوء الظن القديمة في علاقات السلطة بعالم العمل . وهذه الروح لم يلتحقها إلا تعifier طفيف نتيجة للتنظيم الجديد الذي جاء به القرامطة .

وأما في البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين ، على العكس من المعمول به في البلدان التي تدين بمذهب أهل السنة ، فقد كانت المنظمات المهنية تتمتع بكثير من الحرية والرخاء ، حيث كانت الدولة تعترف بها ومن التنظيمات المهنية التي عرفت كثيراً من النجاح ، عقب تأسيس القاهرة ( 970 م ) ، تلك التي كانت تضم طلبة وأساتذة جامع الأزهر ( افتتح في سنة 972 م ) ونحن نجد في هذا التنظيم ذليلاً على الاهتمام الذي كانت نظرية القرامطة توليه للتعليم — تلك الأهمية التي تؤيدها « اسيكلوبيديا » مشهورة ، « وسائل أخوان الصفا » ، حيث نجد فيها تركيزاً على تمجيد العمل الذهني واليدوي .

وهكذا كان ازدهار التنظيم الذي جاءت به حركة القرامطة في مصر ، عاملاً من عوامل الرخاء والتتوسيع الصناعي والتجاري الذي شهدته البلاد . والحركة نفسها ، ستجد في مصر ظروفاً ملائمة لانتشارها في اتجاه البحر الأحمر والمحيط الهندي . ولكن صلاح الدين الايوبي ، سيقمع الحركة ، على الأقل في مصر ، ويحرم التنظيمات المهنية في سنة 1171 ميلادية ، من الامتيازات التي كانت تتمتع بها .

وعدم قيام التنظيم المهني على أساس من الدين ، يشكل الفارق الأساسي بين التنظيم الفاطمي — القرمطي ، والتنظيم الذي كان سائداً في الغرب المسيحي . وهذا التنظيم يذكرنا بأن نظرة الشرق عالمية وأنه كان مفتوحاً لمختلف التيارات ، وأن كيانه الاجتماعي يتربّب من عناصر متكاملة ، وذلك في الوقت الذي كان الغرب المسيحي فيه يتمسّك بعقائد جامدة ومغلقاً على نفسه . فأن المسلمين والمسيحيين واليهود ، كانوا يتمتعون بالعضوية في التنظيمات المهنية في العالم الإسلامي ، على قدم المساواة . بل إننا نجد أن غير المسلمين ، في بعض هذه التنظيمات يشكلون أغلبية . وهذه هي الحالة خصوصاً ، في تنظيم الصياغة ، وفي التجارة

فِيِ الْمَعَادِنِ التَّمِينَةِ وَفِيِ الصَّرَافَةِ ، حِيثُ كَانَ الْيَهُودُ يَقْوِمُونَ بِدُورٍ مُعْتَبِرٍ  
وَمُعْظَمُ الْأَطْبَاءِ كَانُوا مُسِيَّحِينَ أَوْ مِنَ الْيَهُودِ .

وَفِيِ الْخَتَامِ ، لَا بُدَّ مِنَ أَنْ نَرْبِطَ الْاِزْدَهَارَ الْاِقْتَصَادِيَ الْمَفَاجِئَ الَّذِي  
شَهَدَهُ الْعَالَمُ اِلْلَاهِيُّ ، بِالْتَّوْرَاتِ النَّاجِيَّةِ عَنِ اِتْشَارِ الْحَرَكَةِ الْجَدِيدَةِ  
لِلتَّنْظِيمِ الْمَهْنِيِّ . وَأَهْمَمُ خَصَائِصِ هَذَا التَّنْظِيمِ : تَلْقِينُ الْطَّقْوَسِ ، وَالتَّضَامِنِ  
الْمَهْنِيِّ ، وَأَدَاءِ الْيَمِينِ ، وَاتْخَابِ الرَّؤْسَاءِ . وَالنَّظَرِيَّةُ تَقْوَمُ عَلَىِ مَبَادِئِ  
سَرِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ فِيِ نَفْسِ الْوَقْتِ .

وَهَذِهِ الْخَصَائِصُ . هِيَ الَّتِي تَمِيزُ التَّنْظِيمَ الْمَهْنِيَ فِيِ الْعَالَمِ اِلْلَاهِيِّ  
عَنِ التَّنْظِيمِ الْمَهْنِيِّ الَّذِي كَانَ سَائِدًا فِيِ عَهْدِ بِيزِنْتِيَّةِ ، وَفِيِ عَهْدِ السَّاسَانِيَّيْنِ  
وَالَّذِي كَانَ ذَا طَابِعَ رَسْمِيَّ تَحْتَ اِشْرَافِ الدُّولَةِ ؛ وَلَا يَكُادُ يَتَجَاوزُ  
اِجْتِمَاعَاتِ يَعْقُدُهَا الصَّنَاعُ الْيَدِوِيُّونَ الَّذِينَ يَرَاقِبُهُمْ مَوْظِفُوِ الدُّولَةِ  
وَيَخْضُعُونَ لِقَوْاعِدِ تَمْلِيَّهَا السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ التَّنْظِيمَ الْجَدِيدَ لَمْ يَكُنْ خَالِيًّا تَمَامًا مِنْ كُلِّ تَأْثِيرٍ  
لِلنَّظَامِ الْقَدِيمِ . بَلْ عَلَىِ الْعَكْسِ ، فَإِنَّ رَوَاسِبَ هَذَا التَّأْثِيرِ كَانَتْ فِيِ الشَّرْقِ  
عَنَّاصِرُ سَيِّعَادِ تَرْكِيَّهَا ، بِحِيثُ يَتَكَوَّنُ مِنْهَا نَظَامٌ فِيِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ ،  
يَتَمِيزُ ، كَمَا قَلَّا ، عَنِ التَّنْظِيمِ الَّذِي سَيِّسُودُ فِيِ الْغَربِ الْمَسِيَّحِيِّ خَلَالِ  
الْقَرْنَيْنِ الْعَادِيِّ عَشَرَ وَالثَّانِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ . وَهَذَا التَّنْظِيمُ الْآخِرُ ،  
سَيِّقَبِسُ كَثِيرًا مِنَ التَّنْظِيمِ الشَّرْقِيِّ ، وَسَيِّكِيفُ الْعَنَّاصِرَ الَّتِي اَقْتَبَسَهَا  
لِظَرْفِ الْبَيْتَةِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي تَقْوَمُ عَلَىِ عَقَائِدِ جَامِدَةٍ ، وَالَّتِي لَا تَزَالُ مِنْ  
بعْضِ النَّوَاحِي بَيْتَةَ رِيفِيَّةَ .

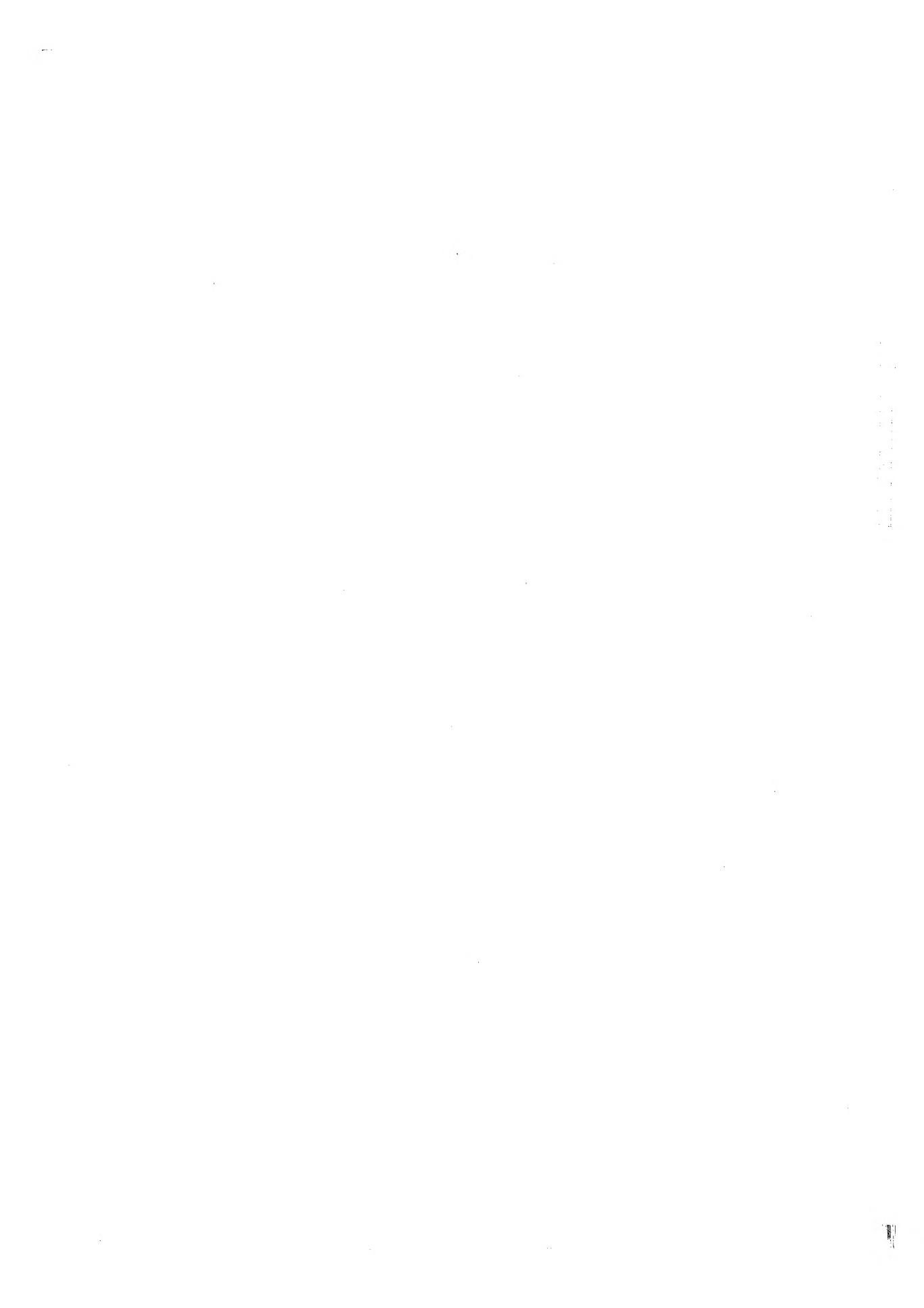
وَفِيِ هَذَا السِّيَاقِ تَجَدُّرُ الاِشَارَةِ إِلَىِ أَهْمَيَّةِ الْحَرَكَاتِ غَيْرِ الْمُتَجَانِسَةِ  
الَّتِي يَعُودُ أَصْلُهَا إِلَىِ التَّنْظِيمِ الْمَهْنِيِّ الَّذِي كَانَ سَائِدًا فِيِ الْعَالَمِ اِلْلَاهِيِّ ،

والتي يسكن التقرير بينها وبين حركات البتران (Patarien) (8) في إيطاليا الشمالية في القرن الحنادي عشر ، أو حركة (9) في حوض الأكيتاني (Aquitain) (10) (Abigeois) الأليبيجوا وكلها ذات طابع ديني واقتصادي وصوفي واجتماعي ، مثل حركة الفرامطة .

8 - هو الاسم الذي يطلق على أعضاء عدد من الجميات الالحادية البرطانية التي ظهرت في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلادي ، خصوصاً في شمال إيطاليا . «المترجم» .

9 - او « كاثار » (Cathares) اسم لطائفة انتشر نفوذها ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي في جنوب فرنسا (في ناحية مدينة ألبى (Albi) كان البابا أنوسنت الثالث قد أعلن حرباً صليبية عليها (1209 م) وقد قاد الصليبيين في هذه الحرب سيمون الرابع (Simon IV) صاحب مونفورد (Montfort) فخربوا مدينة بيزير (Beziers) ومدينة كركصون (Carcassonne) وعلى الرغم من مساندة الكونت دوتولوز ، ريمون رaimond السادس لها ، فقد هزمت هذه الطائفة في معركة وقعت في مور (Muret) سنة 1213 ثم في مدينة تولوز (Toulouse) في سنة 1218 ميلادية ، وقد كانت هذه الحرب كارثة على جنوب فرنسا لأن الحرب التي اشتراك فيها لويس الثامن ، لم تنته إلا بمعاهدة باريس (Montseegm) 1244 م وأنا انصار الطائفة ، فقد ثشت شملهم بعد تدمير مونسيجور (1244 م) . «المترجم» .

10 - يتخذ حوض الأكيتان شكلًا مثل الأضلاع ويمتد بين سلسلة جبال أرموريكا (Armoricain) وسلسلة الجبال الوسطى ، وجبال البرانس (Pyrenees) الأطلسي ، وهو يشكل في معظمها حوض نهر الجارون (La Garonne) «المترجم» .



## الفصل الثامن

# الاتاج وسلع التبادل التجاري

أهم الخصائص التي تميز المناخ الاقتصادي الذي كان ينمو فيه الاتاج في العالم الاسلامي ، هي الاقبال على الاستهلاك . والاقبال على الاستهلاك منشؤه ظهور المدن الكبيرة وازدهار العمران فيها ، حيث أن طلبات السكان في ازيداد مستمر الى الكمية والى النوع أيضا ، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة . ولكن الاقبال على الاستهلاك يشمل أيضا الكماليات الرائجة في قصور الملوك وبين طبقة السكان الثرية .

وفي هذا السياق ، يبدو من الضروري أن نقدم أولا ، وصفا جغرافيا للمنتجات التي ستتشكل قائمة محلية للسلع التي يجري تداولها في الاسواق .

وفي نهاية هذه الدراسة ، ستكون الخريطة التي نرسمها ، أكثر من مجرد عرض لهذه المنتجات (١) حيث أنها ستسلط الأضواء أيضا على سلسلة من المشاكل الحيوية . ودراسة كل قطاع للاتاج على افراد ، على ضوء متطلبات مراكز الاستهلاك ، سيسمح لنا بالتمييز بين الاتاج الذي يستهلك محليا ، والاتاج الذي يجهز للتصدير الى بلدان قريبة أو بعيدة ، وبعبارة أخرى ، السلع التي ينصب عليها التبادل التجاري مع الخارج .

وهكذا ، سنتمكن من تقييم تطور حاجات مراكز الاستهلاك وتحديد شكل الاستهلاك ، وقوة الطلب في مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها هذه المراكز : انشاؤها ، ونموها ، وازدهارها ، ثم انحطاطها .  
(١) - لم يتمكن الاستاذ الراحل من اتمام هذه الخريطة حيث عاجلهه يد المون في وقت مبكر .

وهدفنا النهائي من هذه الدراسة ، هو تقديم وصف جغرافي للمنتتجات التي يجري تداولها بنشاط من حيث المكان ( مشاكل التموين ) ، ومن حيث الزمن ( مشكلة أنواع الطلب إلى منتجات للاستهلاك ) . وستكون دراسة المنتجات على أساس قوائم كبيرة ، الخطوة الأولى في عرض مخطط عام لشبكة التبادل التجاري الخاصة لمعطيات الجغرافيا الطبيعية والبشرية .

وعلى أساس هذا المخطط ، سندرس النباتات الغذائية ومنتجات تربية الحيوانات ، والأخشاب ، ومنتجات الغابات ، والمعادن والأسلحة والنسوجات والأقمشة ، ومنتجات الحجر والارض . ومنتجات البحر ، ودعائم الكتابة : ورق البردي والرق ، والورق ، والمنتتجات الطبية والرقيق .

#### النباتات الفنائية :

يقوم غذاء الشعوب المستقرة في الشرق وعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، أساسياً على النباتات . والنباتات الرئيسية هي الجبوب ( الدقيق والخبز والعجين بمختلف أنواعه ) والزيتون الذي يشكل زيته المادة الدسمة الأساسية ، والخضروات والفواكه ، ولاسيما الكرم الذي يؤكل عنبه أو يعصر خمرا ، وهو نبات خاص بخوض البحر الأبيض في العصور القديمة ، والنخيل الذي يشكل انتاجه من التمر أساس الأغذية في الواحات . وهذا الغذاء من النبات الحالي من الطعام في ذاته ، يفترض استعمال التوابل لتحسين مذاقه .

وعلى العكس من ذلك ، فإن غذاء شعوب آسيا الوسطى الرحل ، وايران وشبه الجزيرة العربية والصحراء ، يقوم على اللحوم ومنتجات الالبان . والمادة الدسمة للطبخ في هذه المناطق ، هو السمن .

ودراسة العادات والأنظمة الغذائية – وهي تكتسي طابعاً من الأهمية لأنها بمثابة محرك للاتصال – يجب أن تكون مفرونة بدراسة المسائل التي تتعلق بنقل النباتات .

والمزروعات التقليدية في العالم القديم في حوض البحر الأبيض المتوسط . هي في معظمها : مما يزرع في الأرض الجافة : الحبوب ( القمح والشعير ) ، وشجر الزيتون والكرم . وأما المزروعات التي نقلت إلى هذه المناطق ، فهي كلها ، من المزروعات التي تعتمد على الري : الأرز وقصب السكر وشجر البرتقال والنخيل . والامر كذلك بالنسبة إلى المزروعات الصناعية : القطن وشجر النيلة .

وادخال هذه المزروعات الاستوائية وشبه الاستوائية ، يرتبط بطبيعة الحال ، ارتباطاً وثيقاً بتوسيع المناطق التي يشملها الري وبالتقدم التقني الذي تحقق في مجال الزراعة .

واتصال هذه المزروعات قد تم ، أو على الأقل ، زاد نشاطه حدة ، نتيجة لتكوين العالم الإسلامي الذي خلق حلقة اتصال بين منطقتين متكمتين للاتصال ، بتوحيد شواطئ المحيط الهندي وشواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة ، كانت الطرق التجارية التي تستعمل لتبادل المنتجات ، تستخدم في نفس الوقت وسيلة لنقل المزروعات .

ودراسة الأزمنة التي انتقلت فيها المزروعات والطرق التي سلكتها ، والتوسيع التدريجي الذي عرفته ، وما نجم عن هذا الاتصال من اتساع قائمة المنتجات الزراعية وتوعتها ، تشكل فصلاً جوهرياً في تاريخ الاقتصاد .

والاقبال على الاستهلاك ، يقوم أساسيا على حاجات المراكز العمرانية الكبيرة إلى المواد الغذائية . وهذه الحقيقة مهمة من حيث الأسباب التي أدت إليها والنتائج التي أسفرت عنها . وهذا الاقبال نجم عنه ، خصوصا نمو زراعة البقول والخضروات ، في حدائق وجنات ( فحوص ) ، تختلط في ضواحي المدينة الكبيرة .

والظاهرة الأخرى التي يمكن ملاحظتها هي ، أن بعض المزروعات تنتشر في مناطق مناخها غير ملائم ، وبالتالي ، فانتاجها ليس من النوع الجيد . ولكن ، الناس ييقون عليها ويقترون بها لأنها قرية المناج . وهذا ما حصل في الغرب المسيحي ، حيث كان الكرم يزرع في شمال فرنسا وأوروبا ، وهي مناطق تقع خارج الحدود الطبيعية لنمو هذا النبات .

وأمثلة هذه الظاهرة كثيرة في العالم الإسلامي : قصب السكر في شمال إسبانيا ، والقطن في شمال إفريقيا والكروم في أديرة الصعيد ( وكانت قد نقلت إلى هذه المنطقة لأغراض دينية ) .

ولكنه إلى جانب هذه المنتجات ، توجد منتجات أخرى تتخصص في انتاجها مناطق معينة وتتمتع بشهرة عالمية ، يجري تصديرها بفضل النمو الذي شهدته التبادل التجاري العالمي ، إلى مناطق أخرى حيث يشتغل الاقبال عليها . وهذه المنتجات هي التي يتحدث الرحالة والجغرافيون العرب عنها حين ينوهون بنوع مادة ويقولون عنها « وتجهز إلى الأقطار ». ومثال ذلك ، تميز العريض ، وجوز تبسة ، والتين والزيتون الذي تستوجه مأله ، والبرقوق والمربي التي تنتجه ضواحي دمشق .

والحبوب ، ولاسيما القمح والشعير ، من المزروعات القديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط . ويعتمد انتاج الحبوب على ثلاث مناطق كبيرة ، تشكل « الاهراء » التقليدية . وأول هذه المناطق ، مصر التي

اشتهرت في التاريخ بكثافة السكان ، وبالتالي ، فهي بلد قوي الاستهلاك . ومع ذلك ، فإن مصر كانت دائمًا تتبع فائضاً من الحبوب للتصدير . فان الضريبة من «محصول العول» التي كانت مصر تدفعها علينا ، كانت تتجه ، على التوالي ، إلى روما ، ثم إلى القسطنطينية ، ثم إلى مكة والمدينة ودمشق .

وقد كانت التجارة في الحبوب ، وهي في مقدمة المنتجات التي تصدرها مصر تجري عن طريق القوافل في اتجاه الواحات الليبية وفي اتجاه الصحراء الشرقية والنوبة ، أو بواسطة السفن إلى برقة والموانئ العربية على البحر الأحمر ، وإلى عدن وشواطئ الخليج وعندان والبحرين والبصرة . ومن هذه المدينة الأخيرة ، ينقل القمح المصري إلى بغداد .

وأما سورية ، فهي تصدر الدقيق عن طريق القوافل إلى البلاد الداخلية في شبه الجزيرة العربية ، وبواسطة القوارب التي تنزل في نهر الفرات إلى بغداد وغيرها من مدن ما بين النهرين .

وهكذا نجد بغداد ، مرة أخرى ، مع القمح المصري ، الذي يصل إليها بعد رحلة بحرية حول القارة ، والدقيق السوري الذي ينزل إليها عن طريق الفرات ونهر عيسى ، مركزاً عظيماً من مراكز التجارة العالمية في المنتجات الغذائية .

وال HERO الأخير من أهراء القمح في العالم الإسلامي ، هي إفريقيبة الشمالية ، ولا سيما سهول نهر مجردة ، وبجة التي كانت ترسل كل يوم ألف حمل بغير من الحبوب إلى القิروان وتونس .

وكذلك كان المغرب الأوسط والمغرب الأقصى كلاهما غنياً باتاج الحبوب . والمناطق المشهورة باتاج القمح والشعير ، هي سهول قسنطينة ،

## وسطيف ، وشواطيء المحيط الأطلسي ، والهضاب العليا في المغرب الأقصى

وهذا القمح الذي تنتجه إفريقيا الشمالية ، يصدر بواسطة السفن إلى إسبانيا وصقلية ، وبواسطة القوافل في اتجاه سجلماسة ، والصحراء الغربية وببلاد السودان (إفريقيا الغربية) .

والجدير بالتسجيل ، أن قوافل البربر كانت هي التي أدخلت زراعة القمح المروي في مواسم الجفاف إلى سواحل إفريقيا الغربية ، خلال الفترة بين القرن العاشر والقرن الحادى عشر الميلادي .

وفي الاتجاه المعاكس ، اتخدت الذرة البيضاء (السورغو) التي هي من الحبوب الرئيسية ، التي تنتجه إفريقيا الغربية ، طريقها إلى الشمال ، نحو التوبة ومصر العليا والواحات الليبية وبرقة والتل الجزائري ، في نقاط معينة ، ثم إلى المغرب الأقصى .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الأرز في حوض البحر الأبيض المتوسط ، بعد ما انتقل من الهند إلى أسفل ما بين النهرين حيث كان يزرع منذ الفترة السابقة لميلاد المسيح . ومن أسفل ما بين النهرين ، انتقل الأرز تدريجياً إلى جميع المناطق الملائمة في الجزء الواقع على البحر الأبيض المتوسط من العالم الإسلامي وكذلك صاحت زراعة الأرز بالسري في منخفض الفور ، أي على ضفاف البحر الميت ونهر الأردن ، وفي الفيوم والواحات المصرية ، وفي السوس الأقصى ، في جنوب المغرب وقد لقيت هذه النبتة نجاحاً ، بصفة خاصة في إسبانيا ، في سهول النهر الأعظم وفي منطقة بلنسية التي كان انتاجها وفيراً .

وهكذا نرى أن العالم الإسلامي ، قد أضاف إلى زراعة الحبوب القديمة في البحر الأبيض الروماني ، الذرة البيضاء التي جاءت من الجنوب والأرز الذي جاء من الشرق .

والأساس الآخر الذي يقوم عليه انتاج المواد الغذائية : الزيتون وهو شجر موطنها البحر الأبيض المتوسط ، حيث أن انتشاره ينحصر في المنطقة التي يسود فيها مناخ البحر الأبيض . ومراكيز الاتساح وتصدير الزيت متعددة .

وأول هذه المراكيز ، افريقية ، وخصوصا الساحل التونسي الذي يسمى « غابة الزيتون » . وهذا الشجر مفخرة افريقية التي ورثته عن الرومان ، قد قاوم عوادي الزمن ، بما في ذلك الغزو الهلالي في القرن الحادى عشر الميلادى .

وسفاقيس ، هي الميناء الكبير الذي يصدر منه الزيت التونسي « مرسى الزيت » ، كما يسمى ابن حوقل . ومن هذه المدينة يتوجه الزيت التونسي الى مصر ، وهو بلد لا يملك شجر الزيتون ، والى صقلية وايطاليا ويزنطة والمغرب الأوسط .

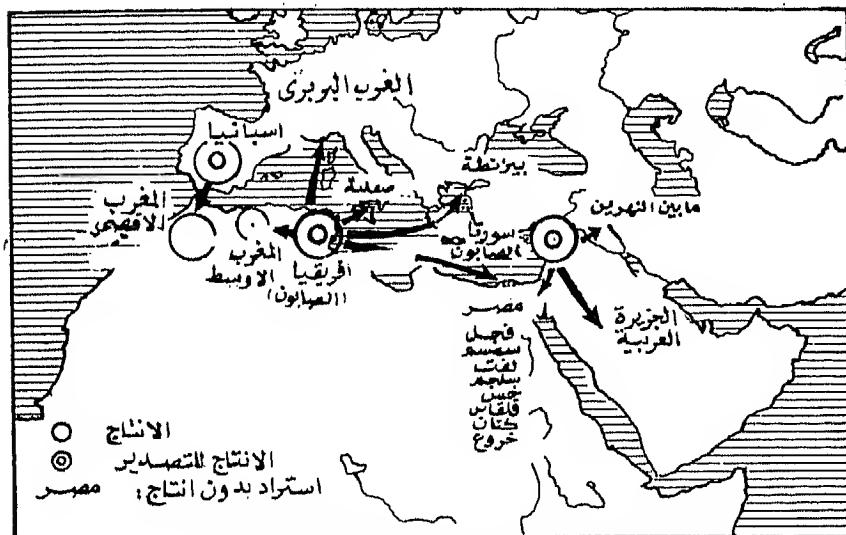
وأما سوريا ، فقد عرفت انتشار شجر الزيتون الذي تمتد حقوله من فلسطين حتى منطقة انطاكية . وسورية من كبار البادان المصدرة للزيت الذي ينقل عن طريق القوافل الى مصر وجزيرة العرب ، وعن طريق نهر الفرات الى ما بين النهرين .

وابانيا كانت هي الأخرى تصدر الى المغرب الأقصى الزيت الذي تنتجه منطقة النهر الأعظم ، وخصوصا الشرف (Algarafe) الواقعه في شمال اشبيلية .

ومن جهة أخرى ، فإن المغرب الأقصى ، شهد نمو شجر الزيتون في أرضه شيئا ، فشيئا ، ولا سيما في مناطق فاس ومكناس ( التي تسمى مكناس الزيتون ) ، حيث سيحل تدريجيا محل شجر البرتقال .

وأما مصر التي ليس لها شجر الزيتون ، ف فهي تستورد ما تحتاج إليه من الزيت من سوريا وافريقيا .

وكذلك تعتمد مصر على انتاجها المحلي من فجل الخيل والسمسم واللفت والقلقاس والخس والخروع والكتان وما يستخرج من هذه النباتات من الزيتون .



الشكل رقم ١٧ - تجارة الزيتون في البحر الأبيض الاسمالي

وبكل أن تترك موضوع الزيتون ، ينبغي ألا ننسى أن نشير إلى أن زيت الزيتون يمون عدداً من الصناعات ، مثل الصابون وزيت التواليت التي تقوم عليها صناعة الروائح العطرية . وفي هذا المجال أيضاً ، نجد أن مراكز الصناعة الكبيرة ومراكز تصدير هذه المنتجات ، تقع في سوريا وفي افريقيا .

والكروم ، مثل شجر الزيتون ، من أقدم المزروعات التي انتشرت على ضفاف البحر الأبيض من سوريا حيث كانت العقيدة الدينية تتطلب

استعمال الخمر في بعض الطقوس . ولكن الاسلام حرم الخمر ، وكان بعض الخلفاء الاتقيناء ، مثل الحكم الثاني الاموي في قرطبة ، يهددون باقتلاع الكروم : ولكنه على الصعيد العملي ظل الخمر مستعملاً ومنتشرًا في العالم الاسلامي في مجموعه ، كما كانت قصور الخلفاء كثيراً ما تتردد فيها أصوات القصائد التي يتغنى فيها الشعراء بالخمر .

والكروم تصلح في جميع الأراضي الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، ولكن المناطق الكبيرة الاتجاج والتي تنتج للتصدير ، هي فلسطين ( خمر عسقلون ) سوريا الشمالية ( بيت رأس ) ، وخمور كلتي المنطقتين كانت مشهورة منذ العصور القديمة . وقد اشتهرت مصر بخمور دمياط ومريوط ، كما اشتهرت خمور ساحل افريقيا .

وأما اسبانيا ، فقد كانت تنتج عدداً من الخمور المشهورة التي أهمها : خمر مالقه وبريجو وجيريز . وهذا النوع الأخير يعصر من عنب كرمة استوردت من شيراز ، في ايران .

وهذه القائمة من الخمور التي يذكرها المؤلفون المسلمين بكل تسامح ، تدل على أن زراعة الكروم كانت تحظى بعناية على الرغم من تحريم القرآن للخمر وهذه الحالة سوف لا تتغير إلا في القرن الحادي عشر الميلادي ، حينما تغير وضع الاسلام .

وعلى كل حال ، فإن البلدان المذكورة نفسها كانت من أكبر المنتجين للزيت : دمشق والخليل في سوريا ، وأنسن في مصر العليا ، ومالقه في اسبانيا .

وشجر النخيل موطنـه الحقيقي والمفضل ، هو ما بين النهرين وايران . ومنذ الفترة السابقة للفتح الاسلامي ، كانت النخلة قد دخلت إلى سوريا الجنوبيـة ومصر وجنوب تونس . ولكن الفتح الاسلامي وسع زراعة

النخيل ، الى سوريا الشمالية وجزيرة صقلية خصوصاً ، ( غابات النخيل في مالطة وعين زربة ) ، والى إسبانيا ، وخصوصاً الى الصحراوى الغربية حيث يعتبر التوسيع في تربية الجمل واتجاج العلف وحفر الآبار وزراعة النخيل ، عوامل أساسية في اعمار الصحراوى .

والمناطق الكبيرة الاتجاج والتي تصدر التمر ، هي شواطئ الخليج ، وجنوب تونس والجزائر : الجريد ومنطقة بسكرة والزاب .

وأما قصب السكر ، فقد أدخلت زراعته من الهند الى ما بين النهرين ( سوزيان ) في عهد كسرى أنو شروان ( 530 - 579 م ) ( 1 ) من الهند . وقد أصبحت ولاية سوزيان ، أو خوزستان فيما بعد ، مركزاً مهماً لزراعة قصب السكر ، يمتد جميع مناطق الشرق الإسلامي بهذه المادة . ومنذ ذلك الوقت ، نلاحظ قيام صلة بين العمل في مزارع قصب السكر واليد العاملة من العبيد السود الذين يستوردون من إفريقيا الشرقية .

ومن خوزستان ، ستنتقل زراعة قصب السكر ، في مرحلة تالية ، وتنتشر في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصر الإسلامي وخصوصاً في مصر التي صلح فيها قصب السكر وبوشرت زراعته فيها ابتداء من القرن الثامن الميلادي . ومنذ ذلك الحين كانت أخصب التربة المصرية تزرع بقصب السكر .

ومن مصر ، انتقلت زراعة قصب السكر الى سوريا ثم الى جنوب المغرب . الأقصى ( منطقة وادي سوس ) ، والى الشواطئ الإسبانية الجنوبيّة

1 - كسرى الأول ، أو خسرو انثروان بن قباد ، ملك ساساني حارب بيزنطة واحتل أنطاكية ثم عقد معاهدة مع البيزنطيين واستولى على اليمن ( 570 م ) ، اشتهر بعده وبمشاريعه الزراعية ولا سيما ، مسح الأرض واصلاح نظام الضرائب . «المترجم» .

ولكن مصر ، ستظل المركز الرئيسي في حوض البحر الأبيض المتوسط لاتاج السكر ولتصدير هذه المادة . وكذلك كانت مصر تستهلك ( على الأقل ، في قصور الفاطميين ) كميات كبيرة من السكر الذي سجلت صناعته تقدماً معتبراً . وكانت الحلويات والمربيات المصرية تتمتع بشهرة واسعة . وكانت المربيات من أهم صادرات دمشق . ونحن ينبغي ألا ننسى أن عادة تناول « الحلو » بعد الوجبات عادة شرقية .

والسكر الذي يصنع في مصر والشام ، سرعان ما تجد كميات كبيرة منه طريقها إلى بيزنطة ثم إلى الغرب المسيحي . وأول شحنة من السكر ( الاسم الذي لا تزال هذه المادة تحمله في اللغات الأوروبية ) سجل تاريخ وصولها إلى البندقية ، تعود إلى سنة 996 ميلادية .

وكما أشرنا ، فإن زراعة الخضر والفواكه قد انتشرت حول المدن الكبيرة وقد تحسنت طرق الاتاج تحسناً معتبراً ، خصوصاً بتوسيع المناطق المروية . وكانت إسبانيا مثلاً لتطور زراعة الخضر والفواكه .

وفي هذه الفترة ، انتشرت زراعة الخرشوف والسبانخ والكراث الأندلسي والموز والأترج والليمون والبرتقال . وقد أدخلت زراعة البرتقال من بلاد ما بين النهرين إلى سوريا في سنة 943 م . ، وفي سنة 970 ، شوهد البرتقال في جزيرة صقلية وفي جنوب المغرب الأقصى وفي نهاية القرن العاشر ، وصل البرتقال أيضاً إلى مالقة ثم إلى غرناطة وفي سنة 1047 ميلادية ، كان البرتقال يزرع في مصر على السطوح في أكياس خاصة . وفي سنة 1068 ميلادية ، وصل البرتقال إلى بيروق .

وهكذا تكونت « حديقة » أو ، إن شئت ، « واحة » البحر الأبيض المتوسط ، بما فيها من شبكة من قنوات الري ومن أنواع الخضروات وأشجار الفواكه النموذجية . وهذه الحديقة الإسلامية تختلف اختلافاً

كثيراً عن الحديقة المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة ، والتي أضيفت إليها أنواع كثيرة من النباتات والأشجار في العصر الهليني ، مثل العزر والكرز والخوخ والمشمش .

وفي فترة لاحقة ، سيتلقى حوض البحر الأبيض أنواعاً جديدة من النباتات الأمريكية ، مثل الفاصوليا والطماطم والبطاطس والذرة الصفراء والتين الشوكى « الصبير » .

وكم نرى ، فإن الفترة بين القرن الثامن والقرن العادى عشر الميلادى ، تشكل فى مجموعها مرحلة هامة فى تاريخ المزروعات الغذائية ، وذالك بدخول أنواع جديدة من المزروعات وبتنمية تقنية الزراعة والاتساع فى نفس الوقت .

#### تربيه الحيوانات :

ينبغي أن نفرق بين تربية الحيوانات فى المدن للأغراض المنزلية ، وتربيه البدو الرحيل للحيوانات ، حيث أن نشاط الفئة الأخيرة يكتسي أهمية أكبر بسبب تعدد الأغراض التي تستخدم الحيوانات فيها ( توفير اللحوم والدهون ومنتجات الألبان ) . والحيوانات التي تتبعها الفئة الأخيرة توفر أيضاً المادة الأولية للصناعات ( الصوف والجلود ) ، كما توفر الطاقة المحركة ( الفرس والجمل والبغل والحمار ) . وهذه الحيوانات ، من جهة أخرى . هي أساس القواقل التي تتكون من عدد كبير من حيوانات النقل والتي تربط بين الطرق التجارية في اليابسة . ويضاف إلى ذلك ، ما تنتجه هذه الحيوانات من طاقة الدفع والجذب لتسخير التواعير (2) والآلات التي يستخلص بها الماء لأغراض الري .

---

2 - راجع : G.S. Colin, *La Noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe*, Hisperis, XIV, 1932, pp. 22 et suivantes.

نمت تقنية تخصيص الحيوانات لأغراض معينة في العالم الإسلامي ، ولا سيما تقنية الفروسيّة تحت تأثير حضارة آسيا الوسطى : الركاب ، والسرج ، وأكليل الجواد ، وقلادة الشد ، ولعبة كرة الفرسان «البولو» . والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ترتبّت على نمو تقنية تربية الحيوانات وتخصيصها للأغراض التي تلائمها ، تفاجئ خطيرة الشأن ، ومن هنا أهمية دراسة مناطق تربية الحيوانات وامتداد هذه المناطق وتنوعها ، وتنقل الحيوانات .

انتشر الجمل في مراكزين واسعين : أولاً : آسيا الوسطى بلد الجمل ذي السنامين (المسمى البكتري) ، وبلده الأصلي هي المنطقة التي تمتد بين النهرين الكبيرين ، أموداريا وسرداريا ، ثم جزيرة العرب ، ولا سيما وسط الجزيرة «نجد» ، بلد الجمل ذي السنام الواحد .

وقد كانت المناطق الرئيسية لتربيّة الجمل في غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، هي : آسيا الوسطى وايران وما بين النهرين من جهة ، والجزيرة العربية (نجد وعمان وحضرموت والحجاز) ، ثم أثيوبيا والنوبة (جمال بجة) وواحات الصحراء الغربية ، من جهة أخرى .

ولكن منطقة الجمل ستتسع لتشمل سوية الشماليّة ، وآسيا الصغرى ، وضفاف بحر قزوين من روسيا الجنوبيّة ، وأسبانيا ، والسودان ، وكذلك تعددت طرق انتقاء السلالات والهجين ، ولا سيما بين قطعان الساقية الحمراء ، التي ستنتاج البعير القوي والبطيء لحمل الأثقال ، والبعير السريع الذي يستعمل للركوب ، وخصوصاً لنقل الأخبار .

والفرس له أربعة عروق أساسية : الفرس التركي – المنغولي الذي أصله آسيا الوسطى ، وهو صغير ، مكتنز ، قوي العضلات ، شديد

المراس ، وقنوع . وهذا الفرس ، هو الذي تتكون منه خيالة كبار الغزاة الآسيويين . وأصل هذا الفرس يمتد شرقاً إلى الصين الشمالية ، وغرباً إلى السهوب وأوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى .

والفرس الإيراني مفتول العضلات ، ويستطيع أن يحمل فارساً مدججاً بسلاح ثقيل ، وهذا الجنس يصدر كثيراً إلى الخارج ، وقد وصل إلى الهند ، عن طريق الخليج ، فكان تجار الخيل الإيرانيين هم الذين كانوا خيالة مهرات (3) .

والفرس البربرى ، أصله من نوميديا (4) ، أو بعبارة أدق هو ينتمي إلى التلال المرتفعة الشمالية والى أطراف الصحراء في هذه المنطقة ، وهو حيوان صغير نوعاً ما ، قوي البنية شديد المراس ، ومنذ العصور القديمة ، كانت خيول جميع البلدان الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط الغربية تلتحم تدريجياً بدم الفرس البربرى ، وذلك خصوصاً في إيطاليا وأسبانيا وفي جنوب الجولوا ، وغزو المسلمين لأسبانيا وصقلية بجيشه يتغلب فيه العنصر البربرى ، سيعزز هذا الاتجاه ، وينجم عنه الحصان الأنجلوسي الذي يسمى باللغة الإسبانية « جنيت » (Jinet) أي زناتي ، نسبة إلى القبيلة البربرية الكبيرة ، التي اشتهرت بفرسانها ، والتي كانت تقطن الهضاب المرتفعة في المغرب .

والجنس الأخير في الخيول المشهورة ، هو الفرس السوري الذي ظهر منذ عهد الرومان ، نتيجة لتهجين الفرس البربرى الذي كان يستورد إلى شمال سوريا ، بالسلالة الإيرانية التي كانت ترعى في الشتاء في سهوب الصحراء « بادية الشام » ، ثم انتشر في العصر

3 - شعب هندي يسكن ولاية مهاراشترا (Maharashtra) « المترجم » .

4 - تعتقد نوميديا بين قرطاجنة والمغرب الأقصى في عهد الرومان ، والجزائر تشكل تقريباً ، نوميديا ، مع تعديل خفيف في الحدود الشرقية . « المترجم » .

الإسلامي الى نجد ، وهي منطقة رعي مرتفعة في وسط الجزيرة العربية ، والحصان العربي الحالص ، هو حصان للسرج والركوب ، وله شكل رفيع ذو حرارة وحركة سريعة ، وكان الحصان العربي يصدر الى الشرق عن طريق الخليج ، حيث يختلط بالخيول الإيرانية التي تصدر الى الهند ، كما كان يصدر الى الغرب في اتجاه البحر الأبيض المتوسط .

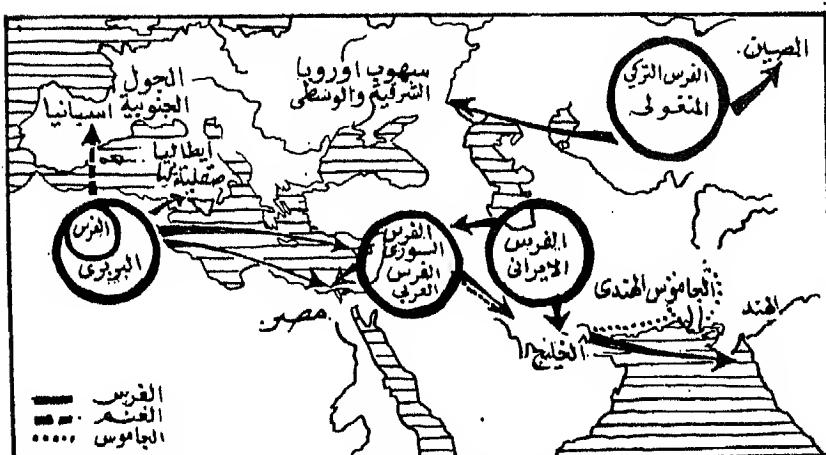
وقد كانت مصر هي الأرض التي التقى فيها الحصان العربي الفارسي بحصان إفريقية الشمالية ، ومن هنا كانت خيالة مصر تبعث الرعب في نفوس الغزاة المنغول والصلبيين .

وفي مقابل النمو الذي شهدته تربية الخيول ، نلاحظ تقدما تقنيا كبيرا في دراسة خصائص الخيول وأصولها ، كما تشهد بذلك الكتب العديدة التي وضعت في هذا الموضوع ، فإن الدارسين للفرس اهتموا بتصنيف مزايا الخيول وعيوبها وأمراضها وسرعتها ، بدقة . وهذه العناية والتدقيق ، كانت أساسا لمصطلحات تقنية كثيرة ولطرق البحث سيطرورها البيزنطيون والغرب المسيحي ، ولكنهم سيحتفظون ، مع ذلك بكثير من المصطلحات والكلمات العربية التي لا يزال المختصون في تربية الخيل يستعملونها حتى الآن .

ومن المسائل المهمة التي تتصل بتربية الخيل ، مسألة التوسع في زراعة النباتات الضرورية لغذاء الفرس ، مثل الشعير والبرسيم فان السهوب وأطراف الصحراء ، تحتوي على مراعي طبيعية ولكن مناطق الزراعة الكثيفة والحدائق ، تحتاج الى خلق مساحات للرعي بطرق صناعية ، مثل المروج المروية .

وكذلك رأينا زراعة البرسيم تنتشر من إيران إلى ما بين النهرين ثم إلى مصر وأسبانيا غرباً ، وإلى الصين عن طريق آسيا الوسطى شرقاً .

والغنم يربى لتوفير الغذاء للرحل ، ولكنه يربى ، خصوصاً ، لانتاج الصوف ، ومن ثم ، فإن من الطبيعي أن يرتبط التوسيع والتقدم في تربية الغنم ، بنمو صناعة الصوف ، وهذه الظاهرة ، سنشاهدها في إنجلترا خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، حيث كانت قطعان الأديرة الانجليزية تقدم المادة الأولى الضرورية لصناعة الأجواف الفلميكية .



الشكل رقم ١٨ - انتقال أنواع من الحيوانات وتقامها في العالم الإسلامي  
(خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر)

وفي غضون الفترة التي تهمنا (القرن الثامن - القرن الحادى عشر الميلادى ) ، كان العالم الإسلامي هو المنتج الوحيد للصوف في العالم . ونحن هنا ، بالطبع نتحدث عن انتاج واسع النطاق ومن النوع الجيد .

والموطن الأول لترية الغنم ، هي السهول المرتفعة التي تمتد في شمال افريقيا ، حيث كانت تربى سلالات ذات صوف رفيع غزير مجدد نادر . وهذه السلالات ، تكيفت في إسبانيا بفضل البربر الذين استقروا في هذه الديار . والغنم البربري ، لا يزال يحمل باللغة الإسبانية اسم « ميرينو » (Merino) المشتق اما من « بني مرين » ، وهي قبيلة ببرية من الرحل في المغرب الأقصى أو من الكلمة العربية « مرن » ، أي لين ناعم ( الصوف ) .

والى جانب تلقيها لهذه السلالة من الغنم ، استقبلت إسبانيا أيضا ، طريقة البربر لترية الغنم ، وهذه الطريقة تقوم على التربية الجماعية للغنم ، بمعنى أن مجموعة من السكان تعهد بقطع كثيف للرعي إلى راعي مسؤول يساعدته عدد من الرعاة ، على معرفة تامة بالرعاي الجيدة في الصيف وبالمناطق الجبلية ، وبهذا النظام الذي يسمى « المشتى » تملك إسبانيا ، مؤسسة للرعي نادرة في العالم ، سيستمر العمل بها حتى القرن العشرين ، بكل ما تنطوي عليه من الامتيازات والطرق التي تسلكها القطعان ، والراعي المخصصة لها ، والقوانين التي تضبط نشاطها ، والمصطلحات المستعملة في تربية الغنم والرعى في اللغات القشتالية (الشهيرة بالرعاي وترية الماشي) واللغة البنلسية ، واللغة البرتغالية ، يعود كثير من ألفاظها إلى أصل عربي ، مثل « مشتى » (Mashta) و « المشترك » (Mustrah) و « الغنام » (Alganame) (Masra) ومنذ القرن الثامن والقرن التاسع الميلادي ، قامت في إسبانيا اتحادات وجمعيات تضم الرعاة وملوك قطعان الغنم . وفي هذه الفترة ، بدأ تنظيم مؤسسة المشتى التي ستتسع وتقوى ، خصوصا في القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو عصر استعادة المسيحيين للأندلس ، وهذا العصر الذي أصبحت فيه إسبانيا مسيحية من جديد ، هو الذي ستكرس فيه جهودها لتنمية وتوسيع كثير من المؤسسات الإسلامية . و « مريتو »

و « المشتى » مؤسستان في مجال تربية الغنم ، من وضع البربر في إسبانيا .

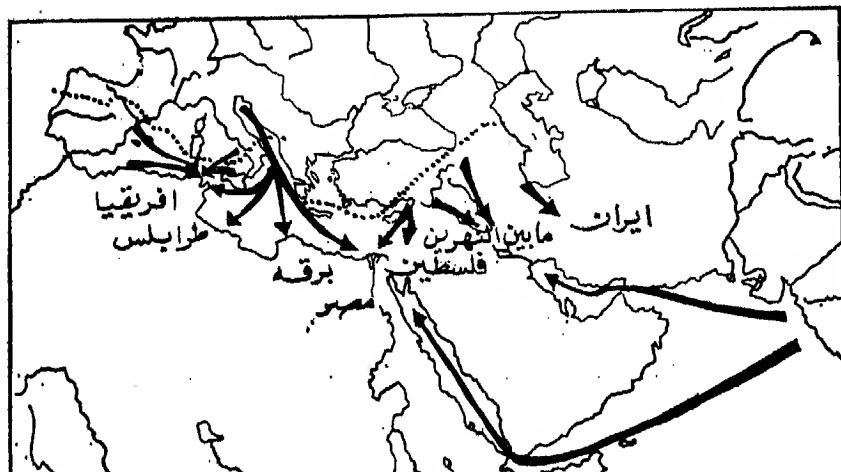
وأما تربية سلالات البقر ، فقد كانت لها أهمية أقل في العالم الإسلامي ، حيث أن حياة البقر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بروبوة المناخ وبالعشب الغزير . وكذلك نرى أن تربية البقر نشاط يمارسه ، خصوصاً سكان السهول الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي في المغرب الأقصى ، وفي بعض المناطق المحظوظة في التل الجزائري ، وفي إسبانيا . والنقطة التي تستحق التسجيل في هذا السياق ، هي وصول الجاموس الهندي إلى العالم الإسلامي عن طريق هجرة قبائل الرزط . وقد انتقل الجاموس من منطقة المستنقعات التي تتدلى في دلتا نهر السند ( وهي التربة المفضلة للجاموس ) . ولما أبعد الرزط في منتصف القرن الثامن الميلادي من هذه المنطقة إلى المستنقعات الواقعة في أسفل ما بين النهرين ، استصحبوا معهم هذه الحيوانات . ومن هناك ، انتقل الجاموس إلى سوريا الشمالية حيث تكيف وتأنق في مستنقعات نهر العاصي .

وبصفة عامة ، فقد شهد نشاط تربية الحيوانات في العالم الإسلامي توسيعاً وتحسيناً لنوع الاتاج . ولكن هذا النشاط واجه عقبات جمة من أهمها تخريب الرعاة للغابات التي يشعلون النار فيها لكي يحولوها إلى مراعي ، وانحطاط نوع التربة والقضاء على البراعم والنباتات الصغيرة . والافراط في استغلال مناطق الرعي بطريقة المشتى سيحدث أضرار كبيرة في جزء مهم من الأراضي الإسبانية . فانسوء معاملة الغابات الناشئة ، مضاداً إلى ذلك أحوال المناخ وتقلبات الطقس في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي جميع بلدان الشرق الإسلامي تهدد الغابات بأن تتحول تدريجياً إلى سهوب ثم إلى صحاري والافراط في استغلال الأرض للرعي ، سيؤدي إلى قيام مشكلة مهمة جداً : مشكلة الغابات .

## الخشب ومنتجات الغابات

مناطق الغابات الحقيقة محدودة في العالم الإسلامي فالغابات الواقعة على الضفاف الجنوبي لبحر قزوين ، إنما هي امتداد في الاتجاه الشرقي لغابات مملكة البوونت ( سابقا ) التي تنتشر بهذا الشكل من الشواطئ الشمالية في آسيا الصغرى الى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين ( جبال البرز ) .

وبنفس الشكل ، تمتد الغابات السورية عند أطراف سهول الأناضول ، حتى لبنان . وكذلك توجد بعض الغابات في جزيرة صقلية وفي المغرب وأسبانيا وهذه هي مساحات الغابات في العالم الإسلامي . ووراء هذه البقع الخضراء من الشجر ، في بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية ، وفلسطين ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وأفريقيا ، والصحراء لا يوجد أثرا للغابات .



الشكل رقم ١٩ - تموين العالم الإسلامي بالخشب .

والغابات التي تقع خارج العالم الإسلامي ، أقربها هي التي تمتد على الشواطئ الشمالية للبحر الأبيض المتوسط : غابات الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة ( أبنين ، والألب ، ايستر ، ودالماتيا ) ، وغابات الامبراطورية البيزنطية ( البلقان وأسيا الصغرى ) . ولكننا اذا توغلنا في شرق العالم الإسلامي ، وراء منطقة واسعة الأطراف من السهوب والصحراء ، ووراء امتداد المحيط الهندي ، فان الغابات التي ستقابلنا ، هي غابات شواطئ الهند الغربية ، وخصوصا ، غابات الساج في ملبار .

واما موارد الغابات القديمة في الشرق وفي الحوض الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد أفرط في استغلالها منذ وقت طويل ، في عهد حضارة ما بين النهرين وحضارات الفينيقيين والمصريين . ففي هذه العهود ، كانت الغابات تقدم المادة الأولى لمراكيز الصناعة ولتعمير المدن ، وخصوصا لبناء الأساطيل ، ولا سيما أساطيل الفينيقيين . ونتيجة لذلك ، وقع تخريب وتدمير للغابات لا يمكن تعويضه ، زاد من خطورته استغلال الرومان . لموارد الغابات بدون تميز ولا رعاية . وقد كان لبنان ، من أكبر المنتجين لخشب الأرض في العالم القديم ، وكان يمد جميع مصانع السفن في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي بالخشب . ولكن هذا البلد توقف عن تصدير الخشب منذ العصور الوسطى العليا . ونحن الآن نعرف ماذا جرى لغابات لبنان التي كانت من أجمل غابات العالم ، حيث لم يبق منها سوى بقع وأشجار منتشرة هنا وهناك .

ومع ذلك ، فان الجبال كانت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، أقل عريبا مما هي الآن .

ومثال ذلك ، فان جبل الأنبارية ( جبل العلوين ) الذي شهد في القرن العاشر والقرن الحادى عشر استغلالاً واسعاً للطاقة ، وكان ينتج الخشب للتصدير ، أصبح الآن عارياً أجرد كلياً .

ومما يزيد مشكلة الغابات تعقيداً ، أن الاقبال على الخشب كان يتزايد مع مرور الزمن بظهور حاجات جديدة إلى استعماله . وال الحاجة إلى الخشب كانت ، أولاً ، لتوفير الوقود للصناعة : صناعة المعادن والزجاج القديمة ، والصناعات الجديدة مثل السكر ، المنتشرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

وهذه الظاهرة — ظاهرة تعرى الجبال من الغابات — ستشهد لها جزر الاتيل ، بدورها ، في غضون القرن الثامن عشر الميلادي ، نتيجة لانتشار صناعة السكر المستخرج من قصب السكر .

وبعد ذلك ، تأتي الحاجة إلى الخشب لبناء المنازل في المدن التي تزداد اتساعاً مع مرور الزمن ، ثم لأغراض الري ، حيث أن الخشب ضروري لصنع رافعات الماء ، ولتبطين الآبار . ثم الحاجة إلى الخشب لبناء السفن : لبناء الأساطيل التجارية التي تزداد الحاجة إليها باتساع نطاق التبادل التجاري بالطرق البحرية والنهرية ، من جهة ، ولبناء الأساطيل الحربية لمواجهة بيزنطة التي دخلت في نضال طويل مع العالم الإسلامي من أجل السيطرة البحرية ، من جهة أخرى . ونتيجة للتغير الذي طرأ على تقنية صناعة السفن التي زادت أحجامها وأصبحت تحمل سارية طويلة للشرع المعروف بالشرع اللاتيني ، احتاج الأمر إلى قطع طويلة من الخشب ، وبالتالي إلىأشجار أكبر .

وأخيراً ، الحاجة إلى الخشب لصناعة الأثاث ، تلك الصناعة التي ينشطها انتشار حياة البذخ في منازل الأغنياء وفي قصور الملوك .

ومتحف القاهرة يحتفظ لنا بمنماذج رائعة من الخشب المحفور والمنحوت والمرصع . وينبغي أن نلاحظ في هذا السياق أن الخشب يجمع قطعة قطعة . وهو يشكل مادة ثمينة يسعى الصناع جهدهم لاستغلال كل قطعة منه لغرض من الأغراض .

والنتيجة الغريبة التي نلاحظها ، هي أن تقنية استخدام الخشب سجلت تقدماً في العالم الإسلامي أكبر من الذي شهدته البلدان التي تنتج كميات كبيرة من الخشب . وكذلك نرى أن البلاط البابوي قد التجأ في القرن الرابع عشر الميلادي إلى العمال والصناع العرب في إسبانيا لوضع سقف قصر البابا في أفينيون ولتزينه .

وقد كان الطلب للخشب قوياً ، خصوصاً ، في بلاد ما بين النهرين ، ومصر ، وأفريقيا الشمالية ، وهي من البلدان القوية الاستهلاك والتي لا تملك موارد من الخشب . ومصر أقل هذه البلدان غابات وأشدتها اقبالاً على استهلاك الخشب ، حيث أنها تملك صناعة متقدمة ، تتطلب كثيراً من الوقود (صناعة السكر ، مثلاً) في الوقت الذي تحتاج فيه إلى كميات كبيرة من الخشب لأغراض الري ، ولبناء المدن ، ولا سيما القاهرة الجديدة التي شيدتها الفاطميوна (لبناء المنازل ولصنع الأثاث) ، ثم لبناء قطع أسطولها الكبير التي تستعمل للملاحة النهرية والملاحات البحرية : البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر .

ولحل مشكلة الخشب ، كانوا يعتمدون ثلاثة وسائل ، أولاً : تنظيم استعمال الموارد المحلية المتواضعة من الخشب . فقد كانت جميع قطع الخشب التي يمكن استعمالها لبناء السفن في مصر الفاطمية تخصص دور صناعة السفن التابعة للدولة . وفي نفس الوقت تحاط الغابات العمومية بعناية خاصة ومراقبة دقيقة لقطع الخشب .

وثانياً : كانت السفن المصرية والسورية تقوم بشن هجمات على شواطئ الاناضول ودماتيا التابعة لبيزنطة للحصول على الخشب .

وثالثاً وأخيراً ، استيراد الخشب من البلدان البعيدة التي تملك ثروة من الغابات . وكذلك كان خشب أرمينية ينزل بواسطة تعويمه في دجلة حتى مدينة بغداد .

ومن الهند ، يستورد خشب الساج الذي ينقل إلى بلاد ما بين النهرين عن طريق الخليج ، والى مصر ، عن طريق البحر الأحمر وقناة أمير المؤمنين التي يوصل فيها على طولها الطبيعي إلى مستودع الخشب في ساحل الخشبة .

وأما الغرب المسيحي ، فيصدر إلى العالم الإسلامي أخشاب الصنوبر والتوب التي تتوجهها غابات أبينز والألب وايسترلي ، عن طريق أمالفي والبندقية . وكما حدث بالنسبة إلى الأسلحة فقد كان تصدير الخشب ، ولا سيما في شكل قطع طويلة ممنوعاً بعد ما حرم هذا النشاط الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا في نضال دائم مع المسلمين من أجل السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ونحن نذكر بأن سلطات القسطنطينية قد أحرقت في سنة 971 ميلادية ، ثلاث سفن تابعة للبندقية كانت تنقل الخشب وكان اثنان منها ، على وشك الاقلاع في اتجاه المهدية ، والثالثة في اتجاه طرابلس .

على أن تجار البندقية لم يكونوا يحترمون قرار حظر تصدير الخشب إلى العالم الإسلامي ، أكثر مما كانوا يهتمون بالقرار الذي يتعلق بحظر تصدير الأسلحة إلى هذه المنطقة . فان هذا النشاط التجاري كان مورداً لأرباح طائلة ، حيث أن التهريب كان في جميع العصور أوفر مكسباً من التجارة المشروعة .

وكذلك نجد أن العالم الإسلامي كان يواجه حالة دقiqueة للغاية ، فيما يتعلق بالحصول على ما يحتاج اليه من الخشب . وهو يعتمد على مناطق غابات بعيدة تفصل بينه وبينها مسافات طويلة وتحتقرها طرق تتعرض لجميع المخاطر التي تتعرض لها العلاقات بين طرفين متبعدين . وهذا الخشب الطبيعي كثير التكاليف ويدفع ثمنه بالذهب . وفيما يخص هذه النقطة ، نجد أن العالم الإسلامي فقير ، بالقياس الى الغرب المسيحي الذي يملك موارد لا تستنزف من الخشب . وقد ظل الغرب المسيحي يتمتع بهذا الوضع حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حينما أخذ يواجه صعوبات في توسيع المدن الكبيرة بالخشب .

وهذه الطرق التي يسلكها الخشب الى العالم الاسلامي ، هي نفس الطرق التي تسلكها منتجات الغابات الأخرى ، مثل عسل النحل والقار والفراء .

العنوان

أدى النقص في الخشب الذي كان يشكو العالم الإسلامي منه الى فرض قيود على نمو صناعة المعادن . فان الطرق القديمة لمعالجة المعادن تحتاج الى كميات كبيرة من الخشب او من الفحم الخشبي . وهذه الكميات من الضخامة بحيث تستهلك غابات بأسرها : فان الحصول على 10 كيلو جرام من الحديد النقي ، يتطلب 150 مترا مكعبا من الفحم الخشبي . وكذلك كانت صناعة المعادن في الحضارات الشرقية القديمة « تبتلع » الغابات بسمهولة .

وأخطر من النقص في الخشب في تقييد صناعة المعادن في العالم الإسلامي ، هو فقره في المعادن . وهذا الفقر مرجعه الى فقر جوف الأرض نفسه . فان الشرق لا يحتوي الا على مناطق قليلة من الأرض

الغنية بالمعادن . ويضاف الى ذلك ، استنزاف العروق المعدنية السهلة المنفذ ، بسبب الافراط في استغلالها خلال آلاف السنين في بعض الحالات . وأخيرا يجب الا ننسى النقص في تقنية معالجة المعادن ، ذلك النقص الذي ينجم عنه ضياع كميات من المعدن النقي ضمن الخبيث أثناء المعالجة .

وهنا أيضا ، سيعوض الاستيراد من البلدان البعيدة ، على الأقل جزئيا ، عن النقص : فان السفن الاسلامية والقوافل ، كانت تقصد البلدان الواقعة على أطراف العالم الاسلامي ، وبعضاها بعيد جدا ، وتحمل منها المعادن الخام ( الذهب ، والحديد ، والقصدير ) أو المنتجات الكاملة الصنع ( السيف وأدوات الطبخ المصنوعة من النحاس ) .

واما البلدان المنتجة ، ( وهي مراكز لصناعة المعادن ) ، فهي القوقاز ، وجبال الآرال ، وجبال الآلطي ، والهند ، وافريقيا السوداء ، أو الغرب المسيحي . وكذلك نرى أن قاعدة المعادن التي يقوم عليها الاقتصاد الاسلامي غير متينة . فالعالم الاسلامي ، هنا أيضا ، يعتمد على الخارج .

ففيما يتعلق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة ، التي هي أساس صناعة الصياغة ، فقد سبق أن أشرنا ، في سياق الحديث عن المناطق المعدنية التي تموّن دور الضرب ، الى أن العالم الاسلامي لا تحتوي أرضه الا على عدد صغير من مناجم الذهب . وهذه المناجم تقع في الجزيرة العربية وفي أرمينيا ، ويضاف الى ذلك مغسلانة لتراب الذهب في كرمان وفي أسبانيا ( عند نهر التاجو ) . ولكننا رأينا أيضا أن كميات كبيرة من الذهب المكتنز قد أدخلت في دائرة النقد المتداول أثناء الفتوحات الاسلامية ، وأن الذهب كان يتذبذب على العالم الاسلامي ، نتيجة لاتساع نطاق التبادل التجاري مع البلدان الواقعة في الشمال

وفي الشرق وفي الجنوب . فأما الذهب الآسيوي ، فهو يأتي من القوقاز والآرال والألطاي والتبت وتركمستان . ولكن ذهب إفريقيا السوداء أوفر من ذهب آسيا ونحن نستطيع أن نميز ثلاث مناطق منتجة للذهب في القارة الإفريقية .

أولاً : المنطقة التي تمتد بين نهر النيل والبحر الأحمر .

ثانياً : بلاد النوبة .

ثالثاً : ساحل إفريقيا الشرقية .

ومن هذه المناطق ينقل الذهب الذي يستخرج منه السود من مناجم تقع في الداخل إلى المراكز التجارية التي أقامها المسلمون على الشواطئ ، التي من بينها « سفاله الذهب » ( وربما كانت هي المنطقة التي تسمى أوفير Ophir ) في العصور القديمة . وإلى الشمال من ذلك ، يقع مركز بلاد الزنج . وأخيراً ، ينقل الذهب من شواطئ إفريقيا الغربية « السنغال ، والنيجر ، وساحل الذهب » ، على ظهر الجمال وقوافل البربر عبر الصحراء ، إلى بلاد المغرب .

وهذا الذهب هو الذي يوفر المادة الأولى لسك الدنانير ولصناعة الصياغة التي كانت مهمة . فإن معامل الصياغة في القصور وفي الحواضر ، مثل أسواق الصياغة ، نشطة في كل مكان . ونقود الذهب المتداولة تتسبك وتتصاغ ، ثم تذاب ويعاد سبكها مرة أخرى . وهذه الحقيقة تشهد بها قائمة مخلفات القصور الفاطمية ، على الرغم من قلة ما وصلينا من تحفها .

والفضة تستخرج في كثير من الحالات من مناجم الرصاص التي تحتوي على معدن الفضة . وبعد استخراج المعدن المختلط ، يعالج ثم

يفصل الرصاص عن الفضة . والمناطقان الرئيستان التنان يستخرج العالم الاسلامي منهما ما يفي بحاجته من المعدن الأبيض ، هما : شريط من الأرض التي تحتوي تربتها على معدن الفضة ، يمتد في شمال ايران ( من القوقاز حتى تيانشان ) ، حيث تقع مناجم بنجهر الشهيرة ، في شمال كابول ، ومناجم أسبانيا المسلمة التي استغلت بافراط ، بحيث لم تعد تحتوي في عصرنا هذا الا على عروق من الرصاص .

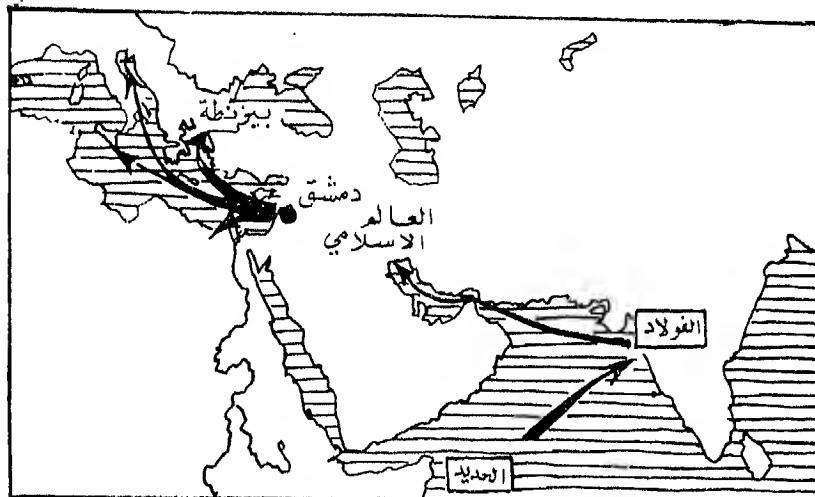
ومعدن الفضة الضروري للصياغة ولصك النقود « الدرهم » ، تستورد منه كميات كبيرة الى مصر الفقيرة من هذا المعدن الذي يحظى في البلد بمكانة لا تقل عن مكانة الذهب نفسه ، كما تشهد بذلك الآثار والنقوش التي لا تزال محفوظة في مساجد القاهرة .

والعالم الاسلامي لا يملك الا ثروة قليلة من معدن الحديد . واستغلال مناجم الحديد ، في معظم الحالات يقتصر على طبقة سطحية من الأرض يسهل الحفر فيها . وهذه المناجم كانت معروفة منذ زمن بعيد ، وتقع في لبنان ، وفي افريقيا الشمالية وفي اسبانيا ، وخصوصا ، تلك التي تمتد في « قسنطينة الحديد » في غربي قرطبة عند سفح جبل الشارات (Sierra Morena)

وفي هذا المجال أيضا ، يحتاج العالم الاسلامي الى تكميل موارده الخاصة من البلدان المجاورة ، او من البلدان البعيدة . فمن القوقاز ، مثلا ، يستورد العالم الاسلامي الحديد والخراء في صناعة الحديد من ورثوا تقاليد قديمة في صناعة المعادن : فان سكان وادي داغستان ، كانوا متخصصين في صناعة الدروع والزروع .

ولكن العالم الاسلامي كان يتوجه خصوصا الى الهند والى الغرب المسيحي ، وهي البلاد التي انتشرت فيها طرق تقنية خاصة لصناعة الفولاذ والسيوف المشهورة والتي يشتد الطلب عليها .

أصل شرقي ، تسمح لنا بتقدير أهمية التجارة في السلع الثقيلة ، وتخصص مراكز الاتاج التي تضع في دائرة التبادل التجاري منتجات نشاهد لها مادة أولية ثم منتجات نصف مصنعة ، ثم منتجات تامة الصنع .



الشكل رقم ٢٠ - النقال حديد افريقيا الشرقية وفولاذ الهند

وأما الغرب المسيحي ، فإن أرضه تحتوي على عدد من مناجم الحديد التي يستخرج الحديد منها من مستودعات غير عميقه ، وجبال الألب الشرقية ، وجبال التيرول ، ومنطقة استيري التي كانت تسمى «نوريك» (Noricum) في عهد الرومان ، كانت مراكز هامة لاتاج الأسلحة ، وكذلك يجب أن نذكر في هذا الصدد بلاد الموزل والموز ، وببلاد رينان والشمبان ، في جهة نوجن أن باسيني ، وجبال البيرينز الشرقية . وقد كانت جميع هذه المناطق غنية بالغابات ويتوفّر فيها الوقود بكثرة . وهذا يفسر لنا نمو صناعة المعادن نمواً معتبراً في العجل الرومانية وفي جبال الألب الشرقية .

فإن الهند عرفت تقدماً كبيراً في صناعة معدن الحديد ، وهذا البلد هو الذي اكتشف في أوائل العصر الذي تلى ميلاد المسيح الفولاذ المذوب في بوتفة . وهذه الطريقة التي تقوم على تكوير الجزئيات ، تنتج فولاذًا من النوع الرفيع وهياكل كبيرة الحجم ، ويمكن طبع رسوم على المنتجات النهائية ، وترى خصوصاً على شفرات السيوف .

والمعروف أن بلدان البحر الأبيض المتوسط كانت تستورد الفولاذ الهندي منذ عهد الرومان الذين كانوا يسمونا (Ferum sericum) . وربما كانت مملكة الشراس الواقعة في وسط دكان وفي جنوبها ، هي التي تنتج هذا الفولاذ وتصدره . وقد اشتهر الطلب على الفولاذ الهندي في العصر الإسلامي ، وأصبح يعرف باسم « هنداوي » أو « هندي » (وهذه التسمية ، اشتق الإسبان كلمة (أنلدي) (Alinde) وهو عبارة عن مرآة من الفولاذ المقصول ) .

وهذا الفولاذ الجاهز للصناعة يصل إلى دمشق وغيرها من المدن التي تصنع فيها الأسلحة ، ولا سيما ، مدينة طليطلة . ولكنه يستورد أيضاً مباشرةً من الهند في شكل مصنوعات تامة الصناع ، مثل السيف التي كانت مجرى المثل في الأدب العربي لقوتها وحدها ومرورتها .

والجدير باللحظة ، أن المادة الخام للحديد الذي يصنع منه الفولاذ الهندي في الولايات الجنوبية ، كانت تستورد من شواطئ إفريقية الشرقية ومن بلاد الزنج . وهذا الحديد كانا يعتبر أفضل من الحديد الهندي لصناعة الفولاذ . فهذا المعدن الذي يستخرج في السود في شكل خام لم يعالج إلا معالجة خفيفة ، ينقله التجار المسلمين إلى الهند ، حيث يتحول إلى فولاذ هندي ، ثم يعاد شحنه إلى العالم الإسلامي في شكل فولاذ خام أو سيف هندية . وهذه الطريق - طريق الحديد والفولاذ التي تمكنا من التعرف عليها بفضل قطع من الفسيفساء من

ومن الحقائق الأساسية في الموضوع . أن البراءة لم يحاولوا القضاء على هذه الصناعة ، بل العكس : استغلوها لتمكيل تسليح جيوشهم . وزيادة على ذلك ، فقد أضاف البراءة طرقاً تقنية جديدة إلى هذه الصناعة التي أصبحت تتسع صفات من الفولاذ أفضل من التي كانت تنهجها في عهد الرومان . وهذا يصدق خصوصاً على ما يسمى « الدمشقي المقلد » . وطبقاً لهذه الطريقة ، تصنع قضبان رفيعة من معدن مختلف التركيب . بعضها من الحديد الملين . والبعض الآخر من الحديد الصلب ، وتغشى بالفولاذ . وبعد ما تشبك القضبان طبقاً لطريقة متوعة في التركيب . تلتجم ثم تسوى وتطرق ويعاد تطبيقها ، فتتخدن القطعة في شكلها النهائي مظهراً يشبه الدمشقي الحقيقي . ولكن هذا المظهر يستخلص بعد عمليات من الطرق واللحام ، بينما يستخلص الدمشقي الحقيقي من كتلة الفولاذ نفسها بطريقة التبريد بعد الصهر في البوتقة .

وعلى كل حال ، فإن الأسلحة التي تصنع من كلا النوعين من الفولاذ متسائلة حيث أن كلا منها يشتغل على مزيج من جزء صلب وأخر أقل صلابة . ومن هنا مثانة السيوف وقوتها احتسالها وحدتها . مضافة إلى ذلك المرونة .

وهذه الأسلحة أمكننا أن ندرسها ، خصوصاً بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون في مقابر المirofانجيين . وأما قبور الكارولانجيين . فقد كانت مخيبة للأمال ، حيث أن عادة دفن المحاربين بأسلحتهم ، كانت قد أهملت في القرن التاسع الميلادي . ولكن السيوف الكارولانجية ، موجودة في البلاد السكاندينافية وفي منطقة الأنهر الروسية ، حيث ظلت عادة دفن الفرسان بأسلحتهم معمولاً بها حتى القرن الحادى عشر الميلادى .

ومهما يكن من شيء ، فإن لدينا نصوصا عديدة تحدثنا عن أسلحة الغرب المسيحي . وهذه النصوص ، أصلها من الامبراطورية الكارولانجية والاطونية أو من العالم الإسلامي .

فإن سيف « الفرنجة » أي سيف الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البراءة ، مشهورة جدا . وقد كان العالم الإسلامي يستورد كميات كبيرة من هذه السيف ، عن طريق بلاد الصقالبة والأندلس . وكان استيراد سيف الفرنجة ، إلى الشرق الإسلامي يتم بواسطة الأنهار الرئيسية وعن طريق بحر قزوين . وأما الغرب الإسلامي ، فيتلقى هذه السيف عن طريق وادي الرون والبندقية التي كانت متخصصة ، كما رأينا في تجارة التهريب ، والتي كانت تخرق أوامر أباطرة بيزنطة التي تقضي بتحريم بيع الأسلحة والخشب للمسلمين .

بقي معدن النحاس ومعدن القصدير . إن وضع العالم الإسلامي في انتاج النحاس أحسن من وضعه في انتاج الحديد . ومناجم النحاس الرئيسية تقع في آسيا الوسطى وفي أعلى ما بين النهرين ( منجم أرغانة ) وجنوب المغرب الأقصى وأسبانيا .

وإذا كان العالم الإسلامي يستورد القصدير من الجزر البريطانية ومن شبه جزيرة مالزريا ، فهو ، في مقابل ذلك ينتج الزنك ( التوتيا ) في أرمينيا وفي افريقيا الشمالية . وقد كانت صناعة النحاس والبرونز والليطون ، مزدهرة في العالم الإسلامي ، وكان صناعو الأدوات النحاسية والتجار فيها يتربدون على أسواق جميع المدن الإسلامية الكبيرة .

وخلاصة القول ، أن فقر العالم الإسلامي في المعادن ( باستثناء النحاس ) ، قد أحوجه إلى استيراد جميع المعادن بكميات كبيرة .

وكان الحضارة الإسلامية — وهي في توسيع دائم — في حاجة مستمرة إلى المعادن الثمينة لصناعة الكماليات ولصلك النقود ، والى المعادن الأخرى لسد الحاجات اليومية . وفي مقابل العالم الإسلامي ، يمتد الغرب المسيحي الغني بمعدن الحديد والذي يملك ثروة كبيرة من الغابات التي توفر الوقود الضروري لمعالجة الحديد . وكذلك كان الغرب المسيحي يبدو ، بثروته المعدنية التي لم تكذ تمتد إليها يد الإنسان ، وكأنه عالم حديث الاكتشاف ، في مقابل بلدان قديمة أفرطت في استغلال ثرواتها الطبيعية .

#### الأقمشة :

إن الحضارة الإسلامية ، حضارة تقوم على صناعة النسيج لصنع الملابس ، ولكنه خصوصاً لصنع الأثاث ولو أن قطعة الأثاث الأساسية ، وأحياناً الوحيدة ، في الشرق ، هي السجاد ! والأقمشة تستعمل لصنع الملابس ولتزويق المنازل من الداخل ولصنع الخيم ، ولكنها تستعمل أيضاً لصنع الأعلام والرايات . وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي كانت المشاغل تعمل بدون انقطاع لانتاج أقمشة رائعة : أقمشة رفيعة من الكتان والصوف الموصلي والقطن والحرير المطرز بالذهب . والمشاغل الخاصة أو « الطراز » كانت تعمل لمد القصور بما تحتاج إليه من الأقمشة الغالية التي تزيد من عظمة الحفلات الرسمية . والأقمشة تعتبر من الأشياء الثمينة ، وبثباته مال احتياطي ، بحيث أن كلمة « الغزانة » في اللغة العربية تعني في نفس الوقت خزانة الدولة ، وخزانة الملابس الشخصية .

والأقمشة تستعمل في مناسبات كثيرة مكان النقود ، فتمنح هدايا وتدفع بها المرتبات وتخلع على الأشخاص على سبيل المكافأة .

وكسوة الشرف التي تطرز باسم الأمير ، هي التي استوحى منها أمراء الغرب أزياءهم . وقد قام في العالم الإسلامي نظام اجتماعي هرمي الشكل على أساس فخامة الملابس الرسمية . وهذه العادة يرجع أصلها إلى قصور الملوك الشرقيين البيزنطيين والساسانيين اعتمدها الخلفاء العباسيون رغبة منهم في إحياء تقاليد قدماء ملوك إيران باتباع المراسم وطرق التشريف التي كانت سائدة في صورهم .

وصناعة النسيج ، تعتمد في المرتبة الأولى على الصوف الذي تحدثنا عنه بمناسبة الحديث عن تربية الغنم في آسيا الوسطى وأرمينية وافريقيا الشمالية وأسبانيا . والكتنان ، يزرع خصوصاً في مصر ، حيث كان منتشرًا في الدلتا وفي مختلف المناطق الواقعة على ضفاف النيل ، والتربة المصرية المشبعة بالطمي تلائمه كثيراً كما كانت القنوات والبحيرات الشاطئية توفر له الماء الضروري .

والخيوط المستخرجة من الكتان المصري من النوع الرفيع وتستعمل لصنع ثياب من النوع الرفيع ( قصب وشرب ودبقي ) . ونفس الشروط التي تضبط الاتجاج في مصر ، نجدها متوفرة في أعلى ما بين النهرين ، وخصوصاً ، في سويزان ، هذا بالإضافة إلى بعض المناطق المحدودة الاتجاج بسبب قلة المياه ، مثل سوريا وافريقيا الشمالية وأسبانيا .

ولكن زراعة القطن ستحل محل الكتان في أعلى ما بين النهرين ، كما سيحل محل الكتان في سويزان ، قصب السكر ، وهي بذلة تتطلب ظروفاً طبيعية وبشرية تشبه الظروف التي تتطلبها زراعة الكتان : تربة عميقة ، وماءاً غزيراً . وزراعة الكتان سوف لا تتحفظ بمكانة مهمة إلا في مصر ، حيث تنتشر زراعة قصب السكر أيضاً ( ولكن زراعة القطن لم تنتشر فيها بعد ) .

والقطن الذي هو مادة للنسيج ، أصله من الهند : أدخلت زراعته الى ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي ، وانتشرت في رقعة فسيحة في أعلى ما بين النهرين والخابور الكبير وحران . بين دجلة والفرات . وأول ذكر لزراعة القطن في تركستان . على الطريق البوذية التي تربط الهند بالصين . عن طريق الهند - كتش وآسيا الوسطى . يعود الى القرن السادس الميلادي . ولكنها في القرن التالي . حينما أقيمت دعائم العالم الإسلامي ، توغلت زراعة القطن ( الذي أخذ الأسبان اسمه من العربية "Algodon" ) في حوض البحر الأبيض المتوسط . ونحن نجد القطن بكثرة ، في المرحلة الأولى ، في سوريا ، ثم في المنطقة التي تمتد بين الفرات وحلب . وهذه المنطقة تمثل امتداداً طبيعياً لمنطقة الخابور الكبير . وفي مرحلة ثانية . انتشرت زراعة القطن في منطقة الغور ، على ضفاف البحر الميت حيث سيجد تربة منخفضة عن مستوى البحر ذات طقس حار مشرب بالرطوبة ، ثم في منطقة سليسي ، ولا سيما بين جبال طوروس والتضاريس السورية .

وكذلك نجد أن سوريا كانت من أكبر البلدان المنتجة للقطن في العالم في العصور الوسطى . ولكن زراعة القطن لم تنتشر في مصر : حيث ظل الكتان ذي الاتاج الوفير والرقيق ، يحتفظ بمركز قوي . وهكذا ، كانت مصر في العصور الوسطى تستورد ما تحتاج اليه من منتجات القطن من سوريا والهند .

وفي المرحلة الأخيرة . انتشرت زراعة القطن الى شمال افريقيا اتشسل الجنوب التونسي (الجريد) والمغرب الأقصى (أعلى نهر أم الريان وسهول تادلة) : ( وبواسطة الري حتى السوس الأقصى ) . وأسبانيا ( أسفل الوادي الأعظم ) ، وصقلية ( ضواحي بلرم ) ، وجزيرة قبرص .

فيما بعد ، حيث ازدهرت زراعة القطن خصوصا في عهد اللوزانيين (5)، ثم أخيرا في جزيرة كريت حيث اتسعت زراعة القطن في عهد البندقين.

ومادة النسيج الجديدة الثانية في العالم الإسلامي ، وهي الحرير ، الذي يقوم انتاجه على زراعة التوت وتربية دودة الحرير . ومن المعلوم أن تربية دودة القطن بدأت واتشرت في المرحلة الأولى في الصين ثم في آسيا الوسطى ، على ضفاف بحر قزوين وأرمينية . وفي القرن الخامس الميلادي ، أدخلت تربية دودة الحرير إلى بيزنطة ، في سوريا الشمالية . وقد تم نقل نشاط تربية دودة الحرير من آسيا الوسطى إلى الامبراطورية البيزنطية عن طريق الساطرة .

وكما أن زراعة القطن التي استقرت في أعلى ما بين النهرين . لم تدخل إلى مناطق أخرى ، الا بعد قيام العالم الإسلامي ، فإن تربية دودة القطن لم تنتشر الا بعد قيام تكتل اقتصادي إسلامي واسع الأرجاء .

ومن الظواهر الغريبة أن نلاحظ في سياق انتشار المنتجات الزراعية والتقنية الزراعية في العالم الإسلامي ، أنه في الوقت الذي اتشرت فيه تربية دودة الحرير من تركستان إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، أي ، في القرن السادس الميلادي ، كانت تركستان تتلقى زراعة القطن من الهند .

وبعد الفتوحات الإسلامية ، اتشرت تربية دودة الحرير في جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث كانت صناعة المسروقات الرفيعة الباذخة ممكناً بفضل الاقبال الشديد على منتجات الحرير . وكان من ضمن المناطق المنتجة للحرير ، جنوب سوريا ، وجزيرة قبرص ،

5 - (Lusignan) أسرة اقطاعية أصلها من بوانو (Poiton) استقر أحفادها في الشرق اللاتيني ، وفي قبرص في عهد جي دلو زيتيان « 1129 - 1194 م » وفي مدينة القدس تحت هiyor الثالث مات في سنة 1284 ميلادية ، « المترجم » .

وجنوب تونس ( منطقة قابس ) ، وخصوصاً أسبانيا الجنوبيّة ، وجزيرة صقلية . وكان السوريون هم الذين أدخلوا تريمة دودة الحرير إلى منطقة البشرات وضواحي جيان في الأندلس . وهؤلاء السوريون الذين استقروا في المناطق المذكورة في القرن الثامن الميلادي ، جاءوا إلى أسبانيا من منطقة قسرى الواقعه في شمال سوريا والمشهورة بازدهار الزراعة فيها .

وقد كان الأندلس يحتل مكانة مرموقة في الغرب المسيحي خصوصاً بفضل صناعة الحرير فيه .

وأما حرير صقلية ، فقد اتشر أولاً ، في الغرب المسيحي ، قبل أن يصل إلى جنوب إيطاليا وشمالها .

وهكذا نمت صناعة الحرير في جميع أنحاء العالم الإسلامي وفي عهد الساسانيين ، كانت مادة الحرير المستوردة من الصين تتوجه في المقام الأول ، إلى المشاغل الإيرانية ، ولكنه لا يستبعد أن تمر كسيات من الحرير الصيني عن طريق إيران إلى بيزنطة .

وأما في العصر الإسلامي . فقد توقف استيراد الحرير الخام من الصين في وقت مبكر . ولكن استيراد المنتجات المصنوعة من الحرير من الصين ظل على المستوى الذي كان عليه سابقاً . ومن جهة أخرى ، فإن العالم الإسلامي لا يصنع في مشاغله جميع الكسيات التي يتوجهها من الحرير الخام ، حيث أنه كان يصدر نسبة معتبرة منها إلى بيزنطة . وكذلك كانت مصانع نسج الحرير البيزنطية يتوقف نشاطها كلية عن المادة الخام التي يزودها بها العالم الإسلامي . وذلك على الرغم من أن منطقة بتونسي كانت تنتج الحرير في القرن الثاني عشر ( وقيل أن هذا الاتصال بدأ في القرن العاشر الميلادي ) .

والمادة المستعملة للصباغة في صناعة الحرير ، هي في المكان الأول النيلة ، والقرمز ، والزعفران ، وقد دخلت الصباغة بالأزرق من شجرة النيل من الهند وما بين النهرين إلى المناطق الحارة المنخفضة والمرورية في الغور ، ثم انتشرت إلى الواحات الليبية وشط الجريد وشط الحضنة والسوس الأقصى .

وبدخول شجرة النيل إلى هذه المناطق ، توقفت زراعة ورد النيل الذي كان يلوّن به . والقرمز عبارة عن حشرة خضراء متطفلة ، تعيش في السنديان ، وتستعمل في الصباغ باللون الأحمر ، وقد كانت تعالج في أرمينية وفي إسبانيا . والقرمز كان ينافس البقم ( أو عود البازيل كما يسمى الآن ) الذي جاء من الهند . وبانتشار البقم والقرمز ، تخلى الناس عن نبات الفوة ( نبات صيفي ) والمريق الذي كان يستعمل في الصباغ الأرجواني .

ولكن الصباغ بالزعفران ( اللون الأصفر ) كان هو المفضل والكثير الاستعمال في المصابغ الشرقية . واللون الأصفر الذي هو لون الشمس ، ولون الأكاسرة الساسانيين ، كان يستعمل لصبغ الثياب . وتحت تأثير الصين التي كان اللون الأصفر فيها ، هو لون الإمبراطورة ، كان ورق الوثائق الرسمية في العالم الإسلامي يلوّن بالأصفر . وكذلك اتسعت زراعة الزعفران الذي كان يستعمل أيضاً لتحسين مذاق الطعام ، وشملت مناطق شاسعة .

وقد نجم عن انتشار زراعة المواد الأولى للنسيج ومواد الصباغة في العالم الإسلامي ، تقدم كبير في الطرق التقنية لصناعة النسيج وتلوين المنسوجات . وصناعة النسيج بالنسل المنخفض والنسل المرتفع ، وبالدواسة ، من أصل صيني . وهي تشمل صناعة السجاد ذي الخطط

المعقود في نهايته ( آسيا الوسطى ) والسوسنجرد الذي تكف حواشيه بالابرة ، والسجاد المصري المنسوج .

والأنواع المشهورة ، هي السجاد الأرمني والمصري والطرطوسية ( سورية ) وكذلك اشتهرت الأقمشة الجرجانية التي تتوجهها المرية ( الاندلس ) ، والأصفهانية ( أنطاكية ) ، والديقي ( من مدينة تقع في دلتا النيل ) ، والعتابي ( بغداد ) والصقلي المنتشر في مصر وفي أعلى ما بين النهرين وفي الأندلس .

ففي كل مكان نلاحظ امتناع الطرق التقنية وتحسينها ، وفي كل مكان تؤكد مراكز الانتاج الكبيرة مكانتها بتنوع أنواع منتجاتها وبالشهرة العالمية التي تكسبها هذه المنتجات .

فككل مدينة كبيرة تتخصص مراكز النسيج فيها في انتاج نوع معين من الأقمشة التي لها مكانتها الخاصة بها في الأسواق الدولية . بل ان بعض مناطق العالم الاسلامي ، كانت مناطق تتميز بانتشار صناعة النسيج فيها ، حيث تقبل المدن والقرى الصغيرة بنشاط على العمل لانتاج الأقمشة فيها .

وتسيق منتجات النسيج ، يفترض وجود تجار يقدمون للصناع المواد الخام ويتولون تسويق المنتجات المصنوعة . والأقمشة المصنوعة تحمل على حافاتها اسم المدينة التي صنعت فيها . وكذلك اشتهرت . مثلا ، مدينة القسا ، في فارس ، بشبابها الموشأة بالقصب والمصنوعة من أقمشة الحرير الثقيلة المتموجة المظهر والتي كانت الزي المفضل في قصر العتصم العباسي ، كما اشتهرت بسجادها المصنوع من الصوف الشمين ، وبأغطيتها المصنوعة من الغز وتحمل رسوما ( وهي تعمل للخليفة دون غيره ) ، وبما لا يعرف بالفارسية بالسوسنجرد ( أي الأقمشة المطرزة

بالأبرة ) ، وهي أفضل من النوع المعروف بالقرقوب ، لأنها أمنة منها . والتطريز في النوع الأول يقوم على قماش من الصوف بينما يقوم التطريز في القرقوب على الحرير . والفسا ، تنتج أقمشة من الصوف والحرير ، كما تنتج أقمشة من الحرير الحالص التي يشتد الاقبال عليها في كل مكان . ومنطقة فارس - خوزستان تضم ، في قرقوب نفسها ، مشغلا رسميا لا يعمل الا للإنتاج لسد حاجات الخليفة وحاشيته . وهذا المشغل الكبير يتكون من عدة مشاغل صغيرة للنسيج ، وينتج أقمشة فاخرة وأقمشة من النوع العادي ، تصدر الى الخارج عن طريق ميناء البصرة وسيراف .

والمنطقة الأخرى الكبيرة الاتجاج ، هي الدلتا المصرية التي تنتج أقمشة من النوع الفاخر ومن النوع العادي ، والتي تشكل أهم مناطق الاتجاج بدون نزاع ، في حوض البحر الأبيض المتوسط . وأقمشة الدلتا المصرية ، كانت تصدر الى الشرق الإسلامي والى شواطئ المحيط الهندي والى الامبراطورية البيزنطية والى المغرب والى الموانئ الإيطالية .

والمادة الأولى لصناعة النسيج في مصر ، هي السكتان الذي ينتج محليا ولكنه يمزج بالحرير الذي يستورد من سوريا أو بخيوط الذهب . وأنواع المنتجات ، هنا أيضا ، متعددة ، وتتراوح بين «الشرب» الرفيع والأقمشة الثقيلة الصباغة والمطرزة الحواشي بالذهب .

وصناعة النسيج في الدلتا المصرية تجري في حوالي عشرين مدينة . لكل منها « طرازها » الخاص ، وفي قرى تابعة لهذه المدن وتعمل بتعاون معها .

ومن أهم هذه المدن ، دمياط ، ودبىق ودميرة وخصوصاً تيسىس التي تقع في بحيرة تحمل اسمها «المزلة» . وتيسىس التي كانت تسون بواسطة القوارب وتعيش على صيد السمك الوفير على أرض تعطيها المياه كلها تقريباً ، كانت تملك المياه الغزيرة التي تحتاج إليها زراعة الكتان . وكذلك كان طقسىها المشبع بالرطوبة يسع بقتل خيوط الكتان الرفيعة بسهولة . وقد كان في المدينة خمسة آلاف نول . وكان من ضمن ما تنتجه كسوة الكعبة .

ومراكز صناعة النسيج في الدلتا يتخصص بعضها في صنع الأقمشة البيضاء والبعض في تبييض خيوط النسيج ، والبعض في دعك الأقمشة البيضاء ، والبعض الآخر في صقل الأقمشة وتلميع الحرير ( بالصمعي الذي يتجه السودان ) ، أو في الصباغة ، أو في رسم الزخارف بالذهب على الأقمشة .

وجميع هذه المنتجات كانت تصدر إلى الخارج وذلك في الوقت الذي تنتقل فيه إلى البلدان الأجنبية الطرق التقنية التي تصنع بها ، مما سينجم عنه محاولة تقليدها هنا وهناك . وهكذا نجد مثلاً ، أن «القصب» و «الديقي» ينتج أيضاً في مشاغل ما بين النهرين وفارس .

وبفضل تنوع منتجاته ، احتل العالم الإسلامي مكانته إلى جنب الصين وبيزنطة وهذه هي الكتل الثلاث للبلدان الكبيرة الاتساج والمصدرة للأقمشة الفاخرة .

### منتجات الحجر والارض

وإذا استثنينا بعض الأعمدة واللوحات المقوشة وأحواض الوضوء ، مثل التي نجدها في مدينة الزهراء ، فإن العالم الإسلامي لم يكن يصنع

شيئاً من الحجر . ومادة البناء ، هي الطوب المكوي للحيطان والأقواس على السواء ، وذلك بسبب نقص الخشب . فان سلطات الفسطاط ، مثلاً اضطرت الى الاستيلاء على أعيجاز النخل لتوفير الخشب لقصر الحكومة ( دار الامارة ) . وفي بناء المساجد كثيراً ما يعاد استعمال أعمدة المرمر المأخوذة من مباني قديمة . وكذلك كانت قرطجنة محجراً استخلصت منه مواد بناء مدينة القيروان الجديدة وتونس . وقد استعملت أعمدة قرطجنة وأعمدة سفاقس أيضاً لبناء مدينة الزهراء بالأندلس . وأما الحيطان فهي تبني عادة بالطوب المكوي الذي يعطي من الداخل بطبقة من مادة أخرى أفضل ، بقصد إخفاء مظهر الطين المتواضع : الجص المنحوت والمنقوش والمحفور والملون أو المذهب كما في سر من رأى ، وفي منازلبني طولون في مصر ، وفي شمال افريقيا وخاصة ألواح الزجاج الملون ، وهو ثمرة التطور التقني الذي وقع فيما بين النهرين وايران كما تشهد بذلك آثار قصور ملوك الفرس وهذه التقنية ستنتشر في جميع البلدان الاسلامية الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط .

على أن البلدان التي كانت خاضعة لبيزنطة ، قبل الاسلام ، ستظل على عادة التزويق بالفسيفساء المصنوعة من قطع من الزجاج المذهب ومن عجينة ملونة . وكذلك كان الأمويون في دمشق أولاً ، ثم في قرطبة بعد ذلك ، يلجئون الى الفنانين البيزنطيين لتزويق المساجد الكبيرة . وهؤلاء الفنانون يدرّبون تلامذة لهم في البلاد الاسلامية يضمنون استمرار العمل بالطرق التقنية البيزنطية في مجال التزويق بالفسيفساء .

والصناعة الأخرى التي تستخلص مادتها الأولية من الأرض ، هي صناعة الخزف والصيني . فان الحضارة الاسلامية قد أنتجت مروحة واسعة من الصحنون والزهريات وأحواض غسل الأيدي التي أبقي الدهر لنا على بعضها . وفي هذا المجال أيضاً ، كما لاحظنا ذلك في

التزويق المنزلي ، نجد تأثيراً لفنون ما بين النهرين وفنون ايران الساسانية . ولكن صناعة الخزف كانت : الى جانب ذلك ، تحت تأثير فنون الصين الذي وصل الى العالم الاسلامي عن طريق آسيا الوسطى التي تربط الري بسر من رأى التي اكتشفت فسن آثارها قطع من الفخار الصيني ، أو عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر التي تنتهي عند الفسطاط - القاهرة : حيث كشفت الحفريات أيضاً عن الصيني . وكلمة « الصيني » و « الصينية » ، مشتقة . كما هو واضح من الصين .

وتقنية صناعة الفخار الصيني بلغت درجة عظيمة من التقدم ، ولا سيما ، تلك التي يصنع بها الفخار الملمع والذي يعكس بريقه لوناً ذهبياً هو نتيجة لطلاء الصحن أو الآية بمزيج معدني قبل احرائه . والراكز الكبرى لصناعة الفخار الصيني هي الري ، في ايران ، وسر من رأى في القرن التاسع الميلادي ، ومصر في القرن التاسع والقرن العاشر ، وافريقيا الشمالية والأندلس ، ولا سيما في مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي .

وهذه التقاليد التقنية في صناعة الفخار الصيني مستمرة خلال القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، وستكون صناعون الفخار الكبيرة المذهبة (الغربيّة الإسبانية) : أصل صناعة الفخار في جزيرة مايورقة وفي إيطاليا في عصر النهضة .

وصناعة الزجاج ، صناعة قديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، اشتهرت بها في العصور القديمة مدن ، مثل صور ، وصيدا ، والاسكندرية حيث يوجد نوع من الرمل الممتاز لصناعة الزجاج .

وقد ظلت سورية ومصر خلال العصور الإسلامية ، أكبر المراكز التي تنتج الزجاج ، وذلك فيما يتعلق بالزجاج العادي ، وزجاج البذخ ، على السواء .

ومع ذلك ، فقد ظهر مركز جديد ، العراق ، كان يصدر منتجات الزجاج التي تحمل اسم « العراقي » والتي تتحدث عنها الوثائق الإسبانية المسيحية في القرن العاشر والقرن الحادى عشر الميلادي . وكؤوس البذخ التي تنتجها مصر وسوريا أو العراق ، كؤوس ملونة ، مذهبة ، مطلية بالياء ، مخدومة الحواشي . أو منقوشة ، كانت تصدر إلى الصين ، في مقابل الفخار الصيني الذي يستجلب من هذا البلد .

وفي عهد العروبة الصليبية ، سيقوم الصليبيون بنهب تحف الكؤوس الملونة السورية ، وهم يعتقدون أنها قد نحتت من الأحجار الكريمة .

وأما البندقيون ، فسيحملون قطع الكؤوس التي نهبوها وتحطمت ليعيدوا صورها في البندقية . ومن هذه العملية ، ظهرت صناعة الكؤوس في البندقية .

وفي القرن التاسع الميلادي ، ظهر مركز آخر لصناعة الزجاج في الأندلس الإسلامية ، حيث اكتشف عباس بن فرناس طريقة لصنع البلور ، بالإضافة عنصر الرصاص إلى العناصر التي يصنع منها الزجاج .

وفيما يتعلق بالأحجار الكريمة ، يمكن القول بأن المسلمين كانوا يحتكرون التجارة في هذا القطاع . فالزمرد الذي يستخرج من صحراء الجزيرة العربية ومن أعلى مصر ، سيبطل ، حتى اكتشاف أمريكا ، الزمرد الوحيد المعروف في العالم . فآن بامير ، في بلاد بدخشان ،

تنتج يا قوته مشهور ، وهي يا قتوة « بلد الخش » ، التي حرف اسمها باللغات الأوروبية إلى « ياقوته بالي » .

وأما الماس ، فكانت تتجه سيلان والهند ، بينما كانت بلاد المغرب والأندلس تنتج البلور الطبيعي .

وفي كل مكان ، كانت توضع كتب ورسائل يصف أصحابها مختلف النواحي التي تتصل بالأحجار الكريمة . وهذه الكتب هي التي تستوحى منها في الغرب المسيحي في العصور الوسطى نظريات تزوّد إلى الأحجار الكريمة خصائص سحرية .

ومن قطع الأحجار الكريمة والأحجار الصلبة بلغ أوجه في الدقة . فقطع الضلع والنقوش كان ممتازا . بالأحجار الكريمة المنقوشة والعقيق المحفور ، وقطع البلور الصخري الرائعة المعروفة لدينا ، هي خير شاهد على ذلك . وكثير من القطع الثمينة التي صنعت في العصر الإسلامي ، لا تزال محفوظة في متحف اللوفر وفي متحف البندقية وغيرهما من المتاحف الأوروبية . وفي النقوش على الأحجار الكريمة الذي حافظ عليه العالم الإسلامي ونهاه كان قد اختفى في الغرب المسيحي ، ولم يعد إليه إلا في وقت متأخر .

### منتجات البحر

يملك الشرق الإسلامي امتداداً واسعاً من السواحل : البحر الأحمر وسواحل جنوب الجزيرة وسواحل الخليج . والسمك في هذه المناطق يشكل الغذاء الرئيسي للسكان . وأما في شواطئ البحر الأبيض ، فإن نشاط صيد السمك أقل أهمية ، بسبب ضيق المناطق السمكية حيث أن سطح امتداد القارة في البحر محصور ، ويبدأ عمق البحر على مسافة قليلة من الشواطئ وصيد السمك غير ممكن إلا في عدد

من الواقع : البحيرات الشاطئية التي تمتد في دلتا النيل ، ومسطح مضيق صقلية ، وشواطئ تونس الشرقية ، ومنطقة مضيق جبل طارق ، مضافاً إلى ذلك شواطئ المغرب الأقصى على المحيط الأطلسي .

وفي جميع هذه الواقع ، كانت تستخدم الطرق القديمة لصيد السمك .

وأما صيد سمك التونة ، فيجري خلال الموسم السنوي الذي يهاجر فيه هذا الحوت . والطريقة المستعملة هي ، اما الخطاف ( وهي الطريقة التي يسير عليها صيادو السمك في مضيق صقلية في أيامنا هذه ) ، أو المذرية ، وهي عبارة عن مجموعة من الشباك تمد وتوجه إليها أسماك التونة . وهذه الشباك تسمى في الوقت الحاضر في مضيق صقلية ( تونسارية ) ( Tonnaria ) وكلمة « مذرية » ( جمع : مذارب ) ومنها اشتقت الكلمة الأروبية ( Madrague ) كانت تطلق على قفة لصيد السمك معهولة في شكل زجاجة ذات عنق ضيق .

والملح ، وهو عنصر ضروري لطبخ الطعام ، كما يستعمل في صناعة حفظ الأغذية وغيرها ( الجلود ) ، يستخرج من ملاحات على الشواطئ ، أو من مناجم الملح في داخل البلاد . والملح يشكل مادة هامة في التبادل التجاري مع بلاد السود . فان القوافل تنقل الملح من تغازي ، وهي واحة تقع في شمال الصحراء الى تلك البلاد ، وتعود من شواطئ السنغال ونهر النيجر محملة بالذهب والعبيد .

ولكن البحر مستودع كذلك لمواد ثمينة ، مثل المرجان والؤلؤ والحرشف والسلحفاة والعنبر ، والمرجان الأحمر الذي هو من خصائص شواطئ البحر الأبيض المتوسط . وهو يستخرج من مرسى الغرز ومن القل ، ( في شرق عنابة ) ، ومن هذه المنطقة تصادر كميات كبيرة منه

إلى الخليج العربي الذي لا يوفر المرجان الأحمر ، وإلى الهند ، حيث تصنف منه العلوي والتمائم التي يحملها الناس لدفع الشر ولجلب الخير . ومن هنا شدة الاقبال على المرجان الأحمر في الهند .

وقد كان المرجان الأحمر مادة كبيرة الأهمية للبيوت التجارية اليهودية في الفسطاط - القاهرة ، حيث كانت تتولى تصديره إلى شواطئ المحيط الهندي .

وأما التلؤ ، فموطنه المحيط الهندي . وقد كانت مصايد التلؤ في الخليج العربي تغذى المدن الإسلامية بما يصدر من انتاجها .

والتجارة في المرجان والتلؤ ، تفترض أسطولاً مهما للنقل وتنظيمها محكماً للمصايد ، ومراقبة دقيقة من التجار والسماسرة وأرباب الأعمال ، وخصوصاً من جباه الضرائب والولاة ، لهذه المصايد وأما قشر السلاحف ، فيأتي خصوصاً من شواطئ إفريقيا الشرقية ، ويصدر إلى الفسطاط - القاهرة ، حيث يوجد الصناع المتخصصون في تصنيع هذه المادة .

والعنبر يتصلب في معدة السمك المسمى عنبر ، وهو يوجد خصوصاً في شواطئ المحيط الهندي وشواطئ المحيط الأطلسي . وقطع العنبر تلتقط على شواطئ الجزيرة العربية وأفريقيا الشرقية وأفريقيا الغربية ، على المحيط الأطلسي وشبه جزيرة الأندلس .

والعنبر يستعمل رائحة عطرية ، كما يوفر المادة الخام لصناعة الروائح العطرية ، حيث يخلط بسواد أخرى .

وكذلك ، نرى أن المسلمين الذين كانوا سادة التجارة في الأحجار الكريمة ، كانوا يسيطرؤن أيضاً على مختلف المواد الثمينة التي تستخرج من البحر .

## دفامة الكتابة

كانت الدعامة المفضلة للكتابة في العالم القديمة ورق البردي والرق . والبردي عبارة عن صفحات من القشور مضغوطة ترتب طبقات بصورة أفقية أو عمودية وتغرس ثم تلتصق بمادة كيميائية . وأما الرق فيصنع من جلد الغنم الذي يرقق ويصقل . وكان في المرحلة الأولى يصنع في آسيا الصغرى . وقد استعملته أسرة السلوقيَّة<sup>(6)</sup> بينما استمرت أسرة لاجيد<sup>(7)</sup> على استعمال أوراق البردي .

وأما الامبراطورية الرومانية والامبراطورية البيزنطية ، فكانت كلتاها تستعمل أوراق البردي المصرية لكتابه الوثائق الرسمية والوثائق المكتوبة على ورق البردي لها قيمة الورق الذي يحمل طابعا ضريبيا . وأما الرق ، فقد كان يستعمل للوثائق الرسمية في مختلف عهود ملوك الفرس ، بما في ذلك عهد الساسانيين .

وفي عهد الخلافة الأموية ، كان الملسوون يستعملون ورق البردي في جميع الدواوين . وفي القرن الثامن الميلادي . كانت الكتابة على ورق البردي بالحروف العربية : بدلاً من الحروف اليونانية وكان ذلك في نطاق سياسة تعريب الدواوين وأنشاء عملية إسلامية .

وفي عهد الدولة العباسية التي كانت أكثر ميلاً إلى اعتماد التقاليد الایرانية تحت تأثير وزراء بنى العباس من البرامكة ، استبدل ورق البردي بالرق في دواوين عاصمتهم الجديدة ، بغداد ، في منتصف القرن الثامن الميلادي .

6 - أسرة هلينية حكمت في آسيا خلال الفترة بين 305 - 64 . ق.م. انشأها سيلوقوس الأول ، وكانت سوريا مركز قوة السلوقيين ودعاة دولتهم التي قضى عليها الجنرال بومبي الروماني . «المترجم» .

7 - أسرة حاكمة اسّتها أحد قواد الاسكندر المقدوني ، بطليموس بن لا جوس ؛ حكمت مصر من سنة 306 حتى سنة 30 ق.م . «المترجم» .

وفي منتصف القرن الثامن الميلادي ، وقع تحول جوهري في دعامة الكتابة ، حين أمر جعفر البرمكي ، وزير هارون الرشيد وحفيد خالد ابن برمك ، بدخول الورق إلى الدواوين الرسمية . وأسباب هذا التحول ، فيما يروي الكتاب العرب ، ترجع إلى قلة تكاليف الورق ، وخصوصاً إلى استحالة غسل الورق أو محو الكلمات المكتوبة عليه دون أن يترك ذلك أثراً ، على عكس ورق البردي والرق . وباعتراض الكتابة على الورق في عهد بنى العباس تحولت الأوراق إلى وثائق رسمية حقيقة .

ولكن من أين جاء الورق ؟

كانت الصين تعرف استعمال الورق منذ القرن الأول الميلادي . وكان الورق يصنع من الكتان وألياف القنب . وأقدم الوثائق المكتوبة على الورق ، فيما نعلم ، يرجع عهدها إلى القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي . وقد وصلت إليها هذه الوثائق من تركستان الشرقية التي كانت تقع في منطقة النفوذ الصيني حتى القرن الثامن الميلادي . وهذه الوثائق محفوظة في المتحف البريطاني .

وكذلك انتشرت صناعة الرق من الصين إلى آسيا الوسطى وأما إمبراطورية الساسانيين ، فهي ، إذا كانت لا تصنع الورق ، فقد كانت ، على كل حال ، تستورد هذه المادة من الصين . وبعد معركة طالاس التي انتصر فيها الجيش الإسلامي في سنة 751 ميلادية افتتحت أبواب آسيا الوسطى أمام المسلمين . والقصة التي تقول بأن أسرى صينيين قد أدخلوا صناعة الورق إلى سمرقند التي كانت محاطة بحقول شاسعة من مزارع الكتان ، قصة تمثل حقيقة تاريخية . وقد كان دخول تركستان في تلك العالم الإسلامي اقتصادياً وسياسياً ، عاماً من شأنه أن يسهل هجرة الفنيين وطرق الصناع التقنية في الاتجاه الغربي .

ومما يجدر بنا ملاحظته في هذا السياق أن أخا جعفر البرمكي (الذي أنشأ أول مصنع للورق في بغداد في سنة 794 أو 795 ميلادية) ، كان هو الوالي على سمرقند من قبل العباسيين في هذا التاريخ .

وهكذا انتشر استعمال الورق خلال القرنين التاسع والعشر الميلادي في جميع بلدان العالم الإسلامي . وقد كانت مصانع الورق منتشرة في سوريا حيث كان المناخ ملائماً لزراعة القنب ، وفي صقلية حيث كان يصنع في الشاطئية الورق المعروف بالشاطيبى ( وهذا الاسم لا يزال يطلق في المغرب الأقصى على نوع الورق الغليظ ) . بل أن مصر نفسها ، مستخلٍ عن استعمال ورق البردى ، حيث توجد نسخة من القرآن الكريم مكتوبة على الورق يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي . والوثائق الرسمية لم تعد تكتب في القرن التاسع والقرن العاشر على ورق البردى الذي لم يحتفظ إلا باسمه «ورق» . وكذلك تحولت المصالح الإدارية البابوية وإدارة بيزنطة عن استعمال ورق البردى في نهاية القرن العاشر الميلادي .

والوثائق الغربية الأولى المكتوبة على الورق والمحفوظة يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي . وهذا الورق مستورد ومن انتاج مصانع الأندلس وصقلية . وبيزنطة نفسها كانت تستورد الورق من سوريا أو من مصر .

وأما تقنية صنع الورق ، فإنها لم تصل إلى الغرب المسيحي إلا في القرن الثالث عشر الميلادي ، حينما أنشئت مصانع الورق الأولى في إيطاليا وفي جنوب غربي فرنسا .

### المنتجات الطبية

نمى علم الطب وتطور في العصر الإسلامي ، بفضل الأطباء العرب واليهود على أساس المعلومات الطبية اليونانية المترجمة إلى اللغات

السريانية والآرامية والعربية . ويضاف الى المعلومات التي هي من أصل يوناني ، معلومات أخرى من أصل شرقي من ايران ، ولا سيما من مدرسة جنديسابور (8) ، ومن الهند .

والمعلومات الطبية اليونانية ، مثل الفكر اليوناني بصفة عامة ، تختلط بالمعلومات التي اشتغلت عليها كتب أريسطوطاليس ، وهذه المعلومات مرت خصوصا ، بالمراحل التالية : انتقلت من اليونان الى سوريا ثم ترجمت الى اللغة السريانية والآرامية والعربية ثم انتقلت الى المراكز العمرانية الكبرى في العالم الاسلامي ، مثل بغداد والقاهرة وقرطبة ، حيث عمل اليهود الاندلسيون لترجمتها الى اللغة اللاتينية ، وهو الشكل الذي وصلت فيه الى الغرب المسيحي : الى سلرن في القرن التاسع الميلادي ، ثم الى مونبيلي .

وفي غضون الفترة التي تمتد بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادي ، كانت بيزنطة تمثل جزيرة من وجهة نظر الطب . فقد كانت الاتصالات بين الشرق والغرب اللاتيني عن طريق غرب البحر الأبيض المتوسط الاسلامي ، أوthon من علاقات التبادل القائمة بين الشرق الاسلامي وبيزنطة . فان سيميون سيث (Simon Seth) كان أول من تحدث عن السكر في بيزنطة في سنة 1075 ميلادية ، وعن العقاقير الطبية التي يستعملها العرب . ولكن العرب لم يدخلوا عالم الطب في الحقيقة الا في القرن العاشر الميلادي ، حيث كان النساطرة عهدا طويلا هم الذين يديرون مدرسة جند يسابور .

8 - هكذا شكلها صاحب مراصد الاطلاد . واما البكري ، فيوردها باسم جند سابور اثنى مضاف اليه سابور من بلاد فارس ) . مدينة ايرانية تقع في خوزستان ، اسسه سابور الاول واسكن فيها اقواما من اليونان اسرهم . فتحها ابو موسى الاشعري في سنة 17 هـ ، في عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وقد اشتهرت جند يسابور بمعارضها الطبية التي كانت تستعمل فيها اللغة الآرامية . (المترجم) .

والعلوم الهندية التي كانت تحظى برعاية خاصة في عهد الساسانيين ؛ ستلقى عناء في العهد العباسي ابتداء من سنة 750 ميلادية . وفي هذا العصر ، اكتسب علم الطب العربي ثروة جديدة . ففي هذا الوقت درست خصائص السكر الذي تتجه خوزستان ، في جند يسابور ؛ وازدادت أهمية السكر في صناعة الأدوية الشرقية لتحليل العقاقير الطبية وجعلها سائفة المذاق .

وقد كان انتشار الكتب والرسائل العلمية في موضوعات الطب . وتعدد المراكز الطبية والمستشفيات (9) والصيدليات في العالم الإسلامي ؛ عاملاً يفسر لنا ما سجله علم الطب وصناعة العقاقير والأدوية من التقدم .

وكذلك كان من نتائج التقدم في الدراسات الكيميائية والصيدلية ؛ ظهور امكانيات جديدة لصنع الكماليات مثل ماء الورد والبنفسنج والقرنفل ومختلف أنواع الدهان وإبراهيم والمساحق والروائح العطرية والمشروبات . وأثر ذلك اكتسحت التجارة في العقاقير ومنتجات الزينة أهمية كبيرة . وكان من بين العناصر التي ازدهرت التجارة فيها الشب المصري ، والبورق الذي تتجه أرمينيا ومصر ، وكبريت صقلية ، وغير ذلك من المنتجات المستخلصة من الحيوانات والنبات مثل القنب

9 - أول المستشفيات في الإسلام بناء الوليد بن عبد الملك « 88 هـ » . وفي أيام الخليفة العباسية كثُرت المستشفيات ( والمستشفى كان يسمى بيمارستان : من الفارسية ) في بغداد وفي الأ蚊ار . وكان كبار بناء المستشفيات هم هارون الرشيد والبرامكة وبدور غلام الخليفة المقتضي ، والمقتضي العباسى ، وام المقتضى ثم معر الدولة بن بويه وأخوه عضد الدولة ، وقد كانت مصر من البلدان التي حظيت بعناية خاصة ، حيث بني الامويون مستشفى في الفسطاط ثم بني القفتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل العباسى مستشفى آخر في الفسطاط ، وفيها بعد بني احمد بن طولون المستشفى ( الأعلى ) كما بني كافور الاخشيدى الاسغل ( 346 هـ ) ، ولما استولى الفاطميون على مصر وبنوا الجامع الازهر ، بنيوا قريباً بيمارستان الفتشاشين ؛ وفي عهد صلاح الدين بني المستشفى الناصري في القاهرة وبيمارستان الاسكندرية ، وقد كثُرت المستشفيات في سوريا وفلسطين والعراق خصوصاً لمواجهة الحاجة التي نجمت عن الحروب الصليبية . (المترجم) .

والأفيون المنتشر استعمالها في العالم الإسلامي للأغراض الطبية . وكذلك كان الأقبال كبيرا على الرتج وصنع جاؤه وصنع البسم ، والنعناع ، والأهليلج ، والراوند ، والسنا ، والخروع ، الخ ..

بل ان الخمر نفسه يؤخذ على أنه نوع من الدواء ، فيشرب بعد اضافة بعض التوابيل التي تحسن رائحته . وقد حل السكر محل العسل في عجن العقاقير الطبية . وأصل بعض هذه الأدوية محاط بالغموض والأسرار ، والبعض الآخر تروى عنه قصص وأساطير ، أو يزعمون أنه ترياق نافع لكل داء .

وفي هذه الآثناء كان البحث يجري بنشاط عن عدد كبير من النباتات الطبية التي لا يزال بعضها يستعمل حتى يومنا هذا ، لتصديرها . ولكن العالم الإسلامي كان يستورد أيضاً أعشاباً طبية خصوصاً من الهند والصين ومن شواطئ إفريقيا الشرقية . ونتيجة لذلك ، فقد اتخدت التجارة الدولية في العقاقير أهمية كبيرة ، وساهمت مساهمة فعالة في نمو التبادل التجاري بين العالم الإسلامي والبلدان البعيدة كما ساعدت على تغيير العادات والتقاليد ، ففي هذا العصر انتقلت زراعة الأفيون من إيران إلى آسيا الوسطى والشرق الأقصى .

### الرقيق

عرف العالم الإسلامي الرقيق الذي ورث التجارة فيه عن الحضارات الكبيرة القديمة ، وخصوصاً عن الحضارة البيزنطية . وقد كان العبيد القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبرى وفي المناجم ، كما كانت اليد العاملة في المدن تتتألف من العبيد والعمال الأحرار على السواء .

والخدم في المنازل أيضا كانوا من الخصيان والجواري والعبيد وكذلك كان الموسيقيون والمعنون في قصور الملوك ومنازل الأعيان فأن قصر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في قرطبة كان يحتوي على 300 ر6 جارية ، بينما كان عدد الجواري في قصور الفاطميين في القاهرة يبلغ 12000 جارية ، وقد كانت الجوقة الموسيقية التي هي من لوازم حياة الترف والبذخ ، تتكون من الرقيق الذين أنشئت مدارس خاصة لتعليمهم وتدريبهم على فنون الغناء والعزف (10) والرقص والنحو والشعر (11) ، في بغداد ، والمدينة وقرطبة . والعبيد الذين يتلقون التعليم والتدريب ، يباعون بأسعار مرتفعة جدا (12) . وهذه كانت حالة اشراق السويدة ، الجارية السوداء التي اشتهرت في الأندلس في القرن العاشر الميلادي بتضلعها في النحو وفي علم العروض .

10 - روى صاحب الأغاني عن ابراهيم الموصلي مفتي الرشيد قوله : « لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسنا ، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود » ، وأول من علم الجواري المعنفات أبي . فانه بلغ باليقان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن » . وفي هذا السياق يقول أبو عينية الشاعر ، وكان يهوى جارية اسمها « أمان » طلب مولاها فيها ثمنا كبيرا :

فكت لما رأيت مسوني أمان قد طفى سومه بها طفiana  
لا جزى الله الموصلي ابا اسحاق عنا خيرا ولا احسانا  
جاونا مرسللا بوجي من الشيطان اغلى به علينا القیانا  
والجدير بالذكر ان ابراهيم الموصلي ، جريا على سنة ابيه ، الف هو وزيده حوراء  
شركة لشراء القوانی وتعليمهن الفناء والمشاركة في ربجهن . (المترجم) .

11 - كان تعلم النساء يستتبع تعلم الادب ، لأن النساء كانوا في ذلك المهد يتلقن بالشعر الفصيح ، مثل شعر عمر بن أبي ربيعة وبشار ومسلم بن الويلد ، وكانت المغنية تحتاج لاجادة الفتاء ، الى حفظ كثي من الشعر وعمرنة مخازن الغروف ودراسة علم اللغة ، وذكر البرد عن الجاحظ عن ابراهيم بن السندي انه قال : كانت نصل الى جارية « حمدونة » في حاجات صاحبتها ، فاجمع نفسى لها وأطرب الخواطر من فكري وأحضر ذهني جهدي ، خوفا من أن تورد على ما لا أفهمه ، بعد غورها واقتدارها على ، أن تجري على لسانها ما في قلبها . المترجم ) ١ (

12 - اشار صاحب الأغاني الى هذه الظاهرة وقال ان تعلم الجارية يغلي تيمتها أضعافا مضاعفة . فقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار ، فلما علمها ابراهيم بن المهدى الغناء ، عرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار ، وقد بيعت عريب المفنة الشهيرة بخمسة آلاف دينار ، وكان دحمان يشتري جارية بمائتي دينار ، فيعلمها وبيعها بعشر آلاف دينار ، وكذلك اشتري الرشيد جارية من الوصللى بستة وتلائين ألف دينار . (المترجم).

والنوع الآخر ، والمهم أيضاً في الرقيق ، هو الرقيق العسكري ، فان حرس الملوك والأمراء ، يتكون أساسياً من العبيد ، وحرس بني طولون في الفسطاط في القرن التاسع الميلادي ، كان يتكون من 24 ألف من الأتراك و 40 ألف من السود ، وأما خلفاء بنى أمية في قرطبة ، فقد كانوا يملكون عشرة آلاف عبداً ، وهذا الحرس الذي تتولى قيادته ضباط يختارون بعناية من المتعوقين كان دائماً يقوم بدور في الدرجة الأولى من الأهمية في الحياة العامة . وقد كان ابن طولون بن عبد تركي متعوق ، كما كان أبو المسك كافور (13) ملك مصر (905 - 968 م ) عبداً مختصياً .

وكما حدث بالنسبة إلى العبيد المتعوقين في الامبراطورية الرومانية ، والمخصيين في الامبراطورية البيزنطية ، فان الشخص الذي كان عبداً في السابق ، كثيراً ما يلعب دوراً خطيراً في الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية في العالم الإسلامي .

ومهما يكن من شيء ، فان التجارة في الواقع كانت من أهم القطاعات التجارية في العالم الإسلامي .

ولكن سكان العالم الإسلامي لا يباعون ولا يشترون عبيداً . وبعد مرحلة الفتوحات ، لم يكن يوجد في داخل الحدود الإسلامية سوى مسلمون وذميون تحميهم الشريعة الإسلامية : اليهود والمسيحيون وأتباع ديانة زرادشترا ، وهذه الفئات جميعاً يحرم الإسلام استعباد أفرادها

13 - كافور بن عبد الله الاخشيدى ، الامير المشهور ، صاحب النبي ، ورد تاريخ ميلاده في النص غالباً ، 966 م ، والصواب ما ذكرنا ( وهو يوافق 356 - 357 هـ ) وكافور كان عبداً حبشاً اشتراه الاخشيد ملك مصر ( 312 هـ ) فنسب إليه وأعتقته فترى في السلم الاجتماعي حتى وصل إلى ملك مصر في سنة 355 هـ وأخباره كثيرة توسع صاحب النجوم الراهن في ذكرها ، وقد كان يدعى لكافور على المنابر في مكة ومصر والشام ، ولما توفي حمل تابوته إلى القدس ودفن بها . (المترجم) .

اذا استثنينا حالات نادرة ، مثل الأقباط الذين قاموا بالثورة التي تحدثنا عنها في الدلتا المصرية . ونتيجة لهذه الوضعية ، فان العالم الاسلامي يحتاج الى استيراد العبيد من البلدان الواقعة خارج حدوده اذا لم يقع في يد المسلمين أسرى في الحرب .

وهكذا نجد ثلاثة بلدان ، أو مناطق ، هي التي توفر الرقيق ، وهي :  
بلاد الصقالبة ( ومنها اشتقت كلمة Slave ) الأوروبية ومعناؤها  
العبيد ) ، وهي بلاد الغابات الواسعة التي تمتد في أروبا الوسطى وبلاط  
الأتراك ، أو تركستان ، أي سهوب آسيا الوسطى ، وأخيراً ، بلاد  
السودان التي تمتد على حافات الأدغال الافريقية .

كان الصقالبة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر  
الميلادي ، يحتلون في الغرب المناطق التي اتشروا فيها عقب هجرة  
الجرمانين نحو الغرب ( بين القرن الثالث والقرن الرابع الميلادي ) .  
وهذه المناطق تمتد حتى نهر الأيلب ونهر صال وجبال الألب الشرقية  
وایستري وداللاتيا والباقان ، بل وحتى جزر البليوبونيز التي ردوا منها على  
أعقابهم بعد القرن السادس الميلادي .

وفي الشرق ، تمتد أرض الصقالبة على وجه التقريب حتى حدود  
الغاية الشمالية الكبرى وتشمل أعلى نهر الدنيبر ، وأعلى نهر الدون ،  
وأعلى نهر الفولجا ، مع ألسن متقدمة في السهول ، حيث اصطدمت  
شعوب البوبيان ( Pohanes ) بشعوب الدريفليان ( Drivilanes )

ووراء بلاد الصقالبة تمتد في اتجاه بحر البلطيق ، أراضي الشعوب  
الفنلندية التي تشملها عند الجغرافيين العرب كلمة « الصقالبة » .

وفي السهوب الروسية الجنوبيّة ، وفي جنوب نهر الدانوب ، كانت تعيش الشعوب التركية - المنغولية الأصل ، الخزر ، والبلغار . وال مجر .

والصقالبة يعيشون عيشة تعتمد على منتجات الغابات : صيد السمك ، وصيد الحيوانات والقطف والجني . وهم موزعون في قبائل مشتتة لا التحام بينها . ولكن الصقالبة أخذوا يتبلورون إلى كيانات متماسكة في القرن العاشر الميلادي ، حين أسسوا دولاً في منطقتين : بوهيميا ، وبولندا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن السكاندينافيين كانوا يجوبون ، ابتداء من القرن الثامن الميلادي ، منطقة الأنهر الروسيّة الكبرى ( الفولجا والدون والدنير ) ، حيث شكلوا في القرن التاسع الميلادي أمارات روسية اسكنانديانية في كييف وعلى ضفاف نهر الدنير .

وأما التجارة السكاندينافية ، فكانت تتجه نحو بحر الشمال وأروبا الغربية ( ومن هناك تصلها طرق التجارة المؤدية إلى الأندلس والمغرب الإسلامي وشواطئ البحر الأبيض المتوسط ) ، ونحو الجنوب ، إلى بحر قزوين والشرق الإسلامي ، وأخيراً ، نحو البحر الأسود وبيزنطة .

وكانت هذه التجارة تنصب خصوصاً على الرقيق الصقلبي الذي كانت تصدره أمارة كييف في اتجاه العالم الإسلامي وبيزنطة .

وفي الاتجاه الشرقي كان العبيد يمرون ببلاد الخزر ، في أسفل نهر الفولجا . وقد كانت مدينة أتيل الواقعة على ضفاف بحر قزوين تفرض ضرائب ( جمركية ) على الرقيق الذي يجري توزيعه فيها بين الطريق البرية المؤدية إلى باب الأبواب ، وإلى أرمينيا التي كانت مركزاً

للخصي ، والطريق البحري عبر بحر قزوين ، في اتجاه طبرستان ، والري ، وبغداد .

وطرق العبور (الترانزيت) الأخرى لتجارة العبيد ، هي التي تجتاز بلغاريا الكبرى وتمر بمدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهري الفولجا ونهر كاما . وهذه الطريق التي تمر بالسهوب تؤدي إلى خوارزم حيث كانت أورجانش السوق الرئيسية للرقيق في آسيا الوسطى . والمدينة كانت تابعة للدولة السامانية التي كان سلطانها يمتد ليشمل أيضا سمرقند وبخارى ، اللتين كانتا مركزين للخصي ، ومن الشواهد التي تدل على أهمية التجارة في الرقيق في الدولة السامانية ، تلك الكميات الكبيرة من الدرافم السامانية التي عثر عليها ، على طول الأنهار الروسية الكبرى (14) حيث كانت عملية الدفع لشراء الرقيق ، وغيره من السلع التي كانت تمر بمدينة بلغار : الفراء ، والعسل ، والخيول ، والجلد .

ومن خوارزم ، ستتجه قوافل العبيد إلى آسيا الوسطى ، إلى إيران وما بين النهرين ، حيث توزع في مختلف أسواق العالم الإسلامي .

وفي الاتجاه الغربي ، كانت تجارة الرقيق تجري على يد الفرنج ، ولا سيما التجار اليهود الذين يتذمرون إلى أعلى الدانوب والراين والأراضي الواقعة على أنهار الموز والصاعوم والرون . ومن بوهيميا ،

---

A. Markof. Topografia Kladof vostotchnykh monet, Saint Petersbourg, 1910.

R. Vasmer وكذلك التكميلات التي قدمها Trudy numizmaticheskoy Komisii

Beitrage Zur kun de Estlands

راجع كذلك المقالات الجديدة التي ظهرت عن قطع النقود العربية في المجالات العلمية

البولندية ، ولا سيما : R. Gupieniec, Bibliografia Numismatyky Polskiej zalata Archeslogiczne bibliotera Nmizmatyczna

1.

حيث كانت مدينة براوغ مركزاً للخضي ، يتجه العبيد إلى مدينة راتسبيون في ألمانيا . ومن هناك يوزع الرقيق على الأسواق الجermanية الواقعة على ضفاف أنهار الألب والصال ، ويصل إلى فردان ، التي كانت سوقاً كبيرة للعبيد ومركزًا للخضي في نفس الوقت ، ثم إلى مدينة ليون حيث يقوم التجار اليهود بتوزيع سلعتهم البشرية . وهذه الأسواق يؤكد وجودها ابن خردبة الذي كان يكتب في سنة 847 ميلادية ، كما تؤكدتها رسائل أسقف مدينة ليون ، أجوبار ( توفي في سنة 840 ميلادية ) (15) . ومن مدينة ليون ، كان الرقيق يمر إلى أرل ونربونة ، ومن هناك يتجه إلى إسبانيا ، وعن طريق البحر مباشرة إلى مصر وسوريا .

وأخيراً ، تتجه التجارة في العبيد إلى الجنوب ، نحو البندقية التي تعتبر قاعدة أساسية لهذه التجارة . فإن البندقية تتلقى الرقيق الصقلبي الآتي من أعلى الدانوب ومن بلاد رينيان عن طريق ممرات جبال الألب ، أو من جبال الألب الشرقية وايسنيري وداماتيا . وبعد ذلك ، يقوم البحريون البندقيون بتصدير هذه البضاعة البشرية إلى موانئ المشرق في البحر الأبيض المتوسط . والتجارة في الرقيق كانت مربحة للغاية ، وكانت تزيد الموارد الهامة التي كانت البندقية تجنيها من تهريب الأسلحة والخشب إلى البلدان الإسلامية .

وكذلك نجد أن التجارة في الرقيق كانت تجارة واسعة ويجني منها من يقومون بها أرباحاً طائلة . ففي القرن العاشر الميلادي ، ذكر ليوتبراند ( Lintprand ) ، التجارة في الرقيق و «صناعة» الخضي في مدينة فردان ، ووصفها بأنها «قدر أرباحاً طائلة » (16) . ومما يدل

Mon Germ, Espitol III, pp. 183 et 185.

15 - راجع :

Antaprondosis, Mon. Germ. Hist. Scriptores III, p. 156

16 - راجع :

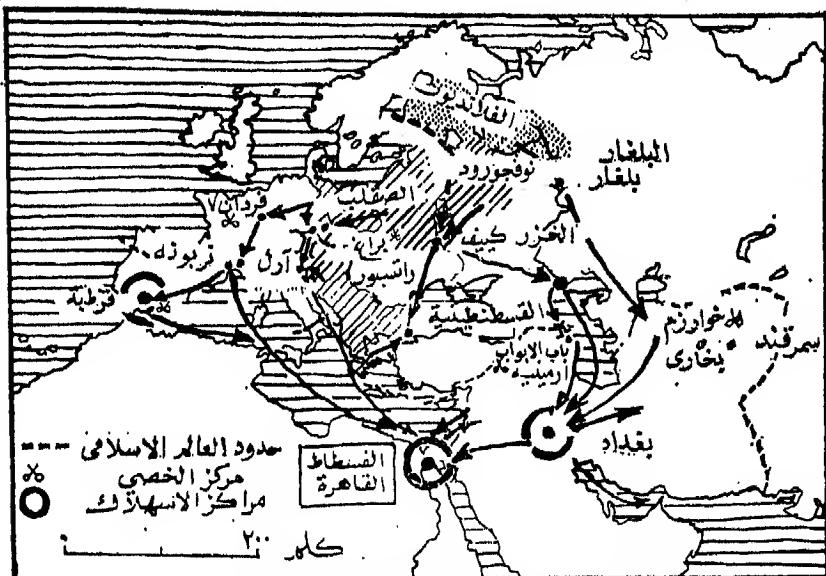
أيضا على اتساع نطاق التجارة في الرقيق ، تلك الأرقام التي أسف عنها تعداد العبيد الصقالبة الذي أجرى ثلاث مرات متتالية في قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث (961-912م) . وهذه الأرقام ، كانت على التوالي : 3750 و 6087 و 13750 عبدا . وهذا معناه ازدياد عدد العبيد بعشرة آلاف نسمة في فترة نصف قرن من الزمن ، وذلك في نقطة واحدة من العالم الإسلامي .

وبعد ما تفككت خلافة قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي ، استولى الضباط من العبيد الذين نالوا حريةهم على مقايد الحكم في العهد المعروف باسم «ملوك الطوائف» ، وخصوصا في دانية وبلنسيية .

ويبنما كان الصقالبة يعيشون في الغابات ، كان الترك يقيمون في سهوب آسيا الوسطى التي تمتد حتى المناطق الجنوبيّة في روسيا . والمناطق التي يدخل منها الرقيق إلى العالم الإسلامي هي المناطق التي تقع فيها فرغانة ، والشاش ، وما وراء النهر ، مع أسواق سمرقند ، وبخاري الواسعة ، من جهة ، وخوارزم التي تصل إليها ، كما رأينا ، واحدة من أكبر الطرق التي ينقل فيها العبيد الصقالبة والتي تسيطر عليها دولة السامانيين (القرن العاشر الميلادي) من جهة أخرى .

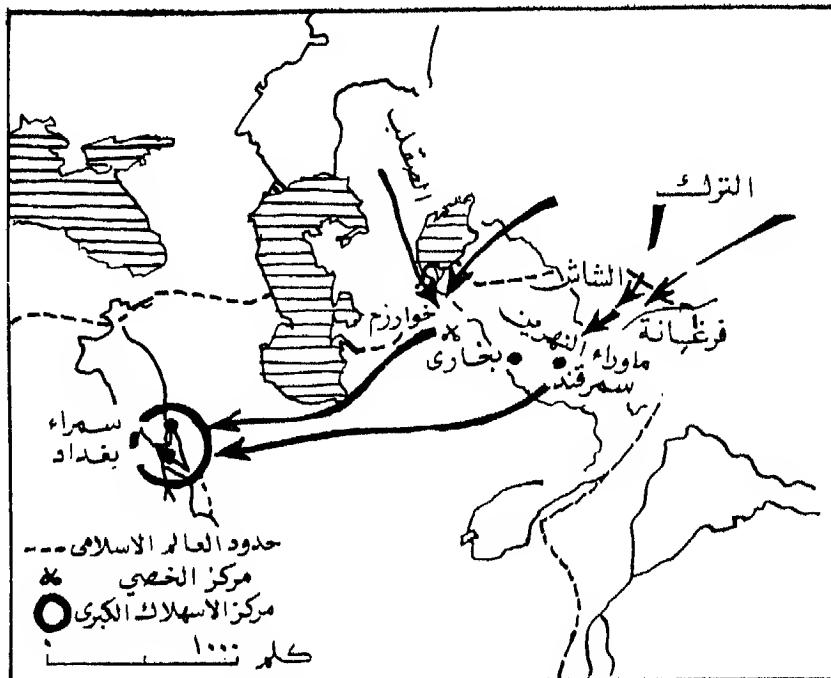
ومن هذه المناطق ، يعاد توزيع الرقيق الصقلبي إلى جميع الأسواق الإيرانية وأسواق ما بين النهرين ، وغيرها من أسواق العالم الإسلامي .

والمهمة الأولى التي تناط بالعبيد الصقالبة والأتراء في العالم الإسلامي ، هي تشكيل حرس الأمراء والملوك . وكذلك نرى أن الخلافة العباسية التي ولدت في خراسان ، قد اتجهت إلى الاعتماد كثيرا على المالك . ويكتفي لكي ندرك أهمية هذا الاعتماد ، أن نعرف أن الخليفة المعتصم



الشكل رقم ٢١ - التجارة في الريفي الصقلي

العباسي « ٨٣٣ - ٨٢٤ » ، كان لديه حرس يتكون من 70,000 عبداً تركياً . وهذا العرس الضخم سيقوم بكثير من الاضطرابات في بغداد ، الأمر الذي حمل المعتض على بناء سر من رأى واتخاذها عاصمة لملكه ، عوضاً عن بغداد ، وبعد ذلك ، سي حوالي العنصر التركي توغله في أجهزة الدولة باستمرار . فان الضباط من العبيد العتوقين ، سيقوى نفوذهم ويزداد سلطانهم ، بعد ما يصبحون قواداً للجيش أو للحرس الملكي ، بل وملوكاً في بعض الأحيان ، مثل ابن طولون في مصر . فهؤلاء الضباط الأتراك ، هم الذين ألقوا الأقدار في أيديهم مفاتيح الحل والعقد في الخليفة الإسلامية . فان عودة الخليفة إلى بغداد في سنة 892 ميلادية سببه رغبة المعتض في التخلص من الأتراك الذين بسطوا نفوذهم على سر من رأى .

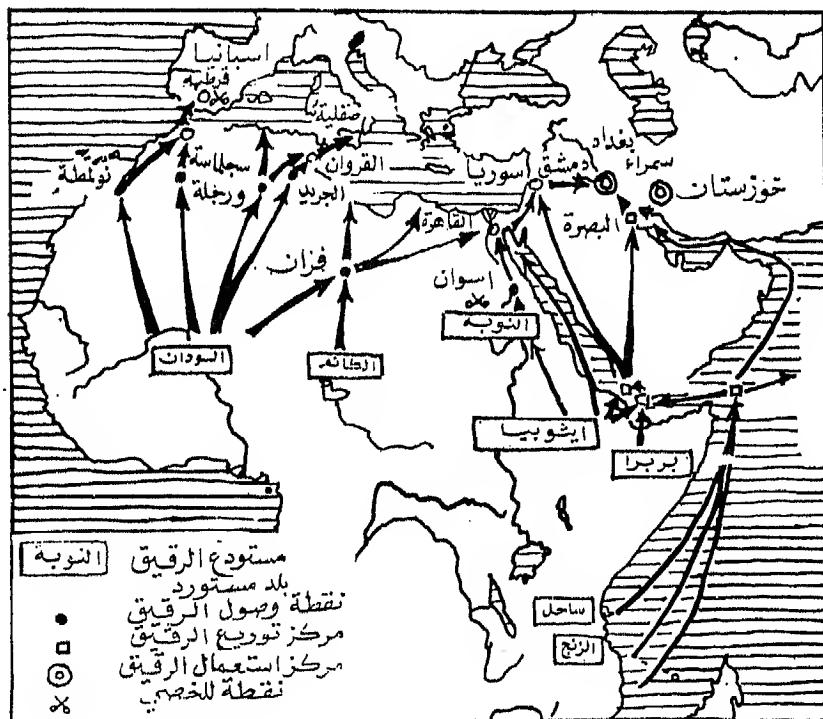


الشكل رقم ٢٢ - التجارة في الواقع التركي

وهذا التوغل التركي في الجيش والادارة ، كان من العوامل التي سهلت انتشار الدين الاسلامي في بلاد الترك التي بقيت خارج حدود الخلافة الاسلامية وهبّت الأسباب لقيام الامبراطورية الاسلامية بعد الفتوحات التي قام بها الأتراك في القرن العادي عشر الميلادي ، وبعد القرن الثالث عشر الميلادي ، سيبلغ المالك (17) الذين استولوا على الحكم في مصر ، أوج سلطانهم ، ويصبح معظم العالم الاسلامي خاضعا لحكم الحرس التركي .

17 - المالك هو العيد الاتراك والشراكة الدين استعان بهم الأيوبيون في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلادي للخدمة العسكرية ، فتمكن بعض زعامتهم من الوصول إلى الحكم وأسسوا دولتي المالك البحرية والبرجية وكان سلطان المالك في وقت من الأوقات يمتد من برقة غربا ، حتى حلب شرقا ومن مصوع جنوبا حتى البحر الابيض شمالا . «المترجم» .

والعالم الأسود ، يشكل المورد الثالث والكبير للعييد . وهذا المورد يشتمل على عدة مناطق : فالنوييون يستوردون من أعلى النيل عن طرق أسوان التي هي المدخل الجنوبي للبلاد المصرية والتي كانت مركزاً للشخصي ، ولا سيما في الأديرة المسيحية التي تقع فيها . فهؤلاء هم سكان ببرنا الذين يوجهون خصوصاً إلى الخدمة في المنازل . وأما الرقيق الجشعي ، فيستورد عن طريق النيل الأزرق ، أو عن طريق موانئ البحر الأحمر إلى مصر وشبه الجزيرة العربية . والعييد الصوماليون يأتون عن طريق الزيلع إلى عدن حيث ينقلون لتوزيعهم إلى سوق زيد الكبيرة التي أنشئت في القرن الثامن الميلادي .



الشكل رقم ٢٣ - تجارة الرقيق الأسود

وأما الزنج الذين يأتون من شواطئ إفريقيا الشرقية ، أي البنطوس ، فيشكلون موردا هاما لتوفير اليد العاملة في حقل التجارة الإسلامية التي عرفت ازدهارا وتوسعا كبيرا في المحيط الهندي . وهؤلاء العبيد السود ، يقعون في الأسر أثناء الغزوات أو يشترون في مقابل بضائع زهيدة القيمة من الملوك ورؤساء القبائل الزنجوج . ومن شواطئ إفريقيا الشرقية تمر هذه البضاعة البشرية إلى جزيرة سقطة والى عدن ، حيث يحشدون استعدادا لاعادة تصديرهم إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، أو إلى ما بين النهرين عن طريق الخليج . ونحن سبق أن تحدثنا عن ثورة الزنج الفظيعة في الفترة بين 868 - 883 ميلادية . وكانت كثرة العبيد الزنجوج من أهم الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة .

والموارد الأخيرة للعبيد ، كانت هي المناطق الغربية في السودان . وهذه الأرضي كانت تستغل لتوفير العبيد خصوصا بفضل تنظيم تجارة القوافل في الذهب والعبيد عبر الصحراء . وأهم قات رقيق السودان ، هم التكرور السينغاليون ، والصونكي الغانيون ، والصونغاي من جوا ، والصاو ، من الكانم الذي تمتد أراضيه غير بعيد من التشاد فهذا الرقيق يصدر إلى نولطة والى سجلماسة ، ومن هناك يتجه إلى المغرب الأقصى والأندلس ، أو إلى ورحلة والجريد ثم إلى إفريقيا وفزان وطرابلس وبرقة ومصر ، وما وراءها من البلدان الإسلامية في الشرق .

والى جانب الصقالبة والأتراك والزنوج ، توجد شعوب أخرى تساهم بحظ في توفير الرق . فان العبيد الأنجلوساكسن ، يوجهون عن طريق الجول ، إلى ضفاف الرون وإيطاليا الشمالية والبنديقية ، أو مباشرة عن طريق إيرلاندا والمحيط الأطلسي إلى موانئ الأندلس : لشبونة وقصر أبي دانس . وأما رقيق الهند ، فيدخل عن طريق الهند كتش ، وبلغ وسمرقند . ويضاف إلى ذلك الأسرى الذين يأخذهم المسلمون في الحروب ضد بيزنطة أو في الغزوات التي يشنونها على

البلدان المسيحية في إسبانيا الشمالية والأسرى الذين يسعهم النورمانديون واللوبارديون الذين يشتريهم نخاسو أمافي وغيرهم من نخاسي إيطاليا الجنوبية ، يوجهون إلى الشواطئ المقابلة للبحر الأبيض ، مثل صقلية ، وافريقيا الشمالية ، ومصر .

والواقع أن الرق كان من أهم العوامل في الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي . فان تدفق العبيد يسمح بشن الحرب ويساعد على استمرار تدفق التبادل التجاري وتوسيع هذا النشاط الذي يمتد بين آسيا الوسطى والغاية الشمالية الكبرى والسودان الغربي وشواطئ إفريقيا الشرقية والجزر البريطانية والهند . ولكن ابتداء من القرن الحادي عشر ، أخذ الرقيق يقل ، فان عهد الفتوحات الكبرى قد انتهى ، والصقالبة الذين اعتنقوا المسيحية لا يباعون للمسلمين . وأما الأتراك الذين اعتنقوا الدين الإسلامي ، فقد أصبحوا غير قابلين للاسترقاق . ومن ثم ، فلم يبق سوى السود . ولكن حتى في هذه المناطق ، تقلصت الأرضي التي توفر الرقيق نتيجة لانتشار الإسلام في إفريقيا السوداء .

وتتجة لهذا التطور ، سنشاهد أزمة حادة في سوق اليد العاملة ، كما حدث في عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي . وكان من ترتب هذه الأزمة ظهور ، أشكال جديدة من تنظيم اليد العاملة .

وحركات الغزو التي وقعت في القرن الحادي عشر الميلادي ( الترك وبني هلال والمرابطون ) ، مستخدم الطرق التي كان يسلكها الرقيق . وقد كان فتح هذه الطرق التي تربط بين المدن الإسلامية والمجتمعات المتواحشة التي كانت مستودعا للعبيد ، بداية عهود جديدة .

\* \* \*

ان الانتاج الزراعي والصناعي في العالم الاسلامي خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينطوي على عوامل القوة وعلى عوامل الضعف في نفس الوقت . فأما عوامل القوة فمرجعها الى الفترة الزمنية نفسها . فان قواعد سيطرة العالم الاسلامي الاقتصادية ، تقوم في المكان الأول على الترکة الايجابية التي ورثها عن الحضارات القديمة التي اعتمد الاسلام طرقها التقنية وحسنها . وفي نفس الوقت ، استطاع الاسلام تفادي آثار النواحي السلبية في تلك الحضارات . وكذلك تمكن العالم الاسلامي بفضل وجود نظم للتجارة مع البلدان البعيدة ، لتمويله بعض المنتجات وبفضل وجود شبكة من المدن التي تحول فيها تلك المنتجات ، من الحصول على المواد التي لا يملكونها أو التي لم يعد يملكونها بسبب الافراط في استغلالها في عهود الحضارات القديمة التي كانت تبذّر المواد الأولية .

ونواحي الضعف في العالم الاسلامي ، مرجعها ، بالضبط الى النقص في موارده الخاصة ، ولا سيما من الخشب والمعادن ، والمياه فان المناطق التي يشملها الري ، لا يمكن توسيعها الى غير نهاية . وضيق هذه المناطق يحد من قاعدة النباتات الغذائية الشرقية . وكذلك كانت قوة الاسلام الاقتصادية معلقة على صيانة شبكة الري وشبكة الطرق التي يتدفق منها الذهب ، وعلى ازدهار العمران في المدن .

وهذا يفسر لنا كيف ان القوة التي كان مرجعاها الى ظروف تاريخية معينة ، قد تحولت الى ضعف حينما اختفت امكانيات التنقل في فضاء فسيح ، أي في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر . تحت تأثير الغزو : غزو الاتراك في الشرق ، وغزوبني هلال في افريقيا الشمالية ، والمورخين في الاندلس ، والنورمانديين في صقلية والصليبيين في أسبانيا وسوريا .

---

وأزمة العالم الإسلامي التي هي الأزمة المتكررة في بلدان الشرق القديمة التي أفرطت في استغلال مواردها وتعرضت للغزو ، زاد من خطورتها منافسة الغرب الذي هو بلاد جديدة ، بعدهما تعرض للتأثيرات الخلاقة والمحرضة على العمل والتقدم التي تلقاها من المراكز المحركة في العالم الإسلامي نفسه . وقد استطاع الغرب بفضل تلك التأثيرات تنظيم استغلال موارده الهائلة من الماء والخشب والمعادن — تلك الموارد التي ظهرت أهميتها خصوصا ، بالقياس إلى ضآلة موارد بلدان العالم الإسلامي التي استنزفت الآن .

\* \* \*

القسم الثالث

## قوة تيار التبادل التجاري



## الفصل التاسع

# التبادل التجاري في العالم الإسلامي

استعرضنا في الفصول السابقة الخطوط الرئيسية لتدفق النقد ولوصول الذهب الحديث الاستخراج الذي ينشد الدورة العامة المتداول التجاري في العالم الإسلامي ، ثم درسنا دور كبريات المدن الإسلامية بوصفها مراكز الاستهلاك والمحرك الحقيقي لللاقتصاد . ولكننا نحتاج إلى تكميل هذه الدراسة التي تتعلق بتغيرات النقد : بدراسة أخرى عن الاتجاهات الرئيسية لتيارات السلع . وهذا البحث يضطرنا إلى الحديث أولاً ، عن الوسطاء في التجارة : اليهود ، والمسيحيون ، وال المسلمين .

### الوسطاء من اليهود

كان احتراف اليهود التجار يقوم في أساسه على مجموع الجماعات اليهودية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم بسبب التشرد الأول (في عهد نابو شودونوصر (Nabuchodonosor) (1) ) ، ثم بالتشرد الثاني (بعد تدمير معبد القدس ) . وهذه الجماعات ، كونت صلات وروابط وثيقة بينها ، واستقرت على حافات الطرق التجارية العالمية . وهذه الطرق الدينية والتجارية ، تصل ما بين النهرين في عصر الساسانيين وأرمينيا ، وببلاد القوقاز وشواطئ بحر قزوين وبلاد الخزر (أسفل

---

1 - ابن نابو بولاسار (Nabopolassar) ملك بابل (605 - 562 ق.م) شن عدة حملات على مصر وخرب مملكة يهودا وعاصمتها القدس في سنة 586 ق.م ، ثم غزا مناطق من الجزيرة العربية . (المترجم) .

القولجا والسموب التي تمتد بين مملكة البوت وبحر قزوين ) من جهة ، وايران (2) وخراسان وخوارزم وما وراء النهر ، وشواطئ الخليج ، وأخيرا الهند « شواطئ ملبار » .

ومن سوريا ومصر البيزنطية ، خرج اليهود في المرحلة الأولى إلى شمال الجزيرة العربية والى المناطق الجنوبية الشرقية فيها (اليمن) . والحبشة واتشروا في جميع البلدان الواقعة على البحر الأحمر ، وفي مرحلة تالية ، هجروا الى الواحات الواقعة على خط القصور ، من مصر حتى المغرب الأقصى على طول الأطراف الشمالية للصحراء . والهجرة التي وقعت في المرحلة الثانية سيمارس فيها اليهود تأثيرا عميقاً الأبعد على العالم العربي البدائي ، وعلى البلاد الواقعة على شواطئ البحر الأحمر ، وعلى العالم الصحراوي ، حيث تعزز الأساطير الى اليهود ادخال عدد من الطرق التقنية الى المناطق الواقعة في جنوب جزيرة المغرب .

وفي المرحلة الثالثة ، اتجه المشردون من اليهود من القسطنطينية ومن آسيا الصغرى الى شواطئ البحر الأسود وشبه جزيرة القرم وروستيا الجنوبية ، حيث تصل اليهودية التي تنتشر من ضفاف بحر قزوين - بلاد الخزر . (3) وفي المرحلة الأخيرة انتشرت اليهودية من ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، وهي منطقة تضم كثيرا من المدن التجارية القديمة وتعتبر من ضمن المناطق التي شملها النفوذ الفنلندي ، أي السامي في القديم . وعن طريق مضيق جبل طارق كان اليهود يتغلبون أيضاً في الغرب المسيحي

2 - كان يوجد في ايران بلدان تسمى كل منهما « اليهودية » احداهما بجرجان ، والآخر باضبهان . (المترجم) .

3 - ذكر احمد امين في كتاب ضحى الاسلام ، نقل عن بنiamin ، أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا في سنة 1165 م (560 هـ) ان عدد اليهود في المملكة الاسلامية غير العرب ، كان نحو ثلاثة ألف . وهذا بطبيعة الحال مجرد تقدير ، وأهميته في أنه صادر عن يهود رحالة يفترض فيه معرفة أحوال قومه . (المترجم) .

الذي يسيطر عليه البرابرة ، وخصوصا الى لانجدوك ، ووادي اللوار ، والرون ، والصاوم ، والموز ، ووادي الراين . ومنذ العصر الميروفنجي ، نجد جريجوري دوتور (Gregoire de Tours) ، يتحدث عن «السوري» أي ، اليهود والمسيحيين الشرقيين .

فهذه المناطق كلها ، ستكون مسرحا لتجارة اليهود في العصور الوسطى . على أن الجماعات اليهودية التي استقرت في بعض المناطق ، كانت أكبر عدد وأوسع نشاطا من جماعات تقع في مناطق أخرى .

وأقوى الجماعات اليهودية وأكبرها عددا ، كانت هي الجماعة التي استقرت في الشرق الساساني ، ولا سيما بلاد ما بين النهرين حيث كان للمستعمرة اليهودية رئيس سياسي يسمى « راش جالوت » أو رئيس المنفى ، وحيث كان نفوذ الرؤساء الدينيين « جيونيم » ، مفرد : جاون » قويا جدا . وهؤلاء الرؤساء يمثلون مدرستين دينيتين يمتد نفوذهما في سوريا ، قرب الأنبار ، ونفوذهما الآخر في بومبidiتا (Pumbidita) التي تقع في الجنوب : ونحن نعرف أن النص الذي يسمى بالبابلي من التلمود ، قد خرج من مدرسة سوريا .

وفي الامبراطورية البيزنطية ، كانت فلسطين المركز الأكبر للיהودية . ومن مدينة القدس ، ثم من طبرية ، بعدما طرد اليهود من القدس ، خرج النص الذي يحمل اسم مدينة القدس من التلمود . وكذلك كانت مصر مركزا حيا لليهود . ونحن نعرف أن أقدم نصوص الانجيل (4) ، قد خرج من الوسط اليهودي في الاسكندرية .

---

4 - هو النص الذي يحمل اسم « سبعين » (Septant) ، ويتمثل الترجمة الاغريقية للعهد القديم ، وهذه الترجمة التي وضعت في القرن الثاني والقرن الثالث الميلادي ، هي اندم واشهر ترجمة للانجيل . (المترجم) .

وأما في الغرب المسيحي ، فنحن نلاحظ بصفة خاصة نشاط الجماعة اليهودية المقيمة في جنوب إسبانيا ، ذلك النشاط الذي لفت أنظار القوط إلى اليهود وعرضهم للاضطهاد .

وفي صقلية وإيطاليا الجنوبيَّة كانت تقيم جماعات من اليهود نجد آثار نشاطها واضحاً في التواريخ اليهودية ، ولا سيما في أروبا ، وباري ، وروسانو .

على أن المراكز التي تقيم فيها الجماعات اليهودية ، لم تكن الاتصالات بينها محكمة . وهنا أيضاً ، نجد اتفاقياتاماً بين العالم الساساني والعالم البيزنطي ، اللذين يشكلان منقطتين اقتصاديتين احدهما مستقلة عن الأخرى . وبالإضافة إلى كونها قليلة التنظيم وتتجدد منافسة من التجار اليهود والمسيحيين الشرقيين . فإن الجماعات اليهودية في المنفى تتعرض للاضطهاد . فاليهود الذين كانوا يقيمون في أراضي الإمبراطورية الساسانية . سيفضلون إلى الهجرة جماعات ووحداناً إلى أرمينيا وإلى شواطئ بحر قزوين والمحيط الهندي .

وأما الجماعات اليهودية التي يشملها حكم بيزنطة ، فقد عملت السلطات البيزنطية على نفي كثير من أعضائها خصوصاً من القدس ، وعمدت إلى حمل آخرين على اعتناق المسيحية بالقوة . بعد ما رجعوا بالغزة الفرس في القرن السابع الميلادي . وهنا أيضاً . سيقوم اليهود بهجرة في اتجاه البحر الأسود وإلى شواطئ بحر قزوين .

وفي الإسكندرية كانت روح العنصرية والتمييز ضد اليهود تسود منذ أقدم العصور . وكذلك كان اليهود المقيمون في صقلية يفرون من سيطرة القسطنطينية المحصورة في المدن البحريَّة ويعبرون البحر إلى إيطاليا .

وأما ممالك القوط الغربية ، فإنها لم تكن أكثر رحمة باليهود ، حيث أدى اضطهادهم العنيف في الجنوب ، وخصوصاً في مالقة ونربونة إلى هجرة واسعة النطاق إلى المغرب الأقصى حيث ستقوى تيارات التهويد .

وهذه الاعتبارات تفسر لنا ترحيب الجماعات اليهودية بالفتح الإسلامي . وهذا الترحيب بلغ في كثير من البلدان ، ولا سيما في سورية ومصر : درجة التواطئ مع المسلمين ، مما سهل استيلاؤهم بسرعة على تلك البلاد .

وأما اليهود الذين هجروا إلى المغرب الأقصى ، فإن عدداً كبيراً منهم ، سيقومون في مؤخرة الجيش البربري الفاتح لاسبانيا بمهمة حراسة المدن المفتوحة ، بينما تقدم الجيوش الإسلامية المظفرة في اتجاه الشمال .

وعلى الرغم من أن هذه الجماعات اليهودية لا ترتبط فيما بينها إلا ارتباطاً خفيفاً ، فقد بدأت في تكوين طبقة من التجار والصناع اليدويين الذين تدفعهم روح الكسب ويعملون وفقاً للطرق التقنية التجارية والصناعية الشائعة في العالم السامي القديم . وكذلك كان اليهود يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة والصياغة والدباغة والزجاج . وفي الوصف الذي خلفه لنا حاخام طليطلة ، بن يامين ( القرن الثاني عشر ) ، للجماعات اليهودية نجد أن اليهود كانوا يعملون في التجارة وفي أعمال المصارف والطب والصياغة والصياغة والدباغة وفي صناعة الزجاج .

وهكذا ، فقد تهيأت الطائفة اليهودية غداة الفتح الإسلامي لتوفير الإطارات ولتمارس نشاطاً مهماً في هذه المجالات .

وهذه القاعدة اليهودية التي كانت موجودة في كثير من البلدان قبل الاسلام ، تفسر لنا الى حد ما ، سرعة نقدم الفتح العربي السريع وانتشار اللغة العربية ، خارج الكتل اللغوية الواقعة خارج مناطق اللغات السامية التي تتكون من الجزيرة العربية وسوريا وما بين النهرين ، أي ، انتشارها في مصر وشمال افريقيا على الأقل في المدن والمناطق التي تتوفر فيها طرق المواصلات خارج جبال البرز – وفي إسبانيا .

ولكن القاعدة اليهودية ، تفسر لنا بصفة خاصة ظاهرة ازدهار التجارة اليهودية التي ترتبط بالتيارات التجارية السائدة في العالم الاسلامي في الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي . وبعد ما اتخد العالم الاسلامي شكل كتلة اقتصادية موحدة ، تكونت شبكة متजانسة منسقة من الجماعات اليهودية التي تعمل في حقل التجارة .

وهذه الشبكة ستمتد لتشمل الجماعات اليهودية القديمة المنعزلة والتي تقع على الطرق التجارية . وستلتجم هذه الجماعات وتنتضم الى مراكز التوسيع والتوغل اليهودية الرسمية . واثر ذلك ، سيقوم اتصال بين الجماعات اليهودية في خوارزم والقوقاز والبحر الاحمر والواحات الصحراوية وبين مجمع الاخبار الرسمي ، وبين هذه الجماعات وبين جماعات التلمود البابلي في بلاد ما بين النهرين وجماعات التلمود الفلسطيني ، ومركز اليهودية المصرية في الاسكندرية .

ولما قام بنو العباس في القرن الثامن الميلادي ، بتأسيس بغداد التي ستكون عاصمة لخلافتهم وقطب النشاط الاقتصادي للعالم الاسلامي أخذت مراكز اليهودية في أسفل ما بين النهرين ، تعمل لتدعم كيانها الديني ولا ثبات تفوقها الذهني .

كانت الجماعة الرئيسية اليهودية في بلاد ما بين النهرين تقطن في حي الكرخ في بغداد (5) . وكان رئيس هذه الجماعة ، كما ذكرنا ، هو الراش جالوت الذي كان من كبار الشخصيات المقدمة في الحفلات الرسمية في بلاط بنى العباس .

والمدرستان الدينستان اللتان تقع احدهما في سورا ، والأخرى في بومبديتا ، غير بعيد من بغداد ( والأولى يربطها بعاصمة بنى العباس ، نهر اليهودية ) كانتا قد اشتهرتا بمكانة رؤسائهما ، مثل جاون سعدية ، في القرن التاسع الميلادي ، الذين كانوا يبعثون بردودهم على أسئلة اليهود في مختلف الأماكن .

وفي مقابل ذلك ، لم يكن رؤساء مدارس فلسطين يردون على الأسئلة الا نادرا .

وكذلك نجد أن التلمود البابلي هو الذي اعتمدته الجماعات اليهودية في إسبانيا والجول وبلاد رينان . والأموال التي تجمعها الجماعات اليهودية في الشرق والغرب للأغراض الدينية أنها كانت ترسل إلى المدارس البابلية . وهكذا تبدو لنا مراكز اليهود في توستار ، في خوزستان ، ومرَاكِز ما بين النهرين ، بمثابة مراكز عالمية لليهودية .

وهذه المراكز كانت تتبعها مختلف التيارات الدينية والفلسفية والصوفية ، وكانت تتفاعل مع تيارات مماثلة في الأوساط الإسلامية فالى جانب سلطة الأخبار التقليدية الثرية ، كانت توجد نزعة اشراقية صوفية ( كبال ) تعارضها .

---

5 - وكذلك كان يوجد في بغداد درب يسمى درب اليهود ، نسب إليه عدد من المحدثين منهم أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن يحيى اليهودي . (المترجم)

وابتداء من سنة 762 م ، وطدت نفسها طائفة « القرائين » ، التي تنادي بقراءة الانجيل وتخليصه مما وضع حوله من الهوامش وبانضمام عناصر اليهودية القديمة الى هذه الحركة الاصلاحية تكونت شبكة أخرى من الجماعات اليهودية التي تعزز شبكة الجماعات اليهودية التقليدية .

وهذه الشبكة الاصلاحية تضم جماعات أكثر التحاما فيما بينها ، وبالتالي ، فقد كانت فعالة على الصعيد الاقتصادي ، ولا سيما حيث كانت تشكل أقلية في حضن اليهودية التقليدية ، وكانت تتعرض للاضطهاد مع مرور الزمن . وهذا الازدواج في صفوف الجماعات اليهودية الذي انطلق تياره من مراكز تقع في بلاد ما بين النهرين ، سيكون ذا أثر فعال وأهمية أساسية في تنظيم العلاقات التجارية .

وهكذا التحامت الجماعات اليهودية في مختلف المناطق في الشرق والغرب بعمل الأหجار الرسميين الذين كانوا يمارسون نشاطهم في داخل العالم الإسلامي . وقد كان كثير من علماء الدين اليهود البابليون خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، ينتسرون الى بلدان تقع على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وهذه هي حالة العخام سعدية الذي يتسب الى أسرة من شمال افريقيا .

ولكن رسم شبكة التبادل الثقافي والديني بين الجماعات اليهودية ، يساوي رسم طرق التجارة العالمية اليهودية ، بل وفي بعض الحالات ، تحديد هذه الطرق بدقة ووضوح . ومركزية النفوذ الديني كانت ظاهرة موازية لانطلاق العلاقات التجارية من المراكز الاقتصادية المحركة في بلاد ما بين النهرين في العصر العباسي وهذه العلاقات تمتد لتشمل مناطق تقع خارج حدود العالم الإسلامي ، عن طريق الجماعات اليهودية التقليدية والجماعات الاصلاحية لتي تقيم في بلاد السود ،

أو في بلاد الغزير أو في مناطق الأنهر الروسية أو في الغرب المسيحي الخاضع لسيطرة البربرة .

وتنظيم الجماعات اليهودية . هو الاطار الذي يجري فيه الشاط التجاري اليهودي . وهذا التنظيم يقوم على أساس المسؤولية والتضامن الضروري لكسب الثقة في المعاملات التجارية وفي عمليات الاعتماد والاتتمان . وسواء أكان الأمر يتصل بالضامنين والمراسلين والشركاء ، أو بالبيوت التجارية التي تملك فروعاً في مختلف البلدان ، فإن تنظيم الجماعة اليهودية المحكم ، قد وفرت له السلطات الإسلامية التي تبعد فيه فائدة لحفظ الأمن العام ومورداً للضرائب ، أفضل الظروف وأكثرها ملائمة .

ونحن نعرف أن نظام الحكم التقليدي في الشرق يقوم بصفة عامة على اعتبار رؤساء مختلف الجماعات ، الدينية مسؤولين عن أتباعهم . فاليهود والمسيحيون يسكنون أحياً خاصَّة بهم ويمكن مراقبتها بسهولة . والجماعة اليهودية لها رسول خاصٌ ينبعها إلى وصول القوافل إلى أهمية شحناتها ونوع السلع التي تنقلها ، كما تحفظ الجماعية بكيس للاغاثة ، وترتبط بعلاقات مع الضامنين الذين يقومون بایواء المسافرين ، ولها قاضٌ خاصٌ يحكم في المعاملات التجارية ، ومراقب للمعاملات والأسوق ، ومؤمر مهمته فدية الأسرى من أبناء الجماعة ، على أساس تعرفه معهول بها في جميع شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

والتجارة المرتبطة بالبر والبحر ، من اختصاص اليهود الردانية (6) الذين نعرفهم بفضل نص مهم لابن خرداذبة « 748 م » (7) ويبدو أن

6 - راجع المخربطة 24 ص 320 استله .

7 - كتاب المالك والمالك ، تحقيق دو خوبه BGA ليدن ، 1889 ، ص 114 - 116 .

كلمة راداني ، مشتقة من الكلمة «نهر» رودنو : الرون . وهذا التفسير أقرب إلى الواقع من الاشتلاف الذي اقترحه العالم الهولندي ، دو خويه ، منذ نحو قرن من الزمن ، والذي يقول بأن الكلمة مشتقة من الكلمة الفارسية «رهدان» ، أي «العارف بالطرق» أو «الدليل» (8) .

فهؤلاء التجار اليهود ، يشكلون عدة جماعات موزعة على ضفاف أنهار الموز والصاوم والرون ، من فرдан وسان جان دولوسن وليون ، حتى آرل ، ونربونه ، الميناء الكبير الذي تعكس ذكراه أسماء بعض الأسر اليهودية ، مثل «النربوني» ، وهو اسم — لا يزال منتشرًا بين اليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكن نص ابن خردبـه الذي أشرنا إليه ، إذا كان عظيم الأهمية ، فهو ليس النص الوحيد الذي بين أيدينا ، لأن عدداً من المؤلفين العرب والفرس يؤيدونه كما تؤكد تواریخ اليهود والتواریخ اللاتینیة في الغرب المسيحي .

ومهما يكن من شيء ، فإن نسبة مهمة من التجارة كانت محكمة في يد اليهود وفي البيوت التجارية اليهودية التي لا تتخصص في سلعية واحدة ، كما جرى العمل في العصور الوسطى . فان اليهود يشترون ويبيعون جميع المنتجات التي يجذبون منهافائدة : ويأتي في المكان الأول ، الأقمشة ، ومنتجات الحرير في العالم الإسلامي ، والنسيج المقصب والديباج الذي يستورد من بيزنطة والذي كان يباع في إسبانيا

8 - راجع بشأن معنى الكلمة راداني عن التجار «الرودانيين » : L. Rabinowitz « The routes of the radanites, the Jewish Quarterly review, 35 1944, pp. 251-280 et the Jewish ». Merchant Adventurers, London, 1948.

وعن التجار الذين يسلكون هذه الطرق :

C. Cachen, Revue historique, 205, 1951, pp. 119-120 et B. Blumekraz, Juifs et Chrétiens dans le Monde occidental (430-1096) Paris - La Haye, 1960, pp. 13-15, et y-a-t-il eu des Radanites ? Revue des Etudes Juives, 1964, pp. 499-506.

فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ المِيَلَادِيِّ . وَفِي الْمَكَانِ الثَّانِي ، تَأْتِي التِّجَارَةُ فِي الْحَبُوبِ — تِجَارَةُ الْجَمْلَةِ — الَّتِي تَصْدُرُهَا مَصْرُ إِلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ وَبَغْدَادَ ، وَالتِّجَارَةُ فِي السُّكُرِ الَّذِي تَنْتَجُهُ مَنَاطِقُ خُورَزَسْتَانَ وَالْأَهْوَازِ . وَالتِّجَارَةُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ ، تَسْمَعُ بِتَحْوِيلِ الْأَمْوَالِ إِلَى بَغْدَادَ بِامْضَاءِ بَسِطٍ ، كَمَا يَضْمِنُ الْيَهُودِيُّ بِالْكِتَابَةِ لِلْخَلِيفَةِ رِيعَ الْضَّرَائِبِ فِي هَذِهِ الْوَلَايَةِ . وَإِلَى جَانِبِ ذَلِكَ ، تَوْجِدُ التِّجَارَةُ فِي التَّوَابِلِ وَالْعَاقَارِيَّاتِ الْطَّبِيعِيَّاتِ ، وَتِجَارَةُ الْذَّهَبِ وَالْمَصْوَغَاتِ وَالْتِحَافِ الْصِّينِيَّةِ . وَبِالْأَخْتَصارِ ، التِّجَارَةُ فِي كُلِّ مَا هُوَ غَالِيُّ الشَّمْنِ وَيَأْتِيُّ مِنَ الْبَلْدَانِ النَّاهِيَّةِ . وَنَحْنُ لَا نَنْسَى خَصْوَصَاتِ التِّجَارَةِ فِي الرَّقِيقِ ، وَلَوَازِمِهِ مُثْلِ « صَنْعٌ » الْخَصْيَانِ ، وَتَعْلِيمِ وَتَدْرِيْبِهِمْ . وَأَخِيرًا ، يَمْارِسُ الْيَهُودُ التِّجَارَةَ فِي الْعَمَلَةِ ، وَهِيَ عَمَلَيَّاتٌ مَصْرِفِيَّةٌ .

وَأَهْمَيَّةُ هُؤُلَاءِ التِّجَارِ الْيَهُودِ ظَلَّتْ فِي ازْدِيَادٍ مُسْتَمِرٍ فِي عَهْدِ بْنِ الْعَبَاسِ وَبَلَّفَتْ أَقْصَاهُمَا فِي عَهْدِ الْفَاطَمِيِّينَ فِي الْقَاهِرَةِ (9) . فَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ بِصَفَّةِ عَامَّةٍ يَحْتَلُونَ مَكَانَةً مَرْمُوقَةً فِي بَلَاطِ الْعَبَيْدِيِّينَ . وَجَوَهْرُ الْمُعْرُوفِ بِالصَّقْلِيِّ ، الَّذِي هُوَ مِنْ إِيطَالِيَا الْجُنُوبِيَّةِ وَالَّذِي غَزَّ مَصْرَ وَبَنَى الْقَاهِرَةَ ، وَاحِدٌ مِنْ هُؤُلَاءِ الْيَهُودِ (10) . وَكَذَلِكَ يَعْقُوبُ بْنُ

---

9 - راجع J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Califs. Oxford 1920-1922, I, pp. 116 et suite.

10 - جَوَهْرُ بْنُ مُبَدِّدِ الْرُّومِيِّ ، أَبُو الْحَسْنِ ، كَانَ مِنْ مَوَالِيِّ الْمَعْزِيِّ الْعَبَيْدِيِّ ، سَيِّدِ مَنِ الْقِبْرَادَانِ إِلَى مَصْرَ ، بَعْدَمَا اخْضَعَ كَثِيرًا مِنْ وَلَايَاتِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصِيِّ وَقَهْرَ زَنَاتَةِ مَعِ زَيْرِيِّ بْنِ مَنَادِ ، إِلَى مَصْرَ فَدَخَلُوهَا فِي سَنَةِ 358 هـ . وَلَا اسْتَقَرَّ لَهُ الْأَمْرُ أَرْسَلَ الْجِيُوشُ لِفَتْحِ بَلَادِ الشَّامِ وَضَمَّنَهَا إِلَى مَلَكِ الْفَاطَمِيِّينَ . وَقَدْ ظَلَ حَاكِمًا عَلَى وَلَايَاتِ الْفَاطَمِيِّينَ فِي الْشَّرْقِ ، حَتَّى اتَّقَلَ الْمَعْزِيُّ إِلَى مَصْرَ فِي سَنَةِ 362 هـ . فَنَحَلَ مَحْلُهُ وَبَقَيَ جَوَهْرٌ فِي مَقْدِمَةِ عَظِيمَاءِ الْقَوَادِ وَرِجَالِ الدُّولَةِ وَكَانَ بِنَاءَ جَوَهْرٍ لِلْقَاهِرَةِ فِي سَنَةِ 358 هـ ، وَسَمَّاها « الْمَنْصُورِيَّةُ » وَلَكِنَّهُ بَعْدَ مَا قَدِمَ الْمَعْزِيُّ إِلَيْهَا سَمَّاها الْقَاهِرَةُ ، وَأَمَّا الجَامِعُ الْأَزْهَرُ ، فَلَقِدْ فَرَغَ مِنْ بَنَائِهِ فِي سَنَةِ 361 هـ ، وَتَوْفَى جَوَهْرٌ فِي الْقَاهِرَةِ فِي سَنَةِ 992 . « المُتَرَجمُ » .

كليس (11) وزير العزيز بن المعز الفاطمي ، والستوريين اليهود ذوي النفوذ في عهد المستنصر بالله الفاطمي .

والجدير بالاشارة أن عددا من الرسائل وضعت تبادل بين اليهود وبين فوذهم الطاغي في عهد الفاطميين . بل أن البعض ذهبوا إلى أبعد من ذلك واتهوا الفاطميين بأنهم من أصل يهودي . وقد كان التجار والصرارون والجماعة اليهودية التي تستمتع بشروة طائلة في الإسكندرية والقاهرة ، موضع حسد خاص في المملكة .

وهكذا نرى أن المراكز التجارية الخطيرة الشأن والتي كان اليهود يحتلونها قبل الفتح الإسلامي ، قد سمح لها بالقيام بدور في العصر الإسلامي في غاية الأهمية . فان اليهود قد حلووا تدريجيا محل منافسيهم من المسيحيين السوريين في التجارة في الغرب في العصر الكارولاني ثم في عهد الأطونيين (Ottomien) . فأما المسيحيون السوريون ، فقد كانوا يقومون خصوصا باستيراد سلع الترف الشرقية إلى الغرب المسيحي . وقد كانت مراكزهم التجارية في الشرق ، بينما كانت أسواق ترويج بضائعهم في الغرب . وأما اليهود الرادانية ، فقد كانوا ، كما يؤكد ذلك نص ابن خردذبة ، يصدرون الرقيق والفراء والسيوف ، وهي تجارة مركزها في الغرب المسيحي ( على ضفاف الراين والموز

— 11 — يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن كليس ابو الفرج (930 - 990 هـ) وزير من الكتاب الحساب . ولد بيغداد ، وسافر به أبوه الى الشام ، لم انده الى مصر ، وهناك اصل بكافور الاشتباكي ، صاحب المتنبي ، فولاه ديوانه بمصر والشام وكان من اقرب المستشارين اليه ، وفي أيام كافور اسلم ابن كليس (356 هـ) الذي كان يهوديا ، وقد ذكر صاحب النجوم الراحلة انه بعد موته كافور ، ولي الوزارة بمصر جمفر ابن الفرات الذي قبض على عدد من الاشخاص ، منهم يعقوب ابن كليس ، وند هرب الاخير الى المغرب حيث اتصل بالمعز ودخل في خدمته ، وقد لقبه المعز في سنة 368 هـ بالوزير الأجل ، ولكنه اعتقله في سنة 373 هـ ، ثم اطلق سراحه بعد شهور ، ولا خلف المعز والده ، ولاه وزارته وعظمت منزلته عنده ، ولېعقوب بن كليس رسالة في النقوش على مدح الباطنية معروفة بالرسالة الوزيرية ، ( المترجم ) .

والصاوم والرون وفي لندن ) ، وأسواقها تقع في الشرق الإسلامي . وتحتاج التجارة بين الغرب والشرق . يعود خصوصا إلى ظهور أهمية العالم الإسلامي الاقتصادية . وهو عامل سينجح مسرحا واسعا لنشاط الشبكة اليهودية ويقدم لها السووج المثالي المنشود للتجارة .

على أن دور اليهود في التجارة العالمية ، يصبح ثانويا في القرن الحادي عشر الميلادي حيث أخذت منهم هذا الدور في الغرب البيوت التجارية والمصارف الإيطالية ، وفي الشرق ، التجار الأرمن . وكذلك كان اليهود يطردون مع مرور الزمن من الأسواق بطرق مختلفة ، مثل إنشاء الشركات (في المدن الإيطالية) ، وبردود الفعل العنيفة لسيطرتهم ، وبمنعهم من ممارسة الأعمال ، وبالذات التي تعرضوا لها (بلاد رينان خلال الحملة الصليبية الأولى) . ولما أبعدهم البندقيون عن تجارة البحر ، لم تبق لديهم سوى التجارة بالطرق الداخلية التي تربط أعلى الدنوب ببلاد الصقالبة . وحتى في هذا المجال ، يضعف دورهم ويصبح ثانويا بحيث لا يبقى أمامهم سوى تجارة التفصيل وممارسة عمليات الأقراض بالربا الفاحش .

ولكن اليهود تمكنا خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي ، من السيطرة التامة على طرق التجارة وعلى أسواق العالم القديم . وإذا لم يكن اليهود محتكرين للتجارة العالمية في تلك العصور ، فقد كانوا على الأقل أهم الطوائف التي تمارس التجارة ، وكانوا موجودين ويعملون في كل مكان .

### الوسطاء المسلمون والمسيحيون

كان السوريون المسيحيون حتى العصر الإسلامي سادة التجارة بين الشرق والغرب . ولكن اليهود أبعدوهم تدريجيا عن التجارة البحرية

( البحر الأبيض والمحيط الهندي ) ، فلم تبق لهم أهمية إلا في العلاقات التجارية في البر ، في مصر وسوريا وما بين النهرين وأرمينيا وايران وآسيا الوسطى . وهذه المراكز ، إنما احتفظوا بها بفضل جماعات يعقوبة والنساطرة المنتشرة في هذه المناطق .

ونحن قد رأينا المكانة التي يتمتع بها رئيس الطائفة النسطورية في بلاط الخلفاء العباسيين ، والجمع الكنسي كان يعقد اجتماعاته في بغداد . ولكن الشيء الذي يستحق التنويه أكثر من كل شيء في هذا السياق ، هي وظيفة الأديرة الاقتصادية ، حيث كانت الأديرة تقوم بدور المستودعات للمال وبدور المصارف ، كما كانت الشخصيات الكبيرة كثيراً ما تلجأ إليها لاخفاء الثروات التي يكسبونها بطريقة غير شرعية . وكذلك كانت الأديرة تقوم بدور الفنادق للمسافرين ومحلات لشرب الخمر . وأخيراً ، كانت الأديرة مراكز لخاصي العبيد ، وخصوصاً في أرمينيا والصعيد .

والمعلومات التي نستقيها من مصادر قبطية وسريانية وعربية ، تسمح لنا بوضع الخطوط الرئيسية لشبكة العلاقات التجارية التي تربط المراكز المسيحية بعضها بعض - تلك الشبكة التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالحج إلى بيت المقدس وزيارة الأماكن الدينية فيها أيضاً ، نجد المناخ الملائم للعمليات التجارية . وهذا المناخ نجم خصوصاً ، عن طابع الأقليات الذي يسود الجماعات المسيحية ، والثقة المتبادلة بين هذه الجماعات . على أن هذه الشبكة تحصر في الطرق التجارية الداخلية .

والأرمن لهم مكانة خاصة في عالم التجارة (12) . وتجارتهم تشمل خصوصاً منطقة الاتصال بين العالم الإسلامي والامبراطورية البيزنطية ،

— 12 — داجع اسئلته الخريطة رقم 25 ، ص 322

ولا سيما التجارة التي تسلك الطريق الكبرى المتداة بين أعلانى ما بين النهرين وأطرازندة . والتوسع الذى شهدته الأرمن ، يذكرنا بعض الشيء بما حققته الجماعات اليهودية التجارية فقد هاجر الأرمن الى ما بين النهرين . ثم الى بغداد حيث شكلوا جالية مهمة . وكذلك دخلوا الى آسيا الصغرى والى القسطنطينية ، حيث سيعملون جنودا مرتزقة ، ومهندسين معماريين وتجارا . بل أن الامبراطور البيزنطي ، بازل الأول (أواخر القرن التاسع الميلادى) نفسه ينحدر من أصل أرمني . وكذلك هاجر الأرمن الى سوريا الشمالية حيث سيصبحون سادة التجارة في عصر الحروب الصليبية . وأخيرا ، نزح الأرمن الى مصر ، حيث أصبح أحد الأرمن ، بدر الجمالى (13) ، في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وزيرا للفاطميين . وقد جمع لنفسه حرسا من الأرمن ، كما كان يشجع هجرة المهندسين المعماريين والتجار الأرمن الى القاهرة .

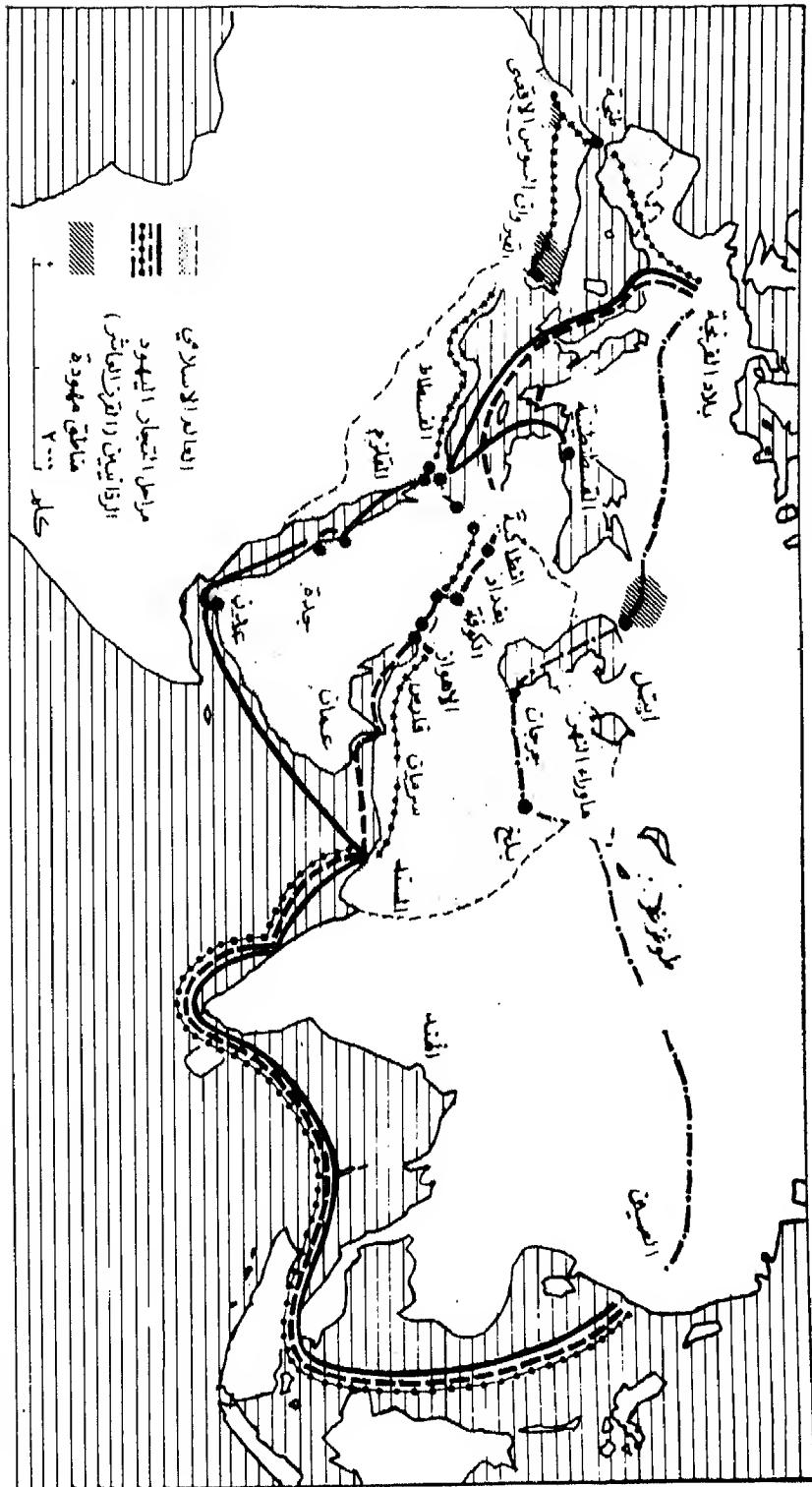
وأما المسلمون ، فان العبارة التي يستعملونها في مستهل رسائلهم في المعاملات والتي هي دعاء للمخاطب بأن يوفقه الله ويوفق بقية المسلمين (التجار) ، تدل على أنهم يشعرون بخطر منافسة الطائفتين اليهودية والمسيحية (14) .

ونحن نعرف نمط التجارة الخاصة بالمسلمين والتي يمارسونها في أسواق مكة في موسم الحج . وهذه التجارة تستهدف تزويد الحجاج بما يحتاجون اليه ، ولكنها أيضا تنصب على السلع التي يحملها الحجاج

13 - بدر بن عبد الله الجمالى ، ابو النجم « 450 - 487 هـ » ، امير الجيوش المصرية ، ووالد الملك الأفضل شاهنشاه .. اصله من أرمينيا ، اشتراه جمال الدولة غلاما ، فتربي عنده وتبأ إليه ، وتقدم في الخدمة حتى ولى امارة دمشق للمستنصر صاحب مصر « سنة 455 هـ » ، ثم استدعاه الى مصر وقلده وزارة « السيف والقلم » وأصبح الحاكم في دولة المستنصر وصاحب الرأى المسموع . « الترجم » .

14 - راجع J. David Weill, Papyrus arabe d'Eflou, Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Oriental du Caire, XXX, 1931, pp. 33-44.

الشكل رقم ٢٤ مراحل التجارة اليهود



معهم ، وخصوصاً الأحجار الكريمة التي تغذى متاجر الصياغة والتي أشهرها الحجر المعروف باسم «المكي» ، لأنه كانت تباع كميات كبيرة منه أثناء موسم الحج . ولكننا نجد ، هنا أيضاً ، أن الجماعات المنعزلة والتي تقوم على الطائفية ولا تساير التيار العام للدين الرسمي المنتصر (الإسلام) ، هي التي تشكل شبكة من الاتصالات التي تقوم عليها العلاقات التجارية .

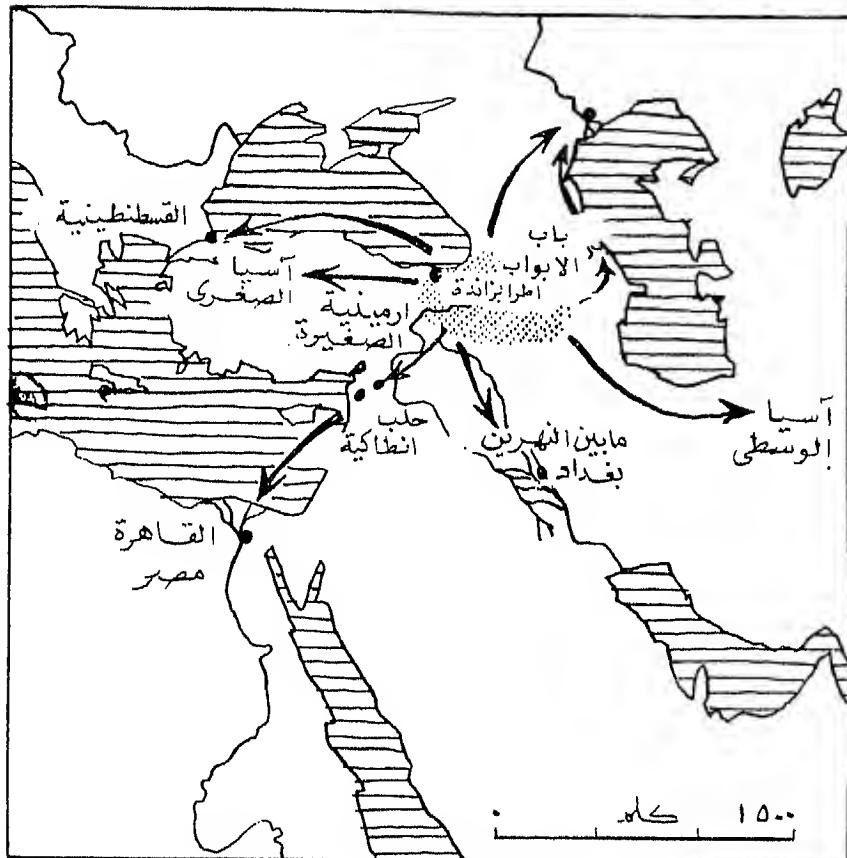
والنموذج الذي يصلح ذكره لهذه الجماعات ، هم الخوارج (15) في إفريقية الشمالية . والمعروف أن الخوارج الذين انقسموا على أنفسهم إلى الصفرية والأباضية ، قد استطاعوا تأكيد استقلالهم في وجه حكومة الخليفة المركبة . وكذلك أسس الخوارج الذين كانوا يسعون لايجاد ملجيء لهم في الصحراء ، مدينة سجلماسة في سنة 757 ميلادية .

وقد أصبحت سجلماسة مركزاً لدولية محلية (بني مدرار) (16) منذ أواخر القرن الثامن الميلادي ، كما تحولت بسرعة إلى ميناء صحراوي وسوق كبيرة للذهب والعيدي .

وفي نفس الفترة ، وفي المغرب الأوسط ، سطع في تيارت (تيهرت) نجم الرستميين الذين هم من أصل فارسي . وقد التجأ الرستميون إلى إفريقية الشمالية حيث اقتطفوا ثمرة حركات الخوارج التي هزت هذه البلاد خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي . وقد احتل

15 - راجع : الخريطة رقم 26 ، ص 323 ..

16 - من المؤسف أن المعلومات التي لدينا عن دولة بني مدرار (من الصفرية ، قليلة للغاية ، والذي ذكره ابن خلدون عنها يدل على أنها دولة يمتلك الشعب في أحشائها بحرية تذكرنا بالديمقراطية اليونانية في منشئها) ، حيث إن اتباع الطائفة من حقهم خليع الإمام الحاكم ، واهم مصدر لدinya عن بني مدرار ، هو أبو عبد البكري الذي ذكر أسلهم كما تعرّض لبنائهم سجلماسة ! راجع : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - تحقيق دوسلان الطبعة الثانية ، باريس 1965 ص 148 - 152 .



الشكل رقم ٢٥ - تجارة أمينة

الرستميون جميع المغرب الأوسط والواجهة الصحراوية : في الاتجاه الجنوبي ، وفي الجنوب الشرقي من أراضي دولة الأغالبة في إفريقية . وهي دولة سنية تابعة لبغداد . وكذلك كانت أراضي الدولة الرستمية تمتد من الغرب الأوسط في اتجاه جبل نفوسة ؛ وواحات غدامس . وفزان ، وطرابلس ، وجزيرة جربة ( وفي وقت ما ، كانت تشتمل جون قابس ) ، وفي الاتجاه الجنوبي الغربي ، لتشتمل الأراضي الواقعة في جنوب أراضي دولة الأدارسة التي مقرها فاس والتي قامت في أواخر القرن الثامن الميلادي . بل ان سلطان الرستميين قد امتد حتى

سجلماسة ، حيث كان بنومدرار يعترفون بسلطتهم ، وحتى السوس الأقصى ، ونولطة وشواطئ المحيط الأطلسي .

وهكذا تكون خط مهم من طرق التجارة التي يمارسها الخوارج يمتد من فزان ، حتى جنوب المغرب الأقصى . وهذا الخط يحكم في الجنوب ( عن طريق واحة الحضنة وواحة ورجلة ) في التجارة مع بلاد



الشكل رقم ٢٦ - تجارة جماعات الخوارج

السودان بواسطة القوافل عبر الصحراء وتسع بتوغل تجارة الخوارج نحو الجنوب حتى قلب المغرب .

وأما تيهرت ، فقد كانت عاصمة الرستميين المتشددين في الأمور الدينية ، ولكنها كانت أيضاً مدينة لرجال يتصرفون بالحذق والبراعة والأمانة في المعاملات . وهؤلاء هم الذين وسعوا أبعاد طائفة دينية مغلقة على نفسها ، لتصبح دولة تسيطر على الطرق التجارية وتنظيم العلاقات التجارية مع الخارج على أساس من الطائفية . وهذا التنظيم من جهة أخرى ، لا يخلو من بقايا نفوذ اليهودية البربرية والصحراوية القديمة .

وفي أوائل القرن العاشر الميلادي ، حل الفاطميون العبيديون محل الأغالبة في إفريقية . وفي سنة 909 ، زحف جيش الفاطميون على سجلamasة . وفي طريقه إلى هذه المدينة ، خرب مدينة تيهرت الخارجية . وقد اضطر آخر الأمراء الرستميين إلى الانسحاب من تيهرت إلى الجنوب ليؤسس مدينة سدراته ، غير بعيد من ورقلة .

وفي وقت متأخر (في القرن الحادي عشر الميلادي) ، تعرض الخوارج للاضطهاد ، فتوغلوا في واحات مزاب ، حيث سيحفرون آباراً ويبنون مدنًا . وهذه المدن تحتل موقعاً عظيماً وستستخدم محطات لطرق القوافل الآتية من البلاد التي تصدر الذهب والعبيد السود .

وفي العصور الحديثة ، سيتوغل بنو مزاب في اتجاه الشمال ويتسربون إلى الساحل ، حيث ستظهر منهم طبقة من التجار الأثرياء الذين يمارسون خصوصاً تجارة الأقمشة . وكذلك نجدهم في جميع مدن إفريقية الشمالية يديرون حوانين وبقالات . فهؤلاء التجار

يستنزفون الذهب من المناطق الشمالية ويوجهونه الى مزاب حيث يكتنزونه وينقلونه عليه الخزائن فيقل الذهب في الأسواق وكذلك تعتبر بلاد مزاب ضمن البلدان التي تكتنز (أو «تبتلع») الذهب.

### تيارات التبادل التجاري

تمتد تيارات التبادل التجاري على طول شبكة من الطرق التي تنتهي عند مراكز العمران الكبيرة في بلاد الاسلام . ففي الواجهة الشمالية بایران وبآسيا الوسطى ، ثم ببلاد الترك ، ثم بالصين أو المناطق الشمالية الغربية للهند . وفي الواجهة الجنوبية الشرقية تمتد الطرق البحرية في المحيط الهندي من بلاد ما بين النهرين والخليج العربي ، من جهة ، ومن مصر والبحر الأحمر ، من جهة أخرى ، في اتجاه شواطئ الهند الغربية ومليبار ، ثم في اتجاه سيلان وأندونوسيا والهند الصينية وجنوب الصين ، أو في اتجاه بلاد الزنج « شواطئ افريقيا الشرقية » وجزيرة مدغشقر .

وفي الواجهة الجنوبية الغربية ، تمتد طرق القوافل عبر الصحراء بين بلاد افريقيا الشمالية وبلاط السودان .

واما الواجهة الشمالية الغربية ، فتمتد فيها طرق الملاحة النهرية وبالبحرية والطرق البرية التي تؤدي اما الى ما بين النهرين وأرمينية وضفاف بحر قزوين والأنهار الروسية وما وراءها في اتجاه بلاد البلطيق وأوروبا الوسطى ، واما الى الموانئ الاسلامية في البحر الأبيض ، أو الموانئ الايطالية وموانئ لندنوك ، واما الى موانئ إسبانيا والممالك الواقعة في شمال إسبانيا وما وراءها ، عن طريق الممرات الجبلية في البرينيز ، في غربي بلاد الفرنجة ، واما الى بلاد الأنجلوسaxon الاسلامية ، عن طريق المحيط الأطلسي والى الجزر البريطانية .

## الواجهة الشمالية الشرقية (17)

الخط الرئيسي في هذه المنطقة ، هي « طريق الصين » القديمة . والتي انبعثت الحياة فيها في العصر الاسلامي وازدهر النشاط التجاري فيها بقوافل الخيل ، وخصوصا قوافل الجمال ( الجبال الكبيرة ذات السنامين ) التي تسلكها غادية ورائحة . وهذه القوافل تصعد من بلاد ما بين النهرين وتمر بالوجود الايرانية حتى تصل الى المناطق الشمالية الشرقية : خراسان ، وتجتاز نهر جيجون ( آموداريا ) لتصل الى ما وراء النهر ، ثم الى الشاش وفرغانة . وبعد ذلك ، تمتد ثلاث طرق مختلفة : فالطريق التي تستد في اتجاه الشمال الشرقي ، تسر بالسهوب التي يستجعها الأتراك الرحل . والطريق التي تتجه الى الشرق وتسر في جنوب بلکاش ثم تصعد مع مجرى نهر اتل ، او تجتاز كشعار وتقطع حوض نهر تاريم (18) حتى تصعد الى منعطف النهر الأصفر (19) ، وتسر بسهوب أردوس ثم تقطع السور الأعظم ، لتصعد الى عاصمة شمال الصين . خيدان (Hsi-ningan) عن طريق مر الهند كتش ، الذي كان السرقيق الهندي يدخل منه الى العالم الاسلامي ( وكثيرا ما كان العبيد يموتون في طريقهم هنا من البرد والتعب ) . وقد كانت القوافل تتجه من البايميان ومن كابل الى وادي السند الذي كان تحت حكم المسلمين ( منطقة السند ) ، ومن هناك تنطلق الى مختلف مناطق الهند الشمالية .

17 - راجع الخريطة رقم 3 ، ص 54 .

18 - نهر في الصين في ولاية سين - كبانج ، طوله 2000 كيلو متر ، وهو ينحدر من قرقم ، ثم يضيق ويضيق كلما ابتعد عن منابعه حتى يتضيق في منخفضات لوب - بور . (المترجم) .

19 - او هوانج - هسو (Honang-Ho) نهر من أنهار الصين الشمالية تقع منابعه في التبت ، ويمد البحر الأصفر ( جون يوهاي ) بمياهه . ويبلغ طول مجراه 200 كيلو متر ، ومجري النهر غير منظم الاتجاه ، وفيضانه كبير الاخطار ، وطيبة يميل الى الصفره . والجدير بالذكر ، ان سلطات الصين الشعبية تقوم في الأعوام الأخيرة باعمال كبيرة لترسيخ هذا النهر ، لتحسين الملاحة فيه واستغلال مياهه للري ولتوليد الكهرباء . (المترجم) .

وهكذا تتضح لنا أهمية ثلاثة مراكز : خراسان ( في جوانب مرو ، وحراء ، وبليخ ، وخصوصا نيسبور التي كانت تتنافس ببغداد في القرن الحادي عشر الميلادي ) . وخراسان تقع عند مفترق الطرق التي تتفرع عن الطريق التجارية الكبيرة المؤدية من بغداد الى الهند ، وخوارزم والصين . وخوارزم ، المركز الثاني المهم ، هو منطقة دلتا جيحون ( الأكسوس ) على بحر آرال . وهذه المنطقة التي يقع فيها عدد من المدن الكبيرة ، مثل أورجاش ( المدينة التجارية الخطيرة الشأن ) ، تعتبر قطب الدائرة في التجارة مع الأتراك والمهد والصين ، وهي في نفس الوقت مفتاح المداخل الى الطرق المؤدية الى ضفاف بحر قزوين وببلاد البلغار ( أي وادي الفولجا ) وأروبا الشرقية .

والمركز الثالث المهم ، هي منطقة الواحات الواقعة فيما وراء النهر ، والتي تسيطر على الطرق التجارية المؤدية الى بلاد الترك والصين .

فهذه المناطق التي حددنا أهميتها ، تقع تحت سيطرة الدولة السامانية ( 875 - 999 م ) التي كان سلطانها يمتد على خراسان ، وخوارزم ، وما وراء النهر ، أي من حافة بلاد الأتراك في الشرق ، حتى شواطئ بحر قزوين . وقد كانت بخاري وسمرقند ، العاصمتان السامانيتان ، تسيطران على الطرق المؤدية الى آسيا الوسطى ، وتشهد بهذه الحقيقة تلك الكمية الكبيرة من النقود السامانية التي عثر عليها على جنبات الطرق الموازية للأنهار الروسية ، وفي بلاد البلطيق ، وببلاد بحر الشمال والبلاد الواقعة على شواطئ البحر الأسود . وهذه النقود ، كانت محملة متداولة قانونيا في أسواق ماينص ( Mayance ) (20) في القرن العاشر الميلادي . ونuhan نلاحظ خصوصا كثرة النقود المكتشفة

---

20 - ذكر الرحالة العربي الطروشي ، الذي ينتمي الى اذدبنة الاندلسية طرطوشة ، انه شاهد في سنة 973 ميلادية في اسواق ماينص دارهم ضربت في سمرقند خلال الفترة بين 913 - 915 ميلادية . راجع : القرويني عجائب المخوافات وغرائب الوجودات تحقيق : ( المترجم ) : 1848 Göttingen, Wütenfenfeld 4 - 9 -

في المناطق التي تشكل حدود العالم الإسلامي وهي مناطق يشتهرها الإقبال فيها على الاستيراد : منطقة خوارزم ، وخراسان ، وما وراء النهر وكل واحدة من هذه المناطق تتلقى سلعاً مستوردة من المناطق المجاورة لها . فمن بلاد الترك وببلاد الصقالبة ، تمر المنتجات عبر مدينة بلغار .

إلى البلاد الواقعة على شواطئ بحر قزوين ثم إلى البلاد الواقعة على الضفاف الغربية والجنوبية لبحر آرال ( في جوانب مدينة أورجاش ) بهذه البلاد ، تستورد الفراء ( فراء السهوب وخصوصاً ، فراء غابات سيبيريا ) ، والرقيق ( ونحن قد رأينا الإقبال الشديد في بلاد الخلفاء العباسيين على المماليك ، والمعادن : الحديد الخام والأسلحة ) التي كان الأتراك يعتبرون خبراء في صنعها ) والنحاس الخام والأواني المصنوعة من النحاس والبلد ( من اختصاص النورمانديين ) .

وفي مقابل هذه المنتجات ، كان العالم الإسلامي يصدر إلى بلاد الأتراك أنواعاً من الأقمشة الحريرية وبعض المنتجات الزهيدة القيمة ، ولكنه كاد يصدر خصوصاً قطع النقود .

ومن الصين ، كانت تستورد المنتجات الحريرية ( حرير الصين وخطاف ) ، ولو أن انتشار الطرق التقنية لشريحة دودة الحرير في العالم الإسلامي سرعان ما جعل هذا المورد بدون فائدة . على أن المنتجات المصنوعة من الحرير ، سيستمر الإقبال عليها وتستورد باعتبارها من منتجات الترف والصينيون بدورهم ، على الرغم من درجة الكمال التقني الذي وصلت إليه صناعتهم . وعلى الرغم مما تمتاز به منتجاتهم من الجودة الفنية . كانوا يقبلون على شراء الأقمشة الرفيعة التي ينتجهما العالم الإسلامي . وهذه الحقيقة تثبتها المصادر الصينية . ويشهد بها تأثير الزخارف المطبوعة الإيرانية - الإسلامية على بعض النماذج من الأقمشة التي لا تزال محفوظة لدينا من نسيج الحرير الصيني .

ثم ان منتجات الحرير ، ليست هي السلعة الوحيدة التي تتصب عليها التجارة بين العالم الاسلامي والصين . فان الصين كانت تصدر الى العالم الاسلامي أيضا الفخار الصيني ، والورق المذهب ، والتحف الصينية . والتجارة بين الصين والعالم الاسلامي عن طريق آسيا الوسطى ، تتميز بدخول وخروج العملة بصورة يدو الميزان التجاري فيها متوازنا .

ومن شمال الهند ، أي ، أعلى نهر مهراون ، وأودية جبال الهملايا والتبت ، كان العالم الاسلامي يستورد الرقيق الهندي والتبتى ، وأقمشة الكشمير ، وشعر الماعز ، والروائح العطرية ، وخصوصا ، المسك الذي يأتي من بلاد التبت ( وهو من أفراد الايل الأسمري ) .

وتجارة العالم الاسلامي مع الهند ، مثل تجارتة مع بلاد الترك تتسم بتارجح الميزان التجاري في صالح البلدين الآخرين . وباستنذاف عملة الذهب ( ومن هنا اكتتاز الذهب في الهند ) وعملة الفضة الاسلامية ( الهند كانت تسير على نظام النقد الذي يقوم على الفضة . والروبية معناها باللغة السنسكريتية « الفضة » ) .

### الواجهة الجنوبية الشرقية

الأفق التجاري هنا ، هو المحيط الهندي ، وهي منطقة للملاحة من الغرب الى الشرق ومن الشرق الى الغرب . وتنظيم الملاحة في الاتجاهين يخضع خصوصا للرياح الموسمية (Moussons) بالفرنسية (Monças) بالبرتغالية ، والكلمة من أصل عربي ) . وأما في جنوب خط الاستواء فان الرياح تهب من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . والفاصل بين منطقة الرياح الموسمية والمنطقة الواقعة جنوب خط الاستواء هو الفاصل بين منطقة استكشفت ويجري فيها نشاط الملاحة ، ومنطقة خالية لم تستكشف بعد .

المحيط الهندي منطقة كان العرب والفرس يمارسون فيها نشاطاً ملاحياً قوياً منذ أقدم العصور . وكذلك عرفها الملاحون الاسكندريون ابتداء من القرن الأول بعد الميلاد . كما عرفها ملاحو ماليزيا الذين كانوا يسرون فيها بالرقاص . والرأي متافق على وجود هجرة من ماليزيا الى جزيرة مدغشقر في عصر قديم نسبياً (21) .

وفي غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن العادي عشر الميلادي كان البحارة المسلمين يسيطرون على نشاط الملاحة في المحيط الهندي وفي هذه الفترة وقع حدث هام : ظهور الشراع الثالث الأضلاع الذي كان من خصائص الملاحة في المحيط الهندي ، في البحر الأبيض المتوسط ، حيث أصبح يعرف باسم « الشراع اللاتيني » .

وقد سمحت الملاحة في المحيط الهندي بقيام تبادل تجاري مهم ، كما سمحت بنقل مزروعات هندية الى شواطئ الخليج العربي والى سوريا ، من جهة ، والى شواطئ أفريقيا ، وجنوب الجزيرة العربية ، والبحر الأحمر ومصر ، من جهة أخرى : فان الوثائق ، مثلاً ، تشهد باستعمال التنبول في اليمن منذ القرن التاسع الميلادي . وكذلك سمح طريقان ، طريق الخليج وطريق البحر الأحمر ، بالتحام منطقتين ، المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، وبالبقاء الطرق التقنية والثقافات والعادات في احدى المنطقتين بسائلاتها في المنطقة الأخرى .

21 - المصدر الوحيد الذي تعرض للذكر هذه الهجرة ، فيما نعلم ، هو ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري ) ، عندما تحدث عن جزيرة القر ( مدغشقر ) ، وقاعدتها ، نورية . والنص الذي يتعرض لهذه الهجرة من كتاب الجغرافيا ، اعتبره بعض العلماء الأوروبيين المتخصصين في تاريخ آسيا الجنوبية الشرقية من اهم الوثائق التي نقلها اليها العرب عن اصول الاجناس وتنقلات الشعوب القديمة ( راجع : ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، طبع بيروت 1970 ، ص 86 - 87 ، وتعليق المحقق على هذا النص ، ص 222 - 223 ) . (المترجم) .

وألكن سيطرة العالم الإسلامي على المحيط الهندي تتطوي على بعض التحفظ . فقد أدى ازدهار بغداد والبصرة والجاجات التي نجحت عنه إلى السبل والمنتجات في العصر العباسي ، خلال الفترة بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن العاشر الميلادي ؛ إلى ظهور أهمية الخليج العربي . ولكن الفاطميين كانوا مسلكة منافسة العباسين في نهاية القرن العاشر ؛ ونتيجة لذلك ؛ اشتد التناقض بين الخليج العربي والبحر الأحمر . قد كان ميناء القلزم وخصوصاً ميناء عيذاب ، حلقة وصل بين هذا البحر ؛ من جهة ؛ والنيل والبحر الأبيض المتوسط ، من جهة أخرى .

ومهما يكن من شيء ، فإن الفترة التي تستد بـ بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى ؛ كانت نترة نمو وتوسيع التجارة الإسلامية على جميع شواطئ المحيط الهندي ؛ وفي الطرق المؤدية إلى الصين . وهذا التوسيع ، كان يعتمد على الحاليات الإسلامية التي استقرت في مختلف البلدان ، وعلى السفن الإسلامية التي كانت تبني بخشب الساج . وعلى النقود الإسلامية ، حيث كان الدينار الإسلامي يسير في كل اتجاه مع طرق التجارة العالمية .

ونتيجة لهذا التوسيع ، أخذت تظهر مدن على شواطئ إفريقيـة الشرقية (بلاد الزنج) ، وفي مقدمتها مسبـحة وبرـوة . حيث وجدت نقـوش بالخط الكوفي يعود عهـدها إلى القرـن الثامـن الميلـادي . وأما مسـجد زنجـبار ، فيرجع عهـده إلى القرـن الحادـي عشر . ووراء هذه السـواحل التجـارية ، تمتد الخطـوط التي اتـشـرـ الإسلام عن طـريقـها إلى دـاخـل إـفـريـقـيـة ، وهـي الـطـرقـ التي كانـ السـوـدـ يـقـلـونـ بـواسـطـتها مـتـجـاتـهمـ إلى منـشـآـتـ الـمـسـلـمـينـ التجـارـيـةـ علىـ الشـواـطـئـ .

وكذلك اتسمت التجارة الاسلامية بالتوسيع على شواطئ ملبار ( حيث بنى المسلمون مسجداً ، وكان للجالية الاسلامية فيها قاضيهما الخاص الذي يسمى : هونارمان ) وفي سيلان ( سرنديب عند المؤلفين العرب ، وسري لانكا حالياً ) ، وفي جزر الصند ( حيث لم ينتشر الاسلام حقيقة الا في وقت متأخر ، ولكن نقوشاً عربية وجدت فيها ويرجع عهدها الى سنة 1082 ميلادية ) ، وفي الهند الصينية ( حيث وجدت نقوش عربية يعود تاريخها الى القرن العاشر والقرن الثاني عشر الميلادي ) ، وأخيراً في الصين ، في ذروة عهد سلالة الطانج وأباطرة الصونج الأوائل ( بين القرن السابع والقرن الحادى عشر ) ، حيث كان المسلمون يتربدون على ميناء قانطون المشهور والذي يسمى الجغرافيون العرب ، خاقفو .

وأما طريقة التبادل التجاري في المحيط الهندي ، فيمكن تحليلها كما يلي : يشحن التجار في مصر سلعاً زهيدة القيمة ( المرجان وأمشاط العظم وقضبان الحديد ) ، أو حبوباً ، ويحملونها إلى شواطئ المحيط الهندي حيث يبادلونها بمنتجات تلك البلدان ( البخور والعاج وقرون وحيد القرن ودرع السلاحفات والكافور والعود السقطري ) التي ينقلونها إلى الصين ، وهناك يستبدلون هذه المنتجات بدورها بمنتجات صينية غالبة القيمة ( الحرير والفخار الصيني ، والتحف الخ ) ، يحملونها إلى مصر ، ومن هناك يعيدون تصديرها إلى الأسواق العالمية الكبيرة .

ولكن التجار المسلمين يموتون العالم الاسلامي أيضاً مباشرة بالقصدير الذي تنتجه ماليزياً ، وبالخشب والنيلة والبقم الهندي والأحجار الكريمة ، واللؤلؤ الذي يستخرج في سيلان وفي الخليج العربي والبحر الأحمر ، والكمهرمان والأسلحة ودروع السلاحفات التي تنتجهما البحر الجنوبي و التي تزود بها أسواق الصناع في مدينة الفسطاط .

وأخيرا ، فان شواطئ المحيط الهندي تشكل المورد الرئيسي بل الوحيد ، للتوابل والعطور والطيب والأعشاب الطبية . وقد اتسعت التجارة في العقاقير بصفة خاصة خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى . نتيجة للتقدم الذى حققه الطب العربى . وقد كان ميناء الاسكندرية هو المركز الذى يعاد فيه توزيع العقاقير على مختلف المناطق الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما إلى قرطبة والى الغرب المسيحي ، من جهة ، والى بيزنطة حيث حاول ليونالأرمني ، امبراطور بيزنطة ( 813 - 820 م ) وقتا ما وضع حد لهذه التجارة بمنعه رعاياه من السفر إلى مصر وسوريا ، بينما أمر بأن تعرض في الأسواق أعشاب ( مشابهة للأعشاب التي ترد علينا من الهند ) .

### الواجهة الجنوبية الفريدة

وهنا أيضا ، نشاهد استمرارا وازدهارا : فان العالم الاسلامي قد استحوذ على تيار العلاقات التجارية القديمة ووسع نطاقها توسيعا كبيرا . وهذا التيار هو الذي دفع بالبربر الرحيل أصحاب الجمال في غضون الفترة بين القرن الرابع والقرن الثامن الميلادي إلى التوغل إلى الجنوب ، عبر الصحراء الكبرى ، والى الشمال ، في اتجاه الساحل الجزائري .

وهذه الظاهرة البالغة الأهمية في العصور الوسطى العليا . لا تزال مع الأسف ، مجهولة التفاصيل التاريخية . كما أن تقدمها في الرقة الجغرافية غير معروف ، بسبب عدم وجود مصادر معاصرة للأحداث .

ومهما يكن من شيء ، فنحن نشاهد منذ القرن الثامن الميلادي ( وسجل ماسة أُسست في سنة 757 م ) تجارة العالم الاسلامي تضم هذه الشبكة من طرق القوافل إلى الشبكات التي تمتد في الشرق أو على

ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح بذلك آفاقاً واسعة في العلاقات التجارية العامة بحيث تضم عالم السود ، أو بلاد السودان . والسلع الجديدة التي ينصب عليها التبادل التجاري في هذه المنطقة . هي ، كما رأينا ، الذهب والعنبر الذي تنتجه شواطئ إفريقيا الغربية على المحيط الأطلسي ، والصخن الذي يستعمل لتمثيل منتجات الديباس في الأندلس والطرق التي يسلكها التجار ، هي أيضاً طرق من منافسة نوبلطة لها .

ومن هاتين المدينتين الواقعتين في شمال الصحراء . تنطاق ثلاثة طرق ثانية ، يساير أحدهما شواطئ المحيط الأطلسي حتى السنغال ( التكرور . سيلا ، جاديارو ) . التي تصل إليها القوافل ، بعد سفر يستغرق شهرين . والطريقان الآخران يفترقان عند سجلبة أحد هما يؤدي إلى ألوير ، والآخر إلى تعازى . ثم يتقيان عند محطة القوافل الكبرى ، أو دغست . وأودغست ، على اتصال بسلكة غانة . والمدينة عبارة عن مدينتين : يسكن أحدهما المسلمين التجار والوسطاء ، ويسكن الأخرى السود الصونكيون — وهي مدينة مشهورة بالثراء وبالعدد الكبير من المحاربين الشجعان من أبنائها .

وهذان الطريقان الآخران هما أقصر من الأول ، حيث لا يستغرق السفر فيما سوى شهر ونصف الشهر ، ولكنه أكثر تكاليف للمسافرين (22) .

والشبكة الثانية من الطرق ، تتكون من الطرق الثانوية المؤدية إلى المغرب الأوسط : تيهرت وجنوب الجزائر . وهذه الطرق التي تنطاق

---

22 - قام بدراسة هذه الطرق دراسة مفصلة مؤخراً العلامة :  
في كتابهما :  
D.S. Robert et J. Devisse  
Tagdaoust I, Recherches sur Aoudagost. T.I. Paris 1970.

من ملجاً الخوارج في ورجلة وسدراته ومزاب ، تؤدي إما إلى تغازلي وأودغست ، أو إلى تدملة (السوق حالياً) ، في أدرار ايفوجة ، وراء كاوكاو (جاو - Gao) في بلاد السونغاي . وتدملة تتكون ، هي الأخرى ، من مدینتين ، على غرار أودغست .

والشبكة الثالثة من الطرق . هي الطرق التي تمتد لنشر التفود الشفاف وغيره ، من الشمال إلى الجنوب . وهذه الطرق ، هي التي انتقلت بواسطتها زراعة القمح والقطن وأنواع جديدة من الحيوانات (الجمل والفرس) ، وطرق جديدة للصناعة ، وأنماط جديدة للتنظيم الاجتماعي (المدينة والدولة) .

وهذه الطرق التجارية الكبيرة تتفرع عنها ثلاث شبكات من طرق القواقل ، حفرت على أطرافها آبار وتسند عليها واحات التخييل . انطلاقاً من جزيرة المغرب ، حتى ساحل السنغال .

والشبكة الأولى ، تنطلق من جنوب المغرب (السوس الأقصى) ومن فاس في اتجاه المدخلين الكبيرين إلى الصحراء ، وهما نولطة الواقعة عند مصب نهر نون (بين وادي سوس ووادي درعة) وسبجامسة . قاعدة القواقل الكبرى الجديدة التي يمكن مقارنتها من حيث الأهمية . بمدن القواقل في العصور القديمة ، مثل تدمر والبراء (سلع) ، ومكة . وسبجامسة التي تقع وسط حدائق التخييل في منطقة تافيلات (وادي زيز) ، كانت دائماً موضع نزاع بين الرستميين والفااطميين ، وقد بلغت سجامسة أوج عظمتها في القرن العاشر الميلادي ، وهي الفترة التي تعرف فيها على جالية كبيرة من أبناء سجامسة في أودغست . التي كانت محطة لقوابل البربر في الجنوب .

وقد بلغ ما كان يجيء الفاطميون منضرائب على تجارة القواقل الآتية من السودان في القرن العاشر ، 400,000 دينار سنوياً .

ولكن وضع سجلماسة سيتأثر في القرن الحادى عشر فى الاتجاه الشرقي وتصل بأفريقية . وخصوصا بمدينة القيروان الواقعة فى الجنوب التونسي . ونقطة الانطلاق : هي مدن الجريد « توزر ، قابس ، ونقطة ) ، وهى منطقة تقع على البحر الأبيض وتنفتح على الصحراء الكبرى فى نفس الوقت ، من جهة ، وطرابلس . وبرقة التى تقع على طريق مصر ، من جهة أخرى .

ومن هذه المراكز ، تنطلق الطرق فى اتجاه الناصر ، عن طريق غدامس وتدمسة ، أو فى اتجاه الكانم ( الشاد ) مارة بفزان وكوار .

فهذه هي الطرق التى تستنزف ذهب السودان فى اتجاه بلاد المغرب . ومن هذه البلاد يوزع الذهب على مختلف بلدان العالم الاسلامي .

والبيوت التجارية المغربية فى محطات القوافل فى الجنوب تحفظ بشبكة من المراسلين والوسطاء الذين يعلمون لشراء الذهب لحسابها ، بالمقاييس الصامنة ، مع قبائل السود التى تشتمل فى التقاط الذهب . وهذه التجارة هائلة الحجم والنطاق . فان ابن حوقل ( القرن العاشر الميلادى ) يذكر أنه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها 40000 دينار . وهذا المصدر تؤيده مصادر أخرى وتنوه بالثراء الفاحش الذى كان من حظ التجار الذين يعملون فى التبادل مع السودان .

والمادة الاساسية ، هي التبر الذى يستبدل بسلع من مختلف الانواع : منتجات زراعية وصناعية من المغرب ، ومن مصر . وكذلك تستبدل بالتمر بضائع زهيدة القيمة تنتج خصوصا للتبادل التجارى مع السود ، تماما كما سيصنع التجار الأوروبيون فيما بعد ( فى الفترة بين القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر الميلادى ) للتبادل مع سكان شواطئ افريقية الغربية .

ونحن نعرف أنه كانت توجد في سبعة في العصور الوسطى سوق يعمل الصناع المتخصصون فيها لاتاج القلائد ، والmoscas الزجاجية ، وقلائد المحار ، وغير ذلك من التواوفه التي تدفع مقابل الذهب السوداني. ولكن التجار المغاربة يقومون أيضا بتصدير القمح ، والأقمشة الزهيدة القيمة ، وأواني النحاس والصفر التي كان تجار أتفير يصدرونها في بمنتجات النحاس والصفر التي كان تجار أتفير يصدرونها في القرن السادس عشر في اتجاه افريقيا الغربية .

وكذلك كان التجار المغاربة يصدرون الى هذه المناطق الجلد المدبوغ الذي تتوجه زويلة وغدامس وتافيلالت وأغمات ومراڭش ، والعمود الصنفي والقار ( للقرب ولاستعماله لمعالجة الْجَرْبَ فِي الْجَمَالِ ) ، ومنتجات دبغ الجلود التي كانت تنتج في جنوب المغرب الاقصى ، وأخيراً، منتجات الملح الذي يستخرج من منجم تغاري والذي يشتهر اقبال السود عليه كثيرا .

فهذه السلع كلها ، ليست ذات قيمة في حد ذاتها ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المضني الذي يتطلب نقلها الى البلدان التي تحتاج اليها ولا تملكونها . وقد تعرض أحد الجغرافيين العرب للتباين التجاري بين بلاد المغرب والسودان فقال ان التجار البربر يحملون معهم سلعا لا قيمة لها ولكنهم يعودون من السودان بجمال مثقلة بأحمالها من التبر .

وهكذا نجد أن الواجهة الجنوبية الغربية حيوية للاقتصاد النقدي في العالم الاسلامي . فمن هذه الواجهة يتتدفق الذهب الذي يسمح بضرب السكة ونشاط تداول الدينار الاسلامي . وقد أقيمت في سجل ماسة ورحلة دور لضرب السكة ( ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة الايطالية : (Zecoa) . ومن هاتين المدينتين تنطلق طرق الذهب السوداني الى مختلف أنحاء العالم الاسلامي .

## الواجهة الشمالية الفريسة :

يجب أن نميز هنا بين ثلاثة آفاق مختلفة : بيزنطة ومنطقة الانهار الروسية ، والغرب المسيحي .

الافق الأول : بيزنطة . يعتبر الميزان التجاري الاسلامي مع هذه المنطقة أيضا ايجابيا ، مع ملاحظة أن الذهب الذي يدخل الى العالم الاسلامي من بيزنطة ليس بالذهب الخام ، بل هي نقود الذهب البيزنطية . وأهمية التجارة مع بيزنطة ، تعود الى موقع الامبراطورية بالقياس الى العالم الاسلامي الذي يحيط بها من الشرق والجنوب ويضطرها الى الاتجاه اليه ليكون وسيطا في تجارتها في الكماليات والمواد الخام الثمينة الضرورية لصناعات الترف في بيزنطة — وهذه المنتجات والمواد كلها ، تأتي من آسيا أو من افريقيا .

والصلات التي تربط العالم الاسلامي ببيزنطة ، هي من نوع العلاقات التي تربطه بالصين : انها علاقات بين عالمين متقدمين يعيش كل منهما في ظل حضارة في أوج عظمتها . والتجارة بين الدولتين ، تخضع لمعاهدات وتوجيه ومراقبة (23) وتمارس التجارة في القسطنطينية جالية من التجار السوريين الذين يعيشون في حي خاص وكان لهم مسجد يقع بجوار كنيسة سانت ايرين . ووضع الجالية السورية في القسطنطينية ، مشابه لوضع الصقالبة الذين كانوا ، هم الآخرون يعيشون في حي خاص يقع في ضاحية سانت ماماس . ولكن جمادات من التجار العراقيين والايرانيين والأذربيجانيين (خصوصا في أطرازنه ) والبلغار والايطاليين كانوا يقumenون أيضا بدور الوسطاء التجاريين للعالم الاسلامي .

23 - راجع قسطنطين الثالث ، بور فirogenin Porphyrogenete 912 - 959 م " De Ceremonialis anlae byzantine Libri II. نشر : الترجمة الانكليزية A. Vogt, Paris, 1967 G. Moravcsik و الترجمة الفرنسية R. J. H. Jenkins, Budapest, 1949 De Administrando Imperio Le livre du Préfet Nicole, Genève 1893 نشر الترجمة الانكليزية

وكذلك كانت معارض اطراز نده وأسواقها ، مثل معارض لاموس على الحدود البيزنطية توفر ملتقيات عظيمة الفائدة التجارية ، ولاسيما ، أثناء تبادل الأسرى في المدينة الأخيرة بين الطرفين .

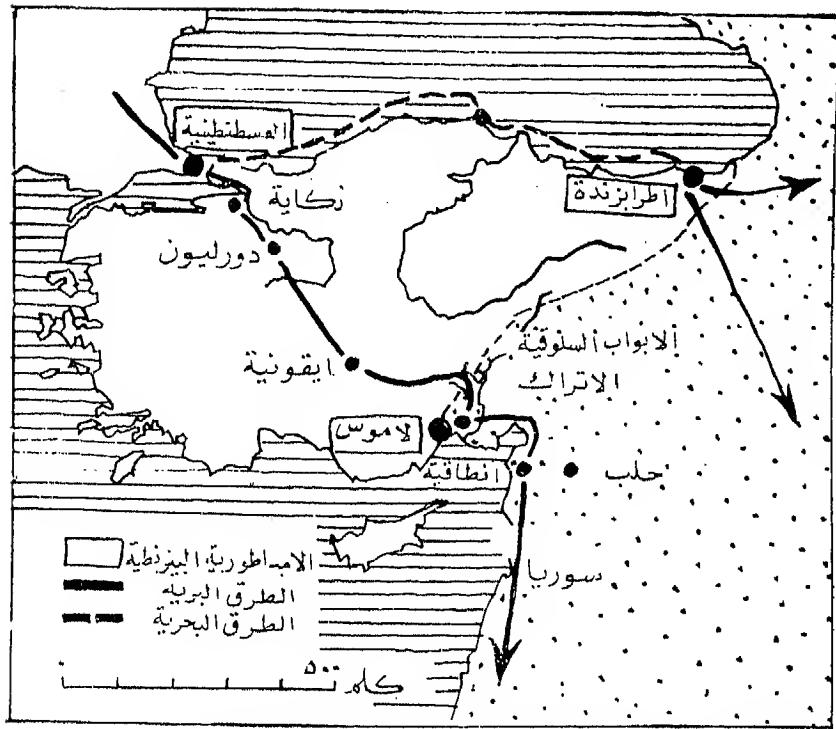
ومن جانب بيزنطة ، نلاحظ وجود تجار يونانيين متخصصين في استيراد (Lamos) الواقع على النهر الذي يحمل نفس الاسم في الشعور الإسلامية الحرير الخام (Metaxopratai) ، وفي استيراد — الديباج (Prandiopratoi) وف استيراد الروائح العطرية (Myropsoi)

والقواعد التي تضبط التجارة ، تضمن ، مثلا ، للتجار المسلمين تسويق جميع سلعهم ، مهما كانت درجة جودتها ، ومهما كانت كمياتها . وإذا رفضت البيوت التجارية البيزنطية شراء جزء من السلع التي يعرضها عليهم التجار المسلمون ، فإن والي المدينة مضطرك إلى أن يأمر بحمل تلك السلع المتبقية إلى الأسواق لتتابع فيها بطريقة ملائمة .

وهكذا نرى أن تجارة بيزنطة ، تجارة سلبية : فمن حيث هي تجارة تعتمد على الوسطاء ، يتوقف ميزان المدفوعات فيها على قيمة وارداتها من العالم الإسلامي . وأما صادرات بيزنطية ، فهي تتوجه خصوصاً عن طريق البندقية وأمالفي .

وفي مقابل ذلك ، تقوم القسطنطينية ، بدور الوسيط بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي . وكذلك تقوم بيزنطة بدور الموزع والمتجه المصدر . وهذا الدور الأخير ، إنما تقوم به على أساس المواد الأولية

والسلع التي تهم التجارة بين العالم الإسلامي وبizinطة هي (السلع الآتية من العالم الإسلامي ) : الحرير ، والديباج ، والأحجار الكريمة ، واللؤلؤ ، والعاج ، والتوابل ، والعلطور ، والطيب ، والأbanos ، وعرق اللؤلؤ .



الشكل رقم ٢٧ - طرق و مراكز التجارة مع بيزنطة

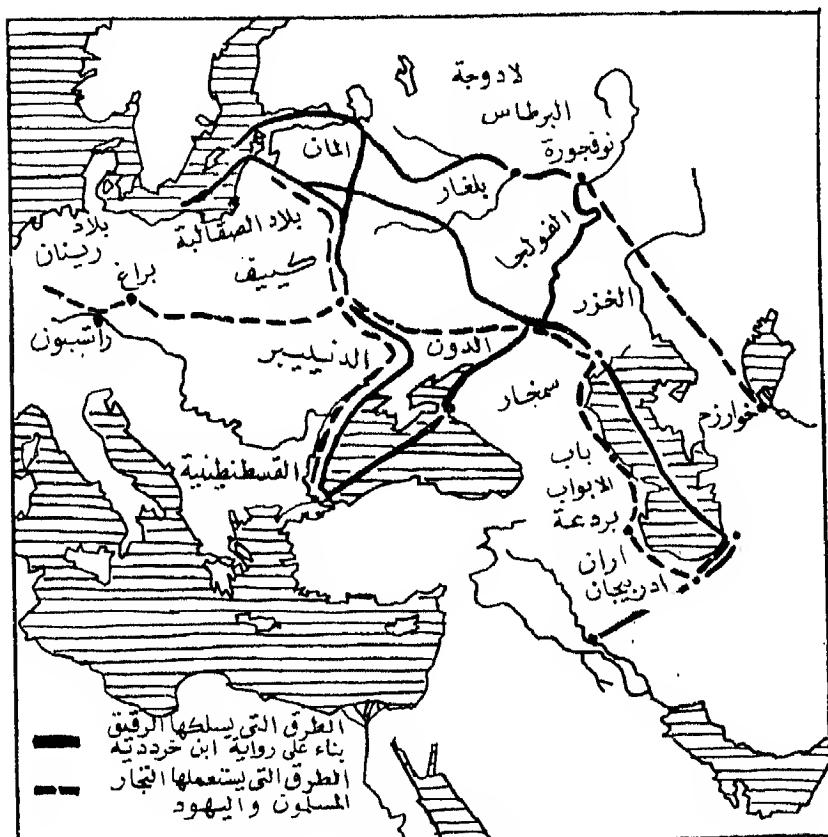
والسلع الآتية من بيزنطة الى العالم الإسلامي ، هي : أنواع معينة من الأقمشة الرفيعة التي احتفظ البيزنطيون بسر صناعتها وذلك ، مثل الأقمشة الحريرية التي تتغير ألوانها بانعكاس الضوء والتي تسمى هيبيوكلامون (Hypocaralamon) . وحرف العرب اسماها الى « بوقلمون » وكذلك نلاحظ في هذه القائمة الكتان ، الذي يستورد من « تراس » ومن مقدونية ، والمواشي التي تستورد من أرمينيا البيزنطية . وهي منطقة مشهورة بتربية الحيوانات ، ولاسيما الأنعام الكبيرة والغنم الذي ينتج الصوف واللحم لتمويل القسطنطينية في المكان الأول . ولتصدير الى سوريا الشمالية الإسلامية .

وعلى الجملة ، فإن التبادل التجاري في هذه المنطقة . كان سبباً لاستنزاف الذهب من بيزنطة لصالح العالم الإسلامي . و مما يزيد من خطورة العجز الذي يعاني منه الميزان التجاري البيزنطي أن الاباطرة البيزنطيين كانوا يدفعون ضريبة ثقيلة إلى الخلفاء على أن خسارة بيزنطة من نقود الذهب . تعويضاً مما تبيّنه في أسواقها للإيطاليين والصقالبة .

والأفق الثاني : منطقة الانهار الروسية التي يتجه إليها الإيرانيون وهي تمتد من بحر آرال ، حتى بحر قزوين ، ومن خوارزم ومدينة أورجاش ، حتى أران ( ما وراء القوقاز ) ومدينة برذعة وباب الأبواب (Denbend) وهذه هي بلاد السهوب التي تحيط بها من الوراء الغابة الشمالية الكبرى التي تشكل أطراها ما يشبه أهلة واسعة من الأرض المشوفة . وهي منطقة الانهار الروسية الطويلة والبطيئة الجري . وبالتالي فهي قابلة للملاحة . وهذه الانهار ، تنزل من منطقة الغابة وتنصب في بحر قزوين والبحر الأسود الفولجا ، والدون ، والدنبر . ومن جهة الشمال ، تسمح أنهار أخرى مثل لوفات (Lovat) وعدد من البحيرات ، بالاتصال ببحر البلطيق . والمرور بين حوض نهر إلى حوض نهر آخر سهل . وببحر قزوين ، والبحر الأسود ، وبحر البلطيق ، تتدخل شواطئها ، حتى أن الخريطة التي رسمها الأدريسي لهذه المنطقة تمثلها وهي تربط بينها أنهار .

والقوارب مهمة للملاحة في هذه الانهار . وهي أحياناً مصنوعة من قطعة واحدة من الخشب ، وأحياناً عبارة عن قوارب كبيرة من نوع القوارب التي يستعملها التجار السكاندينافيون والتي تصفها المصادر العربية .

وفي هذه المنطقة يقع اتصال بين تجارة العالم الاسلامي وتجارة البلدان الس堪динافية . والتجار المسلمين الذين يقومون بالعمليات فيها يتسمون الى الحضارات القديمة التي تمرست عن فنون التجارة ، من الايرانيين أو التي تأثرت بالنفوذ الايراني ، من خوارزم وجرجان وأذريجان .



الشكل رقم ٢٨ - التجارة في منطقة الانهار الروسية

وصف ابن حردادبة في منتصف القرن التاسع الطرق التي يسلكها التجار الروس ، فقال : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من

الصقالبة ، فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية الى البحر الرومي ، فيعيشون صاحب الروم ، وان ساروا في تيس نهر الصقالبة مرورا بخليج مدينة الخزر ، فيعيشون صاحبها ، ثم يصيرون الى بحر جرجان فيخرجون الى سواحله . وقطر هذا البحر ، خمسمائة فرسخ ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون أنهم نصارى ، فيؤدون الجزية » .

« فأما مسلكهم في البر ، فإن الخارج منهم يخرج من الاندلس ، أو من فرنجة ، فيعبر الى السوس الاقصى ، فيصير الى طنجة ، ثم افريقيا ثم الى مصر ، ثم الى الرملة ، ثم الى دمشق ، ثم الى الكوفة ، ثم الى بغداد ثم الى البصرة ، ثم الى الاهواز ، ثم الى فارس ، ثم الى كرمان ، ثم الى السندي ، ثم الى الهند ، ثم الى الصين . وربما أخذوا خلف رومية في بلاد الصقالبة ، ثم الى خمیلیج ، مدينة الخزر ، ثم نحو جرجان ، ثم الى بلخ وما وراء النهر ، ثم الى ورت تعزغر ، ثم الى الصين » .

وهكذا ثبت لدينا أن التجار الروس - السكان دينافيدين كانوا يصلون الى بغداد . ولكن المصادر العديدة والوثيقة التي بين أيدينا ، تدل أيضا على وجود التجار المسلمين على طول الطرق التي تربط العالم الاسلامي وشبكة الطرق التي تمتد في أحواض الانهار الروسية ، فهم يسلكون طريقا تؤدي من خوارزم عبر السهوب ، حتى مدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهر الفولجا بنهر كاما . وبلغار ، هي عاصمة بلغاريا الكبيرة التي تقع تقريبا في المكان الذي بنيت فيه ، فيما بعد ، مدينة كازان . وفي مدينة بلغار كانت تعيش جالية مهمة من المسلمين الذين كان لهم مسجدهم ودار للسكة تضرب فيها النقود باسم الخليفة العباسي في القرن التاسع الميلادي .

والى جانب ذلك ، توجد طريق أخرى يسلكها التجار المسلمون تنطلق من جرجان وتمر بأذربيجان وأران وبحر قزوين ، وطريق برية أخرى

تمر ببرذعة وباب الأبواب متوجهة الى عاصمة الخزر ، خميلينج ( اتل ) عند مصب نهر الفولجا (24) . وفي هذه المدينة أيضا نجد أن المسلمين أحياءهم الخاصة وقد كان المسلمون يمثلون ثلث سكانها .

ومن مدينة اتل ، يقصد التجار المسلمين الى مدينة بلغار عن طريق نهر الفولجا ، ثم يسرون ببلاد البرطاس التي تستد عند ملتقى الفولجا نهر الأوکا (Oka) ، حيث تقع مدينة نيجني نوفجورود (Nijni-novagord) في الحالية .

ولكن التجار المسلمين ، يمكنهم أيضا أن يسلكوا طريقا تتطرق من أسفل الفولجا وتجه نحو نهر الدون ثم نحو كيافه (Kiev) «»، ومن هناك يتخدون الطريق الشمالية المؤدية الى البلطيق ، أو الطريق الجنوبي المؤدية الى البحر الأسود ويمرنطة ، أو الطريق الغربي المسايرة لجبال الكربات (Carpates) (25) وتمر بيراغ وبأعلى الدانوب لتصل الى بلاد رينان ، حيث نجد ذكرها لنقود السامانيين في القرن العاشر الميلادي .

ونحن نشير في هذا السياق ، الى أن الطريق الأخيرة هي التي كان يسلكها اليهود الرادانية ، الذين كانوا يأتون ، كما أشرنا من قبل ، من

24 - كثيرا ما اقترح التعرف على موقع اتل في المكان الذي ستحله مدينة اسطراخان حاليا ، ولكنه لم يمكن العثور على اي اثر للمدينة القديمة التي كانت عاصمة شعب الجزر . وقد اقترح جوميليف (L.N. Gumilev) مؤخرا فرضية لفسري اختفاء اتل ، يقول بأن ذلك مرجمعه ارتفاع مستوى مياه بحر قزبن ، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وغرق القلاع المبنية الذي نجم عن ذلك . راجع : S. Szyszman « Deconver te De Khazarie Annales E.S.C. 1970, p. 820.

25 - سلسلة جبال أوروبا الوسطى ، وتنتمي في شكل قوس في تشيكوسلوفاكيا وبرانشادا وакرانيا ، في الاتحاد السوفيتي ، ورومانيا . وهذه الجبال اتل ارتفاعا في المتوسط من جبال الالب ، وهي كثيفة الغابات ومشهورة منذ القدم باستغلال الغابات وتربية الحيوانات ، وباطنها غني بالمعادن ، وخصوصا بالنفط والغاز الطبيعي الذي يستغل حاليا في رومانيا . المترجم .

ضفاف الرين والدانوب الى براغ وجبال الكربات . وكيف ، وأخيراً الى بلاد الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في أواخر القرن الثامن الميلادي .

وهذه الطرق لم تكن موضوعاً لوصف الرحاليين والجغرافيين فحسب، بل أن جنباتها تحتوي على آثار متنوعة اكتشفت مؤخراً ولا سيما من قطع النقود الإسلامية التي يرجع تاريخها إلى الفترة بين القرن السابع والقرن الحادي عشر الميلادي « وخصوصاً نقود الدولة السامانية » . وهذه القطع عبارة عن دراهم مضروبة من الفضة ، وهي ظاهرة تدل على أن نظام النقد المتداول كان يقوم على أساس معدن واحد « الفضة ». ومع ذلك فإن قطعاً من الذهب اكتشفت أيضاً ، ولا تزال محفوظة في المتاحف الروسية والسكندرية . أو أعيد تصديرها إلى القسطنطينية في مقابل شراء منتجات من المصنوعات البيزنطية .

ومن بلاد الصقالبة ، يستجلب إلى العالم الإسلامي الرقيق الذي يصنع منه الخصياني ، والفراء ، والعسل وشمع العسل ، وهي من منتجات غابة الشمال الكبيرة . ومن الغرب المسيحي . في عهد الكارولانجين ، كانت تستورد إلى بلاد الصقالبة السيوف التي يعاد تصديرها إلى العالم الإسلامي ، وكذلك الخيول والجلد البلغاري المدبوغ . وجسيع هذه المنتجات سر بخارزم ، أو بباب الأبواب . في اتجاه المدن الكبيرة في إيران وما بين النهرين .

وفي مقابل هذه السلع ، كان العالم الإسلامي يصدر إلى تلك البلاد منتجات ، مثل الأقمشة الشفافة ومحترف الأواني ، وخصوصاً قطع النقود المضروبة من الفضة ، وبدرجة أقل ، النقود المضروبة من الذهب .

وأزمة الفضة – بصفتها معدن النقد – التي واجهتها آسيا الوسطى وإيران في القرن الحادي عشر الميلادي ، لا تفسر بالظروف الجديدة

التي نجمت عن توسيع السلاجقين التجاري فحسب ، بل وأيضا بالتزيف الذي تتجه عن التجارة مع منطقة الأنهر الروسية وفي هذه المنطقة نجد أن ميزان العالم الإسلامي التجاري ، يشكو من عجز مزمن .

والافق الثالث والأخير ، في الواجهة الشمالية الغربية : الغرب المسيحي . والمقصود هنا ، هو التبادل التجاري الذي يجري مع البلدان الواقعة خلف بيزنطة والتي اندمجت شبكة علاقاتها التجارية في العالم الإسلامي .

والتجارة مع البلدان الأوروبية التي كان مستواها الاقتصادي متخلقا تقوم على تلبية طلبات المراكز العمرانية في الأندلس والمغرب . وفي مقدمة المنتجات التي تصدرها البلدان الأوروبية إلى العالم الإسلامي ، منتجات العابات : الفراء وخشب البناء لأحواض السفن ، والرقيق ، والمعادن ، والأسلحة التي سبق أن ذكرنا أنها تصدر أولا إلى الشرق ، عن طريق أروبا الوسطى ، وببلاد البلطيق ، والأنهر الروسية في اتجاه العاصمة الإسلامية ، وخصوصا ، بغداد . ولكن هذه المنتجات تتجه أيضا إلى الغرب ، سالكة الطرق التي تمر بألمانيا وبحر الشمال والجول الكارولاني لتصل إلى المدن الإسلامية في الأندلس وخصوصا إلى قرطبة .

وفي مقابل المنتجات الأوروبية ، يقدم العالم الإسلامي ، قطع القواد من الذهب والفضة ، وبعض منتجات الترف — وخصوصا ، الأقمشة التي تفلت من وساطة بيزنطة . وفي هذه الواجهة أيضا ، يتسم الميزان التجاري الإسلامي بعجز مزمن .

والوسطاء في التجارة بين العالم الإسلامي وأروبا الغربية هم في المكان الأول اليهود ، وخصوصا ، يهود نوبونة الذين تقطن جماعاتهم

فـ المـنـطـقـةـ الـتـيـ تـمـتـدـ مـنـ بـلـادـ رـيـنـاـنـ وـالـمـوـزـ حـتـىـ مـنـخـفـضـاتـ الرـوـدـانـيـاـنـ (أـيـ وـادـيـ الرـوـنـ) ، بـيـنـ سـلـسـلـةـ الـجـبـالـ الـوـسـطـيـ ، وـالـجـبـالـ الـتـيـ تـسـبـقـ اـمـتـادـ جـبـالـ الـأـلـبـ) . وـهـؤـلـاءـ الـيـهـودـ التـرـبـوـنـيـوـنـ ، يـقـصـدـونـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ سـالـكـيـنـ الـمـبـرـاتـ الـجـبـلـيـةـ الـتـيـ تـقـطـعـ جـبـالـ الـبـرـنـيـزـ ، أـوـ عنـ طـرـيقـ الـبـحـرـ ، حـتـىـ طـرـطـوشـةـ ، وـمـنـ هـنـاكـ يـتـجـهـونـ إـلـىـ اـفـرـيـقـيـةـ الشـمـالـيـةـ ، وـلـكـنـهـمـ قـدـ يـقـصـدـونـ إـلـىـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ أـيـضاـ مـبـاـشـرـةـ عـنـ طـرـيقـ مـوـانـيـءـ الـحـوـضـ الـشـرـقـيـ للـبـحـرـ الـأـيـضـ المـوـسـطـ .

وـإـلـىـ جـاـنـبـ الـيـهـودـ ، كـانـ تـجـارـ الـمـدـنـ الـبـحـرـيـةـ الـاـيـطـالـيـةـ يـقـومـونـ بـدـورـ مـتـرـاـيدـ الـأـهـمـيـةـ فـيـ الـوـسـاطـةـ الـتـجـارـيـةـ بـيـنـ الـعـالـمـ الـاسـلـامـيـ وـأـرـوـبـاـ الـفـرـيـقـيـةـ . وـالـمـدـنـ الـتـيـ كـانـتـ مـرـاـكـزـ لـلـوـسـطـاءـ عـلـىـ شـوـاطـئـ بـحـرـ الـأـدـرـيـاتـيـكـ هـيـ : بـارـيـ ، وـخـصـوـصـاـ ، الـبـنـدـقـيـةـ . وـفـيـ الـمـنـطـقـةـ الـفـرـيـقـيـةـ : سـلـونـ ، وـنـابـلـيـ ، وـبـجـاـيـتـ ، وـخـصـوـصـاـ ، أـمـالـفـيـ ، الـتـيـ كـانـتـ تـجـارـهاـ مـنـذـ الـقـرـنـ الـعـاـشـرـ الـمـيـلـادـيـ ، يـتـرـدـدـونـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ الـمـدـنـ الـتـجـارـيـةـ الـاسـلـامـيـةـ عـلـىـ شـوـاطـئـ الـبـحـرـ الـأـيـضـ الـمـوـسـطـ : الـمـرـيـةـ ، وـتـوـنـسـ ، وـالـاسـكـنـدـرـيـةـ ، وـانـطاـكـيـةـ ، بـلـ وـالـفـسـطـاطـ — الـقـاهـرـةـ ، وـالـقـدـسـ ، أـيـضاـ . وـقـدـ كـانـ تـرـدـهـمـ عـلـىـ الـمـدـيـنـةـ الـأـخـيـرـةـ مـرـتـبـطـاـ بـحـرـكـةـ الـحـجـجـ إـلـىـ الـأـمـاـكـنـ الـمـقـدـسـةـ ، حـيـثـ كـانـتـ تـقـامـ مـعـارـضـ وـأـسـوـاقـ سـنـوـيـةـ تـجـرـيـ فـيـهاـ مـعـاـمـلـاتـ فـيـ غـايـةـ الـأـهـمـيـةـ .

وـفـيـ اـيـطـالـيـاـ نـفـسـهـاـ ، كـانـتـ تـقـامـ مـعـارـضـ وـتـنـظـمـ أـسـوـاقـ مـشـهـورـةـ وـغـيرـهـمـ مـنـ الـاـيـطـالـيـنـ تـجـارـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـبـلـدـاـنـ ، وـلـاـ سـيـماـ مـنـ الـأـنـجـلـوـسـاـكـسـنـ الـذـيـنـ يـصـلـوـنـ إـلـىـ الـبـهـاـ عـنـ طـرـيقـ الـمـرـاتـ الـتـيـ تـقـطـعـ جـبـالـ الـأـلـبـ . وـكـانـتـ الـضـرـائـبـ وـالـمـكـوـسـ تـفـرـضـ فـيـ هـذـهـ الـأـسـوـاقـ : خـصـوـصـاـ ، عـلـىـ الـتـجـارـةـ فـيـ الـرـقـيقـ وـالـسـيـوـفـ ، وـالـقـصـدـيـرـ .

وفي الاتجاه الآخر ، كان الشرقيون ، ولا سيما اليهود . ينزلون في الموانئ الإيطالية وفي أسفل لنجدوك . ونحن قد رأينا أن جوهر الذي غزا مصر لحساب الفاطميين ، كان يهوديا من إيطاليا الجنوبيّة . وهذه الحقيقة تستقيها من مصدر عربي مهم ، وهو تاريخ الحاخام أخيساس من أوريا (Oria) وهي مدينة تقع بين برندizi (Brindizi) وطارنت (Trente)

وعن طريق هذه الجماعات الشرقية ، انتقلت فنون التجارة وبعض الطرق التقنية الصناعية ( مثل صناعة أقمشة الترف والصباغة وصناعة الجلد ) التي مكنت التجارة الإيطالية من الازدهار ، وسمحت للمدن الإيطالية ، ابتداءً من أواخر القرن العطادي عشر الميلادي ، بتسجيل تقدم في الاتجاج . فهذه الجماعات الشرقية ، لعبت دوراً خطيراً في التعليم والتدريب التقني في إيطاليا الجنوبيّة ، قبل أن يطردتها منها منافسوها من المسيحيين .

والطريق الأخيرة التي ينبغي الاشارة إليها ، هي طريق المحيط الأطلسي التي تتطلّق من المنطقة التي يسمّيها الجغرافيون العرب ، « بريطانيا » ، وهي تسمية يقصدون بها إنجلترا وبلاد السيلت . ومن بريطانيا تصل إلى الارموريك (26) وخليج بسكونية (27) ثم إلى الموانيء الإسلامية الواقعة على المحيط الأطلسي : ليشبونة ، وقصر أبي دانس ، حيث ينزل العبيد الانجلوساكسن ، وحيث تفرغ شحنات القصدير والفراء والسيوف .

\* \* \*

---

26 - هي المنطقة التي تشكّل حالياً في فرنسا ، بروطانيا La Bretagne

27 - بكونية (المترجم) . Le Golfe de Gascogne

وهكذا نرى في أعقاب هذه الدراسة التي عالجنا فيها الواجهات التجارية ، أنه يوجد عدد من شبكات الطرق التي تدخل إلى العالم الإسلامي وتنوغ فيه حتى تصل إلى المراكز المحركة للاقتصاد . وهي المدن الكبيرة التي تربط بينها شبكة من العلاقات النشيطة .

والخط الرئيسي ومركز القوة في هذه العلاقات ، هي طريق القوافل الكبيرة التي تربط آسيا الوسطى ، انطلاقاً من سمرقند وبخاري وتمر بنيسبور والري ، لتصل إلى بغداد . ومن هذه المدينة ، تتجه عن طريق نهر عيسى والفرات إلى حلب ، وانطاكية وأساكل المشرق وفي الاتجاه الجنوبي الغربي ، تؤدي طريق فرعية إلى دمشق فعسلون . فالى منطقة بورسعيد ودلتا النيل : الاسكندرية والفسطاط - القاهرة ، ثم برقة والقيروان وهضاب المغرب ثم فاس أو مضيق جبل طارق وتنتهي إلى مدن الأندلس : اشبيلية وقرطبة .

وهذه الطريق الكبيرة ، تلتقي بشبكات أخرى مهمة من الطرق البرية والبحرية والنهرية : طريق الأنهر الروسي التي تربط شواطئ بحر قزوين بالري ، وطرق المحيط الهندي والخليج العربي ( البصرة - بغداد ) ، وطريق البحر الأحمر وعيّداب ، أو القلزم ووادي النيل والقاهرة ، والطرق العابرة للصحراء الكبرى متوجهة إلى المغرب ، والطرق المؤدية من الغرب المسيحي إلى الأندلس والموانئ الإسلامية الحركة الاقتصادية في الغرب المسيحي إلى الأندلس والموانئ الإسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط .

صحيح ، أن المسلمين لم ينشئوا جميع هذه الطرق . فان الفتوحات الإسلامية كثيراً ما سارت في شبكات من الطرق القديمة أو في طرق عرفها القدماء ولكنها محيت معالها ، أو قطعت بسبب غزو البرابرة . ولكن المؤكد ، هو أن تكوين العالم الإسلامي قد لحم بين مختلف المناطق التجارية في العالم . وأبرز ما حققه الإسلام في هذا المجال ، هو

ضم منطقة الصحراء - السودان - التي خلق البربر التیارات التجارية فيها منذ القرن الرابع الميلادي ، الى مناطق التبادل التجاري العالمية الكبيرة . وكذلك ضم الاسلام الى تيار التبادل التجاري العالمي ، منطقة الأنهر الروسية التي كانت عناصر من الصقالبة والفينلانديين والسكانдинافيين منذ وقت تحاول تنظيمها .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الطلب المتزايد في مراكز العمران الاسلامية للاستهلاك ، قد أيقظ النشاط وبعث الحياة في الحركة الاقتصادية في الغرب المسيحي الذي يسيطر عليه البرابرة حيث انطلقت تجارتة واشتد نشاط تبادل العملة وانتعشت مراكز العمران فيه تحت تأثير النفوذ الاسلامي .

\* \* \*

## **مكانة العصر الاسلامي في التاريخ العالمي**

قررنا في عدة مناسبات في الفصول السابقة ، أن العالم الاسلامي ينقسم الى ثلاث مناطق متميزة : منطقة البرازخ ، وايران وآسيا الوسطى ، والغرب الاسلامي . وهذا التقسيم ضروري لضمان وضوح العرض ، ولكنه أيضا يقوم على أساس معقوله . فان كل واحدة من المناطق الثلاث المدروسة ، تمثل اطارا جغرافيا لا يزال موجودا ومؤثرا ، كما تمثل مراحل مختلفة في النمو الاقتصادي ، وحظا من تركيبة الحضارات القديمة ، يختلف عن حظ كل واحدة من المنطقتين الآخريتين .

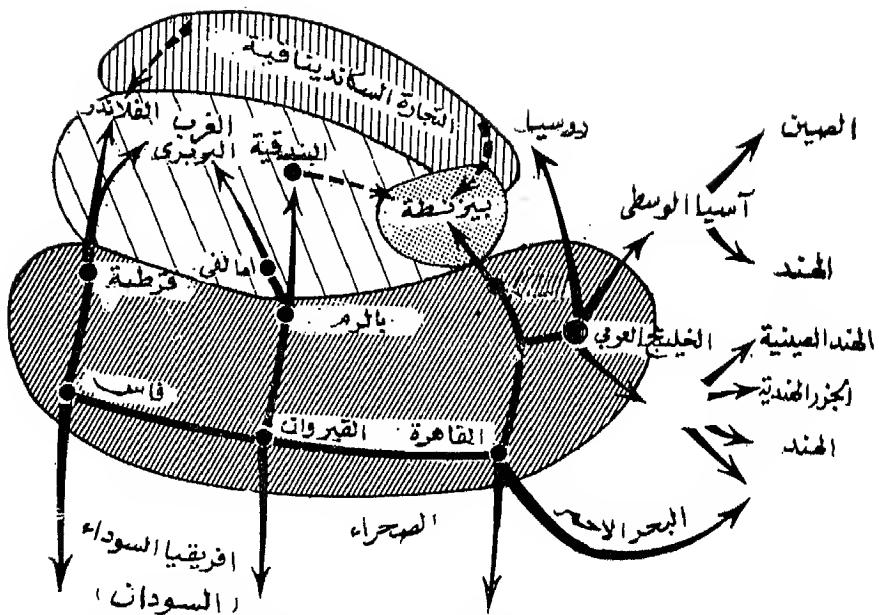
فهل ينبغي أن نبحث في نهاية هذه الدراسة عن الخطوط العامة والاطار الذي يجمع بين هذه المناطق ؟

يجب أن نقول أن العالم الاسلامي ، لم يكن خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادي ، مجرد نقطة انطلاق لتاريخ طويل : تاريخ الحضارة الاسلامية . لأن العالم الاسلامي كان في هذه الفترة أيضا . نقطة وصول ، وهو لا يزال حتى الوقت الحاضر قمة تاريخ طويل : تاريخ الحضارة التي تقوم على المدن في الشرق القديم الذي شهد أقدم الحضارات البشرية المعروفة ، والتي تجمعت خلال لحظة من التاريخ في امبراطورية الاسكندر الكبير .

وإذا كان العصر الإسلامي على اتصال بتاريخ العالم من حيث الزمن ،  
 فهو يتصل به أيضاً من حيث المكان .

فإن العالم الإسلامي . بفضل موقعه في قلب العالم القديم . وبفضل  
سيطرته على منطقة البرازخ الواقعة بين بحرين عظيمين بـ المحيط  
الهندي والبحر الأبيض - وبفضل امتلاكه للطريق البرية الكبيرة .  
طريق السهوب والصحراء والواحات التي تتطلق من آسيا الوسطى  
إلى إفريقية الغربية ، كان على اتصال مباشر مع مراكز للعمان المدني  
والحضاري . وقد كان العالم الإسلامي على علاقات تجارية ، علاقات  
الند للند ، مع الهند والصين وبيزنطة ، ولكنه كان أيضاً على اتصال  
بالعالم الجديدة ، عالم الغابات الذي يخضع للبرابرة أو لنفوذهم :  
عالم السهوب التركية ومناطق الأنهر الروسية والعالم الأسود ، والغرب  
المسيحي الذي سيعرفه الإسلام باشعاع حضارته في الوقت الذي  
يستعيشه منه قوى حيوية .

لقد كان العالم الإسلامي بمثابة جسر يجمع بين العالم الجانبي  
ومن هنا أهمية الطرق التي تشهد بالتقدم السريع أو البطيء ، المستمر  
أو المتقطع ، للنفوذ الذي يخترق المنطقة المميزة التي يمتد فيها العالم  
الإسلامي حتى القرن الحادي عشر الميلادي . فمن قلب هذه المنطقة  
انتشر التأثير الحضاري ليشمل المغرب الإسلامي والمناطق التي تقع  
خلفه . وهذه الحضارة تقوم على النتائج التي استخلصتها من عملية  
تطورها بلدان الشرق القديمة وحورتها ثم أضافت إليها ثراءً بالمقدبات  
والاتصالات التي وقعت في داخل المنطقة نفسها ، وبفضل ألوان النفوذ  
الجديدة التي وصلت إليها سالكة الطرق التجارية التي تربطها بالبلدان  
البعيدة ، من الصين والهند وآسيا الوسطى .



**المشكل رقم ٢٩** - امتداد العلاقات التجارية والاشتاءع الاقتراضي  
للحال المسلمين خلال فترة بين القرنين ١١-٨

ومن هنا أيضا ، أهمية شبكة مراكز العمران . فان المدن الاسلامية تجمع بينها علاقات اقتصادية وروابط ثقافية ، والطرق انما تستخدم خصوصا لنقل تأثير المد الحضاري . وشبكة العواصم الاسلامية . هي التي توفر اطار النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي والثقافي في العالم الاسلامي . والمراكز القوية في هذا الاطار ، في غضون الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى ، هي : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وفاس ، وبورصة .

وأما المحطات التجارية الكبيرة الواقعة في منتهى الطرق ، فهي سمرقند في الشرق ، وقرطبة في الغرب ، وهاتان المدينتان شهداً إلى الوحدة العجيبة التي تسمى بها حضارة كانت تركية في منطقتها ، ينتقل فيها

الرجال والسلع والأفكار بحرية وتنعدم فيها السرواب الحضارية الريفية أو التي تعود إلى أصل مجتمع الرجل

وأخيرا ، ومن هنا أهمية الاقتصاد النقيدي الإسلامي : التوسع في ضرب الدنانير ، نتيجة لتدفق الذهب الجديد على العالم الإسلامي وازدهار الائتمان والاعتماد ، مما يضاعف تيار التبادل النقيدي . فقد لاحظ ابن خردذبة في القرن التاسع الميلادي ، أن نمو الثروات وازدياد المعاملات التجارية ، بلغ حدا من الاتساع ، بحيث يجري تداول قطع النقد حتى في القرى النائية التي كان نظام المقايضة دائما أساسا للتبادل التجاري فيها . وهكذا يلتقي نمو نقوذ المدن الكبيرة على القرى والأرياف ، باتساع نطاق تبادل النقد والعملة .

ولكن الاقتصاد الإسلامي الذي يقوم على الدينار ، له جوانب قوة وجوانب ضعف . فهو في المكان الأول ، يتوقف على التبادل التجاري . ولذلك ، فهو مرتبط بالاحتفاظ بالطرق ، كما يرتبط بالسيطرة على شبكة العلاقات مع البلدان البعيدة التي يمكن للعالم الإسلامي بـل ويتحمـلـ عـلـيـهـ ، الحصول منها على المنتجات التي تنقصـهـ والتي هي ضرورية لاقتصاده ولا زدهار حضارته - الذهب أولا ، ثم الخشب والمعادن والأسلحة - ذلك الاقتصاد وتلك الحضارة اللذين تعودا على شراء كل شيء ، وبنقود الذهب ، من البلدان البعيدة .

وإذا ارتحت العلاقات مع البلدان البعيدة ، بتحويل الطرق أو انقطاعها ، وإذا كان وصول الذهب غير منتظم ، فإن الاقتصاد سيعرض للاضطراب .

وفي النصف الثاني من القرن الحادى عشر الميلادى ، أخذ العالم الإسلامي يواجه أزمات عديدة واضطرابات خطيرة ، قامت حركات للغزو في مختلف أطرافه . وقد كان من نتائج ذلك تدهور مراكز العمران وانقطاع

التيارات الاقتصادية : فان أحياها في بغداد وفي القاهرة أصبحت خرابا ، والقيروان هجرها بنو زيري الذين التجأوا الى المهدية . وكذلك هجر بنو حماد مدينة القلعة ليتجهوا الى بجاية . وأما مدينة فاس ، فقد سقطت في يد المرابطين .

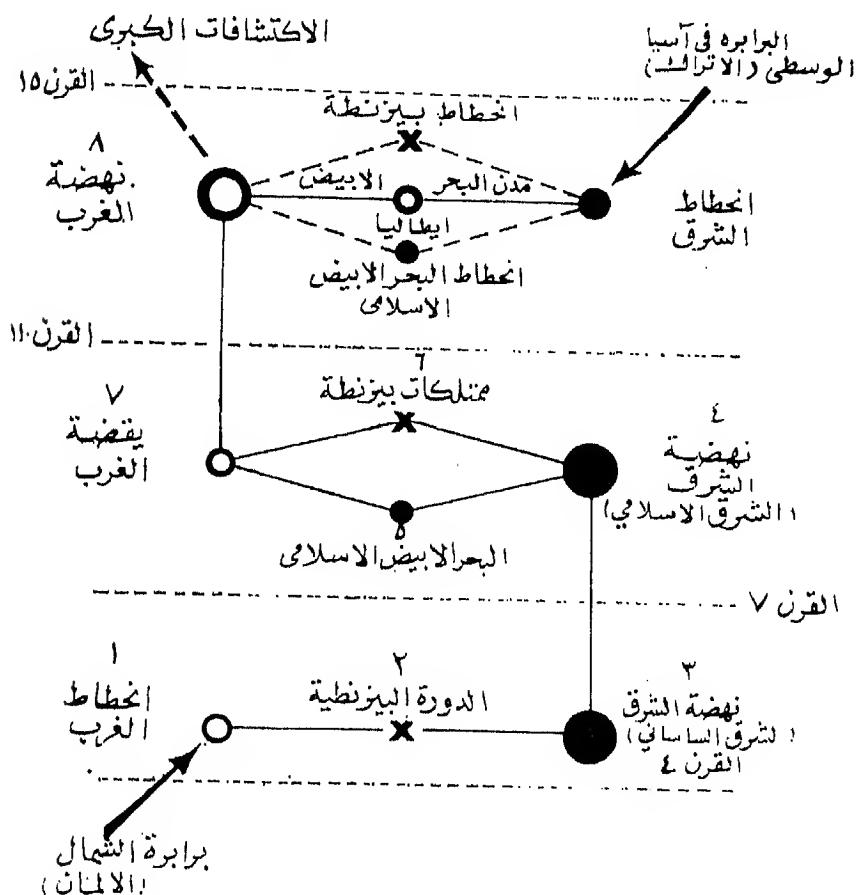
وفي الأندلس ، مزقت مملكة غرناطة الى امارات ، هي التي تعرف باسم « ملوك الطوائف » .

وباقطاع طرق التجارة والمواصلات ، تحطم العالم الاسلامي واتخذ الاسلام أشكالا اقليمية ، وأصبح الناس يسمون بالاسلام التركي ، والاسلام المصري ، والاسلام المغربي ، والاسلام الاندلسي . وهكذا ابشت النعرات والمميزات الاقليمية التي كانت شرارتها لا تزال حية ، كما تحولت الحضارة الاسلامية التي صهرت التراث الحضاري القديم في جميع هذه المناطق الى « حضارات » اسلامية .

وبعد القرن الحادي عشر الميلادي ، تحول مركز الثقل من العالم القديم . فان المراكز المحركة والمنشطة للازدهار والتتوسع الاقتصادي المستمر ، لم تعد في الشرق وفي المدن الاسلامية الكبيرة ، بل هي انتقلت الى الغرب ، في المدن التجارية الايطالية وفي الفلاندر وفي أسواق الشامبان ، حيث يجري تبادل منتجات البلدان الشمالية ومنتجات بلدان البحر الابيض المتوسط . وبعد عشر ومصادمات وفترات من الانتصار وأخرى من الانكسار ، أصبحت القوة الاقتصادية والتتوسع المادي والنشاط الخلقي — لعدة قرون — من خلال أروبا الغربية .

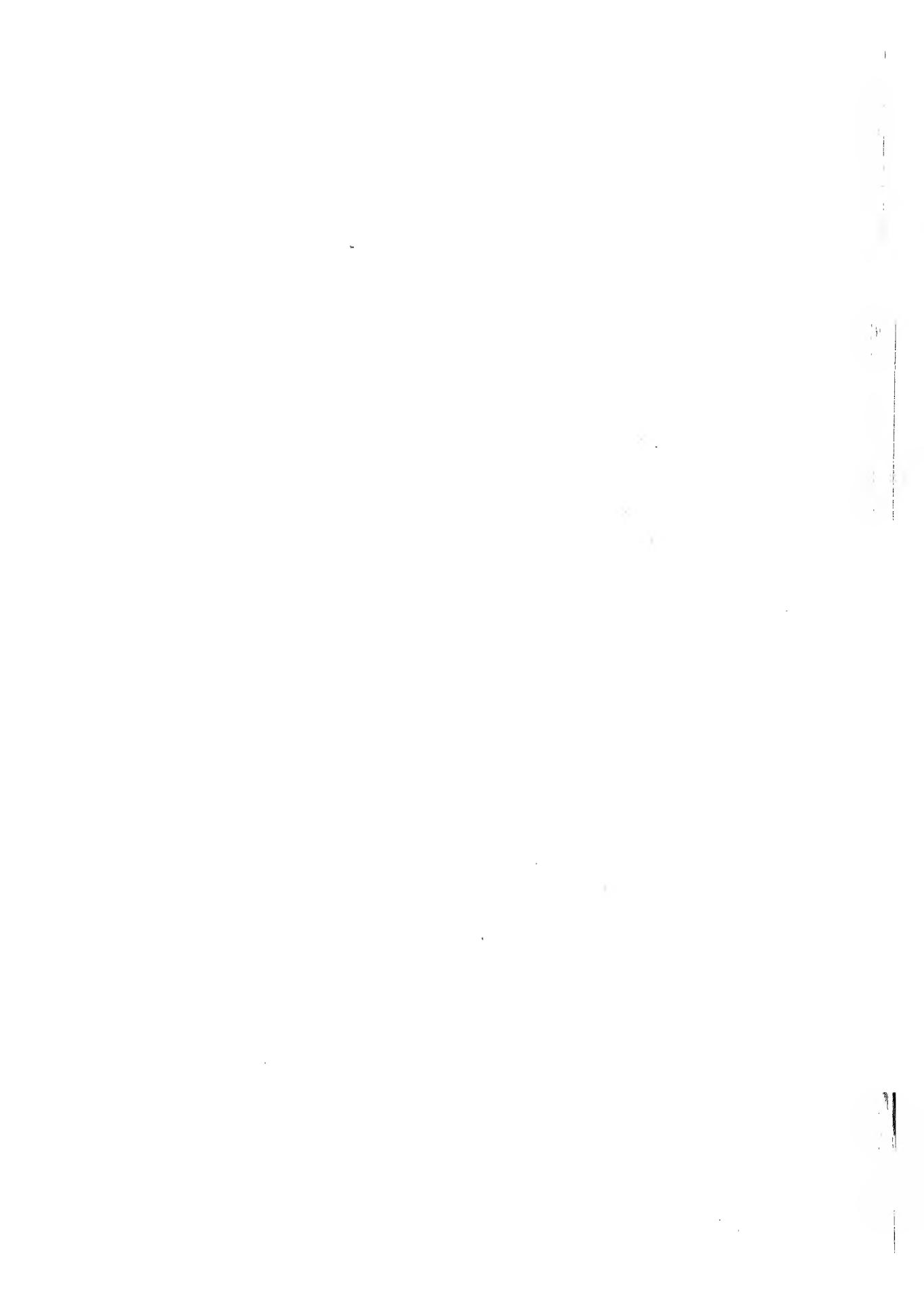
ومع ذلك ، وعلى الرغم من تدهوره الاقتصادي سيستمر الاسلام وقتا طويلا مصدر اشعاع ثقافي في العالم الذي سيكون مدينا له بعلومه ، وخصوصا علم الطب ، وفلسفته . وسيلعب العالم الاسلامي بعلم الطب

دورا خطير الشأن ، ليس في عصر النهضة فحسب بل حتى في القرن التاسع عشر الميلادي . ولكن معظم أمهات الكتب التي استمرت قيمتها ، كانت قد وضعت خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادي .



الشكل رقم ٢٠ - مختلط عام لأنقلاب القوى من القرن ٤ إلى القرن ١٥

بين الصين والهند ، بين بيزنطة وبلاد البرابرة ، في العصور الوسطى ،  
منذ نهاية الامبراطوريات القديمة ، حتى قيام الدول الحديثة ، كانت  
الحضارة الاسلامية في مجدها الأول ، بوتقة زمنية وجغرافية — كانت  
نقطة تقاطع ، ولحظة تاريخية مواتية ، وموعد لقاء خطير الشأن في تاريخ  
البشرية .



يلاحظ القاريء الكريم أن التوارييخ الواردة في الكتاب كلها بالتقويم الميلادي . وتحويل هذه التوارييخ الى التقسيم الهجري أمر في غاية الصعوبة ، بل ويقاد يكون مستحيلا ، ما لم يعرف الشهر واليوم الذي وقع فيه الحادث . ولمساعدة القاريء الذي يهمه الامر على القيام بنفسه بعملية التحويل أضع تحت تصرفه جداول للمطابقة بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي للتوارييخ الواردة في الكتاب ، وهي تعطي بكل دقة الفترة التي يعالجها الكتاب ( القرن الثامن - القرن الحادى عشر الميلادى ) .

( المترجم )

جدول المطابقة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن التاسع

القرن السابع القرن الثامن

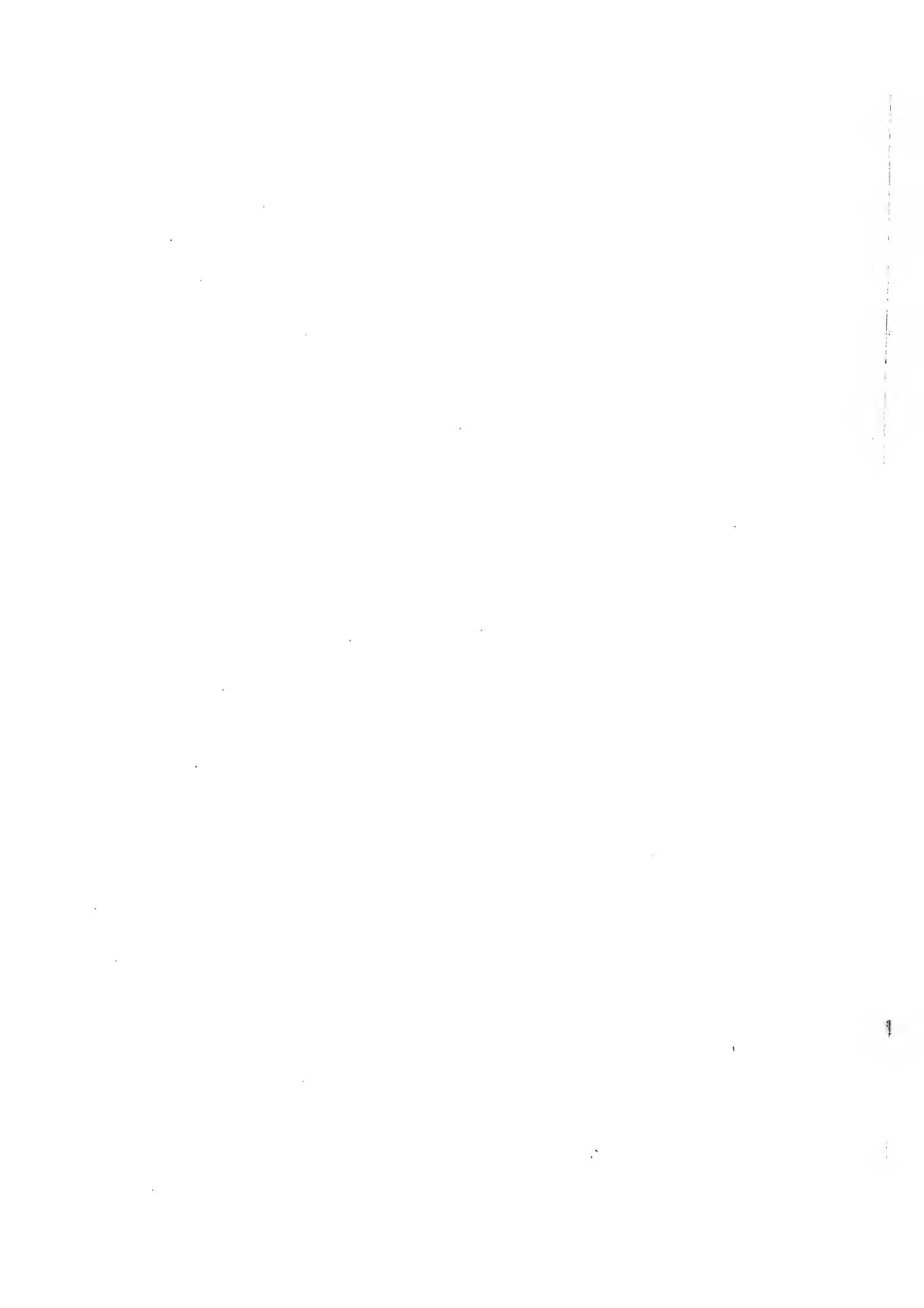
| هـ  | مـ  | هـ  | مـ  | هـ  | مـ  | هـ  | مـ  | هـ | مـ  |
|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|----|-----|
| 262 | 875 | 184 | 800 | 149 | 766 | 81  | 700 | 8  | 629 |
| 263 | 876 | 195 | 801 | 151 | 768 | 86  | 705 | 13 | 634 |
| 265 | 878 | 190 | 805 | 152 | 769 | 88  | 706 | 16 | 637 |
| 270 | 883 | 194 | 809 | 153 | 770 | 91  | 709 | 18 | 639 |
| 273 | 886 | 195 | 810 | 156 | 772 | ٤   | 711 | 21 | 641 |
| 279 | 892 | 198 | 813 | 158 | 774 | ٩٤  | 712 | 22 | 642 |
| 280 | 893 | 199 | 814 | 159 | 775 | ٩٦  | 714 | 23 | 643 |
|     |     | 201 | 816 | 161 | 777 | ١٠١ | 719 | 24 | 644 |
|     |     | 205 | 820 | 164 | 780 | ١٠٨ | 726 | 25 | 645 |
|     |     | 212 | 827 | 166 | 782 | ١١٠ | 728 | 27 | 647 |
|     |     | 214 | 829 | 167 | 783 | ١١٢ | 730 | 32 | 652 |
|     |     | 216 | 831 | 169 | 785 | ١١٣ | 731 | ٤٠ | 660 |
|     |     | 218 | 833 | 170 | 786 | ١٢٤ | 741 | ٥٠ | 670 |
|     |     | 222 | 836 | 173 | 789 | ١٣١ | 748 | ٦٦ | 685 |
|     |     | 224 | 838 | 178 | 794 | ١٣٢ | 749 | ٧٤ | 693 |
|     |     | 226 | 840 | 179 | 795 | ١٣٣ | 750 | ٧٥ | 694 |
|     |     | 228 | 842 | 180 | 796 | ١٣٤ | 751 | ٧٦ | 695 |
|     |     | 231 | 845 |     |     | ١٣٥ | 752 | ٧٧ | 696 |
|     |     | 233 | 847 |     |     | ١٣٧ | 754 | ٧٨ | 697 |
|     |     | 236 | 850 |     |     | ١٣٨ | 755 |    |     |
|     |     | 249 | 863 |     |     | ١٣٩ | 756 |    |     |
|     |     | 253 | 867 |     |     | ١٤٠ | 757 |    |     |
|     |     | 259 | 872 |     |     | ١٤٤ | 761 |    |     |
|     |     | 254 | 868 |     |     | ١٤٥ | 762 |    |     |
|     |     | 257 | 870 |     |     | ١٤٦ | 763 |    |     |
|     |     | 259 | 872 |     |     |     |     |    |     |

جدول المطابقة بين التقويم الميلادي والهجري

القرن الحادى عشر وما يليه

القرن العاشر

| هـ   | مـ   | هـ  | مـ   | هـ  | مـ  | هـ  | مـ  |
|------|------|-----|------|-----|-----|-----|-----|
| 720  | 1328 | 398 | 1007 | 361 | 971 | 288 | 900 |
| 786  | 1384 | 401 | 1010 | 362 | 972 | 290 | 902 |
| 919  | 1513 | 405 | 1014 | 366 | 974 | 291 | 903 |
| 921  | 1515 | 411 | 1020 | 367 | 976 | 293 | 905 |
| 963  | 1555 | 416 | 1025 | 368 | 977 | 296 | 908 |
| 1032 | 1622 | 422 | 1030 | 369 | 978 | 297 | 909 |
| 1306 | 1888 | 427 | 1035 | 337 | 979 | 298 | 910 |
| 1380 | 1960 | 428 | 1036 | 380 | 987 | 300 | 912 |
| 1391 | 1971 | 539 | 1044 | 384 | 990 | 301 | 913 |
|      |      | 440 | 1048 | 386 | 994 | 303 | 915 |
|      |      | 439 | 1047 | 387 | 996 | 315 | 917 |
|      |      | 446 | 1054 | 389 | 997 | 320 | 932 |
|      |      | 447 | 1055 | 389 | 999 | 324 | 935 |
|      |      | 449 | 1057 |     |     | 325 | 936 |
|      |      | 452 | 1060 |     |     | 325 | 940 |
|      |      | 453 | 1061 |     |     | 329 | 942 |
|      |      | 461 | 1068 |     |     | 331 | 943 |
|      |      | 468 | 1075 |     |     | 332 | 944 |
|      |      | 470 | 1077 |     |     | 333 | 945 |
|      |      | 475 | 1082 |     |     | 334 | 946 |
|      |      | 478 | 1085 |     |     | 335 | 948 |
|      |      | 482 | 1089 |     |     | 337 | 949 |
|      |      | 487 | 1094 |     |     | 338 | 954 |
|      |      | 539 | 1144 |     |     | 343 | 961 |
|      |      | 561 | 1165 |     |     | 348 | 962 |
|      |      | 567 | 1171 |     |     | 350 | 967 |
|      |      | 642 | 1244 |     |     | 367 | 968 |
|      |      |     |      |     |     | 358 | 970 |
|      |      |     |      |     |     | 360 |     |



## فهرست عام للأعلام

حرف الالف :

- ابرة ( نهر ) 111 – 100
- ابرة ( المدينة ) 211
- ابلة 62
- اتل ( مدينة ) 345 – 344
- اثيوبيا 249
- اجادير 102
- اجسطين ( سانت ) 145 – 83
- احمد ( بن طولون ) 295 – 173
- اخلاط 51
- ادريس ( الاول ) 109
- ادريس ( الثاني ) 109
- الادرياتيك ( بحر ) 348
- اذربيجان 51 – 343 – 341 – 55 – 52
- اران 55 – 52 – 51
- ارال ( جبال ) 262 – 261 – 163 – 136
- ارل 294
- اروبا 357 – 348 – 347 – 326 – 308 – 292 – 250
- ارغانة 267
- ارمينيا – 187 – 165 – 163 – 63 – 52 – 51 – 50 – 44 – 41
- 317 – 308 – 305 – 292 – 287 – 267 – 261 – 229 – 191 . 327

اريسطوطاليس 286  
الأردن 43  
ارشغول 108  
ازيلة ( أصيلا ) 102  
اسبانيا 15 – 15 – 95 – 94 – 89 – 85 – 80 – 19 – 18 –  
· 326 – 306 – 300 – 146 – 134 – 121 – 17 – 116 – 113  
اسحاق الموصلي 126  
اسفى ( الميناء ) 102  
اسطراخان ( مدينة ) 345 – 344 –  
الاسكندر ( الكبير ) 353  
اسكندنواة 21  
الاسكندرية 19 – 19 – 157 – 110 – 95 – 34 – 33 – 22 –  
· 348 – 334 – 316 – 310 – 308 – 307 – 278 – 224 –  
اسماعيل بن احمد 71  
اسوان 32 – 35 –  
اسپيرامنتو ( جبال ) 131  
اشبونة ( لشبونة ) 211  
اشبيلية 19 – 19 – 123 – 121 – 115 – 111 – 107 – 102 – 22 –  
· 350 – 243 – 211 – 124 –  
اشير 107  
اصفهان 64  
اطرابزوندة ( مدينة ) 340 – 339 – 338 – 319 – 52 – 51 –  
اطلس ( جبال ) 185 – 102 – 87 – 83 –  
اطنه 202  
اغمات 165 – 102 – 87 – 83 –  
افريقيا الشمالية 10 – 18 – 19 – 28 – 78 – 79 – 80 – 85 – 89 –  
· 242 – 251 – 263 – 267 – 94 – 182 –

- افينيون ( مدينة ) 258  
 اكتزيغون ( مدينة ) 12 – 46 – 64 – 192 – 227 .  
 الالطاي ( جبال ) 136 – 163 – 261 – 262 .  
 الالب ( جبال ) 257 – 264 – 291 – 248 – 348 .  
 الایلب ( نهر ) 118 – 128 .  
 المانيا 128 – 131 – 347 .  
 امالفي 133 – 348 .  
 امريكا اللاتينية 161 – 164 .  
 ام ربيع ( نهر ) 270 .  
 امريكا ( الشمالية ) 279 .  
 اموداريا – راجع : جيحوون .  
 الامين ( بن هارون الرشيد ) 231 .  
 الانتيل ( جزر ) 256 .  
 انجلترا 349 .  
 الاندلس 10 – 117 – 116 – 111 – 100 – 97 – 19 – 12 .  
 . 118 – 119 – 120 – 123 – 132 – 146 – 211 – 300 .  
 اندنوسيا 149 – 325 .  
 انطاكيه 22 – 45 – 157 – 183 – 201 – 243 – 274 – 348 – 350 .  
 الاهواز 195 – 319 – 344 – 224 .  
 او دغست 334 – 335 .  
 او راس ( جبال ) 83 – 104 .  
 او ليلي 108 – 109 .  
 او رجانش 293 – 328 – 329 .  
 او كا ( نهر ) 345 .  
 او ریسا 349 .  
 ایران 10 – 14 – 19 – 28 – 41 – 44 – 45 – 46 – 48 – 49 – 51 .  
 ایران 165 – 184 – 191 – 229 – 245 – 268 – 269 .  
 ایران 52 – 55 – 56 – 57 – 63 – 64 – 66 – 67 – 69 – 70 – 79 – 159 .

أيرلندا 399

إيستيري ( جبال ) 264 – 259 – 257

إيطاليا 306 – 299 – 285 – 278 – 250 – 233 – 134 – 131 – 349 – 315 – 308

### حرف الباء :

باب الأبواب 341 – 292 – 52 – 51

باليون 204 – 203

بابك ( الثئر ) 228

بالس 71 – 57 – 45

بارز جاد 63

البرز ( جبال ) 255 – 55 – 53 – 52

باري 308 – 348

باريس 194 – 175

بامير 279 – 196 – 56 – 55

باميان 56

بتليس 50

بجية 357 – 355 – 108 – 101 – 95 – 93

بجة ( نونس ) 241

البجة ( النوبة ) 249

البحرين 241

بخاري 293 – 198 – 197 – 76 – 74 – 72 – 71 – 57 – 48  
· 350 – 328 – 295

براه 331

بدر الجمالي 319

البرير 93 – 84 – 83 – 81 – 79 – 18 – 17 – 13 – 12 – 10 – 9  
· 153 – 149 – 121 – 120 – 119 –

براغ ( مدينة ) 345 – 294

براوة 332  
 برذعة 52 – 53 – 344 – 341  
 البرز ( جبال ) 52 – 53 – 255  
 برشلونة 117 – 128 – 134  
 بردی ( نهر ) 200  
 برقة 11 – 241 – 242 – 247 – 255  
 برکوب 45  
 برمکا 56  
 برنديزی 348 – 349  
 بريطانيا 349  
 ابن سام 125  
 بسکونه ( جلیج ) 112 – 348 – 349  
 البشرات ( جبال ) 212  
 البصرة 29 – 32 – 40 – 62 – 64 – 66 – 169 – 170 – 189  
 بغداد 22 – 29 – 30 – 31 – 32 – 40 – 49 – 51 – 57 – 60  
 بلخ 48 – 50 – 51 – 56 – 58 – 79 – 197 – 299 – 327 – 344  
 بلیس 34  
 بلکین ( بن زیری ) 101 – 107  
 البلعومی ( ابو علی ) 87  
 بلغاریا ( البلد ) 344  
 بلغار ( المدنة ) 68 – 147 – 293 – 328 – 329 – 339 – 344

- الـ طيق 21 – 347 – 342 – 328 – 326 – 291 – 151  
 بلر 22 – 353 – 270 – 218 – 217 – 133 – 131  
 بندسية 121 – 295  
 بلـين 31  
 بلوخستان 51  
 بومبـاي 78  
 بوـيه ( بنـو ) 72  
 الـ بونـت ( مـملـكة ) 255  
 بورـسعـيد 350  
 الـ بـنـدقـيـة 134 – 299 – 299 – 294 – 279 – 259 – 247 – 167  
 – 394 – 348 – 347 – 440  
 الـ بـيرـينـير ( جـبال ) 291  
 الـ بـيرـينـير . ( جـبال ) 291  
 بـيرـريـبولـيس 63  
 بـيت رـاس 245

### **حرف الناء :**

- تـاجـو ( نـهـر ) 261  
 تـادـلـة 270  
 تـافـيلـات 164 – 336 – 335 – 338  
 تـازـا 108 – 104  
 تـالـاس 71  
 تـبرـيز 52  
 تـبـسـة 240  
 التـبـت 64 – 226  
 تـدـمـر 202 – 336  
 تـركـستان 262 – 271 – 284 – 291

- تستري ( الاخوة ) 225  
 التشاد 128  
 تعطيلة 111  
 تقربيت ( جبل ) 107  
 تناري ( معدن الملح والقرية ) 281 - 335 - 338  
 التكرور ( بلاد ) 335  
 تكريت ( جزيرة ) 40  
 تلمسان 108  
 تل مهري 220  
 تبكتو 130  
 تنيس ( نهر ) 344  
 تنس ( المدينة ) 101  
 توذر 337  
 توستار 186  
 تونس 15 - 101 - 100 - 98 - 95 - 94 - 83 - 22 - 241 - 248 - 251  
 تماثشان 263  
 تيزى نتلاغمت 88  
 تيزى نتؤويت 88  
 تيمس 79  
 تيمورلنك 59  
 تيهرت 78 - 335 - 324 - 105 - 88

### حرف الشاء :

ثيودور ( الراهب ) 218

**حرف الجيم :**

- جایت 288  
الجبال 63 – 64  
جبل طارق 19 – 130 – 128 – 124 – 116 – 102 – 94 – 19 – 365 – 350 – 306  
جدة 27 – 29  
جربة ( جزيرة ) 322  
جرجان 72 – 344 – 341 – 343 – 228  
الجريدة 88 – 270 – 240 – 164 – 100  
جزولة 122  
الجزرات 78  
جاوة 288  
جعفر البرمكي 283 – 285  
جنديسابور 286 – 287  
جوا 299  
جوهر الصفي 92 – 315  
الجیلان 53  
جيحون (نهر) 51 – 56 – 57 – 326 – 327

**حرف العاء :**

- حاسدي بن شروط 117 – 118  
الحبشة 306 – 30 – 29  
الحجاج ( بن يوسف ) 190  
الحجاز 28 – 191 – 249  
حرمون ( جبل ) 43  
حران 270  
حسان ( بن النعمان ) 98  
حضرموت 249

الحكم ( الثاني ) 145 – 213  
حلب 270 – 350  
حمة 201  
حمص 201  
ابن حوقل 133 – 217 – 243 – 337

#### حرف الخاء :

الخابور 270  
خانقور 333  
خراسان 28 – 64 – 63 – 60 – 56 – 55 – 51 – 50 – 48 – 195 – 190 – 186 – 175 – 144 – 127 – 75 – 73 – 71 – 67  
• 328 – 327 – 295 – 246 – 229 – 228 – 223  
الخزر (مدينة) 344  
ابن خرداذبة 53 – 64 – 341 – 314 – 313 – 294 – 168 – 65 – 356 – 343  
خسرو ( ناصري ) 36 – 93  
ابن خلدون ( عبد الرحمن ) 84  
خليج أمير المؤمنين 203  
خمدان ( نهر ) 327  
خوزستان 39 – 40 – 51 – 65 – 275 – 285 – 293 – 311  
دوخوية ( المستشرق ) 314

#### حرف الدال :

دالماتيا 227 – 259  
داغستان 263  
الدانوب ( نهر ) 293 – 294 – 345  
داتية 295

دجلة ( نهر ) 19 – 200 – 191 – 190 – 187 – 50 – 41 – 40 –  
 259 – 240 – 201  
 دمشق 14 – 176 – 175 – 170 – 166 – 121 – 45 – 43 – 30 – 28 –  
 355 – 344 – 277 – 265 – 247 – 208 – 190 – 184  
 دمياط 33 – 276 –  
 الدون (نهر) 292 – 341  
 الدنير (نهر) 292 – 341 – 342  
 دياربكر 40  
 الديام 53 – 86 – 72 – 55 –  
 ديالي (وادي) 48 – 51  
 الديبول 59

#### حرف الراء :

راتسبيون (مدينة) 294  
 راش جالوت 139 – 211  
 رأس بونه 131  
 الراين (نهر) 293 – 316 – 346  
 الرباط (مدينة) 102  
 رقادة 209  
 الرصافة (الأندلس) 214  
 الرملة 344  
 روما 13 – 14  
 روسيا 295  
 روسانو 308  
 الرون (نهر) 117 – 267 – 293 – 299 – 307 – 314

ريو برباد 120

رينان 264 - 347 - 294 -

الري 51 - 350 - 72 - 70 - 64 - 53 -

### حرف الزاي :

زارانج 60 - 298

ربيد 30 - 298

زراد شترا 197 - 290

زرياب ( المفنى ) 126

الرط 38 - 230 - 229

زغروس ( جبل ) 37 - 63 - 61 -

زناتة 91 - 108 - 124

زنجان 51 - 53

زنجبار 331

زيادة الله ( الأغلبي ) 131

الزهراء ( مدينة ) 92 - 278 - 276 - 216 - 215 - 214 - 177 -

زير ( وادي ) 336 - 335

الزيلع 298

### حرف السين :

سامان ( مدينة ) 71

ساحل الذهب ( غانة ) 262

سبتم ( سبت ) 79 - 102

سبتانيا 117 - 120 -

سبو ( نهر ) 109

سجستان 58 - 60 - 59 - 70 -

سجل ماسة 88 – 167 – 164 – 129 – 110 – 92 – 335 – 91 –  
338 – 336 – 335 – 323 – 321 – 299 – 207  
سدراته 88 – 106 – 93  
سر قسطة 100 – 211 – 124 – 111  
سرقوسة 131  
سر من رأى 184 – 208 – 194 – 296  
سررت 95  
ابن سعيد (علي) 122 – 330  
سطيف 242  
سكيكدة 101  
سفالة 164  
السفاح (أبو العباس) 45 – 190  
سفاقس 243 – 277  
سلرن 133 – 348 – 286  
سلع 41 – 336  
سليم (بنو) 28  
سمور قند 23 – 295 – 282 – 198 – 197 – 72 – 71 – 66 – 48  
350 – 349 – 328 – 299  
السند (البلد) 221 – 326 – 327 – 343  
السند (النهر) 39 – 59 – 60 – 327  
السيفال 128 – 336 – 335 – 334 – 281 – 262  
السودان 19 – 251 – 299 – 249 – 92 – 85 – 83  
سورية 10 – 14 – 38 – 36 – 34 – 31 – 29 – 28 – 27 – 19 – 41  
44 – 45 – 55 – 64 – 66 – 79 – 81 – 96 – 108 – 119  
137 – 157 – 184 – 199 – 214 – 285 – 294 – 301 – 317  
319 – 331  
السوس الاقصى 87 – 110 – 118 – 270 – 335 – 336 – 344  
سوسة 97 – 100

- سوق حمزة ( البويرة ) 109  
 السويدية 201  
 سوينان 269  
 سيبيريا 329  
 سيدونة 121  
 سيراف 60 - 62 - 72  
 السيلت ( بلاد ) 349  
 سيلان 222 - 280 - 332  
 سيلوسي 192  
 سيمون سنيث 286  
 سيناء ( صحراء ) 11 - 12 - 28  
 سييرا نيفادا 122  
 سييرا المادن 122

### **حرف الشين**

- الشارات ( جبل ) 263  
 الشراس ( مملكة ) 269  
 الشاش 166 - 295 - 327  
 شرشال 101  
 شرلان 15 - 94 - 208  
 الشمبان ( ولاية ) 264 - 357  
 شهرستان 48 - 49 - 192 - 199  
 شيراز 51 - 60 - 62 - 63

### **حرف الصاد**

- الصاوم ( نهر ) 293 - 307 - 314  
 صبرة المنصورة 104 - 209

**الصقالبة (بلاد) 68**

صقلية ( جزيرة ) 130 – 100 – 95 – 94 – 86 – 79 – 19 – 10  
222 – 211 – 207 – 178 – 146 – 134 – 133 – 132 – 131  
– 281 – 272 – 270 – 255 – 247 – 276 – 242 – 232  
344 308 – 301 – 287 – 285  
الصند (جزر) 332  
صنهاجة 17 – 89  
الصومال 30  
صورا 201 – 278  
صيدا 201 – 222 – 278  
الصين 52 – 250 – 221 – 151 – 142 – 84 – 70 – 69 – 56  
330 – 329 – 328 – 327 – 325 – 284 – 271 – 270 – 252  
359 – 354 – 352 – 344 – 333 – 332

**حرف الطاء**

طارنت 349  
الطائف 27  
طانج (مملكة) 70  
طارق ( بن زياد ) 120  
طاهر ( بن الحسين ) 75  
طبرستان 53 – 293 – 76 – 71 – 71  
طبلة 106  
طبرية 307  
طخارستان 69  
طرابلس ( الغرب ) 992 – 259 – 255 – 201 – 91 – 88  
طرقونة 117  
طرطوشة 100 – 348 – 165 – 111 – 100  
طريف ( جزيرة ) 120

طليطلة 265 – 309  
طهران 51  
طوس 56 – 71 – 76  
طوروس 202 – 270  
الطوارق 50  
ابن طولون 206 – 290 – 296

### حرف العين

ال العاص ( نهر ) 230 – 254  
العباس بن فرناس 279  
العباس ( بنو ) 48 – 55 – 171 – 190 – 283 – 311 – 315  
العباسية 208  
عبد الرحمن ( الرستمي ) 78 – 91  
عبد الرحمن ( الاول ) 125 – 214  
عبد الرحمن الثالث 118 – 178 – 214 – 225 – 289  
عبد الملك ( الخليفة ) 28 – 168 – 169 – 204  
عبد العزيز ( بن مروان ) 171  
عبدان 62  
عبد الله ( المهدى ) 99  
عدن ( مدينة ) 222 – 299  
العراق 10 – 14 – 29 – 38 – 40 – 108 – 156 – 229  
عربستان 195  
عسقلون 245 – 349 – 350  
العسكر ( مدينة ) 204  
عقبة ( بن نامع ) 87 – 103 – 207  
العلويين ( جبل ) 256

علي ( بن أبي طالب ) 169  
عمان ( بعر ) 59 — 141  
عمان ( البلد ) 27 — 60 — 249  
عمر ( بن الخطاب ) 172 — 189  
عمر و ( بن العاص ) 204  
عنابة 281  
عيذاب 332 — 350

### حرف الفين

غانة 334 — 335  
غدامس 87  
غرناطة 117 — 122 — 120 — 118 — 257  
غزنة 51 — 69 — 247  
الغوضة 43

### حرف الفاء

فاس 22 — 86 — 88 — 75 — 71 — 64 — 63 — 62 — 61 — 52 — 210  
فارس 61 — 184 — 129 — 110 — 108 — 71 — 63 — 62 — 357 — 355 — 350 — 322  
الفرات ( نهر ) 19 — 41 — 40 — 37 — 241 — 190 — 185 — 243  
فرنسا 240 — 285  
الفردوسي 48 — 118 — 144  
فرساي 194  
الفسطاط 11 — 32 — 33 — 104 — 184 — 185 — 202 — 203  
— 207 — 208 — 222 — 277 — 282 — 290 — 333 — 348  
فردان 294 — 314  
350

فرغاته 66 – 295 – 73 – 71 – 70 –

الفرما 222

فلسطين 311 – 307 – 255 – 166 – 138 – 137

فلاندر 357

الفولجا (نهر) 328 – 327 – 293 – 292 – 291 – 68 –

فولوبيليس 86 – 82 –

### حرف القاف

قابس 100 – 116 – 272

قادس 79 – 124 – 211

القاهر 203 – 175 – 163 – 93 – 32 – 30 – 29 – 22 –

357 – 355 – 350 – 315 – 258 – 225 – 224 – 206

قاطنون 70 – 332 – 147 – 333

قبرص (جزيرة) 271 – 270 – 166

القدس 45 – 348 – 308 – 307 – 201

قرطاجنة (إسبانيا) 259 – 241 – 116 –

قرطاجنة (تونس) 263 – 145 – 132 – 98 – 86 – 79 – 13 –

– 277

قرطبة 112 – 110 – 104 – 102 – 93 – 79 – 23 – 22 – 19

– 126 – 125 – 124 – 119 – 117 – 116 – 115 –

214 – 213 – 112 – 211 – 185 – 177 – 133 – 128 – 127

– 334 – 306 – 295 – 290 – 289 – 216 –

قوسين (بحر) 156 – 72 – 71 – 68 – 53 – 52 – 51 – 21 –

– 327 – 326 – 308 – 305 – 293 – 292 – 227 – 228

– 350 – 344 – 342 – 329 – 328

القرم (جزيرة) 66

قططون 121

القسطنطينية 306 – 172 – 157 – 147 – 132 – 14 – 12 – 9 –

• 346 – 341 – 339 – 338 – 319 – 308

- قسنطينة 241 – 263  
 قصر ابي داتس 349 – 299 – 211 – 120 – 112 – 102  
 قصر مسموده 102  
 القطايق 32  
 القل 281  
 القلزم ( بحر ) 350  
 قلعة بنى حماد 357 – 355 – 108 – 107  
 قنادة السويس 28 – 29  
 قندبیسل 58  
 قنسرین 272 272  
 قندھار 58 – 52 – 51  
 قوص 32  
 قوصرة ( جزيرة ) 131  
 القوقاز 19 – 263 – 262 – 261 – 163 – 51  
 قوریة 111  
 القیروان 22 – 105 – 104 – 103 – 100 – 99 – 92 – 357 – 355 – 350 – 336 – 315 – 208

### **حرف الكاف**

- کبل 327 – 36 – 72 – 344  
 کازان ( مدينة ) 344  
 کافور ( الاخشیدي ) 290  
 کاوکاو ( جاو ) 336  
 کتامة 145  
 الکتش 58 – 196  
 الکربیات ( جبال ) 345  
 کرستان 50

كرمن شاه 64 – 51  
كريت ( جزيرة ) 110  
كرمان 59 – 60 – 70 – 61  
كريستنسن 75  
كسرى ( انوشرونان ) 76  
كشغرية 68  
كشمیر 330  
تنومبو ( المدينة ) 222  
الكتنج ( نهر ) 144  
الكوفة 11 – 200 – 190 – 189 – 37 – 29  
كيش ( ميناء ) 344 – 327 – 299 – 72 – 62 – 60

### حرف اللام

لاموس 440  
لانجدوك 349 – 348 – 326 – 325 – 307 – 120  
لبنان 43  
لشبونة 349 – 299  
لومبار ( مورنيس ) 7 – 6 – 3  
لورستان ( جبل ) 50 – 37  
ليون ( اردون ) 115  
ليون ( مدينة ) 314 – 294 – 117  
لويس ( سانت ) 100

### حرف الميم

المؤمن ( الخليفة ) 231 – 229 – 171 – 119 – 73 – 71 – 36  
ماركوبولو 61  
مساة 102

- مالطة 146 - 246  
 مالقة 116 - 211 - 124 - 121 - 240 - 247  
 المادن ( مدينة ) 164  
 مالي 67  
 ماليزيا 167 - 267 - 333  
 مايورقة 278  
 مابينص ( مدينة ) 328  
 مجردة ( نهر ) 241  
 محمد صلى الله عليه وسلم 11 - 27  
 محمد ( بن عبد الرحيم ) 37  
 محمد بن القاسم ( الثقفي ) 59  
 محمود الغزنوي 77  
 مخلد ( أبو يزيد ) 92  
 المدينة ( المنورة ) 27 - 29 - 31 - 188 - 289  
 مدينة سالم 111  
 مدغشقر 326 - 331  
 مراكش 88 - 110 - 130 - 210  
 مرسى الخرز 81 - 331  
 مرسيبة 115  
 مسرو 48 - 51 - 58 - 65 - 72 - 327  
 المرية 111 - 124 - 128 - 211 - 212 - 245 - 348  
 مزندران 53  
 مزغان 102  
 المسعودي 70  
 أبو مسلم ( الخراساني ) 228  
 مشهد 57

— 38 — 35 — 34 — 33 — 32 — 31 — 27 — 19 — 14 — 10 مصر  
— 119 — 110 — 108 — 100 — 99 — 92 — 79 — 73 — 63 — 40  
— 199 — 175 — 171 — 163 — 157 — 150 — 143 — 132 — 127  
319 — 285 — 247 — 233 — 209 — 203 — 202  
مصيصة 202  
معاوية 35  
المعتصم (العباسي) 296 — 295 — 229 — 194 — 172 — 73  
المعتمد (العباسي) 194  
المغرب (الاقصى) 108 — 102 — 96 — 94 — 87 — 83 — 80 — 50  
285 — 267 — 254 — 242 — 241 — 167 — 129 — 118 — 110  
344 — 309 — 299  
المغرب الاوسط 105 — 86 — 80  
المقدسي (الجغرافي) 201  
المقطم (جبل) 203  
ابن المقفع 76  
مکران 40 — 59  
مکناس 79 — 243  
مكة 27 — 336 — 318 — 188 — 140 — 31 — 29 — 27  
مبمار 326 — 257 — 167 — 59  
المليان 59  
مليانة 107  
ممبصہ 332 — 331  
المنصور بن أبي عامر 216  
المنصور (بن نوح) 76  
منغوليا 20  
المنصور (ال الخليفة العباسي الثاني) 190 — 192  
المنصور (الفاطمي) 225  
المهدية 92 — 95 — 99 — 257 — 259

الورد 264 – 293 – 316

الموصل 40

مونبيلي 286

موسى (بن ميمون) 119

### حرف النون

نابلي 133 – 348

نابوشدونومر 305

نجد 28 – 249

نربونة 111 – 347 – 314 – 309 – 294 – 147 – 117

نصر (الثاني) 75

نفوسة (جبل) 83 – 91

النوبة 93 – 249

نوح (الاول) 77

نوح (الثاني) 77

نوجن 264

نولطة 88 – 336 – 335 – 323

نوميديا 250

نوفوجرود (مدينة) 345

نون (نهر) 336

نهانوند 49

نهر عيسى 45 – 350 – 241 – 193 – 191 – 190

نيسبور 56 – 327 – 72 – 62 – 60 – 57

النيل 19 – 280 – 274 – 403 – 143 – 35 – 33 – 32 – 31

350 – 332 – 298

### حرف الهاء

هارون الرشيد 178 – 284 – 231 – 228 – 194

هرة 51 - 64  
 هرمز 60 - 62  
 هشام (الثاني) 213  
 هلال (بني) 16 - 128 - 145  
 هملاتا 330  
 الهند 52 - 150 - 149 - 84 - 72 - 62 - 58 - 56 - 196  
 الهند الصينية 325 - 333  
 هنین (ميناء) 108  
 هوازان 137  
 هيبيليس 79  
 هييت 40  
**حرف الواو**  
 وادي الدملة 122  
 وادي العاص 201  
 وجدة 210  
 ورجلة 88 - 299 - 207 - 164 - 106 - 93  
 وهران 101

**حرف الياء**  
 بشرب 27  
 يحيى البرمكي 73  
 يزيد (بن حاتم) 103  
 يعقوب (بن كلس) 315  
 يعقوب بن الليث 60 - 76  
 يعقوب (أبو يوسف) 139  
 اليمن 27 - 306

## فهرست الرسوم والخرائط

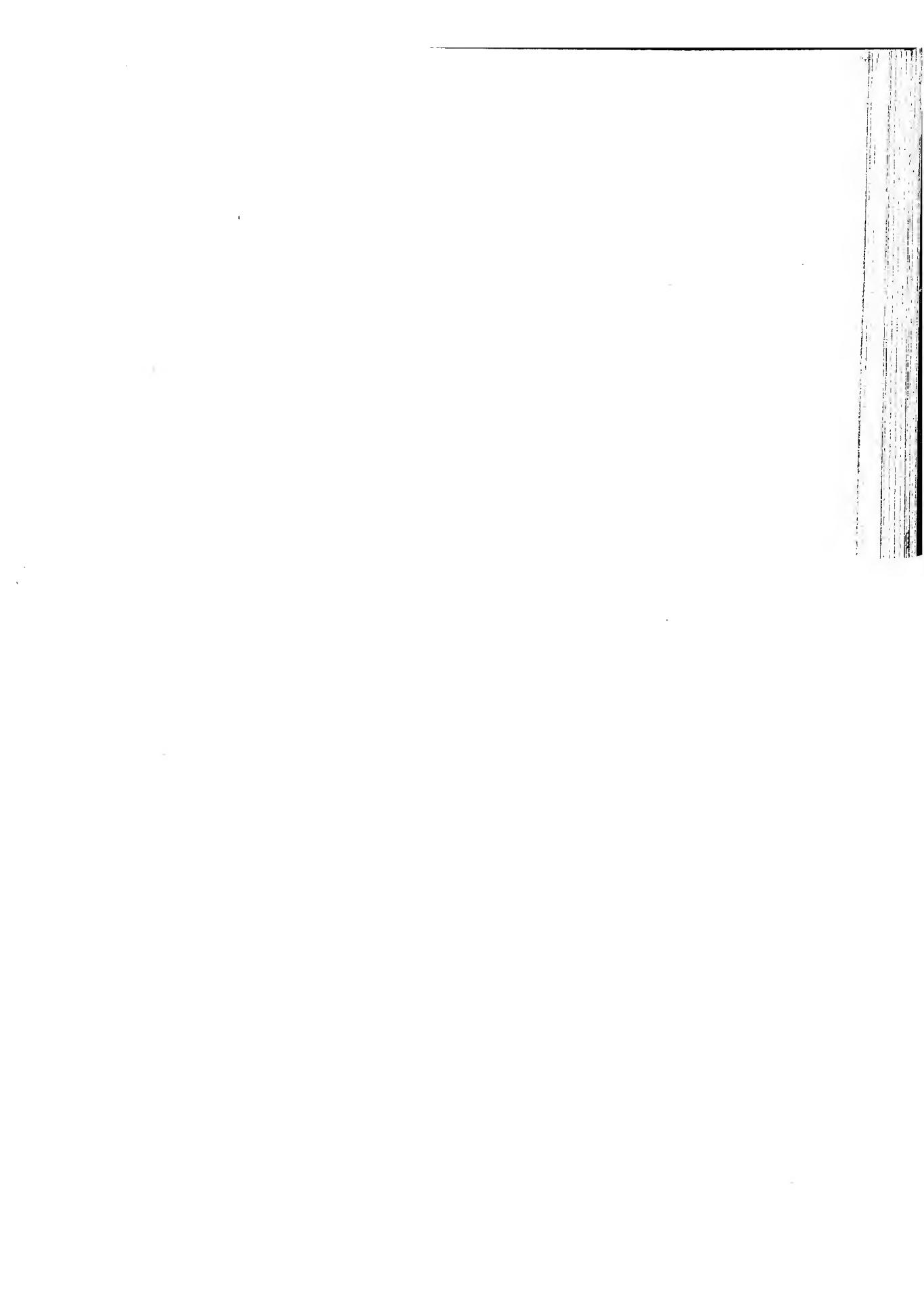
صفحة

- الشكل رقم 1 : الاراضي المصرية 36  
» 2 : اراضي ما بين النهرين 42  
» 3 : الاراضي الايرانية 54  
» 4 : الاراضي المغربية تحت الدول الاسلامية 90  
» 5 : طريق التجارة والنفوذ في المغرب ( المقرن 8 - 11 ) 106  
» 6 : الاراضي الاسپانية 112  
» 7 : الحالة اللغوية قبل الفتح الاسلامي 135  
» التبادل النقدي خداعة الفتح الاسلامي عملة التجارة العالمية : منطقتان نقديتان 160  
» 9 : دهب السودان 176  
» 10 : التيارات النقدية عقب الفتح الاسلامي 179  
» 11 : معنى تطور عمران المدن بعد قيام العالم الاسلامي 188  
» 12 : بغداد 193  
» 13 : المساحة المقارنة لعواصم العالم ( القرن 9 - 11 ) 195  
» 14 : الفسطاط / القاهرة 205  
» 15 : قرطبة 213  
» 16 - قرطبة : ازدهار عمران المدن 215  
» 17 : تجارة الزيتون في البحر الابيض الاسلامي 244  
» 18 : انتقال أنواع الحيوانات وتكيفها 252  
» 19 : تموين العالم الاسلامي بالخشب 255

|     |   |   |
|-----|---|---|
| 264 | » 20 : انتقال حديد افريقيا الشرقية وفولاذ الهند                       | » |
| 296 | » 21 : التجارة في الرقيق الصقلبي                                      | » |
| 297 | » 22 : التجارة في الرقيق التركي                                       | » |
| 298 | » 23 : التجارة في الرقيق الأسود                                       | » |
| 320 | » 24 : مراحل طرق تجارة اليهود الرادانيين                              | » |
| 322 | » 25 : تجارة أرمينية  | » |
| 323 | » 26 : تجارة جماعات الخوارج   | » |
| 340 | » 27 : طرق ومراكز التجارة مع بيزنطة                                   | » |
| 342 | » 28 : التجارة في منطقة الانهار الروسية                               | » |
|     | » 29 : امتداد العلاقات التجارية                                       | » |
| 353 | » 29 : والاشتعال الاقتصادي في العالم الإسلامي                         | » |
| 356 | » 30 : مخطط عام لانقلاب القوى من القرن الرابع الى<br>القرن الخامس عشر | » |

ثبت عام في آخر الكتاب بأسماء الدول الإسلامية وعهد كل منها .

EST. LIBRARY ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية



## فهرس عام بأسماء الأشخاص والأماكن

|    |  |
|----|--|
| 1  | مقدمة الكتاب                                   |
| 9  | عرض تمهيدي                                     |
| 16 | ـ انتشار الاسلام واللغة العربية والعنصر السامي |
| 18 | ـ فضاء الفتوحات : العالم الاسلامي              |
| 26 | القسم الاول : اراضي الاسلام                    |
| 27 | الفصل الاول : منطقة البرازخ                    |
|    | ـ دور الجزيرة العربية                          |
| 31 | ـ دور مصر                                      |
| 37 | ـ بلاد ما بين النهرين وسورية                   |
| 47 | الفصل الثاني : العالم الايراني                 |
| 49 | ـ البلاد الايرانية                             |
| 55 | ـ خراسان                                       |
| 58 | ـ سجستان                                       |
| 59 | ـ مكران  |
| 60 | ـ كرمان  |
| 61 | ـ فارس   |
| 63 | ـ الجبال                                       |
|    | التخوم والطرق                                  |
| 65 | ـ ملتقى الطرق الآسيوية                         |
| 69 | ـ علاقات العالم الاسلامي بالهند                |

|     |  |
|-----|--|
| 70  | — دولة السامانيين  |
| 75  | — استمرار المضمون الحضاري الايراني                         |
| 79  | <b>الفصل الثالث : المغرب الاسلامي</b>                      |
| 80  | — افريقيا الشمالية   |
| 86  | — البلاد المغربية  |
| 91  | — الواجهة الصحراوية  |
| 94  | — الواجهة البحرية  |
| 103 | — طرق الهضاب العليا  |
| 111 | <b>: الاندلس :</b>   |
| 113 | — خلاصة التأثير الاسباني                                   |
| 120 | — الغرابة : البربر والعرب                                  |
| 124 | — التأثير الشرقي في اسبانيا : قرطبة                        |
|     | <b>الفصل الرابع : الوضع اللغوي :</b>                       |
| 135 | — العامية والعربية الفصحي                                  |
| 147 | — لغة التجارة  |
| 153 | <b>القسم الثاني : قمة نظام النقد الاسلامي وعمران المدن</b> |
| 155 | <b>الفصل الخامس : مشكلات النقد</b>                         |
| 161 | — معادن النقد في العالم الاسلامي                           |
| 168 | — الضرب وتداول النقد                                       |
| 181 | <b>الفصل السادس : ازدهار العمارة في المدن والاستهلاك</b>   |
| 184 | — حركة العمارة   |
| 185 | — امبراطورية الساسانيين                                    |
| 199 | — ممتلكات بيزنطة القديمة                                   |
| 119 | <b>الفصل السابع : تنظيم العمل والحركات الاجتماعية</b>      |
| 220 | — طبقة التجار  |

|     |  |
|-----|--|
| 226 | - الضعفاء اقتصاديا في المدن والارياف                     |
| 235 | <b>الفصل الثامن : الانتاج وسلع التبادل التجاري</b>       |
| 238 | - النباتات الفدائية                                      |
| 248 | - تربية الحيوانات  |
| 255 | - الخشب ومنتجات الغابات                                  |
| 268 | - الاقمشة  |
| 260 | - المعادن  |
| 276 | - منتجات الحجر والارض                                    |
| 280 | - منتجات البحر   |
| 283 | - دعامة الكتابة  |
| 285 | - المنتجات الطبية  |
| 288 | - الرقيق   |
| 303 | <b>القسم الثالث : تيارات التبادل التجاري</b>             |
|     | <b>الفصل التاسع : التبادل التجاري في العالم الاسلامي</b> |
| 305 | - الوسطاء اليهود   |
| 317 | - الوسطاء المسلمين والمسيحيون                            |
| 325 | - تيارات التبادل التجاري                                 |
| 326 | - الواجهة الشمالية الشرقية                               |
| 329 | - الواجهة الجنوبية الشرقية                               |
| 333 | - الواجهة الجنوبية الغربية                               |
| 338 | - الواجهة الشمالية الغربية                               |
| 353 | - مكانة مصر الاسلامي في التاريخ                          |
| 358 | - جدول المطابقة بين التواریخ الميلادية والهجرية          |
|     | - فهرست الاعلام  |
|     | - فهرست الرسوم والخرائط                                  |

**مجلة المحام**

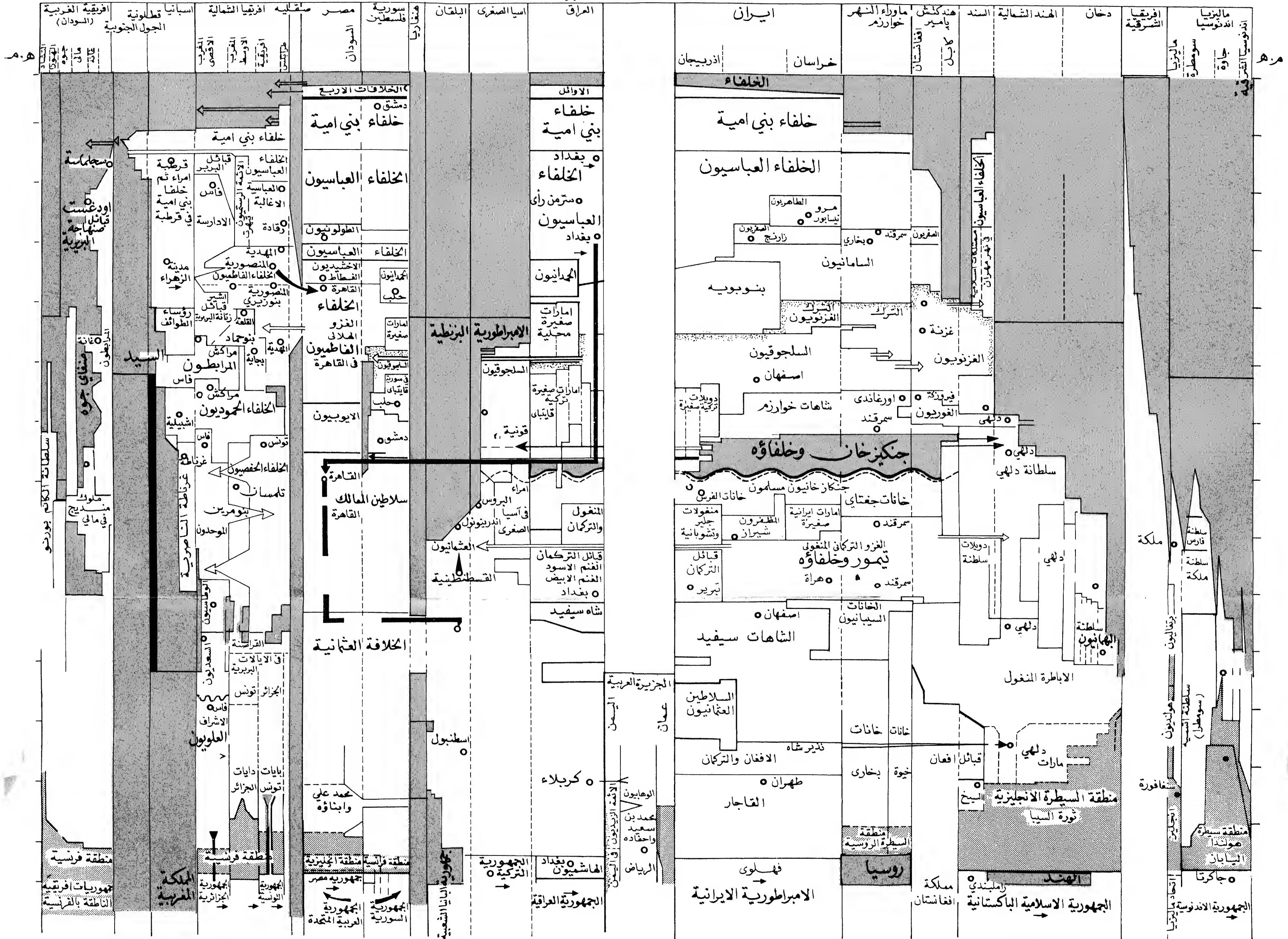
العدد السادس

الإيداع القانوني رقم 1990/903



# المـالـد الـاسـلامـيـة وـمنـاطـقـه

يحيط  
الأرض



## هذا الكتاب

يعالج موضوع الأسس المادية التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس، فيتناول الدورة الاقتصادية كلها ويعرض صورة عامة للمواد الخام وطرق استخراجها ومعالجتها لتوزيع الانتاج الصناعي ولشبكة طرق المواصلات وبصفة خاصة طرق القوافل التي هي الشريان الذي تتدفق منه الثروة، والقنوات الأساسية للتوزيع، وذلك في الوقت الذي يعرض فيه صورة للحضارة الإسلامية في أزهى وأعظم مظاهرها، على خلفية سياسية وثقافية تشمل رقعة العالم الإسلامي كلها. والعلاقات الخارجية في داخل العالم الإسلامي نفسه (بين المشرق والمغرب والأندلس الخ). ومع بقية الكتل الدولية المعاصرة للأمبراطورية الإسلامية، تشكل سدى ولحمة هذا الكتاب.

